

الموسوعة الشامية

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



المجلد السابع والأربعون

دار الفكر

طباعة والنشر والتوزيع

لا يرفض البابا الأسقف المنتخب لعدم الكفاءة، أو بالحري حتى يبدو جديراً بمثل هذا المقام الرفيع، سعى الملك، مستخدماً جميع الوسائل التي تحت سلطانه، لرفع شأن بونيفيس المذكور، وزيادة شهرته، وهو الذي انتخب الآن، أو أنه سوف ينتخب، فأمر بكتابة ورقة، أثنى فيها على بونيفيس المذكور إلى أبعد الحدود، وكشاهد على صدقها، وضع خاتمه على تلك الكتابة المذكورة، ثم إنه أرسلها إلى الأساقفة، وإلى رعاة الدير، أمراً بإيائهم، أو بالحري رجاءهم بشكل ملكي بأن يضعوا أيضاً أختامهم عليها، وأن يكونوا شهوداً على ما أكده، وقد رفض عدد منهم — على كل حال — خرق تماسك ضميرهم، وخافوا من مخالفة أمر الرب في قوله: «أنت لن تكون شاهد زور»، ولذلك رفضوا بإصرار طاعته، وكان هناك على كل حال، بعضاً من رجال الدين من ذوي المراتب العالية، أي بعض الأساقفة ورعاة الدير، قد خافوا، وضعفوا أمام تهديدات الملك، فوضعوا جانباً خوفهم من الرب، وأظهروا احتراماً نحو الإنسان، أكثر من الاحترام نحو الرب، فوضعوا أختامهم عليها كضمانة، وشهادة على إيمانهم، ورضاهم بقبول بونيفيس ليكون رئيسهم.

ومع أنه كان من أصل نبيل، وصديقاً مقرباً من أمراء المملكتين، وهو شخصياً مكون بشكل جيد، ومؤهل بما فيه الكفاية، فقد كان رهبان كانتربري آسفين إلى أقصى الحدود، لأنهم غلبوا من قبل توسلات الملك، فوافقوا على طلبه في هذه القضية، وبعدما تفكر بعضهم في أنفسهم، وعرفوا الشقاء المخبأ لهم، انسحبوا من كنيستهم، ولكي يقوموا بتوبة دائمة، حملوا أنفسهم وانتقلوا إلى طائفة الرهبان الكارثوسيان Carthusian.

اضطهاد كونت بروفانس

أرسل في هذه الآونة، ريموند كونت بروفانس، والد ملكتي

الفرنسيين والانكليز، عدة رسل خاصين، إلى صهره ملك فرنسا، مع توسلات مستعجلة، حتى يمنحه مساعدة فعالة بحكم كونه ختنه وحليفه، لأن كونت طولوز، قد شنّ الحرب ضده، بناء على أمر من الامبراطور، وضيق عليه حتى أوصله إلى الدمار الشامل، وهو الآن مجرد تماماً من امكانيات المقاومة، حيث أنفق المال الذي أرسل إليه من ملك انكلترا، وبناء على هذا، كتب الملك الفرنسي بلطف ظاهري إلى الامبراطور، وكذلك، إلى كونت طولوز، رجاها، صدوراً عن احترامهما له وعاطفتهم نحوه، اظهار الرحمة نحو ختنه، وكتب ملك انكلترا، وأخوه رتشارد، إيرل كورنول رسائل إلى الاثنين نفسيهما من أجل هذه الغاية نفسها، وبهذه الوسائط نال كونت بروفانس، بعد وقت طويل، الهدوء، وسمح له بالتمتع به.

كيف ضايق البنادقة الإمبراطور

أضر البنادقة خلال هذا الوقت كله بعناد على إلحاق كل أذى ممكن لهم، وبكل وسيلة، يمكنهم ابداعها بالبر وبالبحر، للانتقام لرئيسهم عمدة ميلان، الذي كما ذكرنا من قبل، قد أسره الامبراطور، أثناء قتاله ضد ميلان، والذي بعدما أودع السجن، أدين، وأعدم بناء على أوامر الامبراطور.

يقظة الإمبراطور في الدفاع عن نفسه ضد أعدائه المتنوعين

واستولى في هذه الآونة الامبراطور فردريك بالقوة على مدينة فيانزا، وهي التي وقعت تحت الحصار لمدة طويلة، والتي باتت الآن غير قادرة على متابعة الصمود، واستمر الحصار لحوالي السنة، وقد أنفق الامبراطور مبلغاً كبيراً من المال عليه، آه، أي قلق، وأية اضطرابات مضاعفة أثرت على دماء قلب الامبراطور، في الدفاع عن امبراطوريته لأنه امتلك ستة جيوش كبيرة وكثيرة التعداد ومرعبة، وقد قاد هو أولها،

الفرنسيين والانكليز، عدة رسل خاصين، إلى صهره ملك فرنسا، مع
توسلات مستعجلة، حتى يمنحه مساعدة فعالة بحكم كونه ختنه
وحليفه، لأن كونت طولوز، قد شنّ الحرب ضده، بناء على أمر من
الامبراطور، وضيق عليه حتى أوصله إلى الدمار الشامل، وهو الآن
مجرد تماماً من امكانيات المقاومة، حيث أنفق المال الذي أرسل إليه من
ملك انكلترا، وبناء على هذا، كتب الملك الفرنسي بلطف ظاهري إلى
الامبراطور، وكذلك، إلى كونت طولوز، رجاها، صدوراً عن احترامهما
له وعاطفتها نحوه، اظهار الرحمة نحو ختنه، وكتب ملك انكلترا،
وأخوه رتشارد، إيرل كورنويل رسائل إلى الاثنين نفسيهما من أجل هذه
الغاية نفسها، وبهذه الوسائط نال كونت بروفانس، بعد وقت طويل،
الهدوء، وسمح له بالتمتع به.

كيف ضايق البنادقة الإمبراطور

أضر البنادقة خلال هذا الوقت كله بعناد على إلحاق كل أذى ممكن
لهم، وبكل وسيلة، يمكنهم ابداعها بالبر وبالبحر، للانتقام لرئيسهم
عمدة ميلان، الذي كما ذكرنا من قبل، قد أسره الامبراطور، أثناء قتاله
ضد ميلان، والذي بعدما أودع السجن، أدين، وأعدم بناء على أوامر
الامبراطور.

يقظة الإمبراطور في الدفاع عن نفسه ضد أعدائه المتنوعين

واستولى في هذه الآونة الامبراطور فردريك بالقوة على مدينة فيانزا،
وهي التي وقعت تحت الحصار لمدة طويلة، والتي باتت الآن غير قادرة
على متابعة الصمود، واستمر الحصار لحوالي السنة، وقد أنفق
الامبراطور مبلغاً كبيراً من المال عليه، آه، أي قلق، وأية اضطرابات
مضاعفة أثرت على دماء قلب الامبراطور، في الدفاع عن امبراطوريته
لأنه امتلك ستة جيوش كبيرة وكثيرة التعداد ومرعبة، وقد قاد هو أولها،

وكان الثاني جيشاً مزدوجاً، موجوداً في الأراضي الجنوبية، أي كان قوة بحرية، لتعرض بالقوة في البحر طريق عبور النواب البابويين والأساقفة، الذي استخفوا بنصائحه، وقوة أخرى عملت بالبر، قرب ساحل البحر، تحت قيادة ابنه هنري ملك غالوري Gallury، وتوري Torres، التي تابعت باستمرار نهب الحقول والكروم التابعة للجنوبيين، وكان هناك جيش ثالث تحت قيادة ابنه كونراد، ولي عهد مملكة القدس، الذي كان قد حشد تحت قيادته جيشاً لا يمكن تعدادده، من ألمانيا ومن المناطق المجاورة لها والخاضعة للحكم الامبراطوري، وقد أرسله ضد التتار، على أساس أن ابنه كونراد هو القائد الأعلى، غير أنه كان مرافقاً بدوقات النمسا، وسكسوني، وبافاريا، مع نبلاء آخرين، وأساقفة، وآخرين عددهم كبير جداً لا يمكن تعدادهم، وقد تبعهم حشد كبير من الناس تطوعوا لهدف واحد، وبتشوق حملوا الصليب، وكانوا مستعدين للقتال حتى الموت ضد التتار المذكورين، لصالح الكنيسة العالمية، وجرى استخدام الجيش الرابع في تخوم تريفيسو Treviso، وكان تحت قيادة ثيوبولد، الذي قيل بأنه من أصل فرنسي، وكان حليفاً خاصاً للامبراطور، وكان عمل الجيش الخامس في تخوم أنكونا ووادي سبوليتو، وكان الجيش السادس في الأرض المقدسة، تحت إمرة مارشاله رالف، الذي إليه أسند الايرل رتشارد المسؤولية عن الأرض المقدسة، التي استحوذ عليها، أو تهدنت من قبله، وبشكل خاص قلعة عسقلان، التي تولى الايرل رتشارد المذكور تقويتها بشكل فخم على حسابه، وذلك في سبيل تقوية المسيحية ورفع مكانتها بشكل عام.

ثبات رهبان وينكستر والظلم الذي مورس ضدهم

وفي هذه الآونة كان هناك بعض الذين يدورون بفلك البلاط، والواقفين بأوامر الملك، والذين اعتادوا على أن يعملوا من الأشياء

التافهة أشياء عظيمة، وقد ذهب هؤلاء إلى وينكستر، وبرعونة طلبوا الرهبان الذين رفضوا اطاعة أوامر الملك في قضية الانتخاب أو طالبوا بانتخاب أسقف وينكستر، والذين كانوا بشكل وقح غير مطيعين للملك، وعملوا ذلك الطلب إلى وليم دي ريلي Rele، أسقف نورويك، ولم يتنازلوا بالتخلي عن مقصدهم لابلتهديدات ولا بالالتماسات، فهكذا كان فخارهم الرهباني، وهكذا كانت وضاعة هؤلاء الناس الجبناء، وبناء عليه جرى بحث بالقضية من قبل رئيس الرهبان، الذي أرغم من قبلهم، والذي كان أصل هذا الاضطراب كله، والرهبان الذين وجدوهم قد تصرفوا على هذه الصورة، جرى طردهم من الدير، من قبل هؤلاء الرسل، من دون اعطاء تقدير إلى العمر، أو الجنس، أو الطائفة، أو للاحترام المتوجب للكنيسة أو للدير، وسجنوا فيما بعد، وأجيعوا، وتعرضوا لكل نوع من أنواع الملامة، والإهانة، والإذلال، مما سبب إلحاق الإهانة بالنظام الرهباني كله.

استيلاء الإمبراطور على مدينة فيانزا وإظهاره الرحمة نحو السكان

وفي هذه الآونة خضعت أخيراً مدينة فيانزا الملكية، التي كما ذكرنا كانت مطوقة ومحاصرة من قبل الامبراطور فردريك، واستسلمت إليه بتحفظ، فقد أنهكت المجاعة السكان، ورافقها كثير من الاضطرابات المضاعفة، فجاءوا محتشدين، وسقطوا عند قدمي الامبراطور، وهم يتنهدون ويبكون، ورجوه من أجل الرحمة، وليس من أجل الحساب، وبينما كان هؤلاء الناس الذين أثاروا لمدة طويلة غضب الامبراطور إلى أعلى الدرجات، يتوقعون الموت بأقسى أنواع العذاب، وذلك بسبب ما اقترفوه من ذنوب، تمت الإشارة إليها من قبل، وبسبب نفقات طول حصار مدينتهم من قبل الامبراطور، الذي تكبد إنفاق مبالغ كبير من المال، ومع ذلك قام المنتصر، برحمته الكريمة، بالحفاظ عليهم، وبفعله ذلك كسب عواطف الكثيرين، لأنه عندما رأى أنه حقق أخيراً الانتصار

على رعاياه العصاة، مال بدمه الكريم إلى الرحمة، وذلك تبعاً لكلمات الشاعر:

العدو جرى تدميره، والأسد النيل استراح راضياً،

والمعركة انتهت، وغضبه الناري قد تلاشى.

والذئاب، والدببة، والوحوش الأصغر، اقتادتهم مشاعرهم المتندية.

بالانتقام فظلوا غير مشبعين لنهمهم من ضحاياهم الميتة.

الانتقام المخيف الذي اقترف من قبل التتار

أثناء هذه الآونة نزل أولئك الناس الذين هم من غير البشر، والمتوحشين، والخارجين على القانون، وغير المدجنين، من التتار، في اندفاعهم وعنفهم الرهيب، على المقاطعات الشمالية للمسيحية، واجتاحوها بشكل مرعب ومدمّر، وأوقعوا الخوف والرعب بين جميع المسيحيين، وكانوا قد تمكنوا بطغيان لم يسمع بمثله، من تحويل بلدان كثيرة إلى صحراء مثل فريزلاند، وغوثلاند، وبولاندا، وبوهيميا، وشطري هنغاريا معاً حيث قتلوا الأمراء والأساقفة، وسكان المدن والفلاحين، أو أرغموهم على الفرار، وقد أكدت وقوع هذه الوقائع وشهدت عليها الرسالة التالية، التي أرسلت إلى هذه المناطق.

رسالة كتبت إلى دوق برابانت حول القوم أنفسهم

«من هنري، الذي هو بفضل الرب كونت اللورين، والأمير الملكي لسكسوني إلى مولاه المحبوب جداً، والذي سيظل دوماً محبوباً، وختنه، الدوق المشهور لبرابانت، الذي نحن على استعداد لخدمته متى طلب ذلك: إن المخاطر التي تقدم الحديث عنها في الكتابات المقدسة في العصور القديمة، آخذة الآن بالتفجر والتدفق بسبب ذنوبنا، لأن قطيعاً من الناس المتوحشين، الذين لا عهد لهم ولا حصر، ومن المتمردين،

والهمج، يقومون الآن بغزو المناطق المجاورة لمناطقنا، والاستيلاء عليها، وقاموا الآن بعدما عاثوا فساداً في كثير من البلدان الأخرى، وبعدها أهلكوا سكانها، فمدوا غزواتهم حتى الأراضي البولندية.

وحصلنا حول هذه القضايا على أخبار كاملة من رسلنا، ومن رسائل من ابن عمنا المحبوب ملك بوهيميا، وقد طلب منا إعداد أنفسنا بكل سرعة للسير إلى مساعدته، وللدفاع عن المسيحية، ذلك أننا أخبرنا بصدق وبوضوح من قبله، بأن هذا الجنس من الناس، أي التتار، سوف يتولى في حوالي ثمانية الفصح بوحشية وهمجية، غزو الأراضي البوهيمية، وإذا لم تقدم مساعدة في وقتها إلى البوهيميين، سوف تقع مذبحه لم يسمع بمثلهما، وبما أن البيت المجاور لبيتنا يحترق الآن، وبحكم أن المنطقة المجاورة عرضة للاجتياح، وفي الوقت الذي فيه بعض المناطق هي الآن تحت الاجتياح، إننا نيابة عن الكنيسة المسكونية، نطلب بقلق، ونرجو المساعدة، والتسديد من الرب، ومن جيراننا الأخوة الأمراء، وبما أن التأخير يولد الخطر نرجوكم القيام بكل يقظة ممكنة، أن تحملوا السلاح، وأن تسرعوا إلى نجدتنا، وكذلك في سبيل حريتنا ومثل ذلك في سبيل حريتكم، وأن تستخدموا مسعى قوياً لإعداد قوة قوية، وأن تثيروا النبلاء الأقوياء والشجعان مع الناس الخاضعين لهم، وأن تحتفظوا بهم مستعدين وجاهزين حتى نرسل إليكم رسلنا ثانية.

ونحن الآن نثير بوساطة جهود أساقفتنا، والمبشرين لدينا، والرهبان الفرنسيين الدعوة إلى حملة صليبية عامة (لأن القضية مرتبطة بالمسيح)، ونبشر، ونصلي، ونصوم من أجل فرضها، وبلادنا بشكل عام قد نهضت واثارت للحرب في سبيل يسوع المسيح.

وإلى هذا يمكن أن نضيف بأن قطيعاً كبيراً من هذا الجنس المقيت من الناس، يقوم الآن بالتعاون مع جيش آخر متحالف معه، باجتياح هنغاريا بوحشية لم يسمع بمثلهما، إلى حد قيل فيه بأن الملك قد احتفظ

فقط بقطعة صغيرة من البلاد لنفسه، ولنجمل القضية في كلمات قليلة فقط:

إن الكنيسة والناس في البلدان الشمالية، قد قمعوا وقهروا بكثير من أمثال هذه الاضطرابات الكبيرة والمصاعب إلى حد أنهم لم يعانون قط بشدة من مثل هذا العذاب منذ بداية الدنيا. صدر في سنة النعمة ١٢٤١، في اليوم الذي يرتل فيه بـ «دعوا القدس تبتهج».

وأرسلت رسائل أخرى، لها المحتوى نفسه، من قبل دوق برابانت إلى أسقف باريس، وكتب أيضاً رئيس أساقفة كولون إلى ملك انكلترا حول المقصد نفسه.

وبناء عليه، ومن أجل معالجة هذا المرض الخطير، ولتسوية الخلافات التي قامت بين البابا والامبراطور، جرى فرض الصيام، والصلاة، ومنح الصدقات، على الناس في مختلف البلدان، حتى يصبح الرب القدير المخضع لأعدائه، والذي يقاتل مع قلة أو كثرة، راضياً نحو عباده، وأن يسحق شموخ هؤلاء التتار وجبروتهم.

وعندما أخبرت بلانشي المحترمة، وأمة الرب المحبوبة، وأم الملك الفرنسي بهذا العذاب الرباني، الذي نزل على الشعوب وأحاق بها، دعت ابنها قائلة: «الملك لويس، أين أنت يا ولدي؟» وبناء على ذلك اقترب منها ابنها وقال: «مالذي تريدينه يا أماه؟»، ثم إنها تنهدت بعمق، وانفجرت باكية، ومع أنها كانت امرأة، فقد انكبت على هذه المخاطر العظيمة، ليس كإمرأة، وقالت له:

«مالذي ينبغي صنعه يا ولدي الحزين تجاه هذه الأحداث المؤلمة، والتي تطايرت عنها تقارير مرعبة وتدفقت على أراضينا؟، وإن دماراً عاماً لنا كلنا وللكنيسة المقدسة، بات الآن وشيكاً في أيامنا بسبب الغزوات الرهيبة للتتار بيننا»، ولدى سماع الملك لهذا، أجاب بصوت

حزين، لكنه تكلم وكأنه تلقى إلهاماً ربانياً: «لعل المواساة من السماء تنهض بنا يأماء، وإذا ما قدم هؤلاء الناس الذين نسميهم التتار، وجاءوا مغيرين علينا، إما سنردهم إلى بلاد التتار التي صدروا منها، أو أنهم سوف يرسلون بنا جميعاً إلى السماء»، وهكذا فإنه كان يريد القول: «إما أننا سوف نصدهم، أو أننا إذا ما غلبنا، فإننا سوف نغادر إلى الرب كمعترفين للمسيح، أو شهداء»، وألهم هذا الكلام المدهش والجدير بالثناء، الناس وأثار شجاعتهم، ولم يقتصر هذا على النبلاء الفرنسيين، بل تعداهم أيضاً إلى سكان البلدان المجاورة، ثم إن الامبراطور، عندما سمع بهذه الأشياء، كتب إلى الأمراء المسيحيين، وبشكل خاص إلى ملك انكلترا كما يلي:

رسالة الإمبراطور فيما يتعلق باقتراب المغول

«من فردريك، إمبراطور، إلخ، إلى ملك انكلترا، تحيات:

نحن لا يمكننا الالتزام بالصمت حيال قضية لا تخص فقط الامبراطورية الرومانية لوحدها، التي وظيفتها نشر الانجيل، بل تخص أيضاً ممالك العالم كله، التي تمارس العبادة المسيحية، لأنها تهدد بدمار كامل لجميع المسيحية، ولذلك بادرنا مسرعين بنقل أخبارها إليكم، وإعلامكم بها، علماً بأن الحقائق الصادقة حول الموضوع قد وصلت إلينا مؤخراً.

منذ وقت قصير مضى ظهر عرق شعب متوحش بطباعه وبطريقة حياته (من أي مكان أو أصل أنا لأدري) اسمه التتار، ظهر مؤخراً من مناطق الجنوب، حيث كان مختبئاً منذ وقت طويل، قد أحرقته شمس الإقليم الحار، وزحف من هناك نحو المناطق الشمالية، واستولى بالقوة على المنطقة هناك، وبقي لبعض الوقت، وتكاثر مثل الجراد، وقد جاء الآن متقدماً، ليس من دون قضاء مضى من الرب — لكن ليس كما آمل

مؤجلاً حتى أيام هذه الرسالة — لتدمير المسيحية كلها، وقد تبع وصول هؤلاء الناس، مذبحاة عامة، ودمار شامل وبأساء لجميع الممالك، مع تخريب كامل للمناطق الخصبة، التي عاث فيها هذا القطيع من الناس فساداً، دون إبقاء لجنس، أو عمر، أو مرتبة، وهم مايزالون يأملون وهم واثقين، من تدمير بقية الجنس البشري، وهم يسعون إلى حكم البشرية والسيادة عليها لوحدهم، واثقين بقوتهم الهائلة، وبأعدادهم غير المحدودة، فبعدما قتلوا كل من وقع نظرهم عليه، ونهبوا كل مكان وخلفوا وراءهم انعدام كامل للسكان، وصل هؤلاء التار (أو بالحري سكان تارتاروس) إلى مستعمرة الكومان الكثيفة السكان، ولأنهم لم يهتموا بالحياة، ولأن القوس هو السلاح المعتادين عليه كثيراً، أكثر من غيرهم من الشعوب، وبأسلحتهم المقذوفة الأخرى، التي يستخدمونها باستمرار، والتي أذرعتهم مدرية عليها وممارسة أكثر من سواهم، والتي باتت أقوى من الشعوب الأخرى مزقوا ذلك الشعب وأخضعوه، والذين لم يستطيعوا النجاة قد ذبحوا بسيوفهم الدموية.

وجعل اقتراب هؤلاء الهمج، مع شيء من الصعوبة الروثينيين Ruthenians، الذين يسكنون على مقربة منهم، يأخذون حذرهم ويستنفرون، ولأنهم كانوا غير معتادين على قتال هذا الشعب غير المعروف، فإنهم تشاوروا حول سلامتهم، وخافوا من غضبهم مثل خوفهم من النار، واتخذوا لأنفسهم احتياطات ضد هجماتهم، وبالهجمات المفاجئة، وحملات ذلك العرق الهمجي، الذي ينقض مثل غضب الرب، أو مثل البرق، فإن كييف المدينة الرئيسية لتلك المملكة قد هوجمت وتم الاستيلاء عليها، وجميع تلك المملكة الفخمة، التي كان من المتوقع توحيد نفسها مع مملكة هنغاريا، من أجل الدفاع عن نفسها، وحمايتها، والتي أهملت ذلك ولم تفعله، تحولت بعدما جرى قتل سكانها، إلى وضع من الدمار الكامل والبأساء.

وكان ملكهم رجلاً كسولاً ومهملاً، وقد أمر بوساطة الرسل والرسائل من هؤلاء التتار، أنه إذا أراد الحفاظ على حياته، وعلى حياة رعيته، فما عليه سوى الاستسلام على الفور حتى ينال حظوتهم، غير أنه لم يخف من هذا، ولم يأخذ حذرته، وبذلك أعطى برهاناً لشعبه وللآخرين، أنه يتوجب عليه وعلى شعبه، القيام على الفور بالاستعداد من أجل حماية أنفسهم، والدفاع ضد غاراتهم، ولكن في الوقت الذي كان فيه هؤلاء الناس المغرورين، أو الجاهلين مستخفين بأعدائهم، وبكسل نائمين والعدو في جوارهم المباشر، ومعتمدين على القوة الطبيعية للمكان وعلى منعته، شق التتار طريقهم إلى المملكة مثل زوبعة ريح، وفجأة طوقهم من كل جانب.

وعندما وجد الهنغار أنفسهم تحت الحصار، قبل أن يتوقعوا الهجوم، وقد فوجئوا عندما لم يكونوا مستعدين، حاولوا الدفاع عن معسكرهم ضدهم، وعندما بات الجيشان المتصارعان، أي جيش التتار، وجيش الهنغار، على مسافة خمسة أميال عن بعضهما بعضاً، اندفع الجزء المتقدم من التتار فجأة نحو الأمام عند فجر النهار، وطوّق رجاله فجأة معسكر الهنغار، فقتلوا الأساقفة ونبلاء المملكة الذين تصدوا لهم، وذبحوا حشداً من الهنغار في مذبحه ما من أحد يتذكر أن مثلها قد وقع في معركة واحدة، منذ زمن طويل جداً.

أما الملك نفسه، فقد نجا بصعوبة، حيث ركب على فرس سريع، وهرب تحيط به حاشية صغيرة، ليشارك في حصّة أخيه ملك ايليريا Illyria، ولكي يحصل هناك على الحماية على الأقل، وفرح المنتصرون بأسلاهم وغنائمهم، ثم إنهم استقروا في معسكر الهنغار المغلوبين، وكانوا في تلك الساعة ينهبون الجزء الأكبر والأجمل من هنغاريا، فيما وراء نهر الدانوب، ويلحقون الأذى بالناس بالنار وبالسيف، ويهددون بإشراك البقية في الدمار نفسه، وذلك كما أخبرنا من قبل الأسقف

المحترم لفاتزن Vatzen, الذي كان سفير ملك هنغاريا المذكور، إلى بلاطنا، والذي أرسل بعد ذلك إلى بلاط روما، وبما أنه كان مجتازاً خلال أراضينا أولاً، فقد قدم شهادة على مارآه، وبيناته صحيحة جداً.

وحصلنا أيضاً على معلومات وافية حول هذه الحوادث، بوساطة رسائل من ولدنا المحبوب كونراد، الملك المنتخب للرومان، وولي عهد مملكة القدس، وملك بوهيميا، ومن دوقي النمسا وبوهيميا، ومن كلام أفواه رسل، أكدوا فعلياً اقتراب وصول العدو، وقد سمعنا بهذا كله، ونحن نشعر بتشوش كبير في عقلنا، ولقد سمعنا — وبحكم أن الإشاعة، عن سيرهم، تسير أمامهم — بأن جيشهم الذي لا يمكن تعدادهم، مقسم إلى ثلاثة أقسام سيئة الطالع، وبسبب تساهل الرب تجاه خططهم الملعونة، قد زحفوا هكذا مقسمين، فواحد من هذه الأقسام قد أرسل خلال أراضى البروكتينيين Pructenian, ودخل إلى بولاندا، حيث سقط أمير تلك البلاد ودوقها ضحيتين لأعمال المطاردة المييدة، وبعد ذلك استبيحت تلك المنطقة ودمرت من قبلهم، ودخل الشرط الثاني إلى الأراضى البوهيمية، حيث أوقف هناك، لأنه حارب من قبل ملك تلك البلاد، الذي تصدى له بشجاعة بوساطة جميع القوات التي كانت تحت إمرته، وأما الشرط الثالث فهو الذي يعيش فساداً في هنغاريا المجاورة للمناطق النمساوية.

وبما أن الخوف والرعب قد قام بيننا، بسبب شدة هؤلاء الغزاة الجريئين، الأمر الذي نبهنا ودعانا إلى السلاح، والضرورة هي أكثر إلحاحاً، كلما عظم الخطر وازداد، وهي تحثنا على التصدي لهم، وإن التأكد من الدمار الشامل للعالم كله، خاصة للعالم المسيحي، تدعو إلى تقديم مساعدة سريعة ونجدة، لأن هذا العرق من الناس متوحش، وخارج على القانون، وجاهل بالشرائع البشرية، وهم يتبعون سيذاً واحداً، ويعبدونه مولاهاً، وهم يعبدونه ويبجلونه مع طاعة كاملة، وهم

يطلقون عليه اسم رب الأرض، ورجالهم أنفسهم صغار، وقصار القامة، هذا بالنسبة للطول، لكنهم مندججون، وأقوياء، وكتلهم ضخمة، ومصممون، وأقوياء، وشجعان، وجاهزون بإشارة واحدة من قائدهم للاندفاع للقيام بأي واجب صعب، أو مهمة قاسية، ولهم وجوه واسعة، ونظرات قاسية، ويتفوهون بصرخات مرعبة، تتواءم مع قلوبهم، وهم يلبسون جلوداً غير مدبوغة، من جلود الثيران، والحمير، والخيول، وبالنسبة للدروع هم يحمون أنفسهم وأجسادهم بقطع من الحديد مخاطة إليهم، وقد استمروا باستخدامها حتى الآن.

لكن لا يمكننا أن نقول من دون أسف، إنهم الآن، جهزوا أنفسهم، من أسلاب المسيحيين المغلوبين، بأسلحة أكثر مواءمة، حتى يمكن —من خلال غضب الرب— أن نتعرض للقتل بدناءة أكبر، بوساطة أسلحتنا، وبالإضافة إلى ذلك لقد تزودوا بخيول أفضل، وهم الآن يعيشون على أطعمة أغنى، ويزينون أنفسهم بملابس أكثر جمالاً مما كانوا يرتدونه من قبل، وهم رماة نبالة لا يجارون، ويحملون جلوداً مصنعة، بها يعبرون البحيرات والأنهار الأكثر سرعة من دون خطر، وعندما تنعدم الأعلاف لديهم، لقد قيل بأن خيولهم تكتفي بلحاء الشجر وبالأوراق وبجذور الأعشاب، التي يجلبها الناس إليهم، ومع ذلك يجذبونهم دائماً سريعين جداً، وأقوياء في حال الحاجة.

وكنا على كل حال بوسيلة أو أخرى قد حذرنا سلفاً، ورأينا من قبل متوقعين جميع هذه الأحداث، وطلبنا دوماً بوساطة رسائل ومبعوثين من جلالتك، وكذلك من الأمراء المسيحيين الآخرين، ونصحناكم باخلاص، والتمسنا منكم، بالسماح لعدم العدوان، والعواطف، والسلام بالازدهار بين هؤلاء الذين بين أيديهم السلطات العليا، وأن يقوموا بتسوية جميع خلافاتهم، التي غالباً ما تجلب الأذى إلى المصالح العامة للمسيح، وأن نهض برشاقة ويأجما للتصدي لأولئك الهمج

الذين ظهوروا مؤخراً، فلقد تبين أن الأسلحة الماضية غير كافية لشفاء الجرح، أي أن لانسمح لعدونا العام بسبب للابتهاج، ولا بمزيد من التقدم، بسبب الخلافات المنبعثة بين رؤساء المسيحيين.

يارب كم مرة، وكم غالباً ما كنا على استعداد للتواضع بأنفسنا، وإعطاء منفذ لكل نوع من المشاعر الطيبة، في سبيل التمكن من الخبر الروماني، حتى يقلع عن إعطاء سبب للفضائح في جميع أرجاء الدنيا، وذلك بوساطة عداوته لنا، وأن يضع روابط التسامح فوق النصائح العدوانية المريضة ضدنا، وذلك في سبيل التمكن من تهدئة رعايانا الشرعيين، وأن نحكمهم في حالة من السلم، وأن لا يحمي هؤلاء الذين يتحركون ضد سلطتنا، حيث أن شطراً كبيراً منهم يلقى الرعاية والمعونة منه.

وهكذا بالتمكن من تسوية المسائل بشكل سلمي، وبإعادة إصلاح رعايانا العصاة، الذين ضدهم أنفقنا مبلغاً كبيراً من المال، وأنهننا قوانا، إن قدرتنا سوف تتضاعف، وسوف ترتفع بقوة أعظم ضد عدونا العام، لكن بما أن الإرادة هي الشريعة بالنسبة له، وهو لم يستطع التحكم بمسار لسانه المخادع، وقد رفض التمتع عن كثير من النزاعات التي حركها ضدنا، وقد أمر بنشر حملة صليبية ضدنا، ضدي أنا الذي أنا سلاح ومدافع عن الكنيسة، ولقد كان من واجبه، والأفضل له أن يمارس العمل ضد طغيان التتار، أو ضد المسلمين الذي يغزون الأرض المقدسة ويحتلوننا، وهو يشجع العصاة من رعايانا، الذين يتآمرون ضد شرفنا وشهرتنا، ولما كان واجبنا الأكثر إلحاحاً العمل على تحرير أنفسنا من الأعداء في الداخل، كيف ستمكن من صد هؤلاء الهمج أيضاً؟، لأنهم اكتشفوا بوساطة جواسيسهم، الذين أرسلوهم في جميع الاتجاهات هذا الخلاف العام، ذلك أن هؤلاء القوم، وإن كانوا يحكمون من دون إعطاء أي تقدير للشريعة اللاهوتية، هم بارعون جداً، في بدع الحرب،

ولقد اكتشفوا الأماكن غير المحمية والضعيفة في البلاد، ولساعهم بأخبار العداوات بين الملوك، وبصراعات الممالك، لقد تشجعوا، ونهضوا ضدنا بنشاط أعظم، فكم تضيف الشجاعة العالية إلى القوة وتزيدها، وبناء عليه لقد صرفنا اهتمامنا نحو القضيتين معاً، وبعون الحكمة الربانية، سوف نستخدم قوتنا وقدرتنا لتجنيب الكنيسة الفضائح، الناجمة من الجانب الأول عن أعدائنا في الداخل، وأن نحميها من الجهة الأخرى من هؤلاء الهمج، ولهذا قمنا بشكل فعال بإرسال ابنتنا المحبوب كونراد ومقدمين آخرين من إمبراطوريتنا، مع قوة كبيرة للتصدي لحمالات ولعنف هؤلاء الهمج ولصدهم، ونحن نناشد باخلاص عظيم جلالتك باسم الرب يسوع المسيح، الصانع لعقيدتنا المسيحية، مع التوسل الأعظم دقة، وبوساطة التدبر الحكيم، بأن تتخذوا الاحتياطات من أجل وقاية أنفسكم ومملككم، التي أدعو الرب أن يبقوها مزدهرة، وأن تعدوا بأسرع وقت ممكن قوة كاملة من الفرسان الشجعان والجنود، مع تجهيزات جيدة من السلاح، وهذا ما نرجوكم من أجله، بحق دم المسيح الذي سفك من أجلنا، وبحق روابط القرابة التي تربطنا.

وعليهم أن يعدوا أنفسهم للقتال بشجاعة وبحكمة، بالاتحاد معنا، في سبيل حرية المسيحية، وهكذا إنه باتحاد قواتنا ضد هؤلاء الأعداء، الذين ينوون الآن دخول حدود ألمانيا، التي هي الباب إلى العالم المسيحي، من الممكن الحصول على النصر من أجل كرامة وشهرة رب الحشود، ولعله يرضي جلالتك، أن لاتهموا بهذه القضايا، من دون تقدير، أو تأخير منحها اهتمامكم، لأنهم — لاسمح الرب — إذا ماغزوا الأراضي الألمانية، ولم يواجهوا اعتراض، فإن بقية العالم سوف يشعر بصوت العاصفة، التي هي مقبلة على الهبوب، والتي نعتقد أنها قامت بقضاء من الرب، لأن العالم ملوث بعدوى مختلف الذنوب، بحكم أن الإحسان قد بدأ يصبح أكثر برودة في كثير ممن ينبغي أن يبشروا بالإيمان وأن يرفعوا

شأنه، وسيرتهم الفاسدة قد لوثت العالم بالربا، وبمختلف أنواع السيمونية والطموح.

ولعله يرضي — بناء عليه — جلالكم، أن تتجهزوا لهذه الطوارئ، وفي الوقت الذي يقوم فيه هؤلاء الأعداء لنا جميعاً في صبّ جام غضبهم في البلدان المجاورة، قم بموجب نصائحكم الحكيمة، فاعملوا الاستعدادات لمقاومتهم، لأنهم غادروا بلادهم، دون الاهتمام بأية مخاطر على حياتهم، مع النية (لاسمح الرب بتنفيذها) باخضاع جميع الغرب، وتدمير الإيمان بالمسيح واجتثاث اسمه، وبسبب الانتصارات غير المتوقعة، التي حصلوا عليها حتى الآن — بإذن من الرب — وصلوا إلى حالة من الخيلاء والجنون، أنهم باتوا يعدون أنفسهم قد حصلوا على ملكية جميع ممالك العالم، ويمكنهم اخضاع، وربط الملوك والأمراء الساجدين لهم كما يريدون، وحسبما يشاءون في خدمتهم الشريرة.

هذا ونحن نأمل بمولانا يسوع المسيح، الذي تحت قيادته وتوجيهه، حررنا حتى الآن أنفسنا من أعدائنا، وانتصرنا عليهم، بأن هؤلاء الذين تدفقوا من مناطق تارتاروس، سوف يجردون فخارهم قد أذل، بعد تجريب قوة الغرب، ومن ثم أن يجري صدّهم عائدين إلى بلادهم في تارتاروس، وأن لا يعودوا قادرين على التبجح بأنهم جالوا بكل وقاحة خلال عدد كبير من البلدان، وأخضعوا كثيراً من الأمم، واقترفوا كثيراً جداً من الشرور، وذلك عندما اقتادهم قدرهم الذين لم يحتاطوا له، أو بالحرى عندما استدرجهم الشيطان نفسه للموت، أمام النور المنتصرة لإمبراطوريتنا الأوروبية القوية.

وعندما تنهض ألمانيا بغضب وحماسة إلى القتال، وكذلك فرنسا، التي هي أم الفروسية وحاضنتها، وكذلك إسبانيا المقاتلة والشجاعة، مع انكلترا الخصب ورجالها البواسل، وهي محمية بأسطولها، وألمانيا المليئة بالمحاربين الشجعان، وداشيا البحرية، وإيطاليا الشرسة غير المدججة،

وبيرغندي التي لم تعرف السلام قط، وأبوليا التي لاتعرف الراحة والاستقرار، مع جزر القرصان والتي لم تقهر، مثل جزر الإغريق، والبحر الأدرياتيكي، وبحر تيرين Tyrrhene، وكريت، وقبرص، وصقلية، مع الجزر والمناطق المجاورة للمحيط، وكذلك عندما تنهض أيرلندا الدموية، مع ويلز النشيطة، وسكوتلندا المحاطة بالبحيرات، والنروج الثلجية، وكل منطقة فخمة ومشهورة، قائمة تحت النجم الملكي للغرب، فعندما يرسل هؤلاء نخبهم مزينين بشعار الصليب المانح للحياة، الذي يسير أمامهم، وقتها لن يصاب بالرعب والقنوط فقط الرعايا المتمردين، بل أيضاً الشياطين المعارضين. صدر أثناء تراجعنا، بعد استسلام فيانزا وإخلائها من السكان، في اليوم الثالث من تموز.

نشر الرسالة المتقدمة

وجرت كتابة رسائل لها المحتوى نفسه، مع تغيير بالعناوين الرئيسية فقط، وقليل من الكلمات في داخلها، من قبل الامبراطور المدافع المواظب عن الصالح العام، لأنه أضاف الكلمات التالية في رسالته إلى الملك الفرنسي، حيث أثار عواطفه بشكل مؤثر حيث قال: «نحن علاوة على ذلك مندهشون — عارفون بحكمة الفرنسيين — كيف أنكم لم تتنبهوا بدقة أكبر لملاحظة الدهاء البابوي، ونهمه أكثر من الآخرين، ذلك أنه بمطامحه التي لاتعرف الحدود، هو عازم الآن على اخضاع جميع الممالك المسيحية إليه، منطلقاً من بادرة وضعه تحت قدميه تاج انكلترا، وقد تجرأ الآن بطيش كبير، وبوقاحة يفكر باخضاع جلاله الامبراطور وجعله رهن شارته».

انتشار الشكوك ورعايتها

ملأت الطبيعة المدهشة هذه الظروف أوروبا كلها، بالعجب

والتساؤل، وانتشر ذلك إلى البلدان الاسلامية وانبعثت مواقف مختلفة بين كثيرين، ورعت مختلف الشعوب آراء متباينة حول هذه القضايا، فقد كان هناك بعض من قال بأن الامبراطور، اخترع على عهده، وتآمر ضاعطاً بحكاية التتار هذه، وأنه بهذه الرسالة البارعة أراد أن يغلف جرائمه الشائنة ويغطيها، وأنه كان بمطامحه الجشعة مثله مثل الشيطان، أو المسيح الدجال، يقوم بالتآمر ضد ملكيات العالم كله، في سبيل تدمير الإيمان المسيحي تدميراً كاملاً.

وقد تبرهن أيضاً أن الرسالة تحتوي على أكاذيب، لأنه قد ورد فيها بأن هذا العرق التتاري غير المعروف، قد تدفق من المناطق الجنوبية للعالم، الواقعة في الإقليم الحار، وهذا زيف واضح لأننا لم نسمع بأنهم عبروا خلال البلدان الجنوبية، لابل ولاحتى من خلال البلدان الشرقية، إضافة إلى هذا لقد تشككوا بأن الخطط السرية، والإجراءات التي لأساس لها، وكثير من مؤامرات هؤلاء التتار كانت تماماً من الاقتراحات الامبراطورية، لأنهم يخفون طريقته بالكلام، وتفاوت تجهيزاتهم، وأنه إذا ما اتخذ أحدهم أسيراً، لا يمكن ولا بطريقة من الطرق استخراج معلومات عن خططهم من الأسير، ولا حتى بأي نوع من أنواع العذاب تعرض لها، وبما أنه هناك سبعة أقاليم في الدنيا كلها، وهي: إقليم الهند، وإقليم الأثيوبيين أو المغاربة، وإقليم المصريين، وإقليم المقدسة، وإقليم اليونانيين، وإقليم الرومان، وإقليم الفرنسيين، وليس هناك من مكان بعيد في جميع أرجاء المسكونة من العالم، لم يجد التجار طريقاً إليه، كما قال الشاعر:

إلى الهند النائية يجد التاجر طريقه

فأين مثل هؤلاء الناس، الذين أعادهم كبيرة إلى هذا الحد، ومابرحوا حتى الآن جالسين مخفيين؟ ولماذا هناك الآن مثل هذا المكر، والتآمر السري فيما بينهم؟ وهناك — كما قالوا — الهيركانيين Hyr-

canians والسكيزيين، المتعطشين دوماً إلى الدماء البشرية، والذين يسكنون المناطق الجبلية والوعرة في الشمال، والذين يارسون حياة حيوانات متوحشة، ويعبدون آلهة الجبال في أيام معينة، وهؤلاء الناس قاموا بوساطة دسائس الامبراطور، مع جيرانهم الكومان، الذين دخلوا معهم بتحالف، فشنوا الحرب على ملك هنغاريا، وعلى بعض النبلاء الآخرين، في سبيل أنهم بإزعاج ذلك الملك ومضايقته، يمكن أن يفر ليضع نفسه تحت جناحي الامبراطور من أجل الحماية، ويقدم له الولاء، لأنه قدم إليه المساعدة، وبما أن هذه الأشياء قد نفذت، فإنها ما أن عملت حتى تراجعت قوى الأعداء، لكن لاسمح الرب أن تكون مثل هذه الشرور الكثيرة قد تأمر على صنعها إنسان واحد.

البابا يحض الأساقفة على ازدراء نصيحة الإمبراطور

ومن ثم القدوم إلى المجمع

أعيق في هذه الآونة، بسبب حوادث غير موائمة، السيد جيمس أوف برانستي Praeneste، الذي كان لبعض الوقت نائباً بابوياً في فرنسا والسيد أوتو كاردينال وشماس في Carcere Tulliano، وبعد ذلك نائباً بابوياً في الدانمارك ومن بعد هذا في انكلترا، وغريغوري أوف رومانا Romagna، الذي كان قد أرسل لتوه بمشابة نائب بابوي إلى الجنوبيين ليحللهم من ذنوبهم إذا ما أطاعوه، وتأخروا في جنوى، وكانوا يتطلعون إلى أسطول لأنفسهم، وكان هناك أيضاً معهم عدد كبير من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، الذين كانوا يخافون من الإبحار، بسبب تهديدات الامبراطور، وقد تلقوا بشكل متواصل رسائل مواساة ورسلاً من البابا، وجرى في الوقت نفسه تحريضهم على الإبحار، وأن يسيروا من دون إعاقة من أجل حضور المجمع، لابل جرى حثهم بإصرار على ازدراء تهديدات السلطات العلمانية، وأن يكون استعدادهم أكبر لإطاعة والدهم الروحي.

ثم إنه تقديرًا لمبلغ كبير من المال دفعه هؤلاء الأساقفة، بناء على اتفاقية عقدت بينهم وبين الجنويين، يتوجب على أساسها على الجنويين اقتيادهم جميعاً، أي النواب البابويين والأساقفة، وحواشيهم، وهم متحررين من الخسارة ومن الأذى إلى البلاط الروماني، حتى ولو كان ذلك ضد موافقة الامبراطور، وعندما كانوا عاقدين لمناقشات طويلة ودقيقة، حول هذه القضايا، وعندما كان بعضهم في وضع غير المتأكد حول ماهو الأسلم والأعقل لفعله، أرسل البابا رسالة إليهم، أنه سوف —من دون تلكؤ— يرسل إليهم مساعدة قوية وفعالة على شكل أسطول ليلتقي بهم في البحر، لدى مغادرتهم الميناء، وذلك ليتولى قيادتهم وحمايتهم، بشكل لا تكون فيه قوى الأعداء قادرة على اعتراضهم بأي شكل من الأشكال، ولا حتى الامبراطور نفسه، الذي أوكل به صاحب القداسة وعهد إلى جهنم وإلى الشيطان، بحكم أنه موضوع تحت حرمانات وتكفيرات مضاعفة، وبرسالة البابا المقدسة هذه وبمواساته، تمسوا وصاروا على استعداد لتحمل أي خطر، حتى لو كان الموت نفسه.

الامبراطور يسأل الأساقفة الارتحال إلى المجمع من خلال أراضيه

وعندما علم الامبراطور بهذه الرسالة، تفهم بشكل واضح وأدرك أن البابا مصرّ تمام الإصرار على السعي لإذلاله، وأنه كان يعمل على جمع الأساقفة الذين لن يقفوا بأي حال من الأحوال ضد إرادته، ولهذا السبب، ولأنه أخذ يشعر بمخاوف كبيرة على نفسه أخبرهم بأنهم يستطيعون السفر من خلال أراضيه، من أجل أن يعلموا تماماً بالامتيازات التي وضع فيها ثقته، ولكي لايجري فرضهم، أو أن تفرض عليهم تقارير زائفة، رجاهم بعدم الابهار بشكل مفاجئ نحو البلاط الروماني من دون التأكد من وجهات نظره، وبناء عليه أرسل إليهم سفراء خاصين، عندما كانوا قد استعدوا للابحار، وبلطف وتواضع

أخبرهم أن بإمكانهم الجواز خلال جميع الأراضي التي هي تحت حكمه،
بسلام كامل، وأمان تام، شريطة أن لايسافروا بالبحر، أو على طول
شاطئ، وطلب منهم التيقن بأن ما من واحد من رعيته سوف
يزعجهم أثناء رحلتهم، وقال لهم، بأنهم إذا كانوا غير واثقين بوعوده
الامبراطورية، ماعليهم سوى إعداد شكل من أشكال الضمانة،
ووعدهم بالالتزام بشروطها بكل تأكيد، والالتزام بجميع الشروط، من
جميع الجوانب، وذلك وفقاً لما سوف يكتبونه، كما أنه أعلن أيضاً، أنه
بعد قيامه بشرح قضيته شرحاً وافياً إليهم بكلمات الفهم، وبعد اخبارهم
بجميع خصوصياتها بالتفصيل، سوف يعهد بكل ثقة واخلاص بأن
يحكم عليها بعد فحصها، ومن ثم تسويتها من قبل المجمع، ووعدهم
بالخضوع إلى القرار المستقيم لمثل هذا العدد الكبير من الآباء المقدسين،
وهكذا قام بوسائل الاقناع، وبالتوسلات، وبالأوامر، ورجاهم بوساطة
جميع الالتماسات الممكنة لأن يكونوا نوابه، والمحامين عنه، والقضاة في
هذه القضية، وجاء ذلك متوافقاً مع قول الشاعر:

بمزيج من الأوامر، والوعود، والأدعية

ظهر المولى على الفور وظهرت التضمرات

وعلاوة على ذلك اشتكى بمرارة حول العنف غير المحدود لاضطهاد
البابا له، إلى حد أنه أثار الذين استمعوا إليه إلى درجة البكاء، ذاكراً بأن
البابا قد عمل منه بوسائطه أكثر الهراطقة شروراً وأنه عدو حاد
ومكشوف للإيمان المسيحي، مع أنه لم يدن بأنه كذلك، كما أنه لم يعترف
بنفسه بذلك، كما أنه تسبب بحرمانه كنسياً في بلدان متنوعة، وشوّه
سمعته بمختلف الوسائل التي كان بإمكانه ابداعها، وقد شوّه اسمه
وسمعه بشكل لايمكن إصلاحه، وهذا أمر ما من شيء يمكن أن
يكون أكثر ضرراً منه، وكان يبذل قصارى جهده ليتولى إذلاله، وقال:
«فلقد قام مؤخراً بعدما جرت تسوية، واتفاق بشكل عام من طرفه ومن

جانبه، بوجوب عقد مجمع، فيه كنا مستعدين لشرح قضيتنا من على الجانبين، ومن ثم الالتزام بالقرار العام للمجمع، غير أنه غير بطيش صيغة الاتفاق المتقدم الذكر والاجتماع، ووجه الدعوة إلى جميع الأعداء المكشوفين للامبراطورية، الذين كانوا مستعدين للحرب أكثر من استعدادهم للسلم، وجرى إرسال رجال دين ورجال علمانيين — كما هو واضح من فحوى رسائلي — إلى ملك انكلترا، وإلى الأمراء الآخرين، التي فيها كشفت بكل تأكيد الشرور الخفية، والمصائد الخبيثة للبابا، وفي تلك الرسائل حذرتهم أنهم إذا كانوا يقدرّون أنفسهم وممتلكاتهم، أن لا يسمحوا لأساقفتهم بالجواز خلال ممتلكاتي»، وأضاف الامبراطور أيضاً، كما قال في أماكن أخرى، وكما ذكر في رسائله، أنه سوف يكون خطراً، ومضاداً للمنطق العهدة بمثل هذه القضايا الصعبة للبابا الذي هو عدوه المكشوف، وكان الذين اتفقوا بأرائهم معه، قد بدوا أنهم بالحري متآمرين يستهدفون اخضاع الامبراطورية المقدسة، لا أن يكونوا حكاماً بالعدل، وهكذا عهد بالقضية إلى محكمة منحازة، القضاة فيها جاهلون بالسبب الأساسي للخلاف، وبظروف القضية.

الأسباب التي قدّمها الإمبراطور إلى الأساقفة حول عدم حضوره

وبناء عليه التمس الامبراطور بحرارة من الأساقفة للقدوم والعبور بسلام خلال أراضيه حتى يكونوا متعرفين تماماً بقضيته، ولكي يتمكن من إخبارهم بجميع الظروف الخفية للقضية، لأنه أعلن أنه لا يستطيع — بأي حال من الأحوال — القدوم إليهم منه شخصياً، بسبب حاجته إلى المال، الذي أنفق مبالغ كبيرة/ أثناء الحصار الطويل لفيانزا، وأيضاً بسبب قضايا أخرى، القضية الأساسية بينها مرتبطة بالجيش الذي يقوده ابنه، والذي كان مشغولاً آنذاك ضد التتار، وقضايا أخرى، لا بدّ له من إبقائها سراً، وكذلك بسبب العصاة الجنوبيين، الذين لم يختر الوصول إليهم إلا بقوة كبيرة.

النواب البابويون يرفضون الذهاب إلى المجمع من خلال أراضيهم
وتشجع الأساقفة — على كل حال — بوعود النواب البابويين، وبرسائل المواساة البابوية المتوالية، التي وعد فيها بإرسال مساعدة سريعة ومؤثرة تلقاهم في البحر، ولذلك رفضوا أن يتخلوا، ولا بأي شكل من الأشكال، عن نيتهم المقترحة، ذلك أنهم قالوا: «لا يمكن الاعتماد ولا الوثوق بالكلام التافه لرجل محروم كنسياً»، وبناء عليه رفض الأساقفة نصيحة الامبراطور، ومطالبه، ووضعوا ثقتهم بتعداد الجنويين، الذين كانوا مجريين في فن القتال البحري، واستخفوا بتهديدات الامبراطور وبقدراته، وأقلعوا على ظهور سفنهم وسار الجنويون أمامهم، وانخرطوا بتفاخرات كبيرة، وتبجحوا قائلين بأن قوى الذين من الممكن أن يتصدوا لهم، لم تكن مرعبة لهم، ولا بأي حال من الأحوال، وقالوا عن الأساقفة وعن الناس المتعلمين، بأنهم جبنا، ورعادي، لأن تفاخرهم كان أكبر من قوتهم، وعندما كانت غلايينهم وسفنهم مصفوفة بشكل نظامي، شقوا طريقهم خلال البحر التيراني Tyrrhene، وذلك في رحلتهم نحو الشرق، وسط صراخ وضجيج البحارة، وأصوات الأبواق.

الإمبراطور يأمر باعتقال الأساقفة

وعندما علم الامبراطور بهذه القضية، غضب لأنه وجد أنه قد استخف به، وأن انذاراته والتماساته قد رفضت سواء، وبناء عليه بعث إلى ابنه هنري، الذي اعتاد على أن يدعو به بابنه الطبيعي، والذي إليه عهد بمهمة حراسة البحر، و السواحل البحرية، مع قوة بحرية، وأمره باعتراض جواز الأساقفة، وأن يعتقلهم من دون خوف وهم مسافرون، أو أن يغرقهم، أو أن يقتلهم.

اعتقال النواب البابويين والأساقفة

ثم إن هنري المذكور، أرسل في طاعة لأوامر أبيه، عشرين غليوناً جددًا، وقد بنوا بقوة، وكانوا مجهزين بشكل جيد برجال مسلحين، تحت إمرة ستولليوس Stollus. وكان ملاحاً بارعاً جداً، وكلفه باعتراض الجنويين، الذين كانوا يقودون الأساقفة بثقة واطمئنان، ثم أعقب ذلك نشوب قتال عنيف ودموي في البحر، بين البيازنه الذين كان يقودهم هنري شخصياً مع ستولليوس المتقدم الذكر، الذي انقض كسهاب عاصف وانخرط بالقتال، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر الجنويين، وقد لحقت الهزيمة بالجنويين، ووقع الأساقفة والنواب البابويون بالأسر، باستثناء بعضهم الذين قتلوا أو غرقوا، وكان من بين الجميع رئيس أساقفة فايسنزا Vicenza وكثيرين، عددهم كبير حتى نذكرهم، وكان من بين رعاة الديرة راعي دير سافيني Savigny، فقد نجا مع شيء من الصعوبة حرّاً، ودون أن يصاب بأذى، بواسطة مساعدة جون أوف لكسنغتون Lexington، وهو أخوه، وكان فارساً شجاعاً جداً، وكان أيضاً رسولاً من ملك انكلترا، وقد حصلنا على معلومات واضحة عن هذه الحادثة التعيسة من خلال الرسالة التالية، ومن خلال تقرير عام يحمل بينة على صدقها.

رسالة الإمبراطور حول الاستيلاء على مدينة فيانزا

وحول أسر الأساقفة في البحر

وإثر وقوع الأساقفة، والنواب البابويين بالأسر ومعهم أدلائهم الجنويين، حملوا وأحضروا أمام الإمبراطور الذي قام على الفور فكتب إلى ملك انكلترا، وإلى الأمراء الآخرين كما يلي:

من فردريك، الإمبراطور، إلى ملك انكلترا، صحة وعواطف مخلصنة:

بمشاعر سارة وعواطف مبتهجة تسلمنا رسائلكم ورسلكم الذين بعثت بهم إلينا، وبعناية سمعناهم وفهمنا منهم، وكذلك بالنسبة

لِلرِسَالِ، وَالشَّيْءُ نَفْسُهُ بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَوْصَلَهُ الرِّسْلُ إِلَيْنَا بِشَكْلِ شَفْوِيٍّ، مِنْ قَبْلِكُمْ، وَالْآنَ إِنَّهُ بِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الرِّسْلِ، وَلَهُمْ جَمِيعًا، وَلِلرِّسَالِ كُلِّهَا الَّتِي بَعَثَتْ بِهَا بَوَسَاطَتِهِمْ، سَوْفَ نَقْدُمُ إِلَيْكُمْ أَجُوبَةً كَامِلَةً عِبْرَ مَوْثِقِنَا الْأَمِينِ وَالْمَحْبُوبِ كَثِيرًا لَدَيْنَا الْمَعْلَمِ وَلْتَرِدِي أُوْكِرَا Ocro، الَّذِي إِلَيْهِ يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَعْطُوا ثِقَةً كَامِلَةً، مِثْلَ الَّذِي تَعْطُونَا إِيَّاهُ شَخْصِيًّا، فِي كُلِّ شَيْءٍ هُوَ سَوْفَ يُخْبِرُكُمْ بِهِ شَفْوِيًّا بِأَسْمِنَا، وَإِلَيْهِ قَدْ أُعْطِينَا سُلْطَاتٌ كَامِلَةٌ لِلتَّبَاحْثِ فِي الْقَضِيَّةِ، الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا جَاءَ الرِّسْلُ الَّذِينَ تَقْدُمُ ذِكْرَهُمْ، إِلَيْنَا، وَأَنْ يَعْملَ عَلَى إِنْهَائِهَا، وَفَقًّا لِلصِّيْغَةِ الَّتِي أُعْطِيتْ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِنَا.

بِالْإِضَافَةِ إِلَى هَذَا، إِنَّكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَبْتَهِجُ فِيهِ مَعْنَا بِسَبَبِ نَجَاحَاتِنَا، وَفِي إِذْلَالِنَا لِرِعَايَانَا الْمَتَمَرِّدِينَ، عَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَرْعَبًا وَمَنْذَرًا لِلْآخَرِينَ، نَحْنُ نَبِيحُ إِلَيْكُمْ أَخْبَارًا مَرْضِيَّةً، بِأَنْ مَدِينَةَ فَيَانْزَا، الَّتِي لَمْ تَضَعْ ثِقَتَهَا بِاسْتِحْقَاقَاتِهَا، بَلْ فِي أَسْوَارِهَا، وَبِمَوَاءِهَا فَصَلَ الشِّتَاءُ لَهَا، فَتَجَرَّأَتْ عَلَى الثُّورَةِ عَلَيْنَا، وَأَظْهَرَتْ مَعَارِضَةَ لِقَوَاتِنَا، إِنَّمَا مَعَ عَوْدَةِ الرَّبِيعِ، كَانَتْ تِلْكَ الْمَدِينَةُ قَدْ تَعَرَّضَتْ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَذَى بِوَسَاطَةِ حَمَلَاتٍ وَقَذَائِفٍ مَجَانِيْقِنَا، وَقَدْ تَسَاقَطَتِ الْأَسْوَارُ، وَدَخَلَ لَاجُومُونَا بِوَسَاطَةِ أَنْفَاقٍ وَمِمْرَاتٍ إِلَى دَاخِلِ الْمَدِينَةِ، وَأَعْقَبَ ذَلِكَ قِتَالًا يَدًّا بِيَدٍ بَيْنَ سُكَّانِ الْمَدِينَةِ وَجُنُودِنَا، وَعِنْدَمَا وَجَدُوا الْآنَ أَنْفُسَهُمْ مُضْطَرِّينَ — بِسَبَبِ مَا تَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ تَهْدِيدَاتٍ — لَتَعْرِضَ أَجْسَادُهُمْ لِسَيْوفِنَا، تَشَاوَرُوا بِعَقْلَانِيَّةٍ حَوْلَ سَلَامَتِهِمْ لِأَنْ هَزِيمَتَهُمْ هَدَدَتْهُمْ بِدَمَارٍ مُحِيقٍ، لِذَلِكَ شَرَعُوا بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ يَطْلُبُونَ رَحْمَتَنَا، وَفِي يَوْمِ الْأَحَدِ الْخَامِسِ عَشَرَ مِنْ نَيْسَانَ اسْتَسَلَمُوا بِأَنْفُسِهِمْ لِإِرَادَتِنَا، وَأَلْقَوْا بِأَنْفُسِهِمْ وَبِمَدِينَتِهِمْ تَحْتَ رَحْمَتِنَا، وَأَقْسَمُوا يَمِينَ الْوَلَاءِ إِلَيْنَا، وَتَخَلَّوْا عَنْ جَمِيعِ الْأَيَّانِ غَيْرِ الْقَانُونِيَّةِ الَّتِي كَانُوا قَدْ أَقْسَمُوهَا.

وَلَدَى خُضُوعِهِمْ لِرَحْمَتِنَا، الَّتِي هِيَ رَفِيقُ دَائِمٍ لِلإِمْبَرَاطُورِيَّةِ، وَحُكْمِ،

صاحب حكم عادل، قهرنا مشاعر المنتصر، وأقنعنا أنفسنا بالتعامل برحمة مع المغلوبين، كما أننا فكرنا أن نصرنا سوف يكون نصراً أكثر مجداً، بالعطف على هؤلاء الذي عادوا إلينا ثانية، بدلاً من الانتقام منهم في وضعهم الكئيب، وعددنا أنه نوع من أنواع الانتقام، أن نعفو عن المضار، وذلك في الوقت الذي كان في مقدورنا الانتقام لهم بقسوة، وهكذا قمنا بكرم بالعفو عن جرائمهم، مع أنهم كانوا لا يستحقون ذلك، وحللنا جميع الذين كانوا مدانين بالخيانة ضدنا، وبعدما أصلحنا أوضاع المواطنين وأوضاع مدينتهم، تحت سلطتنا، وسلطة الامبراطورية (أكثر من ذلك ما من شيء أعظم سروراً، أو يستحق أكثر) وفقاً لما تسمح به أوضاع الأمور وتتطلبه، صرفنا انتباهنا نحو إفراغ منطقة بولونا Bologna من السكان، ووقتها حدث لسوء حظهم، أن حشدنا من الأساقفة مع أسقف برانستي، وأوتو أوف ثورونجيا، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجن توليان، والذين احتشدوا من مختلف البلدان، وقد قدموا إلى جنوى لمعارضة إجراءاتنا، وقد التحق بهم في هذا المكان غريغوري أوف روماننا، الذي أرسل لمرافقتهم، ولكي يكونوا مرتبطين ببعضهم بعضاً بقوة أكبر، وعقدوا اتفاقاً مع الجنويين العصاة علينا، ومع بعض الناس من المملكة الفرنسية، وقد حشدوا قوة بحرية كبيرة، وجعلوا رجال عصاباتهم يسلحون أنفسهم، واتفقوا معهم على الذهاب إلى البابا، من أجل زيادة الخلاف.

وفي سبيل أن نعيق تقدمهم، وأن نمنع وصولهم، تدبرنا احتشاد أسطولنا في بيزا، ذلك أنه كان قد استعد قبل بعض الوقت في الماضي، ووضعناه تحت إمرة ستولليوس المنتصر، وكان أسطولنا هذا مشحوناً من قبل رعايانا المخلصين، وقد علم مسبقاً بأخبار تحركاتهم، فجرى إرساله إلى الأماكن والموانئ التي كان لابد لهم من المرور بها، حتى في أعماق البحار، لأنها قائمة على طريقهم وكانوا مرغمين على الابهجار

والمرور بها في طريقهم، وكانت الأوامر الصادرة لأسطولنا هي اعتراضهم بالقوة، وعند ذلك هاجم قائدنا المذكور غلايينهم بغلاييننا، وبالرب ذي القدرات الكلية، الذي رأى وقاتل من عليين، والذي يقضي بين الصبح والخطأ، فهو قد رأى طرائقهم الشريرة، وفساد قلوبهم وبفضله الرباني سلمنا هؤلاء النواب البابويين والأساقفة، وأوقعهم مكتوفين في قبضتنا، فبعدما جرى اغراق ثلاثة من غلايينهم، مع كل شيء كان على ظهورهم، وبعدما خسروا حوالي الألفين من الرجال من دون أمل بالعودة، جرى قهر اثنين وعشرين غليوناً — بعون الرب وحكمته — بوساطة غلاييننا، وبعد ايقاع مذبحه كبيرة بين بحارتهم، جرى أسر الجميع، مع ممتلكات كل واحد على ظهور السفن، وكان في هذه الغلايين النواب البابويين الثلاثة المتقدم ذكرهم، مع رؤساء الأساقفة والأساقفة ورعاة الدير، وعدد كبير آخر من القساوسة، وذلك إلى جانب رسل، ونواب أساقفة، حيث وصل عددهم إلى حوالي المائة، مع سفارات من المدن اللومباردية العاصية، وتآلف الذين كانوا ذاهبين إلى المجمع المذكور من أربعة آلاف جنوي، إلى جانب الأشخاص الخاصين والمنتخبين من جنوى، والذين تولوا قيادة الغلايين، ومرافقة الأساقفة، بقصد أخذهم من جنوى وإعادتهم إليها، كما جرى لسوء الحظ الاتفاق بينهم، ووقع هؤلاء جميعاً أسرى بين أيدينا، مع أسقف برانستي، الذي غالباً ما أثار كراهية الرئيس ضدنا.

ويتوجب على هذا الرجل، الذي يحمل شكل ذئب، تحت المظهر الخارجي لشاة، التوقف عن الاعتقاد بأنه يحمل الرب في قلبه، لأننا نعتقد أن قضاء الرب الخاص هو الذي وقع عليه، وعليه أن يعرف بأن الرب معنا، وهو جالس على عرشه ليحكم بين الخير والشر، فهو قد قضى بأن لا تحكم آية العالم من قبل رجال الدين فقط، بل من قبل الحكام ورجال الدين معاً، وعلينا — بناء عليه — بما أن الرب قد كشف

خططه لنا من السماء، وحول كثيراً من الأماكن الوعرة إلى أماكن سهلة، أن نحاول تجنب عرق الحرب، وغبار الصيف، وأن نوجه خطانا، وتفكيرنا، واهتماماتنا نحوه، وهو الذي منحنا المزيد من زيادة السرور والمجد، لنا وللحكام الآخرين، ونحن نهنيء الأمراء الآخرين، وأنت بشكل خاص، لأنك كنت مسهماً في نجاحاتنا هذه المتقدمة الذكر، والتي نرغب بوحدة المشاعر التي تجمعنا، في أن تشارك في واقعة أية حادثة حسن حظ في المستقبل. صدر في فيانزا» إلخ، إلخ.

كيف جرى حمل الأساقفة إلى نابل للسجن فيها

وأرسلت رسائل بهذا المحتوى إلى الأمراء الآخرين، بغية منحهم السرور، لكنهم لم يكونوا جميعاً مسرورين بالذي حوته، كما قال الشاعر الحكيم:

مامن أحد سوف يمتلك

الفخار الذي نما من الجريمة

وبناء عليه، جرى —بناء على أوامر الإمبراطور— حمل الأساقفة وإبعادهم بالبحر، وبعد رحلة لمدة ثلاثة أسابيع تقريباً، جلبوا إلى نابل Naples في أبوليا، حيث أودعوا في سجن أمين، في قلعة كانت محاطة بالمياه، قرب تلك البلدة، هذا ولم يشعروا جميعاً بمصائب السجن في الدرجة نفسها، وكانت أحوال أسقف برانستي تعيسة جداً، مع أن المرض، أو الضعف الشديد قد استبد بهم جميعاً، لأنهم أثناء الرحلة جلسوا مصفدين، ومضغوطين مع بعضهم في أكوام، وترافق هذا مع حر شديد لا يحتمل نزل بهم، وكان الذباب يتطاير من حولهم، ويلدغهم مثل لدغات العقارب، فلقد سحلوا على طريق للشهادة طويل، وجرى تعذيبهم بالجوع والعطش، وكانوا عرضة للإهانات والأزعاج حسب رغبات ملاحى القرصان المعادين، وقد تحملوا هذا كله بحكم طاعتهم،

ولذلك بدا السجن بالنسبة لهم مكاناً للراحة، مع أنه لم يقدم لهم أي نوع منها، ونتيجة لذلك أخذوا يتلاشون، ولا سيما الأكثر ضعفاً بينهم، فقد هلكوا تحت مختلف الأمراض، ولفظ بعض رجال الدين، وعدد كبير آخر أرواحهم التعيسة، وغادروا تعاسات هذه الحياة إلى الرب بعدما حصلوا على رمز الشهادة، وبعد وقت قصير أيضاً، عبر أسقف برانستي، في طاعة منه إلى البابا حتى الموت، من هذا العالم الشرير إلى مكان للراحة.

إرسال هنري لمساعدة أخيه كونراد ضد التتار

وبعدما توصل الامبراطور —بعون الرب وإذنه— إلى تحقيق غرضه، أرسل ابنه هنري، الذي كما ذكرنا قد تغلب على الأساقفة ومرافقيهم، للالتحاق بأخيه كونراد، الذي كان قد استعد مع جيش لا يحصى تعداده، قد حشد من مختلف مقاطعات الامبراطورية، ليضبط عنف التتار والكومان، وفي سبيل أن يواسي الأخوان كل واحد منهما الآخر، ويساعده، ولكي يحاطا بقوة أكبر، فقد أخذ هنري المذكور، بناء على أوامر والده، معه أربعة آلاف من الفرسان، وكتلة كبيرة من الجنود الرجالة، الذين عندما اتحدوا مع الآخرين الذين أرسلوا لمساعدتهم، شكلوا جيشاً عملاقاً، ولدى اكتشاف الأعداء لهذا هدأت رعونتهم، وأمكن ضبط شططهم، وأصبحوا أكثر برودة، ذلك أنه وقعت معركة دموية قرب ضفاف نهر دلفيوس Delpheos، ليس بعيداً عن الدانوب، وبعدما سقط عدد كبير من على الجانبين، أمكن صدّ جيش العدو، مع أن تعداده كان كبيراً جداً، لكن قبل أن يتراجع، وقعت حادثة، نجمت عن خداع اليهود، الذين اعتقدوا أن أعداءنا هؤلاء، كانوا شطراً من الجنس اليهودي، ممن كان محبوساً في جبال القوقاز، وأنهم على هذا قدموا لمساعدتهم، في سبيل اخضاع المسيحيين، ولقد رأينا أن هذه الشرور العظيمة جدية بأن نقحم أخبارها في هذا الكتاب.

الشرور الهائلة لليهود

في هذه الآونة، اعتقدت أعداد من اليهود، في القارة، خاصة في المناطق العائدة للإمبراطورية بأن هؤلاء التتار والكومان، كانوا شطراً من جنسهم، وهم الذين حبسهم الرب في جبال القوقاز، بناء على أدعية الاسكندر الكبير، وقد اجتمعوا بناء على دعوة عامة، في مكان سري، حيث قام واحد منهم، بدا أنه الأكثر حكمة والأعظم نفوذاً بينهم، فخطبهم كما يلي:

«إخواني، نسل إبراهيم الشهير، وكرم رب السبت، الذين سمح ربنا أدوناي، لأن يعيشوا طويلاً مظلومين تحت حكم المسيحيين، لقد حان الآن الوقت كي نحرر أنفسنا، وأن نقوم بقضاء من الرب بظلمهم بدورنا، في سبيل أن يجري انقضاء بقية بني اسرائيل، لأن إخواننا من أسباط بني اسرائيل، الذين كانوا من قبل محبوسين، قد انطلقوا الآن وتدفقوا لإخضاع العالم كله، ووضعوه تحت حكمهم وحكمنا، ويقدر ما كانت معاناتنا الماضية حادة وطويلة، سوف يكون مجدنا أعظم، وهو المجد الذي سوف يصير إلينا، ولذلك دعونا نذهب إلى استقبالهم مع هدايا ثمينة، وأن نتلقاهم بتكريم هو الأعظم، فهم يحتاجون إلى القمح، والخمر، والسلاح».

وسمع الحشد كله كلامه بسرور، وجلبوا على الفور جميع السيوف، والخنجر، والدروع، التي وجدوها معروضة للبيع في أي مكان، وفي سبيل إخفاء خيانتهم، وضعوهم في براميل، ثم إنهم أخبروا المقدمين المسيحيين، الذين كانوا تحت حكمهم، بأن هؤلاء القوم الذين يدعون بشكل عام باسم تتار، كانوا يهوداً، وأنهم لن يشربوا خمر، ما لم تكن معمولة من قبل يهود، فهذا ما أخبرونا به، ورجونا بخرارة أن نزودهم ببعض الخمرة المعمولة من قبلنا، نحن إخوانهم.

ونحن رغبة منا، في إزالة هؤلاء الأعداء غير البشريين العامين من بيننا، وأن نحرر المسيحيين من طغيان الدماء المحيق بهم، أغدنا حوالي الثلاثين برميلاً مليئين بخمور مسمومة مميتة، حتى تحمل إليهم في أسرع وقت ممكن، ولذلك سمح المسيحيون إلى هؤلاء اليهود الأشرار، بتقديم هذه الهدية الشريرة إلى أعدائهم الأشرار، وحدث أنه بعدما قطع هؤلاء اليهود مسافة طويلة من ألمانيا، وكانوا على وشك عبور أحد الجسور مع براميلهم، طالبهم صاحب الجسر — تبعاً للعادة — بدفع الضريبة مقابل جوازهم، ورد عليه اليهود بصلف، ورفضوا تلبية مطالبه، وقالوا بأنهم كانوا مستخدمين في هذا العمل لصالح الامبراطورية، لابل في الحقيقة لصالح المسيحية كلها، حيث أنهم كانوا مرسلين إلى التتار، بشكل سري لتسميمهم بخمرتهم، وتشكك الحافظ للجسر بتأكيدات اليهود، فأحدث فتحة في أحد البراميل، لكن ما من سائل تدفق منه، وهنا أصبح متأكداً من خيانتهم، فخلع غطاء البرميل، وفتحته بالقوة، فاكشف أنه كان مملوءاً بالسلاح.

ولدى رؤيته لهذا المشهد، صرخ بصوت مرتفع «عجباً، ماهذه الخيانة التي لم يسمع بمثلها لماذا نسمح لمثل هؤلاء الناس بالعيش بيننا؟»، وعلى الفور قام مع آخرين، جمعتهم دهشتهم من حوله، فكسروا بقية البراميل، وما ان أنجزوا ذلك، حتى وجدوهم مملوئين بسيوف كولونية Cologne، وبخناجر من دون أغمدة، قد صفت وجمعت بشكل مندمج، وهكذا قاموا على الفور بإظهار الخيانة الخفية، والخداع غير الاعتيادي لليهود، الذين اختاروا مساعدة هؤلاء الذين هم أعداء مكشوفين للعالم، والذين كما قيل، كانوا بحاجة ماسة إلى السلاح، أكثر من مساعدة المسيحيين الذين سمحوا لهم بالعيش بينهم، واتصلوا بهم بكل وسيلة من وسائل الاتصال، ولذلك جرى تسليمهم على الفور إلى منفذي العقوبات، من أجل إما أن يوضعوا بسجن أبدي، أو أن يجري

إعدامهم بسيوفهم.

كيف جرى تحليل الناس من عهودهم بحمل الصليب مقابل دفع مبلغ من المال

وجرى في هذه الآونة، في سبيل سلب بلاد انكلترا التيسية، ونهب ثرواتها، ابداع ألف طريقة، وذلك من قبل الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، الذين كانوا مدعومين بترخيص من قبل البابا، حيث تولوا أثناء وعظهم منح تحليل كامل من جميع الذنوب إلى جميع الذين سوف يحملون الصليب، في سبيل تحرير الأرض المقدسة، وإثر ذلك، وبعد يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر، وبعدما أقنعوا كثيرين بحمل الصليب، قاموا بتحليل هؤلاء من تعهدهم، على شرط الاسهام بدفع مبلغ كبير من المال من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وأن يدفع كل واحد، بقدر ماتسمح له إمكانياته، ولكي يجعلوا الانكليز أكثر جاهزية، وأكثر قبولاً بمطالبهم أعلنوا بأن المال سوف يجري إرساله إلى الإيرل رتشارد، وعلاوة على ذلك أروهم رسالة منه، وذلك لكي يقدموا ضمانة أفضل، كما أنهم منحوا بعض الغفرانات إلى رجال مسنين، ومرضى، ونساء، ومعتسوهين، وأطفال، ممن حملوا الصليب، أو اقترحوا حمله، وتسلموا المال منهم مسبقاً من أجل هذا الغفران، وعرضوا رسائل توثيقية من الايرل رتشارد تتعلق بهذه القضية، وقد جرى الحصول على هذه الرسائل من البلاط الروماني، وبهذه الطريقة أفرغوا محافظ نقود الانكليز، وجرى الحصول على مبلغ كبير من المال، نظراً للحظوة التي تمتع بها الايرل رتشارد، إنما علينا هنا أن نسأل: من الذي سيكون الحافظ الأمين والموزع لهذا المال؟ ذلك أننا لانعرف.

تثبيت المعلم نيقولا أوف فارنهام في أسقفية درم

وفي التاسع من حزيران، في هذا العام، جرى تثبيت المعلم نيقولا

أوف فارنهام Farnham الأسقف المنتخب لدرم، وتكريسه أسقفاً لذلك الكرسي، في كنيسة القديس أوسولد Oswald في غلوستر، وقد تولى تكريسه وولتر رئيس أساقفة يورك بحضور الملك والملكة، مع عدد كبير من الأساقفة ورعاة الديرة، لكن فيما يتعلق بالقضية التي نظر إليها والمتعلقة بتكريسه للرهبانية، والتي أثرت بين بعض الذين رغبوا في إثارة الخلاف، رفض نيقولا المذكور المطالبة بأي امتياز ليس له حق فيه، كما أنه لم يظهر نفسه متعجرفاً أو متمرداً، ولذلك جرى أثناء تكريسه، بمشهد عام أمام جميع الأساقفة والنبلاء، وبحضور مطرانيته، أن قام وولتر رئيس الأساقفة المذكور، بمهابة ووضوح بتكريسه رهبانياً بصوت مرتفع، وفقاً للعادة، وكان ذلك كما يلي:

«أنا نيقولا، الأسقف المنتخب لكنيسة درم أغترف بالطاعة القانونية، والاحترام، والخضوع لكنيسة يورك، وإليك أيها الأب وولتر رئيس أساقفتها، وأنا أدون هذا بيدي»، ثم إنه قام على الفور، بحضور جميع المحتشدين، فوضع علامة الصليب بالحبر على رأس الوثيقة، وناولها إلى رئيس الأساقفة كي يجري حفظها لديه في خزانته.

الموت التعيس للإيرل غيلبرت مارشال

في الوقت الذي كانت فيه الأيام تتضاعف، وتلاعب، وتخدع العالم بوقائع متنوعة، أعدّ الايرل غيلبرت مارشال مع بعض النبلاء الآخرين، نوعاً من أنواع مباريات المبارزات، مما كان بعضهم يدعو به باسم «مغامرة»، لابل بالحري ينبغي دعوته «سوء مغامرة»، فقد جربوا أولاً قوتهم على رمايات قوس زيار من هارتفورد، حيث تمكن بوساطة براعته في تكتيكات الفروسية، من الحصول لنفسه على الثناء في العلم العسكري، وأعلن الجميع، أنه على الرغم من صغر حجم جسده، قد نال باستحقاق التميز لنفسه نظراً لشجاعته، وهذا ما كان الايرل المذكور

□

يهدف نحوه بشكل رئيسي، لأنه كان في المقام الأول، قد أعدّ للالتحاق بطوائف الكهنة، حيث قيل بأنه كان ضعيفاً، وغير بارع في التمارين الحربية، وامتطى أثناء هذه المباراة على فرس أصيل، من الخيول الإيطالية لم يكن معتاداً عليه، وكان مجهزاً بدرع جميل، ومحاطاً بكتلة كثيفة من الجنود، الذين مالّبوا أن تركوه بعد ذلك، وتفرقوا، ينوون الحصول على الربح.

وعندما كان الايرل يسلي نفسه بتفقد فرسه أثناء عدوه بسرعة قصوى، ومن دون التوقف عن لكز طرفيه بركابه الحادين، ليحثه على سرعة أكبر، ولأن الوضع اقتضى شد المقود، انقطع المقود من طرفيه بشكل مفاجيء من عند عقدة الاتصال، وأخذ الفرس يهز رأسه نحو الأعلى، فأصابه بضربة قاسية على صدره، وأكد بعض الذين كانوا هناك من دون تردد، بأن اللجام قد جرى قطعه بشكل خياني من قبل بعض الأشخاص الحسودين، من أجل أن يترك هكذا تحت رحمة فرسه، فيمزق إلى قطع ويقتل، أو على الأقل يمكن أسره من قبل خصومه كما يرغبون، وعلاوة على ذلك كان قد أصابه الصمم بسبب الضجة، وصار أعمى تقريباً، بسبب الحرّ، والغبار، والتعرق، وبات رأسه مثقلاً بسبب وزن خوذته الثقيلة، ولم يعد من الممكن له السيطرة على حصانه وكبحه، لا من قبله ولا من قبل أي واحد آخر، وبعد بعض الوقت أغمي عليه، وبدأ يتأرجح في سرجه، ثم مالّب أن سقط شبه ميت، وجاء سقوطه من على ظهر فرسه، وإحدى قدميه معلقة بالركاب، وبهذه الطريقة جرى جره لمسافة ما فوق الحقل، حيث أصيب ببعض الجروح الداخلية، التي سببت موته.

ولقد هلك في مساء السابع والعشرين من حزيران، وسط حزن عميق وصراخ مرتفع من قبل الذين رأوه في بيت الرهبان في هارتفورد، وقبل أن يلفظ نفسه الأخير، حيث كان قد تلقى قربان الموت، عمل

طلباً إلى الكنيسة، كنيسة العذراء المباركة في هارتفورد في سبيل إنقاذ روحه، وجرى بعد ذلك فتح جسده، فوجدوا أن كبده كان أسود وممزقاً من قوة الضربات التي تلقاها، وقد جرى دفن أحشائه في الكنيسة المذكورة، أمام مذبح القديسة مريم، التي إليها عهد بروحه أثناء موته.

وجرى في اليوم التالي حمل جسده — حيث تقدم عليه أخوه، وروفق من قبل أسرته كلها — إلى لندن ليدفن قرب أبيه، وقتل أثناء المبارزة نفسها أيضاً، واحد من حاشية الايرل اسمه روبرت دي سي Saye، وأيضاً دفنت أحشائه مع أحشاء الايرل، وأصيب أيضاً كثير من الفرسان والرجال المسلحين بجراحات قاسية بالرمح أثناء المبارزة نفسها، لأن حسد وغيرة العديد من الأطراف المسؤولة قد حولت الرياضة إلى معركة.

وعانت شؤون الصليب، ومصالح الأرض المقدسة من خسارة كبيرة، بموت الايرل المذكور، لأنه كان قد نوى الانطلاق نحو القدس في الشهر المقبل من دون تقاعس، حيث كان قد جمع مالا من جميع الذين حملوا الصليب في البلاد، فقد دفع مائتي مارك إلى البابا للحصول على إذنه، وبهذا قلّد التصرف الحكيم للايرل رتشارد.

**كيف جبا إثنان من كهنة البابا مالا من جميع أرجاء انكلترا
من أجل استخدامات قداسه**

أثناء هذا الوقت كله عندما كان الحظ يلعب بشؤون حشود البشر، استمر شره الرومان ونهمهم ولم يشبع، لأنه بعد مغادرة النائب البابوي، بقي اثنان من كهنة البابا في انكلترا، من أجل القيام بواجبات النائب البابوي، وكان هذان الاثنان هما بطرس الذي كنيته لى روج، وبطرس دي سوبينو Supino، وكانا اثنان لا يعرفان التعب في الجباية، وكانا يحملان ترخيصاً بابوياً من أجل استخراج وكالات، وفرض حرمانات

من شراكة المؤمنين، وحرمانات كنسية، ولقد جيا الأموال بمختلف الطرائق من الكنيسة الانكليزية التعييسة، من أجل — كما قالوا — أن تتمكن الكنيسة الرومانية، التي أصيبت إصابات مضاعفة بمختلف الطرق، من استرداد أنفاسها، وأن تتنفس مجدداً بشكل حر، وتصرف بطرس لى روج، المتقدم الذكر، الذي وضع نفسه في مقام فوق الرجل الآخر، وفق طرائق النائب البابوي، وكتب رسائل إلى راعي الدير هذا، وإلى رئيس الرهبان ذاك، وتوجه بالخطاب برسائله دوماً هكذا: «من المعلم بطرس لى روج، الصديق المقرب، والقريب لقداسة البابا، تحيات، إلخ، إلخ»، واستمر استناداً على هذه الصلاحيات في فرض الوكالات واستخراج الأموال بمختلف طرائق الجباية، وذهب زميله بطرس دي سوينو إلى إيرلندا، بموجب إذن من الملك، وذلك لصالح البابا، حيث كان يحمل ترخيصاً منه، وبما أنه حصل على المساعدة من السلطة المدنية، قام بطغيان عظيم باستخراج المال من أساقفة تلك الكنيسة، وقدم بعض الذين كانوا معلقين ومنوعين من ممارسة وظائفهم، إلى بطرس المذكور في لندن، لإرضائه بكل ما اختار أن يطلبه، وعاد بطرس سوينو من إيرلندا في الخريف التالي، وأخذ طريقه إلى روما حاملاً معه ألفاً وخمسمائة مارك، وحقائب سرجه كانت مليئة تماماً.

الملك الفرنسي يعطي مقاطعة بواتو إلى أخيه أمفولسوس

في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، في هذا العام، أعطى الملك الفرنسي، بناء على نصيحة الذين يكرهون مملكة انكلترا، مقاطعة بواتو إلى أخيه أمفولسوس Amphulsus وأضفى في الوقت نفسه، وسط أهبة عظيمة، نطاق الفروسية على أمفولسوس المذكور، كما منحه مرتبة كونيتة بواتو، التي كانت كما هو معلوم بموجب الحق هدية الملك الفرنسي الخاصة إلى ملك انكلترا، أو إلى أخيه، كما أنه أوجد في الوقت نفسه عدداً من الفرسان النبلاء لتكريم تنصيب أمفولسوس

المذكور، وبذلك هو قدم قليلاً من التقدير، أو بالحري لاشيء من التقدير إلى إدعاء أو لقب الايرل رتشارد، الذي قاتل باخلاص في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وحرر الأسرى الفرنسيين، ودهش كثيرون إلى حد كبير تجاه أفراد النبالة الفرنسية، التي سمحت بهذا، وبذلك كانوا غير أوفياء، وأعادوا من دون حياء الشر مقابل الخير.

رسالة الايرل رتشارد الحاوية لرواية عن حجه

وكان في هذه الآونة أصدقاء الايرل رتشارد قلقين حول شؤونه، وقد حصلوا على معلومات وافية عن ذلك في الرسالة التالية التي أرسلت من قبله:

من رتشارد ايرل كورنويل وكونت بواتو إلى النبلاء، وإلى المبجلين والسادة المحبوبين في المسيح ب. B دي ريفر Rivers، وايرل أوف ديفون Devon، وراعي دير بيوليو Beaulieu وروبرت الكاهن، صحة وكل الرغبات الطيبة، مع عواطف مغلصة:

إنه بالنسبة للشدة العظيمة والأسى الذي تعيشه الأرض المقدسة، وبشأن المشكلة الصعبة المتعلقة بإعادتها وتخليصها منذ الفاجعة عند غزة، لقد وصل رجال عقلاء ومجربين وعارفين بالصدق إلى قرب هذه المواضع، ووصلت أخبار من بعيد، إنها يمكن لرسالتنا الحالية أن تكشف سرنا، وبما أن الطريق مفتوح إليكم، فإنها قد تعطي الفرصة لتفاسير خبيثة، لذلك فإن كثيراً من الأشياء سوف يجري إيضاحها فيها، هي الآن نائمة، والكذب يغطي قعر قلبنا.

فمنذ الوقت الذي ابتعد فيه الملوك والممالك عن القدس، ولأنها كانت مقسمة وهي بأيدي ممتلكين ظالمين وغير عادلين، لقد شعرنا بحزن كبير، ولا يمكننا أن نلتزم بالصمت، ولا بد لنا من أن نطلق ألسنتنا بشكاوي مريرة، حيث ليس هناك قضية طيبة نشغلهم بها، لأن سيف

الرحمة قد خرق روحنا، إلى درجة أن روحنا لم تعد قادرة على أن تستوعب ذاتها، لأنه بالفعل منذ بعض الوقت تحكم الخلاف بالأرض المقدسة بدلاً من السلام، وحلّ الشقاق مكان الوحدة، والكراهية محل المحبة، والعدل قد أقصي نهائياً، ومن هذه البذور هناك الكثير من النباتات في تلك الأرض، وصار كثيرون جامعون للثمار التي نتجت عنها، وأنا أمل بأنهم الآن قد اجتثوا، هذا وليس هناك بين جميع محبيها واحد يتولى مواساتها، لأن الأخوين التوأمين غير متفقين وهما على صدر أمهما، والذين كان عملهم الدفاع عنها، أصبحوا متشاكخين بوفرتهن، وقد أكلوا وتقيأوا هذه المكونات حتى الجذور، وتسببوا بجعل أغصانهم تمتد بالطول وبالعرض، لأن كميات وافرة من الأشياء الجيدة تنتج مثل هذه الأشياء المزعجة بعد خلاف متبادل، ذلك أن تأنيبات الأب المترأس لكرسي بطرس، نظر إليها بعدم تقدير مطلق، مع أن الفئة الأقوى قد بهرت العالم بشهرتها، وفي سبيل تهدئة هذه الفئات المتنازعة قد بذلنا جهداً كبيراً، لكن مازالت خطوات السلام لم تترك أي أثر، بقدر ما أن أتباع الخلاف لم يصبحوا معتادين على كلمات السلام، وتمكن الذين لديهم أموال بسهولة من جذب الآخرين إليهم مادامت الأموال موجودة، لكن عندما حلّ وقت صون اعتدال أمهم، تركوا صانعي السلام، واختلقوا مشاغل سرية، ولم يظهروا الاهتمام بجلب المواساة إلى أمهم، ولهذا السبب فإن العدد الأكبر من الفرسان الغاليين، الذين تعدادهم تقريباً ضعف تعداد المسلمين، قد انغمسوا كلياً وهلكوا بالعبادات الشريرة، وتشجع أعداء الصليب بشكل غير متوقع، حتى أن كتلة صغيرة منهم لم تعبأ سوى قليلاً، أو لاتعبأ بالمرّة بالعدد الكبير منا.

وبسبب هذا الوضع، وجدنا عندما وصلنا أولاً إلى هنا، أن النبلاء الذين يمكن أن يقدموا العون لنا، قد شرعوا بالمغادرة، وبدا أن انقاذ

تجعل الجراحات من دون وسائل علاجهم، والأسف من دون وسائل
المواساة، لأننا عندما كنا متوقعين لدى وصولنا إلى هنا، القيام بالتعاون
مع بقية الصليبيين، ببذل قصارى جهدنا، حسبما هو مفروض علينا،
بموجب عهدنا، بالانتقام للاهانات التي لحقت بالصليب من قبل أعداء
ذلك الصليب، وبمهاجمة أراضيهم، واحتلالها بعد ذلك، وإعادتها بعد
ذلك إلى وضع صالح، رأينا ملك نافار، الذي كان آنذاك مقدم الجيش
ورئيسه، وكونت بريتاني، ووجدناهما على الرغم من أنها كانا على علم
مسبق بموعد وصولنا قبل خمسة عشر يوماً من وصولنا إلى عكا، قد
غادرا مع حشد كبير جداً، وقبل أن يغادرا، وفي سبيل أن يبدوا أنها قد
عملتا شيئاً ما، عقدا نوعاً من أنواع الهدنة مع الناصر، صاحب الكرك،
وتم الاتفاق بموجب ذلك بوجوب تخليه عن جميع الأسرى الذين
أسروا عند غزة، الذين كانوا مسجونين لديه، أو تحت سلطانه، وذلك
مع بعض الأراضي المشمولة بشروط الهدنة، وكضمانة على ذلك أعطى
ابنه وإخوانه رهائن، وأثبت شرطاً هو مهلة أربعين يوماً من أجل تنفيذ
شروط الهدنة، والذي حدث أنه قبل انقضاء تلك المدة غادر الملك
المذكور والكونت، دون الاهتمام بالموعد المتفق عليه، أو بشروط الهدنة،
وخلال تلك المدة، وبالتحديد عشية عيد القديس ديونيسيوس
Dionysius، وصلنا إلى عكا، كما كنا قد أخبرناكم من قبل، وقمنا
على الفور، بناء على نصيحة عامة من الجميع، فبعثنا إلى الناصر المذكور،
نسأله عما إذا كان سيسطيع مراعاة الهدنة معنا، وهي الهدنة التي عملها
مع الملك المذكور، وتلقينا جواباً منه، بأنه على استعداد لفعل ذلك إذا
كان ممكناً، وذلك بسبب احترامه لملك نافار المذكور، مع أنه سوف يربح
قليلاً منها، وعلى هذا قمنا بناء على نصيحة النبلاء بانتظار استكمال
الموعد المتفق عليه، لنرى النتيجة، وعند انتهاء الموعد، تلقينا رسالة
أخرى منه، بأنه لا يستطيع بأي شكل من الأشكال الالتزام بالاتفاقية
المتقدمة الذكر، وعند سماعنا بهذا، قمنا بموافقة من الجميع، بحمل

المتقدمة الذكر، وعند سماعنا بهذا، قمنا بموافقة من الجميع، بحمل أنفسنا إلى يافا، لتتولى، مع جميع الخيطة الممكنة، تحسين أوضاع الأرض المقدسة، التي تدهورت كثيراً للأسباب المتقدمة الذكر.

وقدم إلينا إلى هذا المكان رجل صاحب رتبة وسلطة، من قبل سلطان مصر، وأخبرنا بأن مولاه كان راغباً بالدخول في هدنة معنا، إذا أردنا ذلك، وبعد سماع ماتولى عرضه علينا وفهمنا تماماً لذلك، وإثر طلبنا بكل اخلاص نعمة الرب، قمنا بناء على نصيحة دوق بيرغندي، والكونت وولتر دي بريين، ومقدم الاستبارية، والنبلاء الآخرين، لابل في الحقيقة الجزء الرئيسي من الجيش، بالموافقة على شروط الهدنة المتقدم ذكرها، مع أنها بدت عند وصولنا قضية صعبة الانجاز، علماً بأنها هدنة تستحق الثناء، وتقدم منافع إلى الأرض المقدسة، لأنها مصدر للبهجة والأمان للناس الفقراء، وللمسافرين، ومفيدة ومقبولة من قبل الطبقة الوسطى من السكان، وصالحة ومشرفة للأغنياء ولرجال الدين.

كما أنه لم يظهر لنا لدى نظرنا إلى الأوضاع المتدهورة للأحداث المحيطة، أننا لايمكننا آنذاك أن نستخدم أنفسنا بشكل نافع أكثر من العمل على تخليص الأسرى التعساء من الأسر، لأنه كان هناك نقص بالرجال والأشياء (مع أننا وحدنا بقينا ومعنا مال من حولنا) وكان من الممكن الإفادة من أيام الهدنة، بتقوية وتحصين المدن والقللاع التي أصبحت مدمرة، في وجه المسلمين وضدهم، ولقد رأينا من الموائم أن نذكر أسماء الأماكن والمناطق التي أعطيت إلينا، بموجب شروط الهدنة، مع أن ذلك قد يكون متعباً لكم، ونحن نفعل ذلك خشية أن يقوم بعضهم بموجب تفسير شرير، فيعزوا أعمالنا المجيدة إلى غيرنا، أو أن يقوم بفساد وتآمر بتشويه سماتهم، لأن هناك بعضاً — مع أنهم قلة — قد رفضوا الموافقة على شروط الهدنة، وهذه الشروط هي كما يلي:

إن الأراضي التي أعطيت بناء على شروط الهدنة مع الايرل رتشارد

هي هذه: المنطقة الجبلية لبيروت، مع الأراضي والأجزاء المفصولة العائدة لها، وجميع منطقة السعيد Said مع متعلقاتها، وقلاع: الشقيف، والقرين، والقلعة الجديدة مع متعلقاتهن، واللقية Lekayt واسكندرون، ولبوة Lebet، وبشيت Becheet (?) واللدّ مع متعلقاتهن، وأراضي كل من الجبال والسهول، وقد تخلوا أيضاً عن أراضي بلدة تورون مع متعلقاتها، وطابار Tabar (?) متعلقاتها، وقلعة Benaer، وقلاع Amabel، وراما Rama، و Amost، وكذلك قلعة Hybile، الواقعة فيما وراء النهر باتجاه الشرق، مع جميع متعلقاتهم، كما استسلمت قلعتا صفد والناصره وكذلك جبل الطور، واللجون و Aschalis، وقلعة بيت جبرين مع متعلقاتهم، ومع جميع القرى العائدة إلى بيت اسبتارية القديس يوحنا، وكذلك ماهو معروف أنه عائد إليهم، أي المتعلقات بالقدس وبيت لحم، وكذلك جميع الأرض القائمة على الطريق التي تقود من القدس إلى بيت لحم، ومن القدس إلى لدّ رامّا، ومن اللدّ إلى يافا، مع جميع القرى التي توجب أن تكون في أيدي الصليبيين، وجرى أيضاً تسليم مدينة القدس إلى الصليبيين، ومثل ذلك بيت لحم أيضاً، وجميع الأرض التي من حول القدس وجميع القرى، التي جرت تسميتها في شروط الهدنة، وهي القديس لعازر، بيت عنيا، بيت صيدا، و Wissewurch، و Derphat، وبيت عاموس Bethamus، و Bechele، وبيتك Bethic، وعنون Anon، وكوكبي Kokabi، وبيرسامول Bersamul، و Bebrit، و Kikai، وبيت أمي Bethuame، و Bebe، و Kipsa، و Bethit، و حوريب Horeb، و Athacana، و Clepsta، و Tolma، و Argahoga، و Bertapsa، و Bethsaphau، و Tabli، و Sorobooz (1)،

١- لقد تعدر ضبط أسماء هذه المواقع، ولم تذكر المصادر العربية المتوفرة هذه الهدنة

بالتفصيل.

وجميع متعلقاتهم، والأرض المسماة في تقسيمات القدس، وما هو معتمد على الطريق الذي هو هناك، حسبها هو موجود ومشروح في الهدنة الكبرى.

وجميع هذه المناطق، والقلاع الموجودة فيها، التي تقدم ذكرها، مسموح للصليبيين القيام بتحسينها أثناء الهدنة، إذا ما رغبوا، ولسوف تجري إعادة النبلاء الأسرى أيضاً مع جميع الأسرى والفرنسيين فهؤلاء سوف يجري إطلاق سراحهم من على الجانبين، وفور الفراغ من إعداد الهدنة المتقدمة الذكر، أخذنا طريقنا إلى عسقلان، ولكي لا تمر الأيام من دون عمل، قمنا ببناء على نصيحة جميع مقدمي الصليبيين بالشروع بتحسين قلعة كبيرة هناك، وأرسلنا من ذلك المكان، رسلاً إلى سلطان مصر، لإقناعه باقسام يمين بالتعهد بمراعاة الهدنة المذكورة، إذا ما رغب بفعل ذلك، ولكي يرسل في الوقت ذاته الأسرى الذين تقدم ذكرهم، ولقد قام لسبب لانعرفه بحبس رسلنا لديه، دون إعطاء أي جواب، من عيد القديس أندرو حتى يوم الخميس بعد عيد تطهير مريم العذراء (٢-شباط)، غير أنه خلال هذا الوقت، حسبنا وجدنا في رسائله قام بناء على نصيحة أعيانه، فأقسم بالمحافظة على الهدنة المذكورة، ولقد بقينا خلال هذا الوقت كله في عسقلان مواظبين على نيتنا في بناء القلعة المتقدمة الذكر، حيث تقدم العمل فيها كثيراً، وذلك بفضل الرب، إلى حد أنه في الوقت الذي نرسل فيه هذه العروض، قد جرى تزيينها، وقد أحيطت كلياً بسور مزدوج، وبأسوار عالية وشرافات، مع أربع أحجار مربعة وأعمدة منحوتة من الرخام، وكل شيء عائد إلى قلعة، ما عدا خندق من حولها، سوف ينتهي بمشيئة الرب، من دون احباط، خلال شهر من عيد الفصح، وهذا لم يعمل لسبب جيد، هو بما أننا لم نكن متأكدين بأن الهدنة سوف تثبت، رأينا أنه من الأفضل شغل وقتنا في البناء وفي تحصين هذه القلعة، حتى إذا ما خرقت الهدنة بموجب أي

حادث، يمكننا أن نمتلك في التخوم وعند المدخل نفسه لأراضيهم، هذا المكان، الذي كان من قبل تحت حكمهم، ويكون لنا مكاناً حصيناً للالتجاء إليه، إذا ما دعنا الضرورة إلى التراجع هناك، وكذلك الذين سوف يبقون هناك، لن يكون لديهم مسوغ للخوف من نتيجة الحصار، لأنه صحيح أن المحاصرين يمكنهم أن يقطعوا جميع المساعدات والمؤن ويحولوا دون وصولها إليهم، مع ذلك يمكن لجميع الحاجات الضرورية أن تصل إليهم بالبحر، وفي أيام السلم أيضاً، نحن نعتقد أن هذه القلعة لن تكون من دون فوائدها، بما أنها المفتاح والملجأ في البر والبحر لمملكة القدس، وهي ستكون في الوقت نفسه تخريب وتدمير لمصر وللمناطق الجنوبية من البلاد.

وقمنا بعد هذا في يوم عيد القديس جرجس، بعدما جرى الحلف على مراعاة السلام من الجهتين، وبعدهما جرى تثبيت الهدنة، فاستقبلنا —وفقاً لشروط الهدنة— جميع الأسرى الصليبيين، الذين كنا نتوقع وصولهم وننتظرهم منذ وقت طويل، وبعد إكمال جميع هذه المسائل، قمنا بتوديع الأرض المقدسة بسلام، وفي يوم عيد العثور على الصليب المقدس، أقلعنا من عكا للعودة إلى الوطن، لكن لعدم توفر ربح طيبة أثناء الرحلة، ولأننا كنا متعبين كثيراً نزلنا في ترينيني Trapani في صقلية، وكان ذلك في ثمانية عيد القديس يوحنا المعمدان، وسمعنا ونحن في ذلك المكان نبأ اعتقال وسجن بعض الأساقفة، وبالألام المحزنة الأخرى التي عانت منها الكنيسة، وبناء عليه، وفي سبيل استرداد السلام، ببذل كل ما نملكه من قوة، بين هؤلاء المتخاصمين، ولكي نبذل قصارى جهودنا من أجل إطلاق سراح الأسرى، وفي سبيل تقديم المواساة إلى أمناء، صرفنا وجهة سفرنا، وتحولنا للذهاب إلى بلاط روما، وحالما يسمح لنا الرب، المقدر لكل شيء ولكل حدث، ننوي العودة إلى انكلترا، بكل سرعة ممكنة.

قبله مع التكريم كله، وبعدما تعانقاً، وسط صرخات الترحيب من قبل جميع أتباع الامبراطور، انخرطاً في حديث طويل، كان مرغوباً به منذ زمن طويل، وذلك مع مختلف أنواع التهاني، ومتعا نفسيهما كأصدقاء لعدة أيام، وأمر الامبراطور بمعاملته بلطف ونعومة، مع الفصد، والحمامات، ومختلف أنواع الكمادات الطبية حتى يسترد قوته بعد مخاطر البحر، وامتلك بعد عدة أيام، بموجب إذن من الامبراطور، حديثاً حراً وطويلاً مع أخته الامبراطورة، وبموجب أوامر الامبراطور أيضاً، جرى عرض مختلف أنواع الألعاب وآلات الموسيقى، التي شريت لتسلية الامبراطورة، عرضها عليه لرؤيتها ولتفحصها، ومنحه هذا سروراً عظيماً وفرحاً.

وكان بين الأشياء المبدعة التي أدهشته، كان هناك لعبة خاصة أثارت إعجابه وثناؤه، فقد كانت هناك فتاتان مسلمتان رشيقتان، قد ركبتا فوق أربع كرات مستديرة، قد وضعت فوق الأرض، حيث وقفت الأولى فوق كرتين، والأخرى فوق الاثنتين الأخريتين وقد سارتا نحو الخلف ونحو الأمام، وهما تصفقان بأيديهن، وتتحركان بسرور فوق هذه الكرات المتحركة، وتحركان أذرعتهم بحركات معبرة، وتغنيان مختلف الألحان، وتتمايلان بجسديهما وفقاً للحن، وتضربان بالصنوج أو بالكوسات بأيديهن معاً، ويضعن جسديهما في مختلف الأوضاع المسلية، وقد قدمن مع البهلوانات الآخرين، مشهداً ممعناً أن تنظر إليه.

وبعد مرور عدة أيام استراحا فيها من متاعبهما، أرسل الامبراطور، الايرل رتشارد الذي وثق باخلاصه وحكمته، إلى بلاط روما (حسبما وردت الإشارة الموجزة إلى ذلك في الرسالة التي بعث بها الايرل إلى انكلترا) في سبيل إعادة السلام بينه وبين البابا، وأعطى الامبراطور أيضاً، بالإضافة إلى التشريفات التي أضفاها على الايرل المذكور، ورقة مختومة بالختم الامبراطوري، تعهد فيها بالالتزام بقراره، حول أية

كان مشتاقاً كثيراً لرؤيته، وذلك بوساطة القيادة والتوجيه المريح لمثل هذا الرجل، الذي كانت تعلوه بحكمة ابتسامة مرضية، وبذلك اكتشف التأثير القوي، للأدعية المتواصلة، للرجال المستقيمين، الذين عهد بنفسه بتقوى إليهم، عندما كان على وشك الشروع بحجه، لأنه عندما كان على وشك القيام برحلته، جاء إلى كنيسة القديس ألبان، الشهيد الرائد لانكلترا، ودخل إلى بيت هيئة الكهنة، وتوسل إلى رهبان الدير، بأن يسمح له بمشاركة خاصة في منافع صلواتهم، والشيء نفسه قد فعله أيضاً في بعض البيوت الأخرى العائدة لرجال الدين، حيث كان من المعتقد أن القداسة مع نظام الطائفة لهما مكانة عليّة وتقدير كبير، وللعار ولأسف أولئك من طلاب الكنيسة الرومانية، أن الأساقفة والنواب البابويين، الذين أرسلتهم الكنيسة إلى مايننا، لجمع المال، والذين انطلقوا بمثابة مرآة ومثل للرجال العلمانيين، أنهم لم يعملوا وفق الطريقة نفسها، عندما كانوا يقلعون للقيام برحلاتهم، في سبيل أن يكونوا مؤيدين في مخاطرهم بصلوات القديسين، لأننا هكذا أمرنا أن نعمل في الكتابات المقدسة، فعندما وضع القديس بطرس الرسول في السجن، عملت له صلوات بلا انقطاع من قبل الناس، وقد أطلق سراحه من قبل الملاك الذي أرسل إليه من قبل الرب.

الإمبراطور يستقبل الإيرل رتشارد بيهجة

وفي الوقت نفسه، عندما كان الإيرل رتشارد على طريقه لالتهاق بالامبراطور، استقبل في مختلف المدن التي اجتازها بسرور كبير، وبتشريف، فقد خرج المواطنون مع زوجاتهم لاستقباله مع الموسيقى والغناء، وهم يحملون أغصان الأشجار والورود، وهم أيضاً يرتدون ثياب العيد وزينته، وكان بعض الفرسان يمتطون على خيول ثمينة، وكان ذلك من صنع دليله، الذي كان قد تلقى أوامر من الامبراطور ليتصرف هكذا، وعندما وصل أخيراً إلى عند الامبراطور، استقبل من

انكلترا، وقدم إليه شكوى جديدة حول هذه الجريمة المنحطة، والتمس من الملك بحرارة العمل على اطلاق سراح غريفين، الذي حبس هكذا سجيناً بشكل غير عادل من قبل حفيده داوود، ليمنع خبر وصمة هذا العدوان الظالم من الوصول إلى البلدان النائية، وإلى بلاط روما، مما سيسبب الأذى إلى كرامته الملكية، وبناء عليه لام الملك بحدة حفيده داوود بسبب خيانتته، وقام بنصيحته وبأمره بتحرير أخيه، وبذلك يسترد السمعة الجيدة لاسمه، والتحليل من قرار الحرمان الكنسي، وهذا — على كل حال — مارفض داوود بإصرار أن يفعله، وأخبر الملك مؤكداً، أنه إذا ما أطلق سراح غريفين، فإن ويلز لن تتمتع بعد هذا بالأمان والسلام.

وكان غريفين قد علم بهذا، فأرسل بشكل سري رسالة إلى الملك، أنه إذا ما أطلق سراحه وأخرجه من السجن، سوف يستحوذ في المستقبل على أرضه منه، أي من الملك، وسوف يدفع له بإخلاص مائتي مارك سنوياً مقابلها، مع كثير من الشكر لخدماته اللطيفة، وربط نفسه بيمين بتنفيذ هذا، وأن يعطيه في الوقت نفسه رهينة خاصة، وبالإضافة إلى هذا، هو سوف يساعده بنشاط على اخضاع ويلز والويلزيين حتى الأخير، وهم الذين متمردون ضده، ومازالوا غير خاضعين، وقام مقدم ويلزي آخر قوي جداً، اسمه غريفين بن مادوك Madoch، فوعد الملك أيضاً بتقديم مساعدة موثوقة ومتينة إذا ما قام بغزو ويلز، وشن الحرب ضد داوود، الذي كان رجلاً زائفاً، ويتصرف بشكل غير عادل نحو كثير منهم.

ملك إنكلترا يزحف إلى ويلز مع جيشه

وأثارت هذه الوعود الملك وشجعتته، فعمل ترتيباته للدخول إلى ويلز، وبناء عليه أصدر رسائل ملكية، أمر بها الجميع في جميع أرجاء

انكلترا، المتوجب عليهم أداء الخدمة العسكرية له، بالاجتماع في غلوستر في بداية الخريف، مجهزين بالخيول والسلاح، للانطلاق في حملة، قرر القيام بها، ثم إنه عقد اجتماعاً في شروبري Chrewbury في اليوم التالي لعيد القديس بطرس في الأغلال، وخلال أربعة عشر يوماً رفع رايته، ووجه سلاحه ضد حفيده داوود، حيث اكتشف أنه خائن وعاصي في كل مجال، ولأنه رفض الحضور في أي وقت من الأوقات، إلى مؤتمره السلمي الذي دعاه الملك إليه، حتى مع وعد أمان بالمرور، ولأنه بعناد وبإصرار أجاب بأنه لن يطلق سراح أخيه غريفيين ولا بأي شكل من الأشكال.

ثم قاد الملك جيشه، الذي كان كبيراً، وقوياً جداً، بنظام حسن نحو شيلستر، وكأنه يريد أن يشن الحرب مباشرة، وخاف داوود على كل حال من مواجهة عنفه، بسبب الحرارة التي استمرت عالية لمدة أربعة أشهر، والتي جففت جميع البحيرات، وأماكن المستنقعات في ويلز، وبسبب تأييد الملك من قبل كثير من النبلاء الويلزيين، ولاسيما غريفيين القوي والعادل، ابن مادوك، الذي صار حليفاً كبيراً للملك، وأحب غريفيين أكثر منه، أي داوود، ولأنه كان تحت عقوبة الحرمان الكنسي، قد بات خائفاً من أن تتدهور أحواله أكثر، ولذلك بعث رسالة إلى الملك، أخبره فيها، بكثير من المنطق، أنه إذا ما أطلق سراحه، فإنه سوف يثير الحرب ويجدها ضده، وفرض داوود على الملك أيضاً شرطاً، أنه إذا ما استقبله بسلام، فسوف يربط نفسه بيمين، وسوف يقدم له رهائن، على أن لا يجرمه من ميراثه، وعلى هذا وافق الملك بلطف، وبناء عليه أطلق داوود سراح أخيه غريفيين، وبعث به إلى الملك، الذي اعتمد على المشورة الحكيمة، فأرسله لدى وصوله إلى لندن، تحت حماية وكفالة جون أوف لكسنتون Lexington، ليحفظ هناك في البرج، مع بعض النبلاء الويلزيين الآخرين، ورهائن داوود، وأمراء ويلزيين

آخرين، ووقعت هذه الحوادث كلها فيما بين يومي عيد ميلاد القديسة مريم، وعيد القديس ميكائيل.

اخضاع ويلز وطاعتها للملك هنري الثالث من دون حرب

وأقسم داوود — كما ذكرنا من قبل — على المثول شخصياً أمام الملك، وبذلك حفظ شخصه وشرفه، وأشخاص وكرامة رعاياه، وأن يكون مثوله في لندن، أو في أي مكان آخر، حسبما سيقرره الملك، وعلاوة على ذلك أعطى رهائن من أجل الوفاء بوعده، وبناء عليه، قدم على الملك، إلى لندن، في اليوم الثامن بعد عيد القديس ميكائيل، وبعدما أدى يمين الولاء والتابعة، وقدم جميع الضمانات والمواثيق، سمح له بالمغادرة بسلام، لأنه كان صاحب قرابة وشيعة بالملك، وسمح له بالعودة إلى وطنه، وهكذا بفضل الرب انتصر هنري على أعدائه، وأخضع ويلز من دون سفك للدماء، ومن دون محاولة تجريب الحظ المشكوك فيه للحرب، واكتشفت ويلز في هذه الحالة كلمات ربنا التي ورد ذكرها في الانجيل، ذلك أنها لم تكن خالية من الصدق، وهي قوله:

«كل مملكة منقسمة على نفسها تنتهي إلى دمار».

اكتشاف القصدير في ألمانيا

وتم العثور في هذا العام، على نوع نقي جداً من القصدير، في ألمانيا للمرة الأولى، وبكميات أكبر مما هو موجود في انكلترا، ولقد قيل بأن هذا المعدن لم يتم العثور عليه من قبل منذ خلق الدنيا، في أي مكان، إلا في كورنويل، وقد تدهورت الآن أسعاره كثيراً وتناقصت بسبب الكميات التي أرسلت من ألمانيا إلى انكلترا.

خلاف بين أسقف لنكولن وراعي دير ويستمنستر

وتفجر في هذه الآونة خلاف بين روبرت، أسقف لنكولن، وبين

راعي دير ويستمنستر، وقد نجم عنه نفقات كبيرة، وتسبب بأضرار عظيمة لكل من الفريقين، وازداد يومياً، ذلك أن الأسقف المذكور كان يسعى، مستخدماً كل الوسائل والإمكانات التي قدر على استخدامها لإضعاف الامتيازات الصحيحة لراعي الدير، بتحويله كنيسة هسول Heswell لاستخداماته الخاصة، واستحوذ على تلك الكنيسة بالقوة، وعندما تهيأت له أول فرصة أخذها من الرهبان، ومنحها إلى شخص آخر، اسمه المعلم نيقولا، الذي كان بإذلال قد حرمه من منافعه، وكان راعي الدير، واثقاً من حقه ومن امتيازاته، فقاوم بشجاعة ووقف في وجهه.

الخلاف بين الملك وبين أسقف لنكولن

ونشب في هذه الآونة خلاف شديد بين الملك وبين أسقف لنكولن، وكان ذلك بسبب واحد من الكهنة التابعين للملك، واسمه جون مانسيل Mansel، كان قد جعل ممتلكاً لكنيسة التيم Thame، من خلال فضل الملك ومساعدته، وكذلك بفضل مرسوم تم الحصول عليه من البابا، وكانت هذه الكنيسة عندما غدت شاغرة، أعطاها الأسقف المذكور، من قبل، إلى كاهن اسمه المعلم سيمون اللندني، وكان كاهناً مكلفاً بالخطايا تابعاً لأسقف درم، ولقد غضب الملك من الأسقف كثيراً جداً بسبب هذا التصرف، ولذلك أرسل هذا الأسقف إلى الملك رسالة بوساطة رئيسي شامسة هنتغدون Huntingdon وليستر عندما كان مايزال في ويلز، وعاتبه ووجه اللوم إليه، لأنه لم يكن حامداً للرب، وغير مقدر للنصر الذي أعطي إليه، وأن عليه التكفير على الفور عن هذا الذنب العظيم، خشية أن يقوم الرب أثناء غضبه بتحويل ابتساماته إلى دموع، وعلى هذه الرسالة ردّ الملك: «إنني أرد بأمان، لأن دعوى استئناف قد عملت، وما من شيء ينبغي أن يتعرض للتغيير، أثناء إجراءات الاستئناف، وأنا لم أحاول شيئاً سوى

أنني تصرفت وفقاً لنصيحة العلماء بالشرعية، مع تأييد من السلطات الرسولية»، وعند ذلك قال واحد من رؤساء الأساقفة: «مولاي الملك، لدى سيدنا، أسقف لنكولن امتياز منح له من قبل البابا، فيه إعفاء له من الاستجابة لأي واحد، وذلك بناء على أمر المقام الرسولي، ما لم تتوفر هناك إشارة خاصة إلى ذلك الامتياز، وبالنسبة لهذا الأمر، الذي قيل بأن جون المذكور قد حصل عليه من البابا، والذي بفضل فرض نفسه على هذه الكنيسة، معتمداً على مساعدتكم، لم يرد فيه ذكر لذلك الامتياز، وبناء عليه فإن أسقف لنكولن ليس مجبراً على الإجابة عليه في هذه القضية، ولا سيما فيما يتعلق بالتنازل عن كنيسة التيم، التي كانت من قبل، وبشكل عادل، قد أعطيت إلى آخر، ولنفترض أنه لم يكن مثل هذا الامتياز، إنه أمر غير منطقي بالنسبة إلى أي واحد لأن يدفع بنفسه لتملك أية كنيسة من دون استشارة — إن لم نقل ضد إرادة — أسقف المنطقة، حتى وإن كان معتمداً على تفويض بابوي، ذلك أن البابا يرغب أن تعمل جميع الأشياء، وفق نظام صحيح، وما هو السبب الداعي الآن للتسبب بالخلاف، أو بإيذاء أي من الفريقين؟ لأننا إذا قدرنا فضائل جون المذكور، الذي هو رجل حذر، ومتعلم بما فيه الكفاية، ومن الممكن لصاحب الغبطة أسقف لنكولن أن يستجيب بسهولة لطلبك، أو لطلبه شخصياً، فيجهزه بمنفعة مماثلة بالجودة إن لم تكن أغنى، والمنحة سوف تكون قانونية ومشرفة لكلا الطرفين، ويرجو الأسقف بكل تواضع وإخلاص، أن لا تكون الأمور غير ذلك، لأنه على استعداد لإعلان الحرمان الكنسي ضد جميع الذين يسببون الأذى للكنيسة أو يضغطون عليها، ويعتدون على كرامتها».

وعندما سمع جون المذكور، وكذلك الملك ومستشاريه — هذه الرسالة — قال جون:

«ليكن بعيداً عني يامولاي الملك، أن أكون سبباً لأي خلاف، أو

نشوب أي نزاع بين مثل هذه الشخصيات المشهورة، وإنني أتنازل بصبر، والرب سوف يزودني عندما يكون راغباً، مادمت حياً».

وعند ذلك وافق الملك على إنهاء القضية، وبعدما أكمل جميع الترتيبات الضرورية في ويلز، ترك هناك وولتر الألماني، مع بعض آخر من الرجال ذوي الحكمة والنفوذ لبناء القلاع، ولتقوية الأماكن، الضعيفة من المنطقة، وأن يشحنها بالسلاح والرجال للدفاع عنها، وذهب هو نفسه مسروراً إلى لندن، وإلى ذلك المكان ذهب الأسقف المذكور، وهو مستعد تماماً للتفوه بقرار الحرمان الكنسي ضد جون المذكور بشكل خاص وضد جميع المؤذين لكنيستته ولكرامتها، وعندما باتت هذه الظروف معلومة لدى جون المذكور، ذهب متذلاً إلى الملك وقال: «مولاي الملك إن أسقف لنكولن متزعج جداً، ولكي لا أكون أنا سبباً لقيام المزيد من الخلافات، أو فضائح تنتشر في الخارج، إنني أستقيل من هذه الكنيسة، ولدى سماع الملك لهذا، كان متزعجاً، خشية أن يقوم الأسقف، الذي كان عنيفاً جداً، بشكل غير اعتيادي، فيذهب إلى المنفى، حيث رآه مستعداً تماماً لفعل ذلك، ومن ثم يضع أسقفيته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، ولذلك لطف الإجراءات القاسية التي خطط لها، وتوقف عن مساندة جون في معارضته، لأنه رآه قد رفض العمل ضد الأسقف».

ثم إنه بناء على ذلك، استحق جون المذكور نيل جائزة، حيث أضفي عليه بمنفعة أغني، كانت هي كنيسة ميدستون Maidstone، وذلك كهذية من الملك، وأغني في العام نفسه بالاستحواذ على كنيسة هوفدن Hoveden، الغنية، وهكذا هداً الأسقف، وبناء على طلب الملك وعظ بشكل علني، وكأنه واحد صدره مشحون بمفاتيح المعرفة، وعهد بهذا التواضع إلى الفئتين، وبين أشياء كثيرة عمل مقارنة بين أشعة الشمس التي هي مستقيمة، وبين عدالة الملك، التي ينبغي أن تكون

مستقيمة ودائمة، والآن وقد رأى أن خاطر الأسقف بات هادئاً، بات راغباً في تسوية الخلاف المدمر والمهين بينه وبين راعي دير ويستمنستر، حول مايتعلق بكنيسة هسول Heswell، وبناء عليه لم يترك الأسقف ولم يسمح له بالمغادرة، حتى كان كل شيء قد تمت تسويته بسلام وسعادة، وقام راعي الدير نفسه بتقديم جميع التسهيلات حتى تتم التسوية، وبناء عليه وقعت كنيسة هسول في نصيب راعي دير ويستمنستر، حيث استحوذ عليها، مع الاحتفاظ بالتقدمة طوال الحياة، إلى أسقف لنكولن، وحصلت كنيسة ويستمنستر بموجب هذه الترتيبات على زيادة كبيرة في منافعها وكرامتها، لأن الراعي رتشارد، كان، بالإضافة إلى هذه المنفعة التي لم تكن صغيرة، قد زاد من ثروة رعيته بمورد قدره ثلاثمائة مارك، سنوياً وبشكل دائم، بوساطة خدماته.

خلاف بين أسقف لنكولن وهيئة كهنته

ولقد استمر على كل حال هناك خلاف كان مؤذياً جداً، ونزاعاً لم يكن اعتيادياً بين أسقف لنكولن وهيئة كهنة لنكولن، ولقد تعرض بعض الكهنة الذين كانوا موجودين في لندن إلى سوء المعاملة والأذى من قبل الأسقف إلى حد أنهم كانوا مرغمين على اظهار ورقة، وأن يجعلوا محتوياتها معروفة بشكل علني، وذلك خشية أن تخضع كنيستهم إلى بعض الظلم الجديد، وذريعة ذلك أنا سأحكيها الآن.

استرداد كنيسة لنكولن وكرسيها

بما أنه، قبل الاستيلاء على انكلترا، كان الكرسي الأسقفي الموجود الآن في لنكولن، موجوداً في دورشستر Dorchester، وبسبب أخطاء الذي كان وقتذاك متراًساً على الأسقفية وضع ذلك المكان تحت التكفير من قبل البابا، وجرى خلع الأسقف، ولم يبق من آثار هذه القضية الكبيرة أي شيء بعد مرور سنين كثيرة، وكذلك الكرسي وأيضاً

عناية أسقف وولايته بعد نهاية وقت طويل، وحدث بعد ذلك في أيام
وليم روفوس Rufus ابن وليم الأول، أن جرى تدمير كنائس
كثيرة في الغابة الجديدة، بناء على أوامر الملك، لكنه ندم بعد ذلك كثيراً
على ما اقترفه من ذنب، وتلقى نصيحة صحيحة، وقام تكفيراً عن ذنبه،
فأعاد تلك الأسقفية الفخمة وأغناها، وحسن المكان نفسه، حيث أنه
اشترى، أو أخذ بالتبادل أرضاً من م. M دي غونت Gaunt
وهو نبيل كان قد قدم إلى انكلترا أثناء الاستيلاء عليها، وكان قد تسلم
تلك الأرض كنوع من المكافأة بعد الانتصار، وقام الملك وليم الثاني
المذكور بتأسيس كنيسة، هي الآن كنيسة لنكولن، وعند اكتمال هذا
استدعى كاردينالين نائبين للبابا، كانا قد تسلمتا سلطة كاملة، للقيام
بتكريس أسقف، وقد قدما إلى كنيسة من لندن قداسة البابا، ثم إنه دعا
ثمانية رؤساء أساقفة، وستة عشر أسقفاً، وتدبر تكريس تلك الكنيسة
بشكل مهيب، وأمر بتعيين رهبان علمانيين فيها، كما أمر بتعيين موردهم
المنفرد، وخصصهم الخاصة بهم، وذلك في سبيل أن يتمكنوا تحت سلطة
أسقف وعميد، من القيام بواجباتهم بشكل نظامي وشريف، وذلك وفقاً
لبعض الأحكام والصيغ، ولكي يبقى هذا التكريس الهام، الذي تمتن
بوساطة سلطة مثل ذلك العدد من الآباء المقدسين، وكذلك بوساطة
رسائل من الكرسي الرسولي، ولكي يستمر دون أن يخرق إلى الأبد، كان
التكريس قد عمل وفق صيغة أنه عندما يجري تكريس أسقف، وبعدها
يجري وضع الكهنة في ممتلكاتهم، يمكنهم من ذلك الوقت فصاعداً،
القيام بأداء الصلوات إلى الرب، وإلى أمه المقدسة ليلاً ونهاراً، وفق نظام
صحيح ووقار، وعندما يجيد واحد من هؤلاء الكهنة عن طريق
نظامهم، وبعدها يتلقى اللوم لذلك، ولا يقطع ويقوم طرائقه، يتوجب أن
يتلقى زيارة تفقدية وعقوبة من العميد، لكن من دون الخوف بحمل أي
شيء مسبق ضد هيئة الكهنة، ويتوجب عمل الشكوى ضده وحده
بسبب ما اقترفه، لكنه إذا لم يقوم نفسه بطريقة أو أخرى، يتوجب

حرمانه من منفعة لمدة سنة واحدة أو سنتين، تبعاً لدرجة خطيئته، وإذا ما ثابر على عصيانه، ينبغي طلب مساعدة الأسقف لاستخدام إجراءات تقويمية، لكن مع ذلك إذا ما استمر غير مقوم وفي حالة المعاندة، وتحدى سلطته، يتوجب تجريده من جميع منافع، وانزال عقوبة أكثر قسوة به من قبل الملك، وأعطت هذه الأحكام الرضا إلى جميع الفئات، ولذلك جرى تدوينها كتابة، ومن ثم تثبيتها من قبل الكرسي الرسولي، وكتابتها وعند ذلك جرى تكريس الكنيسة، وقام جميع الذين كانوا حاضرين بإصدار عقوبة الحرمان الكنسي بحق كل من يخرق هذه الأحكام.

وبناء عليه قال الكهنة بما أن العميد ليس مهماً أو جاهلاً، وليس ضعيفاً للقيام بزيارة تفقدية للمقصرين، وحيث أن الأسقف قد تصرف بذاته بشكل غير عادل و شائن في استخراج الزيارات، ولم يظهر أنه بريء تماماً من وصمة العقوبة التي صدرت بشكل مهيب من قبل مثل ذلك العدد من الآباء المقدسين، ولدى سماع الملك بهذا، ادعى أنه طرف في هذه القضية، وبالمحصلة فإن فئة الأسقف وهيئة الكهنة قد ضعفت كثيراً، وبسبب مثل هذه المعوقات والاحباطات، كان من غير الممكن جلب القضية إلى النهاية السلمية المرغوبة، لكنها تأخرت، مسببة كثيراً من النفقات وضياع الوقت.

ملك إنكلترا يتدبر عمل مزار ذهبي لعظام القديس إدوارد

تدبر في هذا العام الملك هنري الثالث، على نفقته الخاصة، صنع مزار من الذهب الخالص والجواهر الثمينة، وأن يجري تشييده بشكل محكم في لندن من قبل عمال منتخبين، من أجل الآثار المقدسة للقديس إدوارد، حتى توضع فيه، وفي تشييد هذا المزار، مع أن المواد كانت باهظة جداً، لكن ذلك كان وفقاً لقول الشاعر:

فعل العمال في الحقيقة بتفوق كبير
من المادة الخام شيئاً استثنائياً.

كيف رفض الملك إعطاء ميراث إلى و. W مارشال

أظهر الملك في هذه الآونة نفسه بموقف عدائي نحو وولتر مارشال،
أخي غيلبرت الذي مات دون أن يخلف أولاداً، يتناولون منه الميراث
العائد إليه بموجب حق التوريث، وقال الملك له وهو مغضب:

«لأن والدك وليم، قد وصم بالخيانة، لأنه قد قيل بأنه أنقذ لويس من
أن يقع بالأسر عندما كان في انكلترا، وجرى اعتقال أخاك رتشارد،
وقتله وهو حامل للسلاح ضدي، وكعدو مكشوف وميت لي، وأما
أخوك غيلبرت، الذي توفي مؤخراً، والذي منحته ميراثه بناء على مبادرة
وساطة من إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، وذلك كعطاء وليس
كحق، قد قام مؤخراً لسوء الحظ، فعقد مبارزات في هارتفورد، على
الرغم من حظري، وفي هذه المبارزات واجه موتاً مأساوياً، وأنت
ياوولتر أيضاً قد كنت موجوداً في تلك المبارزات، ضد إرادتي، ودون أن
تعبأ بحظري، وتحدياً لي، وأنت الذي بشكل سفسطائي سميتها مغامرة،
فعلى أي أساس أنت تطالب بميراثك، فكيف امتلكت الوقاحة بفعل
ذلك؟»، وفي ردّ على هذه التهم خاطب وولتر الملك كما يلي:

«مع أنني يامولاي الملك، أستطيع أن أقدم جواباً مرضياً على كل
تهمة من هذه التهم، وعليها جميعاً، إنني أنحني خضوعاً لجلالتك، وأنت
قد قمت حتى الآن برعايتي في صدر رحمتك، وعددتني واحداً من
أصدقائك المقربين، وليس على الإطلاق واحداً من ضيوف مائدتك،
وأنا لم أستحق قط أن أفقد حظوتك إلا في قضية واحدة، أنا لا يمكنني
التنصل منها، وهي أنني كنت موجوداً في تلك المبارزات مع أخي،
الذي لم يكن بإمكانه تركه، لكن إذ ما قررت ح أن جميع الذين كانوا

حضوراً هناك، فإنك بذلك لن تثير اضطراباً قليلاً في المملكة، وبعيد جداً عنك، بحكم كونك أمير عادل، أن تجعلني وحدي أكفر عن أخطاء الجميع، وبعيد عنك يامولاي أن تجعلني الأول في نيل العقوبة بين مثل ذلك العدد الكبير»، ولم يعبأ الملك بهذا، واستمر غضبه، ولذلك حافظ وولتر على الصمت، لأنه رأى بأنه قد فقد حظوة الملك، وذلك وفقاً لنصيحة الشاعر:

عندما تكون الزوابع الثائرة سائرة بسرعة

أذعن لقوة الزوابع الغاضبة

وهكذا غادر على هذه الصورة، وهو يائس.

الملك يعمل من وولتر مارشالاً

وقدم إلى لندن في هذه الآونة نفسها أسقف درم، الذي كان منذ زمن بعيد صديقاً مقرباً من الملك، لأنه كان الوصي على الجسد الملكي، وطيباً ووصياً على الملكة، ومشرفاً مراقباً لخرق الأخلاق، وقد قام بناء على طلب وولتر المتقدم الذكر، بالتعاون مع نبلاء آخرين، ومع الملكة نفسها، ومع جميع الذين عرف بأنهم مقربين من الملك ولهم مكانتهم لديه، فاستخدم محاججة لطيفة، والتماسات عرضت بصورة حكيمة، فتمكن من تلطيف غضب الملك، وجعله يتصالح مع وولتر، وبعدما هدأ الملك، ورضي على هذه الصورة، أضفى في يوم الأحد، قبل عيد جميع القديسين على وولتر المذكور مرتبة الإيرلية، ووظيفة المارشال، وجعله يحتفظ بين يديه بقلعتين هما: كارديف، وكارديغان Cardigan في ويلز، وهما اللتين كان الملك قد عهد بهما من قبل، ووضعهما تحت إدارة وليم مارشال، ثم أعطاهما بعد ذلك إلى هيوبرت، مسؤول العدالة، لأنه قدر أنه من الضروري الاحتفاظ بهما، من أجل تقوية المناطق الضعيفة في ويلز، التي استحوذ عليها مؤخراً، في سبيل تمثيلهم بالقلاع والحصون.

الملك يثور غضبه ضد أسقف نورويك

إزداد في هذه الآونة غضب الملك ضد أسقف نورويك، بسبب أن ذلك الأسقف وافق على تسميته لكرسي وينكستر، ولأنه رفض، وأصرّ على الرفض، بالتخلي عن حقه، ومع أن الملك طلب منه اتفاقية مكتوبة بالتخلي عن إدعائه، لكن الأسقف رفض بثبات فعل ذلك، ونتيجة لذلك حدث شقاق كبير في أسقفيته، ترافق أحياناً بالكتابة إلى البلاط، الذي أصيب أخيراً، نتيجة لاغتصابه الطائش بالجراحة، وعانى كثير آخر من الأذى، وفي محصلة ذلك جرى ضرب كثير من رجال الدين ومن العلمانيين بشكل فاجر، وجرحوا، وعانوا من كثير من الضرر على أيدي السلطات المدنية، وأعلن الملك، مرفقاً إعلانه باليمين، أنه لن يتوقف قط عن ممارسة مثل هذا الظلم، حتى يقوم الأسقف المذكور بتوقيع ورقة، يذكر فيها أنه لن يسمح قط لنفسه بالنقل إلى كرسي وينكستر، لكن هذا كان سبباً متنافراً مع المنطق، ومعاكساً للتكريس الأسقفى، لأنه إذا ما أمره صاحب القداسة البابا، بحكم فضيلة طاعته، بأن يفعل ذلك، لا يمكنه، بأية طريقة من الطرق، لأن ذلك يتناقض مع كونه ابناً للطاعة.

تعذيب رهبان وينكستر

وفي هذه الآونة نفسها، شرع البريتاني، الذي وضعه الملك بالقوة على رأس دير وينكستر، وجعله رئيساً للرهبان، في إغضاب المجمع الديري بمختلف الطرق، لأنه بدسائس هذا المغتصب الزائف، أثرت الخلافات، حتى توفرت أسباب جيدة لإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بالرهبان الذين عارضوه، وبعد مرور مدة أربعين يوماً، جمع بعض وكلاء الملك وقال لهم: «اذهبوا وانتقموا للاهانات التي وجهت إلى الملك وإلينا من قبل هؤلاء العصاة علينا، ذلك أنهم مجرّسون كنسياً، وإنه لن يكون ذنباً إذا ما ألقيتم بأيدي العنف عليهم»، واندفع أتباع الملك وخدمه وزحفوا نحو الأمام على شكل عساكر، وبعنف ألقوا بأيديهم

الأئمة على الرهبان الذين هربوا إلى المذبح الكبير يطلبون الحماية هناك، وقد دفعوا بهم وسحلوهم بعنف شديد، حتى أنهم لطخوا الأرض بالدم، ثم أخرجوهم مطرودين من الكنيسة، وكان ذلك على مشهد من المواطنين، الذين أبدوا دهشتهم، وعجبهم، وحزنهم، وقد دفعوا بهم وسط الشتائم والضربات إلى قلعة الملك في هسفيتري Husvetrey، حيث صفدوهم بالأغلال كل اثنين معاً، وألقوا بهم في سجن مضيقاً عليهم، وهكذا فعل هؤلاء الحراس التابعين للملك، الذين ألقوا جانباً كل خوف من الرب، واحترام للزي الديني، وأنزلوا الظلم بالرهبان وعسفوا بهم، واحتفظوا بهم مسجونين في الظلام، وعذبوهم بالجوع وبالبرد، وعرضوهم لإهاناتهم، مع أنهم حصلوا هكذا على سعة الشهادة، لمعرفتهم بأن جميع هذه الآلام التي أنزلت بهم، كانت لوفائهم بالعدل، وتحملوها كلها بصبر، لابل حتى سرور، وذلك بقدر ما كانوا مستحقين تحمل التمرد، في سبيل المسيح.

إثنان من وكلاء البابا يستخرجان مالا

من إنكلترا وسكوتلندا وإيرلندا

أمضى بطرس دي سوينو Supino، الذي كان كاهناً تابعاً للبابا وقته كله بمواظبة كبيرة في جمع المال، باستخراج عشرين جزئاً من الممتلكات من جميع إيرلندا، مدعوماً بترخيص من البابا، وقد أخرج من تلك المنطقة مبلغ ألف وخمسمائة مارك، إلى جانب مختلف الهدايا، وكان بطرس لي روج، الذي جعل من نفسه قريباً للبابا، وصديقاً مقرباً منه، أيضاً محمياً بإجازة من البابا، وشغل نفسه بيقظة في جمع الأموال وتكديسها من المناطق الشمالية من إنكلترا، وبوساطة ارسال الرسل إلى مناطق سكوتلندا، وأخيراً سارا وحقائب سروج خيولها مليئة تماماً، تحت كفالة رهبان كانتربري إلى دوفر، ثم أبحرا فجأة وبشكل سري، لأنهما سمعا من رسل أرسلوا بكل سرعة، بأن البابا مايزال من دون

أمل بالشفاء، أو بالحقيقة هو إما قد مات أو على وشك الموت بالحال، ولذلك قاما بفرار سري ومفاجيء بالبر وبالبحر مع غنيمتهما، لأنها كانا يخشيان أنه إذا ما علم الملك بوفاة البابا، سوف يقوم بحكمة باستبقاء جميع الأموال التي جمعها، ومن ثم يقدر كيف سيتصرف بها لدى استخلاف بابا آخر.

وماكادا يدخلان إلى فرنسا، حتى —عجبا— وصل المعلم وولتر دي أوكرا، وهو رسول من الامبراطور، وصل بكل سرعة، مع أن ذلك جاء متأخراً، حاملاً رسائل اعتماد من الامبراطور وكذلك رسولا إلى الملك، لإخباره بأحوال الأوضاع في البلاط الروماني، وينصحه إذا ما تم العثور على مثل هؤلاء الناس في انكلترا، بأن يتم الاحتفاظ بالأسلاب، وحبس اللصوص أيضاً، ولكن عندما علم الرسول بأن الاثنين قد نجوا، وجه اللوم إلى تقاعس الملك واهماله، وغادر على الفور وهو غاضب وآسف، لأنه قام برحلته من دون فائدة، وتبع خطواتها بيقظة، وراقب بدقة تسكع هذين الثعلبين حتى يخبر الامبراطور بنتيجة رحلته.

كيف جرى تحويل المال الذي جمع من قبل وكيلي البابا

إلى الخزانة الإمبراطورية

وعلم المندوبان البابويان الآن بوفاة البابا، مع أن الخبر ظل مكتوماً عن الناس لعدة أيام، وقد علما أيضاً بأن وولتر المذكور كان يسير خلفهما، فأسرعا بسفريهما، ولم يوفرا فرسيهما، وبعد عبورهما للألب، أخذتا نفسيهما إلى مدن وبيوت أقرباتهما، وأودعا المال الذي قدماه وهما محملان به في أماكن سرية، ولم يجعلوا حضورهما معروفاً لدى الجميع، وبما أن وولتر المذكور لم يستطع العثور على أي منهما، أو على المال، سوى سماعه بعض الاشاعات الهامسة، بعث برسالة إلى الامبراطور حول كل شيء، وحول تفتيشه غير المثمر، وعند ذلك أمر صاحب

الجلالة الامبراطورية القيام ببحث دقيق في جميع المدن الايطالية الخاضعة لحكمه، لاكتشاف من هما هذين الرسولين البابويين، وأي تاجرين كانا هما، اللذان كانا يسعىان إلى اخضاع الامبراطورية، ولحاق الأذى بالمصالح العامة، وإثارة الحرب، وقد جمعا المال بخداع من مختلف البلدان، ولا سيما من انكلترا، لمنحه إلى البابا، وكانا بذلك يرفعان من جبروته، ويدفعان به لدمار سلام الامبراطورية، ثم أمر بسجنهما بعد اعتقالهما، على أساس أنهما من الأعداء الألداء، ودعوتهما للظهور، ومصادرة أملاكهما وبيوتهما، ومثل ذلك ممتلكات وبيوت أقربائهما.

وهكذا بعدما جرى سجن الرجال الرئيسيين من هؤلاء القوم مع زوجاتهم وأولادهم، أمر باجراء بحث دقيق حول المبلغ المالي الذي جرى جمعه من أجل استخدامات البابا، وأمر بتعداده وكتابة ذلك، ووضع في أيدي تجار المدن، والذين يفهمون بالأعمال، ومن ثم يجري إيداعه كله، وهكذا فإن هذين اللاهوتين، اللذين كان من المتوجب حمايتهما تحت جناح البابا، قد جرى تجريديهما تماماً، وتولى أعداء الكنيسة بجرأة تعذيبهما.

موت البابا غريغوري

وفي الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يدور هكذا بشؤون العالم، تأكد التقرير الذي طار في جميع أنحاء العالم المسيحي، والذي ادعى بأن البابا غريغوري، لم يعد بإمكانه تحمل الأحزان التي شعر بها — والتي هو نفسه قد تسبب بها — وقد غادر طريق الجسد في الثاني والعشرين من آب، ليتلقى المكافأة من القاضي في عليين، وفقاً لاستحقاقه، وكان في وقت موته قد بلغ من العمر حوالي المائة سنة، في حين اعتقد عدوه الامبراطور، أنه كان في ذلك الحين ليس أكبر من خمسين سنة، فقد روي بأنه ولد في السنة التي كان فيها رتشارد ملك انكلترا سجيناً في ألمانيا.

السبب الذي عجل بموته

وكان الأسى الرئيسي الذي خرق قلب البابا، والذي أوصله إلى حافة الموت، هو أن الامبراطور، كان قد استولى إثر عيد الصعود على قلعة قرب مونت فورت في كامبانا Campagna كانت عائدة إلى أحفاد البابا وإلى أقرباء آخرين له، وكانت قد بنيت حديثاً بأموال الصليبيين من أجل حماية أقربائه، لأن البابا غريغوري كان يعرف تمام المعرفة بأن الامبراطور يكره جميع أقربائه، ورغب أنه إذا ما قام الامبراطور بغزو كامبانا، أن يحال دون الحاجة لأن يكون معرضاً لحملاته، وكان الامبراطور قد علم بهذه الأوضاع، فقام فجأة بحصار هذه القلعة وتدميرها وبشنى جميع الذين وجدهم فيها، وكرمز على تدميره لها ترك نوعاً من أنواع الأبراج نصف مدمر، بمثابة ذكرى على اعتدائه، وعلى انتقامه أيضاً، ذكرى لن تموت أبداً، وبالإضافة إلى هذا كان البابا مصاباً بالحُمى، كما كان قد تقدم بالسن كثيراً، وقد حرم من استخدام الحمام الذي اعتاد أن يقوي فيه نفسه في فيتربو.

موت إليانور ابنة غيوفري كونت بريتاني

وماتت في هذه الآونة إليانور ابنة غيوفري كونت بريتاني، التي كانت موضوعة منذ زمن طويل في سجن ضيق.

كيف التحق بعض الرهبان بطوائف أخرى

وفي هذه الآونة كان هناك بعض الرهبان، الذين عانوا من الثقلات في عقولهم ومن عدم الاستقرار، فقلدوا مثل أسقف هيرفورد، دون أن يعرفوا السبب (لأنه كان مرتبطاً بنذر)، فتحولوا إلى طائفة غير معروفة، و التحقوا بالدومينيكان وبالفرنسيسكان، ناسين قول النبي: «لقد حدد له الطريق الذي اختاره»، فقد قام راعي دير أوسني Osney بعقله الجبان، فتخلّى عن طائفة أوغسطين المعلم الكبير، وانتقل إلى طائفة

الفرنسيسكان، راغباً بتجريب الحديد، وقام راعي دير وولدن Wal-
den أيضاً، الذي حمل صليب ربنا بألم تحت حكم نظام طائفة
القديس بندكت، عندما رأى ديرهُ مثقلاً بالدين، وقد غرق في أعماق
اليأس، قام من دون أن يعرف ديرهُ أو رهبانه، فجأة وبلا حياءٍ
بالالتحاق بطائفة الدومينيكان، غير أنه ندم على هذا فيما بعد.

الإعاقَة التي عملت ضدّ انتخاب البابا

في الوقت الذي مات فيه البابا غريغوري، الذي ذكرناه أعلاه، كان
هناك عشرة كرادلة موجودين في البلاط الروماني، وكان هناك اثنان
مايزالان في سجن الامبراطور، وبعدهما قُام هؤلاء العشرة ببعض
المداولات — كما هي العادة — حول انتخاب بابا جديد، لم يتمكنوا من
الوصول إلى قرار مقنع، لأن عددهم قد انقسم على نفسه، وبناء عليه
بعثوا إلى الامبراطور، يرجونه بتواضع أن يرسل أخويهم، الكارديناليين،
إلى البلاط، حسب ما يختاره من شروط ويفرضه، وذلك في سبيل رفع
شأن الكنيسة ولصالحها، التي تعتمد اعتماداً أساسياً على انتخابهم بابا،
وأن لا يعاق هذا الانتخاب من قبله، وبلطف منحهم الامبراطور هذا
المطلب، لأنه كان قد لان أمام التماسات الايرل رتشارد، على شرط أنهم
إذا انتخبوا أوتو بابا، عليهم العودة إلى وضعهم المتقدم، وإلى حالهم في
السجن.

وبناء عليه، عندما اجتمعوا كلهم في قصر كان اسمه «قصر
الشمس»، وقد انتخب خمسة من الكرادلة سادسهم، الذي كان غيوفري
الميلاني، أَرْضَى هذا الانتخاب الامبراطور، الذي قام بتهنئته على ذلك،
وانتخب الثلاثة المتبقين رابعهم، الذي اسمه رومانوس، وقد عارض
الامبراطور هذا الانتخاب، عاداً إياه رجلاً بلا أخلاق حميدة، وذلك
بسبب اضطهاده لجامعة باريس، ولأنه قد قيل بأنه في وقت من الأوقات
قد فسق ببلانشي، ملكة فرنسا، وأيضاً بسبب اتهامه بإبقائه الخلاف

مشتعلاً بين غريغوري البابا المتوفى مؤخراً، وبينه، أي الامبراطور، وكانت أسماء الذين انتخبوا الأول: جايل أسبان Giles Aspan، وستيفن فتزكونت Fitzkonte أسقف بورتوا Portua، ورينرر أوف فيتربو، وجون دي كولونا Colonna، وروبرت سمركوت وكان انكليزياً، والذين انتخبوا الآخر كانوا: رتشارد هانيبال Hannibal، أسقف أوستيا، الذي كان له تبعاً للعادات، الصوت الأول في انتخاب البابا، وسينبولد Sinibald، أسقف أوف ساينا Sabina، ونشب خلاف حاد بين الكرادلة، بسبب هذا الانتخاب، لأن الذي يتوجب انتخابه بابا، هو الذي يجري انتخابه من مجموعتي المنتخبين، ويوافقان عليه، وذلك وفقاً لمرسوم الاسكندر، الذي يبدأ بالكلمات التالية: «على كل حال، لتجنب الخلاف، إلخ»، وهكذا فإن القضية التي تهم الكنيسة بعمق تركت من دون انهاء، وكانوا منقسمين، أو بالحري متفرقين بالتفكير والجسد.

ومات في هذه الآونة جيمس أسقف برانستي، الذي كان واحداً من طائفة السسترشيان وكان عدواً عنيداً جداً للامبراطور.

عودة الفرنسيين الذين أطلق سراحهم من أسر المسلمين إلى الوطن

وكان الايرل رتشارد قد بقي حتى الآن حوالي أربعة أشهر مع الامبراطور، ولذلك استأذنه وانطلق عائداً نحو الوطن، وكان الفرنسيون، الذين أطلق سراحهم بموجب الهدنة التي عقدها الايرل، قد عبروا البحر الآن، بعدما تأخروا كثيراً بوساطته، ليعيدوا إليه الشكر، ولتسلموا المزيد من الاحسان منه، لأنه كان صديقاً جداً للامبراطور، وكان كأنه امبراطور آخر تقريباً، وكان وافر الثروات، وكان أولئك الفرنسيون في حالة فقر مدقع ويحتاجون إلى المساعدة، وزودهم الايرل رتشارد بكرم بالملابس، وبنفقات السفر وبوسائل مناسبة، كما أنه حصل

من الامبراطور على وعد منه، قبل أن يتركه، بوجوب منح السلام إلى الكنيسة، تحت طائلة عقوبة الموت القاسية جداً، لأي واحد سوف يخرقه، ووجوب الاعلان بصوت المنادي في جميع أنحاء الممالك الامبراطورية، بوجوب عدم اعتداء أي انسان على شخص لاهوتي أو ازعاجه، أو على حاج، ولا سيما على الفرنسيين العائدين إلى بلادهم، وذلك نتيجة لحالة ترميل الكنيسة الرومانية، بسبب موت عدوه البابا غريغوري، وأمر الامبراطور بوكيل حكيم وصاحب نفوذ بمرافقة الايرل رتشارد، ليزوده بجميع الحاجات الضرورية، وليخدمه بشكل لطيف حتى حدود الامبراطورية، ونتيجة لذلك عندما اجتاز خلال مدن ودول ايطاليا والمناطق الأخرى الخاضعة للحكم الامبراطوري، استقبل بسرور عظيم وبتكريم، وبناء على أوامر الامبراطور استقبل وهو على الطريق من قبل سكان المدن، وهم على ظهور خيول أصيلة، وهم مجهزين بشكل غني، وهم يرتدون الحرير والملابس الثمينة الأخرى، ترافقهم موسيقى آلية وصوتية، وذلك وفق طرائق رفيعة، ولسوف أحذف ذكر جميع الأحداث، وسأتولى ذكر حادثة سارة خاصة في مكان واحد.

فلدى اقترابه من كريمونا، خرج أهل المدينة مسرورين لاستقباله، مع فيل الامبراطور وهو يسير أمامهم، وهو مزين بشكل جميل، وكان يحمل برجاً من الأبراج الخشبية، فيه جلس ساسة الحيوان، وهم يلعبون بالبوق، ويصفقون بأيديهم وهم مسرورين، وكان مع الايرل عدد كبير من النبلاء الفرنسيين، وقد شاركوا في سرور تكريمه، وعند الوصول إلى حدود الامبراطورية، عاد وكيل الامبراطور، وترك بعض الفرنسيون الايرل، بعدما كرروا تحيات الوداع، ورجعوا مسرورين إلى بلادهم، حيث استقبلوا بالمعانقة من قبل زوجاتهم وأولادهم، وآخرين أعزاء عليهم، ونقحوا أنفسهم باستخدام مختلف وسائل النظافة، والراحة الممتعة، ثم إن كل واحد منهم حكى وهو مسرور ذكريات المخاطر

العظيمة التي تحملها في خدمة المسيح، وكيف أنهم هجروا بشكل خياني من الذين كانوا ملزمين بتقديم المساعدة إليهم، وكيف جرى بعد ذلك تحريرهم وتزويدهم بحكمة وبكرم الايرل رتشارد وحده:

وأصغت أذن كل ربة بيت

باهتمام، لسماع حكاية زوجها.

نشوب خلاف بين الداوية والاستبارية

وبعد مغادرة الايرل رتشارد، غادر عدد كبير من الحجاج الأرض المقدسة في هذه الآونة، وكان الداوية هم الوحيدون الذين لم يوافقوا على تصرفات الايرل رتشارد، وقد أثارته لدغات الحسد، فتورطوا في ذمه، وبالنميمة ضده، وبالسخرية منه، وبلاحياء خرقوا الهدنة التي أبرمها، وضايقوا الاستبارية بشدة وآذوهم، لأنهم قبلوا الهدنة، وتولوا مراعاتها تماماً وقد حبسوهم في عكا وكأنهم محاصرين، ولم يسمحوا لهم بالحصول على المؤن، ولا حتى بجلب موتاهم واخراجهم من بيوتهم، التي كانوا فيها محاصرين، وذلك من أجل القيام بدفنهم، وقام الداوية أيضاً نكايته بالامبراطور، فطردوا جميع رهبان كنيسة القديسة مريم الألمانية، وأخرجوهم من المدينة، وتركوا عدداً قليلاً منهم، هم الذين كانوا أصدقاءهم، وخدم الكنيسة، وهرب الرهبان الذين بقيوا إلى الامبراطور وإلى الأعيان المسيحيين الآخرين، وتقدموا بشكوى ثقيلة حول هذه القضية، ولذلك ثارت فضيحة كبيرة، قامت على أساس فكرة أن هؤلاء الذين سمعوا بوساطة عدد كبير من الموارد من أجل محاربة المسلمين بكل قواهم، قد حولوا الآن قوتهم بشكل فاجر، ووجهوا حقدهم ضد المسيحيين، لابل ضد اخوانهم، وبذلك أثاروا غضب الرب بشكل ثقیل أكثر، ولهذا السبب، فإن الايرل عند مغادرته الأرض المقدسة، وكأنه كان متوقفاً مثل هذه الأشياء، لم يعهد بمدينة عسقلان، أو بالمال الذي تركه هناك، من أجل إكمال بعض أجزاء القلعة، إلى الداوية المتعجرفين،

وفي الحقيقة اختار هو أن يعهد بذلك إلى وكيل الامبراطور، لأن الداوية حملوا مشاعر محقد كبيرة ضد الايرل.

وفاة الكاردينال روبرت سمر كوت

وفي تلك الآونة نفسها، غادر طريق الجسد المعلم روبرت سمر كوت، الذي كان كاردينالاً من أصل انكليزي، وكان رجلاً مستقيماً وحكيماً، محبوباً من قبل الجميع، ومحسناً إليهم، وكان في تلك الأثناء محبوساً في قصر اسمه «قصر الشمس»، يتداول مع الكرادلة الآخرين حول انتخاب بابا، وهناك — كما قيل — جرى دس السم له، من قبل منافسيه الذين كانوا من أصل روماني، والذين كرهوه، لأنه بدا رجلاً مناسباً، وأهلاً لشغل الكرسي البابوي، ومات كاردينال آخر بطريقة مماثلة، وكان ضحية لتآمر أشخاص حسودين له، وأما جون أوف كولونا، وكان واحداً آخر، فهو بعدما جرى هدم قلاعه وقصره من قبل الرومان، اعتقل وألقي به في السجن، بسبب أنه بدا مجبذاً وميالاً نحو الامبراطور.

موت ستيفن سيفريغ

في التاسع من تشرين أول من العام نفسه، مات ستيفن سيفريغ Segrave في رعية دير ليستر، حيث كان قد تمدد متخفياً، لبعض الوقت أثناء اضطهاده، وكان ستيفن هذا أثناء شبابه قد تحوّل من كاهن إلى جندي، ومع أنه كان من أصل متواضع، فقد تمكن بوساطة شجاعته، في أيامه الأخيرة، من الحصول على الثروة، ومن الترقية إلى منصب، حيث عدّ بين أوائل الرجال في المملكة، وجرى تعيينه مسؤولاً عن العدالة، وقد أدار جميع شؤون المملكة حسب رغبته، وقد نظر دوماً نحو منفعتهم وتطلع نحو تقدمهم، أكثر من تطلعه نحو المنفعة العامة، ونظراً لبعض أعمال العدل التي عملها في حياته، والتي أرضى بها

الرب، استحق السباح له بعمل وصيته وبتقوى تلقى القربان، ليواجه نهاية محمودة ومرضية.

كسوف الشمس

في السادس من تشرين أول من هذا العام، الذي كان يوم عيد القديس إيمان Faith، تعرضت الشمس للكسوف، من الساعة الثالثة حتى السادسة، وبدأت السماء وكأن لها شكل الأرض نفسها وكان هذا هو الكسوف الثاني للشمس، الذي حدث خلال ثلاثة أعوام، وهو حادث لم يسمع بمثله حتى الآن.

موت روجر أسقف لندن

وفي تلك الآونة نفسها، وبالتحديد في التاسع والعشرين من تشرين الثاني، مات المعلم روجر، أسقف لندن، وكان رجلاً صاحب حياة تستحق الثناء، وقداسة مدهشة، ومعارف متميزة، وكان فهيماً في وعظه، وصاحب حديث مشرق، مرح عند المائدة، وصاحب ملامح هادئة، وقد وقع مريضاً في ستوبنهام Stupenham، وهي عزبة كانت له قرب لندن، وهناك قال وداعاً لهذا العالم، وغادر إلى الرب، وجلب جسده إلى لندن، ودفن في كنيسته الكاتدرائية.

وفاة غيوفري دي لوسي

ومات في الشهر نفسه المعلم غيوفري دي لوسي Lucy، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان عميد الكنيسة نفسها، وبوفاته رميت كنيسة لندن في لجّة فوضى عظيمة لأن الملك لم يسمح بملىء أي كنيسة، قبل أن تصبح مدمرة، ولأن الكرسي البابوي كان شاغراً، وكان الكرادلة في حالة اضطراب جسدي وعقلي، ولأنه لم يكن لديهم رئيس أساقفة، الذي من المعروف أن عميده هو أسقف لندن، ولأنها كانت الآن من دون عميد.

عودة أوتو إلى الإمبراطور حتى يسجن

وكان الكرادلة في هذه الآونة في حالة عدم اتحاد تقريباً، وفي حالة خلاف، وجرى تأجيل انتخاب البابا، وكأنهم كانوا يائسين، ولذلك عاد أوتو إلى الإمبراطور، إلى سجنه، من أجل إطلاق سراح الرهائن الذين قدمهم، وليحفظ سمعته من التلطيخ، بأنه خرق وعده، وكان الإمبراطور مسروراً جداً بهذا التصرف الذي تصرفه، ومع ذلك أبقاه في السجن، لأنه كان غاضباً عليه، بسبب أنه عندما كان نائباً بابوياً في انكلترا، قد تولى حرمانه كنسياً، وسمح بإعلان حرمانه كنسياً، وبالتشهير به إلى درجة عالية، لكنه عامله بلطف أكبر، لأنه كان قد فعل ذلك من دون إرادته، بل بالاكراه، بحكم طاعته للبابا.

انتخاب فولك باسيت إلى كرسي لندن

ومع اقتراب عيد الميلاد، انتخب كهنة لندن، أسقفاً لهم وراعياً لأرواحهم هو المعلم فولك، عميد يورك، وكان رجلاً مستقيماً وحكيماً، وصاحب أخلاق حميدة، ومن أسرة مشهورة، وجاء هذا على كل حال ضد رغبة الملك، الذي آثر المعلم بطرس دي أوغويبلانشي Aigueblanche، أسقف هارتفورد، ودخل بسرعة إلى بيت هيئة كهنة القديس بولص حتى تجري تسميته أسقفاً لهم، وقد عيّنوا أيضاً في الوقت نفسه واحداً اسمه وليم، ليكون عميداً لهم، وكان كاهناً ومستشاراً لكنيسة القديسة مريم، وكان رجلاً صاحب حياة جديرة بالثناء.

وفاة هوغ دي بيتهل

ومع مرور الأيام، وفي حوالي السابع من كانون الأول مات هوغ دي بيتهل Pateshull أسقف سيشتر، وكان رجلاً مايزال في نشاط الحياة وقوتها، وهو بعدما كان قد أمضى حياته بطريقة تستحق الثناء،

انحرف بوساطة مشورة شريرة، وتحول إلى الطرق الشريرة، وصار مطرقة للرهبان، ولاسيما إلى أولئك الذين أوجدوه، وقد مات مع حزن قليل عليه، مع أنه جلس في كرسي الأسقفية لمدة تزيد قليلاً عن سنة واحدة.

وعندما سمع رئيس رهبان كوفنتري والرهبان بهذه الحادثة، جمعوا كهنة ليشفيلد Lichfield وانتخبوا راهباً من كنيسة كوفنتري، كان مدرسهم، أسقفاً لهم وراعياً لأرواحهم، مع أن بعض الكهنة قد عارضوا انتخابه، واختاروا رتشارد راعي دير ايفهام Evesham، الذي كان آنذاك حامل أختام الملك، وكان يمارس واجبات المستشار، ولصالحه كان الملك قد توسط لديهم، ونتيجة لهذا الانتخاب، صار الملك عدواً لكنيسة كوفنتري، وألحق برئيس الرهبان وبالرهبان كل ضرر كان يمكنه فعله في كثير من المناسبات، ولأن الرهبان كانوا هكذا معارضين للملك ولرجاله، وكذلك بعض كهنة ليشفيلد، ولذلك ارتقى دير كوفنتري في حالة من الفوضى، ونال كثيراً من الأذى، بلغ حداً، أن التجمع الديرى تفرق ينشد المساعدة من الديرية الأخرى، وقام دير القديس ألبان انطلاقاً من عواطف خيرة، وتكريمية، ففتح صدره الرحيم، واستقبل رئيس الرهبان وبعض رهبانه، وخدمهم وخبوهم، بأعظم احترام، وعاملهم بمتنهي الكرم لمدة سنة انضاف إليها عدة أشهر.

انتخاب غيوفري أوف ميلان بابا وموته إثر ذلك

وفي هذا العام انتخب الكرادلة بابا المعلم غيوفري أوف ميلان، وجاء ذلك بعد نقاشات كثيرة، وبعد التعرض لمختلف أنواع الأذى، ولخطر الانقسام بين الكرادلة، وهو انقسام زرعت بذوره من قبل الشيطان، وأيضاً بعدما تناقص عدد الكرادلة إلى عدد صغير بوساطة البلايا والأسى، وكان الذي انتخبوه متميزاً بأخلاقه، ومتعلماً، ولكنه كان مسناً

وقد مال نحو الضعف، وما كاد يشغل الكرسي البابوي لمدة ستة عشر يوماً، عندما قطع بموت قبل أوانه، ودفع دين الطبيعة، وقد قيل بأن السم قد دس له، وهكذا ترك الكرسي البابوي، لابل بالفعل الكنيسة كلها في حالة بائسة، وفي تلك الآونة نفسها، مات واحد من الكرادلة، واسمه رتشارد هانيال.

مؤتمر أساقفة انكلترا

التقى في هذه الآونة رئيس أساقفة يورك، وأساقفة لنكولن، ونورويك، وكارآيل، واجتمعوا مع عدد كبير آخر من رجال الدين واللاهوتيين المتنفذين والمستقيمين، للتداول حول كثير من مصائب الكنيسة المضاعفة، وليتمسوا المواساة الربانية، ثم انهم أمروا بعمل صلوات خاصة وبصوم، وأن يراعى ذلك بشكل عام في جميع أرجاء انكلترا، حتى يقتنع الرب بتحرير الكنيسة الرومانية وبردها إلى العافية، حيث كانت الآن محرومة من راع لها وبابا ليحكمها، وبهذا أخذوا مثلهم من أعمال الرسل، حيث ورد فيها، أنه عندما جرى سجن بطرس، صلت الكنيسة من أجله من دون انقطاع.

وتوصلوا أيضاً إلى قرار جماعي، بإرسال رسل إلى الامبراطور، لحثه بالتماسات باكية، بما أنه يهتم بخلاص روحه، أن يتخلى بقلب مخلص عن جميع مشاعر الغضب والحقد، وأن يهجر جميع أنواع الطغيان، وأن لا يعيق تقدم مصالح الكنيسة ومنافعها، لابل أن يكون بالحري رحيماً بالسماح لها بالتنفس بحرية، مع أنه أثير لدراسة رفع شأنها وتقدمها، لأنهم قالوا بأن الذين أثاروا غضبه، هم الآن أموات، ومن الواضح أنه تصرف طغياني وعمل معارض للمنطق، أن يجعل الأبرياء يدفعون من أجل أخطاء الأموات.

وعندما — على كل حال — شرعوا بالتباحث حول انتخاب الرسل،

الذين كان عليهم السفر من خلال فرنسا والبلدان المجاورة، وأن يسعوا إلى استنهاض أساقفة تلك البلاد، لقد انتقلوا إلى العمل بطريقة متشابهة، وبدأ كل واحد يحتاج بمسوغات تافهة، ورفض أن يأخذ على عاتقه أعباء مثل هذا العمل الكبير والمقلق، ومثل هذه المتاعب الخطرة، حتى وإن كان ذلك لصالح المسيح وكنيسته، وأخيراً كما قال الشاعر:

بحضور اللص يتهج

المسافر الذي لا يحمل ذهباً.

وبما أنهم لم يجدوا أحداً جاهزاً من بينهم، ليقوم بأعباء الرحلة، اختاروا الدومينيكان والفرنسيسكان لهذا الغرض، لأنهم كانوا جوالين، وكانوا عارفين معرفة جيدة بجميع البلدان، وعندما —بناء عليه— حصل هؤلاء الرسل على مقابلة مع الامبراطور، وقدموا إليه رسالتهم، أجابهم كما يلي قائلاً:

«ومن الذي يعيق تقدم أحوال الكنيسة؟ لست أنا، إنه بالحري التعالي المجنون، والنهم غير المستقر للكنيسة الرومانية.. ومن الذي يمكنه أن يندهش إذا ما كنتُ أنا المعيق لتقدم الكنيسة الانكليزية والرومانية؟ لأنها تسعى باذلة كل جهودها لخلعي من عرشي الامبراطوري، ولقد حرمتني كنسياً، وأساءت إلى سمعتي بدرجة عالية جداً، وبالضرورة صبت الأموال لتلحق الضرر بي»، وهكذا أخفقت خطة الأساقفة الانكليز في إحداث أي تأثير في هذه القضية، وبرهنت أحداث هذا العام أنها كانت غير موافقة تماماً للبلاط الروماني، وذلك جزاء —كما هو واضح— على ذنوبه، وأيضاً غير نافعة للأرض المقدسة، بسبب تصرفات الداوية، ومؤسفة وغير سعيدة للنبلاء الانكليز، لأنه بالاضافة إلى الذين هلكوا في البحر، مات في هذه السنة بعض الأساقفة المتميزين، وهما الخبران الرومانيان، مع بعض الكرادلة، وآخرين، قد تقدم ذكرهم أعلاه.

ذكر مختصر للذين ماتوا في هذا العام

وكان بين النبلاء الانكليز الذين ماتوا في هذا العام: وليم دي فوربس Forbes, ايرل أوف ألبارل، الذي وهو مسافر لحجه، وقع مريضاً في البحر المتوسط، وبات غير قادر على الأكل، وقد تحمل آلاماً طويلة لمدة ثمانية أيام، وفي يوم الجمعة التالية قبل عيد الفصح، وهو اليوم الذي أسلم فيه المسيح الروح وهو على الصليب إلى أبيه، هو وفق الطريقة نفسها أسلم روحه إلى المسيح، ومات أيضاً النبيل والقوي وولتر دي لاسي Lacy, الذي قد ذكرناه من قبل، وحدثت وفاته أيضاً في حوالي عيد الفصح، تاركاً ميراثه المبدد إلى بناته، وستيفن سيغريف، الذي ورد ذكره في مكانه من قبل، وهو الذي كان مستشاراً خاصاً للملك، وكانت مستشاريته صالحة وعادلة لانكلترا، وغيلبرت باسيت، قد غادر هذه الحياة، وقد أتينا على ذكر سوء حظه أعلاه، ومات كذلك جون بيسيت المسؤول الرئيس عن إدارة عدالة الغابات، وغادر هناك إلى الرب بطرس مولاك Maulac, وهوغ ويسك Wake, وروبرت مارميون Marmion, وبطرس دي بروس Brus, وغويسكارد Gusicard, وليديت Laidet, ويوستاس دي ستوتفيل Stutevill, (الذي خلفه في ميراثه زوجة هوغ ويك)، ويودو Eudo, وهامو Hamo, الذي كنيته سن Sin, وبلدوين دي بشيون Bethune, وجون فتز-جون (قهرمان الايرل رتشارد) وغ. G, أخو الايرل المذكور، وجون دي بيوليو Beaulieu, وجيرالد دي فورنيفال Furnival, وعدد كبير آخر من النبلاء الانكليز من كونتية الايرل رتشارد، الذين تسابقوا بشكل مجيد فراراً من هذه الحياة إلى السماء، وذلك تحت حماية المسيح، عندما كانوا يقاتلون في سبيل الرب في الأرض المقدسة، ومات في هذا العام، كما ذكرنا من قبل إلينور ابنة غ. G, كونت بريتاني، وكانت

وفاتها في بريستول Bristol، وكذلك الأسقفان المشهوران: روجر أسقف لندن، وهو أسقف شيلستر، فهما أيضاً ماتا في هذه السنة، وعدد كبير آخر من اللاهوتيين المشهورين، ومن الرجال العلمانيين، الذين أسماؤهم كثيرة جداً حتى نأتي على ذكرهم.

موت الإمبراطورة إيزابيلا

وفي هذا العام ماتت أيضاً الامبراطورة إيزابيلا، التي كانت مجد انكلترا وأملها، وجاء موتها أثناء الولادة، وقد علمنا بموتها المحزن كثيراً، بشكل كامل في الرسالة الكثيرة التالية لزوجها الامبراطور فردريك.

رسالة الإمبراطور حول موتها:

من فردريك الامبراطور، إلخ، إلى ملك انكلترا، نحيات:

لقد اعتدنا مؤخراً في رسائلنا، وبوساطة رسلنا على أن نقدم إليكم أخباراً طيبة، غير أننا بسبب سوء الحظ، ولأننا أصبحنا محسودين بنجاحاتنا، قد أرغمنا بالحزن على أن نبوح إليكم بمكرمين خبراً مكروهاً، وذلك بقدر ما نحن نعاني من خسارة لاتعوض، هي وفاة قرينتنا الأوغسطة المحبوبة، وهكذا، أرغمنا بوساطة الموت القاسي على تحمل الانفصام المحزن للروابط الاجتماعية، ووقعت هذه الواقعة ذات الذكرى المربعة لدينا، في اليوم الأول من الشهر المنصرم، وهو شهر كانون الأول، وذلك عندما استجابت قرينتنا المذكورة الامبراطورة وأختك، إلى الطبيعة، أثناء نداء الرب، الذي يأخذ بعيداً حياة الأمراء، والذي لديه لا يوجد استثناء، أو قبول لأشخاص، لأنه في سبيل شفاء الذين، لو أن المنية رضيت وراعتنا، وأوقفت الطبيعة دفع دين الموت الذي لا بد منه، لما سمح لنا حبنا الثمين وعنايتنا وقرينتنا، بعدم بذل كل نفقة بالمال، والجهد، أو الممتلكات، لكن عندما أخذها ملك الملوك،

ومولى الموالي، الذي يحكم بقدره من فوق قبة السماء، والذي لا يمكن لأحد أن يقاوم إرادته، وأبعدها عن الوحدة مع جسدنا، وعن روابط الأخوة التي كنت بها متحداً معها، لقد قرر بارائه في عليين، بوساطة ترتيب، أو بالحري بتدبيره، أن تعيش لنا ولكم في ذكرى ولديها، لأنه بمنحة الرب القدير، يعيش أولاد ملكيون، منهما نهض ملك وملكة معاً تحت عيني والدهما، ليحلا محل أمهما ويقفا في مكانها، فبعطائها الخصب تلقينا عهداً نبيلة، هي التي تمتن روابطنا العامة بالمصاهرة، وترتبط برباط وشيخ كرسي قيصر وكرسي جلالتك، بامتياز خاص، بدماء البنوة والحفادة، وعلى هذا إن حيي لكم قائم على ذريتها، التي بها بدأت، وارتفعت إلى الوجوب، وسماحت حلف سوف يدوم طويلاً، ومع أنه بناء عليه إن خسارة قريبتنا الأوغسطة، التي هي أختك، لا يمكن أن تذكر من قبلي، أو تسمع من قبلك، من دون حزن كبير في القلب، وأسى لموتها لا يمكن فصله عن عميق مشاعرنا، ومع ذلك إن ذكرى الأبوين المحبوبين مزدهرة في الولدين، وقد تثبتت علائقنا بشكل لا يمكن فصمه بهذين الحفيدين، الذين حملت بهما أختك الأوغسطة وولدتها طفلين لنا. صدر في هذا اليوم الثلاثين من كانون الثاني، إلخ».

حول أوضاع الأنواء خلال هذا العام كله

وكان هذا العام على العموم وافراً بمحاصيل القمح، لكن من عيد البشارة للعدراء المباركة حتى عيد الرسولين سمعان وجود، استمر جفاف وحرارة لا تحتمل جففت البحيرات العميقة والسباخ الواسعة، وجففت كثيراً من الأنهار، كما جففت المطارد، وأوقفت أعمال الطواحين، وبما أن المراعي قد جفت، فقد ماتت الأعشاب، وبالتالي أخذت الأسراب والقطعان بالهلاك بسبب الجوع والعطش، وفي الشتاء أيضاً، ومنذ ميلاد ربنا، كان هناك جليد وثلج، ترافق مع برد حاد لا يحتمل، وقد غطى وجه الأرض، وجعله قاسياً إلى درجة عالية، وجمد

في الوقت نفسه الأنهار، حتى ماتت أعداد كبيرة من الطيور، ومثل هذا لم يتذكر الناس أنه وقع من قبل.

بطرس أوف سافوي يعمل استعداداته للعودة إلى الوطن

عام ١٢٤٢، الذي كان العام السادس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وفيه عقد بلاطه كما جرت العادة، في عيد الميلاد في لندن، في حال من السلام، وأطال الاحتفالات في الدير لقراءة خمسة عشر يوماً، وخلال ذلك، وبالتحديد في يوم ختان ربنا انتشرت تقارير حول وصول الايرل رتشارد، وعمت جميع أرجاء انكلترا، وفي هذا الموعد أيضاً، قام بطرس أوف سافوي، إيرل أوف رتشموند، الذي كان رجلاً مستقيماً ومحترماً، بتسليم الملك ووضع بين يديه القلاع المتميزة والفخمة للمملكة، التي كان قد تسلم المسؤولية عنهن، لأنه كان يخشى من أن ترقيته المفاجئة، سوف تغضب كثيراً نبلاء انكلترا، وأنه أخذ على عاتقه عبثاً فوق طاقته، في قيامه بوضعه هذه القلاع تحت عهده، بينما الانكليز مهملين ومعتلين، ولكي لا يحدث اضطراب في انكلترا، من خلاله لدى وصول الايرل رتشارد، الذي ربما سوف يستمع إلى شكاوى ثقيلة حول هذه القضية، وبعدما قدر الأمور بعقله بحكمة، ورأى الخطر الكبير والقريب عليه شخصياً، تخلى عنهن جميعاً، وعمل ترتيباته — بعد الحصول على إذن الملك — للعودة إلى الوطن، وبهذا العمل الحكيم الذي يدل على حكمة وحسن سلوك، به سكن مشاعر كثيرين، ولكن بالوسائل نفسها التي حصل بها على إذن بالمغادرة، استدعي على سرعة من قبل الملك، قبل أن يركب السفينة، وبناء على طلبه الملح، حصل — مع أنه لم يرغب — على قلعة دوفر، وتسلم المسؤولية عنها.

رعونة كونت دي لي مارشي

في هذا العام، قام كونت دي لي مارشي، وهو أكثر الكونتات البواتيين

قوة، بتقديم الطاعة وتأدية الولاء إلى أمفولسي [أمفولسوس]، أخو الملك الفرنسي، الذي بموجب مقدمة أخيه غير العادلة، اغتصب ملكية كونتية بواتو، وبدأ ينشط ضد سلطة النبلاء، وبدأ يتمدد بمقاصده، وبعد مضي بعض الوقت، جرت دعوة كونت دي لي مارشي المذكور للقدوم مسالماً لتناول طعام الإفطار مع أمفولسي كونت بواتو المذكور، وذلك أثناء الاحتفالات بعيد الميلاد، لكن في إحدى الليالي، بعد مضي أربعة أيام تقريباً على عيد الميلاد، وكان على وشك الاستجابة للدعوة، وفقاً للوعد، لكنه في الصباح تشاور مع زوجته إيزابيلا، فتوصل إلى قرار بتغيير نيته، وبمعارضة أمفولسي المذكور بالقوة، ولذلك ذهب إلى ذلك النبيل، وقال له برعونة: «لقد نويت، عندما غششت وفرض علي، أن أقدم الولاء لك، لكن الآن غيرت نيتي، حيث أنني لن أرتبط قط بكم بأية روابط طاعة ولن أعترف بأي ولاء لكم، ذلك أنك رجل عدواني، لأنك استوليت من دون خجل على كونتية صهري الايرل رتشارد، عندما كان يقاتل بإخلاص من أجل الأرض المقدسة، وبرحمة يقوم بتحرير الأسرى من أبناء بلادنا، وهكذا ردونا بالشر على الخير»، وهكذا قام وهو محقون بالغضب، وبالتهديد بصوت مرتفع، مع زوجته، وهو محاط بكتلة من الجنود، في حين أعدّ رماة القسي الزيارة من البواتيين قسيهم للرمي، فاندفع إلى وسطهم، فألقى النار في البيت الذي كان ساكناً فيه، ثم امتطى فجأة فرساً، وأخذ بالفرار، الإجراء الذي أدهش أمفولسي وأغضبه، مع جميع الذين رأوا ذلك، وجعلهم يشعلون بالرغبة للانتقام.

تقديم شكوى إلى الملك الفرنسي حول هذا الإجراء

ثم تقدم أمفولسي المذكور بشكوى ثقيلة، ووضعها أمام الملك ضد هذا العدوان، حول كل من هذا الفرار غير المتوقع، وإحراق البيت من قبل الكونت المذكور، الذي كان مثل فأر في كيس طحين، أو أفعى في

صدر انسان، وهكذا ردّ بشكل فاسد على استضافته له، وأثار هذه الشكوى بسبب مسوغ جيد، الملك وكذلك نبلاء فرنسا، لأخذ انتقام عادل.

كونت دي لى مارشي يطلب المساعدة من ملك إنكلترا

وبات كونت دي لى مارشي خائفاً كثيراً من غضب الملك الفرنسي، فحصن قلاعها وشحنها بالسلاح وبالرجال المسلحين، وكذلك بكميات وافرة من المؤن، وأمر بتحويل سكك المحارث إلى رماح، والمناجل إلى سهام، وقدر الشرور التي يمكن أن تقع، ولشعوره أنه لا يستطيع طويلاً مقاومة مثل ذلك الأمير الكبير، ألح بالرجاء إلى ملك إنكلترا، للقدوم إلى بواتو، مع مبلغ كبير من المال، ذلك أنه يستطيع بمساعدة البواتيين والغسكونيين في قوة كبيرة، من استرداد جميع الأراضي التي استولى عليها الملك الفرنسي من دون حق، ووعد بالمشورة الفعالة، ومساعدته الشخصية، مع مساعدة الأعيان الآخرين، وخاصة ملك أراغون، وكونت طولوز، مع آخرين عددهم كبير حتى نذكرهم هنا، ووقتها قدّر الملك الانكليزي هذه الأمور كلها وتفحصها بعقله، ووثق بالكلام المخادع لكونت دي لى مارشي والبواتيين الآخرين، الذين ينبغي أن لا يثق بهم.

عقد بارلمان كبير في لندن

وبناء عليه، كتب الملك هنري، إلى جميع نبلائه الانكليز، وإلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، والإيرلات، والبارونات، وأعطاهم أوامر دقيقة للاجتماع في لندن يوم الثلاثاء التالي، قبل عيد طهارة العذراء المباركة، للتداول بعناية كبرى حول بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالمملكة، والتي لا تختمل التأخير.

كيف ذهب الملك إلى استقبال الإيرل رتشارد لدى عودته من الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة نفسها، كان الملك متوقعاً وصول أخيه الإيرل رتشارد من القارة، وكذلك النبلاء الذين كانوا قادمين من مسافات نائية لحضور المؤتمر، فأطال إقامته في لندن حتى الأول من شباط، أي يوم عيد القديسة هيلاري، لكنه سمع آنذاك بأن الإيرل قد نزل في دوفر، في اليوم التالي لعيد الغطاس، وبناء عليه قام ومعه ملكته، يحيط به كتلة كبيرة من النبلاء، فذهب مسروراً لاستقباله، ولدى رؤيته له، اندفع إلى مابين ذراعيه، واستقبله بكل علامة من علامات البهجة، فقد أثار الدم الأخوي العواطف من على الجهتين، وقد أثقله الملك، وجميع النبلاء تقريباً بمختلف الهدايا، وفي اليوم الثاني لعيد القديسة اغنس، وصل الإيرل إلى لندن، وعند وصوله تزينت المدينة بالأعلام وبالمعلقات، وكان ذلك كان من أجل العيد، وأقام الأخوان وليمة مع عدد من الضيوف الخاصين الذين دعاهم الملك.

البواتيون يحثون الملك مع أخيه لعبور البحر لمساعدتهم

وعلم البواتيون بوصول الإيرل رتشارد إلى انكلترا، فتابعوا من دون توقف العمل على حث الملك، وكذلك الإيرل المذكور، ليقدموا من دون تأخير، وليحصلوا على امتيازاتها، وبشكل خاص كونتيه بواتو، وحول ذلك تصوّر الملك خطة ثابتة بالعبور إلى فرنسا، حتى أنه لم يمكن اقناعه بالتسلي عن نيته بوساطة منطق أصدقائه، ولا بوساطة أصحاب الرغبات الطيبة.

تفرق البرلمان الإنكليزي في حالة غضب

ومع اقتراب حلول موعد عيد طهارة العذراء المباركة، اجتمعت النبالة الانكليزية في لندن وكانت هذه النبالة مكونة من الأساقفة،

والإيرلات، والبارونات، وجاء الاجتماع بناء على طلب الملك وأمره، ولأنهم كانوا يعرفون بأن الملك، قد قام غالباً وفق هذه الطريقة، بإزاجهم وفق هذه الحجة الزائفة، وباستدعائهم بكل سرعة، فعملوا يميناً مع بعضهم، وتوصلوا إلى قرار ثابت، تحت طائلة عقوبة التكفير، أن لا يوافق أحد منهم في هذا المؤتمر، ولا بشكل من الأشكال، على أية جباية للأموال سوف يحاولها الملك، وكان الآن قد بات معروفاً بشكل جيد لدى الجميع بأن كونت دي لى مارشي، قد دعا بإلحاح الملك وحثه على العبور إلى القارة، أخذاً معه من المال كل ما يمكنه استخراجة وجمعه، دون الاهتمام بأي شيء حول قوة الجيش الانكليزي، وبذلك أعطوا قيمة صغيرة للجندية، أو للقوة الاقطاعية للمملكة، عادين الملك بمثابة بائع متجول، الذي همه هو الحصول على المال، يضاف إلى هذا أن الانكليز كانوا ماثرين — بشكل محق — ضد الكونت وضد جميع أتباعه من البواتيين، ولم ينظروا نظرة رضا نحو الملك الذي وافق على مثل هذه الأشياء، من دون مشاورة نبلائه، وبناء عليه، عندما جعلهم الملك يعرفون قراره في قلبه الذي لا عودة عنه، أي العبور إلى القارة، استجابة لدعوة كونت دي لى مارشي، ومع مناقشات متنوعة طالب بمساعدة مالية منهم، أجابه النبلاء بحدة كبيرة في نفوسهم، بأنه عمل خطته من دون استشارتهم، وأنه كان خالياً من الحياء بتقديمه بمثل هذا الطلب، ذلك أنه ضيق مراراً على رعاياه المخلصين وأفقرهم، بطلبه المال منهم وكأن المسألة صارت عادة، وكأنهم كانوا أحط أنواع العبيد، وأنه غالباً ما استخرج منهم مبالغ ضخمة من المال، جرى انفاقها من دون فائدة، ولذلك قاموا الآن بمعارضته في وجهه، ورفضوا أن يتم تجريدهم من أموالهم بعد الآن، من دون غاية ولا هدف.

وبناء على ذلك لجأ الملك إلى طرائق الرومان ومكرهم، وأمرهم بالانتظار حتى اليوم التالي لسماع رغباته حول ما يتعلق بهذه القضية

وبقضايا أخرى، وجعهم في اليوم التالي واحداً، واحداً، وفي أوقات مختلفة، في غرفته الخاصة، مثل دعوة الكاهن المرضى للاعتراف، ولأنه لم يستطع اضعاف تصميمهم عندما كانوا مجتمعين، سعى بدهاء إلى اضعافهم واحداً تلو الآخر، بحججه، ورجاهم القيام بتقديم مساعدة مالية، قائلاً لكل منهم: «إنظر إلى الذي قدمه راعي الدير فلان، ودفعه لمساعدتي، وإلى الذي قدمه فلان الآخر إليّ» حاملاً بيده في الوقت نفسه قائمة، أظهر عليها اتفاقية مكتوبة، بأن راعي الدير فلان، أو رئيس الرهبان قد دفع كذا وكذا، أو أنه على الأقل قد وعد بدفع كذا، وكل هذا مع أن ما من واحد منهم قد أعطى موافقته على شيء من هذا القبيل، أو أنه عرف أي شيء عن ذلك.

فبمثل هذه التصرفات الزائفة، والكلمات المعسولة، تمكن الملك بدهاء من ايقاع عدد كبير منهم بشباكه، ووقف آخرون — على كل حال — صامدين، ورفضوا بتاتاً التزحزح عن الجواب الذي اتفقوا عليه بشكل عام، وأقسموا على الالتزام به، وإلى هؤلاء قال الملك وهو مغضب:

«هل سأكون أنا على هذا رجلاً حائشاً يميني؟ لقد أقسمت يميناً لاعودة عنه، بأنني سوف أعبر البحر، وأطالب باسترداد حقوقي من الملك الفرنسي بذراع ممدودة، وهذا مالا يمكنني القيام به من دون مبلغ كبير من المال، عليكم تزويدي به بكرم منكم»، وعلى الرغم من لجوئه إلى وسائل الاقناع هذه وسواها، لم يتمكن من ايقاع بعضهم في شباكه، مع أنه — كما ذكرنا من قبل — دعا كل واحد منهم إليه بشكل خاص.

ثم إنه بعث — على كل حال — في المرة الثانية، إلى أصدقائه المقربين وخاطبهم كما يلي:

«أي مثل مهلك ضربتموه إلى الآخرين، أنتم الذين ايرلات شجعان، وبارونات، وفرسان، عليكم أن لا تكونوا خائفين، مع أن آخرين، أي

أساقفة الكنائس، قد أظهروا خوفاً، عليكم أن تكونوا، متشوقين أكثر من الآخرين، لاسترداد حقوق المملكة، ولتجريب حظ الحرب ضد أولئك الذين ألحقوا الضرر بنا، وأن نقوم بتقوية قدرتنا ودعم سلطتنا، هو واجب واضح، بموجب الحقوق التي نمتلكها، وأيضاً بموجب الدعوة والوعود التي تلقيناها من النبلاء، وكذلك بموجب مثل ما حدث في ويلز، حيث تمكنا مؤخراً من الانتصار بسعادة، وميول النجاحات الماضية، سوف تقود الطريق إلى نجاحات أخرى، فكيف لديكم قدرة على تركي، وأنا مولاكم، فقيراً، ومهجوراً، في الوقت الذي أنا فيه على استعداد للقيام بهذه المهمة الصعبة، في سبيل الصالح العام، وبما أنني مرتبط بكل دقة بيمين لأداء وعدي والوفاء به، بالعبور إلى القارة؟»، وعندما سمع النبلاء بهذا أجابوه قائلين:

«إن الكلمات لايمكنها التعبير عن حيرتنا حول المآلات التي أغرقت فيها مبالغ لا تحصى من المال، التي جبتها جلالتك من الوصايات المتنوعة على النبلاء، ومن مختلف الموارث، واستخراجات متوالية، من كل من الكنائس الشاغرة، ومن أراضي النبلاء، ومن الأعطيات التي قدمت سلفاً، إنها مبالغ كافية لإحداث الدهشة لدى كل من يسمعهم، ومع ذلك فإن هذه المبالغ المالية، لم تجلب قط أية زيادة، أو منفعة للمملكة، يضاف إلى هذا لقد دعوت مؤخراً إلى المملكة بعض النواب البابويين، أو أشخاص مارسوا واجبات النواب البابويين، وهؤلاء عندما كانوا يجمعون عناقيد العنب التي بقيت، جمعوا لأنفسهم المال الذي كان قد بقي، ومجدداً إن جميع نبلاء انكلترا مندهشين كثيراً تجاه توليكم القيام بمثل هذا العمل الصعب والمرعب، من دون أخذ رأيهم وموافقتهم، حيث أنك وضعت ثقتك في أولئك الذين هم بلا ثقة، وأنك على الرغم من الإرادة الطيبة لرعاياك الطبيعيين، معرض نفسك إلى نصيب مشكوك فيه، ثم إنك أيضاً قمت تعريضاً لنفسك للخطر،

السمعة فخرقت من دون كرامة الهدنة المعمولة بين الملك الفرنسي وبينك شخصياً، وهي التي أقسمت عليها بحق روحك، بمراعاتها دونها احباط، وذلك حتى التاريخ الذي كان قد أعدّه من قبل الايرل رتشارد المشهور، الذي هو أخوك، والايرل ر. R بيغود».

وأضاف الذين هم أكبر سناً، والذين أكثر نفوذاً بينهم قائلين:

«وأنت أيضاً، لخطرنا، قد وضعت كثيراً من الثقة، ووعدت بالحضور شخصياً، هؤلاء النبلاء القاريين المشاهير بسوء السمعة، الذين هم قائمين بالتمرد، ورفع أعقابهم، ضد مولاهم، الملك الفرنسي، والذين بناء على هذا بالذات، ينبغي عدم الوثوق بهم، لشهرتهم بأقتراف خيانات مضاعفة، وأنت تعرف أيضاً بأن ملك نافار، الذي وعدوك بمساعدته، قد اقترف مؤخراً جريمة في الأرض المقدسة، ندبة جرحها لم تزال بعد، ولتكن مثل أجدادك المشهورين، وليكن واعظاً لك، وناهيًا لك ومعيداً عن الذي نويته، أنهم يمتلكون في تلك الأرجاء قلاعاً لاترام، وكثيراً من الأراضي، وجيشاً كبيراً، ومبالغ لا تحصى من الأموال، ومع ذلك كانوا غير قادرين على صد القوات الفرنسية الثابتة والتي لا يمكن قهرها، ولا حتى القدرة على الاحتفاظ بممتلكاتهم»، ولدى سماع الملك لهذا الكلام انفجر غاضباً بعنف، ودعا القديسين أن يكونوا شهوداً، وأقسم أنه لن يتراجع عن مقصده، بالخوف، أو أنه سيتوقف عند أية خطابات غامضة، ولن يتوقف عما عزم عليه، وأنه سوف يقلع في ثمانية عيد الفصح، وسوف يجرب من دون خوف حظ الحرب في القارة ضد الفرنسيين، وبهذا ارفض المؤتمر بغضب مغروس بثبات، ولكن بشكل سري في عقول الطائفتين.

ردّ بارونات إنكلترا

وبعد مضي بعض الوقت، ولكي لا يضيع مغزى جواب البارونات

ويصبح منسياً، تم وضع هذه الأشياء كلها كتابة، وتدوينها كما يلي:

«بما أن السيد رئيس أساقفة يورك، وجميع أساقفة انكلترا، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، وكذلك الايرلات، وتقريباً جميع بازونات انكلترا، إما قد حضروا شخصياً، أو جرى تمثيلهم بنوابهم، واجتمعوا بناء على دعوة من السيد الملك، في ويستمنستر، في يوم الثلاثاء التالي قبل طهارة العذراء المباركة، في عام ألف ومائتين واثنين وأربعين لتجسيد ربنا، أي في العام السادس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وذلك بغية سماع رغبة الملك واراادته، والأعمال التي من أجلها دعاهم.

وبما أن مولانا الملك قد أرسل إليهم السيد رئيس أساقفة يورك، والنبيل الايرل رتشارد، وولتر أوف يورك، وعمدة بيقرلي Beverley، بمثابة رسل خاصين، ليتولوا تبيان رغبته وإرادته وعمله، وقد سأل جميع نبلاء المملكة أن يقدموا مشورتهم ومساعدتهم ليحصل على ملكية ميراثه وحقوقه في القارة، التي هي عائدة إلى مملكته، مملكة انكلترا، وأخيراً بعدما عقد الأساقفة المذكورون، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، والاييرلات، والبارونات، مناقشات طويلة، نصحوا الملك في المقام الأول —من خلال النبلاء المتقدم ذكرهم— أن ينتظر حتى انتهاء الهدنة المعقودة بينه وبين ملك فرنسا، لكن إذا صدف وقام الملك الفرنسي بأية مغامرة، متعارضة مع بنود الهدنة، وقتها على ملك انكلترا المذكور ارسال رسل خاصين له لإقناعه بالإعذار وبالانذار، بمراعاة الهدنة، وأن يعيد التفكير في مغامرته، إذا ما كان هو شخصياً أو أحد من نبلائه قد فعل ذلك، وإذا ما رفض الملك الفرنسي أن يفعل ذلك، وقتها سيقومون رغبة منهم بإلحاق أنفسهم برأيه، في سبيل تقديم العون إليه، بقدر ما يملكوه من قوة».

ووافقوا جميعاً على هذا الجواب، وبطريقة مشابهة لهذه، ومنذ أن صار حاكمهم لقد قاموا مراراً، بناء على مطالبه الضاغطة، فأعطوه

مساعداً، منها الجزء الثالث عشر من ممتلكاتهم المتحركة، وبعد ذلك الجزء الخامس عشر، ثم الجزء السادس عشر، وبعد ذلك الجزء أربعين، وأعطوه ضرائب الأرض، وضرائب التخوم، وعدة بدائل عن الخدمة العسكرية، كان آخرها بدل عظيم من أجل زواج أخته الامبراطورة، وما كادت تمر أربعة أعوام بعد ذلك التاريخ، عندما طلب مجدداً المساعدة منهم، وحصل أخيراً بعد التماسات مكثفة وشديدة على الجزء الثالث عشر، وقد منحوه ذلك على شرط، أنه لا هذه الجباية، ولا أية جباية متقدمة ينبغي أن تعدّ في المستقبل عادة منتظمة، وقد أعطاهم صكاً حول هذا الموضوع، يضاف إلى هذا، أنه قام بوعدهم بأن جميع الامتيازات الواردة في الصك، ينبغي من ذلك الحين، كما كان فيما مضى، أن تراعى تماماً في جميع أرجاء مملكته، وحول هذا أعطاهم صكاً صغيراً، احتوى الأشياء نفسها، وهذا الصك هو الآن بين أيديهم.

وبالإضافة إلى هذا، قام الملك عن طواعية من ذاته، وبوساطة نصيحة باروناته، فوعدهم بأن المال كله الذي سوف يجبي من الجزء الثالث عشر المذكور، يتوجب أن يوضع في حوز أمين في قلاعه الملكية، تحت رعاية أربعة من نبلاء انكلترا، هم: إيرل وارني مع آخرين، وبموجب اختياره، ووفقاً لمشورته، الشيء نفسه ينبغي انفاقه عندما تتوفر الضرورة، في سبيل منفعة الملك المذكور والمملكة، وبالنسبة للبارونات هم لم يعرفوا، ولم يسمعوا، بأن أيّاً من المال المتقدم الذكر، قد صرف بناء على اختيار أو مشورة أي واحد من النبلاء الأربعة المتقدمي الذكر، وهم يعتقدون بشكل ثابت — وفي الحقيقة، إنه لمن المعروف تماماً — بأن الملك مازال لديه ذلك المبلغ كله دون أن يلمس، ومن ذلك المبلغ، يمكنه الآن أن يزود نفسه بمعونة كبيرة، وإلى جانب هذا، هم يعرفون بشكل جيد أنه منذ ذلك الحين جمع كثيراً من أموال الموارث، بشكل خاص من رئاسة أسقفية كانتربري، ومن عدد من أغنى الأسقفيات في انكلترا،

ومن أراضي الايرلات، والبارونات، والفرسان الموتى، الذين كانوا ممتلكين من قبله، فمن هذه الموارد لوحدتها، لو أنهم اهتموا بها واعتنوا، لتوجب جمع مبلغ كبير من المال، علاوة على ذلك، إنه من وقت إعطائهم الجزء الثالث عشر المذكور، كان رجال العدالة يرتحلون بشكل متواصل ويدورون خلال جميع أجزاء انكلترا، وهم يجمعون ضرائب الغابات، وجميع الضرائب الأخرى، وعلى ذلك فإن جميع الكونتيات، والمثويات من أجزاء الكونتيات، والمدن، والمناطق، وتقريباً جميع القرى، حتى قرى انكلترا قد غرمت بشكل ثقيل، وبناء عليه إنه من هذه الجولات من المتوجب أن يكون صار لدى الملك مبلغاً كبيراً من المال، إذا ما دفع، وجمع بشكل صحيح، وبناء عليه يمكنهم القول بشكل صحيح بأن جميع انكلترا قد سيمت ظمناً شديداً، وتعرضت إلى فقر شديد بوساطة هذه الغرامات، وبوساطة المعونات التي أعطوه إياها من قبل، إلى حد أنهم الآن قد بقي لديهم القليل من الممتلكات أو لا شيء البتة.

ولأن الملك بعد منح هذا الجزء الثالث عشر، لم يلتزم قط بصكه المتعلق بالامتيازات، لابل ظلمهم أكثر منذ ذلك الحين، مع أنه قد منحهم بصك آخر، ووعدهم بأن استخراجات من هذا النوع يتوجب أن لاتصبح عادة، لهذا كله أخبروا الملك الآن بشكل واضح ومؤكد أنهم لن يمنحوه الآن أية مساعدة في المناسبة الحالية، ولكن بحكم أنه مولاهم، عليه أن يتصرف نحوهم وفق مايلي، بأن يصبر حتى تنتهي الهدنة المتقدمة الذكر، وإثر ذلك سوف يقدمون له النصيحة بقدر ما يستطيعون.

وعندما أخبر النبلاء المذكورون، الذين عملوا بمشابة رسل، هذا الجواب إلى الملك، عادوا إلى البارونات، وقالوا بأنهم جزئياً قد قدموا الرد المناسب إلى الملك، لكنه أراد أن يعرف ماالذي سوف يفعلونه إذا

ما خرق ملك فرنسا الهدنة، قبل انتهاء الموعد، ولقد وعدوا أيضاً باسم الملك بأنه إذا ما اقترف أي أذى ضد أي من نبلاء انكلترا، فالذي عليه هو أن يعمل تكفيراً عن ذلك، وفقاً لتحكيم بطرس أوف سافوي مع آخرين من مجلسه.

وعلى هذه الأسئلة أجاب النبلاء، إنه إذا ما خرق ملك فرنسا الهدنة، فإنهم سوف يشغلون أنفسهم، لايجاد خطط، حسبما قالوا من قبل إنهم سيفعلون، عند انتهاء الهدنة، شريطة —على كل حال— أن يكونوا متأكدين من أن ملك فرنسا قد فعل كذلك، وبالنسبة للتهمة أنهم من جهة الملك قد وعدوا بالتكفير عن الأذى الذي نزل بهم، وقال الرسل بأنهم في الوقت الحالي لن يتجادلوا مع الملك، وكان في أيام منح الجزء الثالث عشر، و. W دي ريلي قد وعدهم باسم الملك، وعداً مؤكداً وصادقاً، كما يفعلون هم الآن، لكن كيف حفظ الملك وعوده، هو نفسه أحسن من يعرف، وأخيراً كان الملك —على كل حال— قد تباحث معهم جميعاً واحداً، واحداً، بشكل أن كل واحد من الجماعة كان جاهلاً بالذي أعطاه إياه الآخر.

عودة إيرل أوف سالسبري من الأرض المقدسة

وفي الوقت الذي كان الزمان يدور فيه هكذا، ويسير على سياقه، عاد إيرل أوف سالسبري، من الأرض المقدسة، ونزل في انكلترا، سالماً وصحيحاً، وكان ذلك في بداية شهر آذار.

اعتقال رئيس أساقفة كولون وسجنه

اعتقل في هذه الآونة رعايا الامبراطور رئيس أساقفة كولون، الذي كان عائداً من روما إلى ألمانيا متكرراً، وكان رئيس الأساقفة هذا قد تأمر مع أساقفة آخرين، من الذين قدموا إلى المجمع العام، من أجل اسقاط الامبراطور، وكان قد سمع بمصير الذين سافروا خلال المناطق

الامبراطورية، ولذلك غيّر طريقه، وعاد عبر طريق جانبي، ذلك أن الكائن قد نصبت في جميع الاتجاهات، ولذلك وقع بالأسر، ووضع بالسجن، والشخص الذي اعتقله، كان —على كل حال— ألمانياً، ومعروفاً بشكل جيد من قبل رئيس الأساقفة، ولذلك سمح لأسيره بالنجاة، بعدما وعده وعداً صادقاً، وأقسم أنه لن يتآمر ثانية ضد الامبراطور، ولن يؤذيه، وحفظ رئيس الأساقفة —على كل حال— وعده بشكل سيء، كما سنحكي في التاريخ المقبل.

الملك الفرنسي يجهز أسطولاً ضدّ الإنكليز

وما لبثت أخبار هذه الأحداث قد انتشرت في مختلف أجزاء العالم، وفي فرنسا، وعلم الملك الفرنسي باقتراب وصول ملك إنكلترا بطريقة عدوانية ضده، وعلم بتآمر الذين استدعوه لمساعدتهم، فمركز ثمانين غليوناً مسلحين بشكل جيد، أمام روشيل Rochelle لحراسة تلك الأجزاء من بواتو ضد كل من يسعى للدخول إليهم، كما تدبر أيضاً حشد قوة عسكرية، بقدر ما يستطيع الفرنسيون أن يحشدوا، وأن تجتمع مع بعضها بموجب مذكرة ملكية، جرى توزيعها في مختلف المقاطعات الخاضعة له، وأمر عصابات الجماعات المدنية بأن تستنفر أنفسها، استعداداً لدعوته الملكية.

كيف جمع ملك إنكلترا كميات كبيرة من المال

وتسلم الملك الإنكليزي في الوقت نفسه، بشكل متواصل، أكثر الرسائل إلحاحاً من كونت دي لي مارشي، ومن النبلاء الآخرين لبواتو، فصار بذلك ثابتاً على قراره من دون تعديل، معتقداً أنه سوف يتسلم، بدون أدنى شك، جميع الذي وعده الكونت به، وحسبما كانوا قد نصحوه أن يفعل، جمع مبلغاً كبيراً من المال، أما بالنسبة للذين رفضوا تقديم المساعدة المالية إليه، فقد عدهم إما أعداء مكشوفين له، أو

ضايقتهم بكل وسيلة من الوسائل بوساطة أذنايه، وقام أثناء الصوم الكبير بصرف انتباهه من دون كلل إلى هذا العمل، لأننا كما ذكرنا من قبل، أرسل كونت دي لي مارشي رسالة إليه، بأن يجمع فقط المال، ويجلبه معه، لأنه هو سوف يزوده بقوة عسكرية كافية، وبهذا القول الذي قاله الكونت من دون حياء، قد تجاوز حدود الصدق، حسبما سترهن نتائج الأحداث فيما يلي.

ملك إنكلترا يبحث كثيرين على الالتحاق بالحملة معه

وحاول الملك بدهاء، أن يستميل قلوب الذين كانوا مختارين برغباتهم، بوساطة هدايا ثمينة أضعفت ثبات كثير من النبلاء، ولقد تمكن بوساطة الوعود المغرية، أن يربح إلى جانبه أخيه الايرل رتشارد، حتى يرافقه في حملته، تحت أمل مكافأة وافرة، وتوصل إلى غرضه هذا بسبب أن الملك الفرنسي، قام بعمل طائش، قبل وقت قصير، وحسبما ذكرنا من قبل، فمنح كونتية بواتو إلى أمفولسي، أخيه، وبذلك حرم بشكل غير عادل الايرل رتشارد من ممتلكاته، وقد وعد البواتيون بشكل أكيد بعودتهم جميعاً إليه، لدى وصوله إلى هناك.

إرسال سفراء بشكل مسبق للإعلام بوصول الملك

وجرى الآن إرسال بطرس أوف سافوي، ايرل ريشموند، وبترس أوغوييلانشي، أسقف أوف هيرفورد، اللذان كانا المستشارين الخاصين للملك، إلى القارة لطمأنة أصدقاء الملك في بواتو بأخبار، بأن وصول الملك بات وشيكاً، وبهذا ارتفعت آمالهم، وشرعوا على الفور بالحرب، وطالبوا بإعادة الحقوق لصالح ملك إنكلترا، وألحقوا أضراراً كبيرة بالملك الفرنسي، وبعد ايصال الرسائل، نجا بطرس أوف سافوي بصعوبة من كمين نصب له، وعاد إلى الملك في لندن، قبل وقت قصير من عيد الفصح، وهو صحيح الجسم، لكن ليس من دون خسائر، أما

بطرس، أسقف هيرفورد، فقد أخذ طريقاً جانبياً غير الطريق المعتاد إلى الوطن، حتى يصل سالماً، وبذلك نجا من كمائن الذين استهدفوا حياته، وذهب وهو على طريقه إلى بروفانس، وطلب من كونت بروفانس، والد الملكتين: الفرنسية والانكليزية، ابنته الثالثة سينشيا Cincia للزواج من الايرل رتشارد، وتجاه هذا استثيرت الجماعة الانكليزية كثيراً، وبدأ أفرادها يخشون من أن تصبح جميع شؤون المملكة تحت إرادة الملكة واختها سينشيا المذكورة، عندما ستصبح زوجة الايرل رتشارد، التي سوف تكون بالفعل ملكة ثانية.

ملك إنكلترا يعمل استعداداته من أجل عبوره

في هذه الآونة كان الملك قد أكمل جولة على بعض كنائس القديسين، وعهد بنفسه إلى صلوات رجال الدين، وودع المواطنين، وفي اليوم التالي لعيد الفصح أخذ الطريق إلى بوررتماوث، ليركب السفينة من هناك، وقد أسرع إلى اتخاذ هذا الإجراء بوساطة الرسائل الملحة والمتواصلة التي أرسلت إليه من القارة، وأثارت محتويات هذه الرسائل غضب وخجل بعض الانكليز، الذين يتعلقون بالكرامة، ذلك أنها هدفت إلى القول بأنهم قد بدأوا الحرب بشكل موائم، وأن عليه القدوم مسرعاً، ودونها خوف، إلى مساعدتهم، مع مبلغ كبير من المال، وأن لا يهتم بجلب حشد كبير من الجنود، وكأن ملك إنكلترا قد كان مصرفياً، أو صرافاً، أو بائعاً بالفرق، وليس ملكاً، وقائداً نبيلاً، وأمراً للفرسان، حيث أنهم وضعوا ثقتهم بالمال أكثر من وضعها في القتال، وليس من المعتاد إثارة ملك ودعوته إلى الحرب بهذه الطريقة، وأظهر البواتيون بهذه الطريقة خيانتهم المعتادة، لأنهم أثروا إهلاك أموال الملك وفضلوا ذلك على وجوب تشجيعه بالتكريم المناسب، وأن يكون محاطاً بنبلائه، وفقاً لكلمات الفيلسوف سينكا Seneca، عندما تحدث عن زيف النساء بقوله:

عندما يتبدد غضب المرأة المكشوف

وقتها تكون ممتازة جداً

وفي هذا برهنوا — على كل حال — عن أنفسهم أنهم خونة غير
بارعين، لأنه عندما:

شبكة الطائر تواجه العين

الطائر الحذر يحتاط لأن يطير

تعيين رئيس أساقفة يورك نائباً للملك

عندما بات الأسطول الحربي جاهزاً ومستعداً، عهد بشؤون المملكة
إلى رئيس أساقفة يورك، وأعاد رتشارد راعي دير ايفهام، والأسقف
المنتخب لشيستر، الختم الملكي، الذي حمّله لمدة ثلاثة أعوام بطريقة
مرضية، وعاد الملك إلى صداقة أسقف شيستر، الذي لم يستحق مطلقاً
فقدانها، وكذلك أصغى ر. R مستشاره، ورالف فتز — نيقولا،
وغودفري كروكومب Crowcombe وبعض الآخرين المعزولين
إلى إطراءات المداهنة.

إقلاع الملك ووصوله إلى روان

ثم إنه في الخامس عشر من أيار، أقلعت العساكر، ومعها ثلاثين
صندوقاً مليئة بالمال المتشوق إليه كثيراً، وركب الملك في سفينة تصاحبه
زوجته الملكة ويصاحبه أيضاً أخوه الايرل رتشارد، مع سبعة ايرلات
آخرين، وحوالي ثلاثمائة فارس، وأبحر مع ربح طيبة نحو بوردو، لكن
قبل أن يتعد كثيراً عن الساحل، توقفت الريح، فعاد إلى بورتموث، وفي
اليوم التالي، بما أن الريح هبت بشكل موائم، أقلع ثانية، ووصل إلى
القديس متى دي فينيستير Finisterre في بريتاني، ومكث هناك يوم
الأحد لسماع الصلوات المقدسة، وأقلع في يوم الاثنين ثانية، وأبحر في

المياه العميقة فوصل في يوم الثلاثاء إلى رويان Royan, عند مصب
غيرون Gironde, وذلك حيث يصب في البحر مقابل القديسة
ماري دي سولاك Soulac في غساكوني، ونزل هناك، ومكث لعدة
أيام، ومن هناك مضى إلى مدينة بونز Pons الفخمة، حيث تقابل
مع رينالد دي بونز، صاحب ذلك المكان، وبعض نبلاء آخرين من
سانتاغيو.

الترتيبات الأولية للزواج فيما بين ملك سكوتلندا

وابنة ملك إنكلترا

أثناء وقوع الحوادث التي تقدم ذكرها أعلاه، تم عقد القران بين
الاسكندر الابن الأكبر لملك اسكوتلندا، ومرغريت ابنة ملك انكلترا،
من خلال وساطة أسقف درم، وذلك في سبيل أن تكون المملكة أثناء
غياب الملك أكثر سلاماً بشكل مؤكد، وكان هذا قد جرت الموافقة عليه
من قبل، بناء على رغبة كل من ملكي انكلترا واسكوتلندا، وقد عهد
بالجزء الانكليزي المحازي لسكوتلندا إلى عناية ملك الاسكوتلنديين،
أثناء بقاء الملك الانكليزي في القارة.

كيف نهب وليم مارش جزيرة لوندي

وفي أثناء وقوع هذه الأحداث، عسكر وليم مارش، ابن غيوفري
مارش، فوق جزيرة قريبة من بريستول اسمها لوندي Lundy،
وكان مكاناً حصيناً لا يرام بسبب وضعه الطبيعي، وقد عاش هناك مثل
قرصان مع عدد من الرجال المنفيين والأشرار، وقد تورط في أعمال
النهب والسلب، وقام بمرافقة أصحابه بالعيث فساداً بالشاطئ
المجاور، وسلبوا من السكان ممتلكاتهم، لاسيما الخمرة والامدادات
الأخرى، وبوساطة غارات مفاجئة حملوا كميات كبيرة من الأسلاب،
من المنطقة الواقعة قرب الجزيرة، وألحقوا أضراراً بالغة بطرق مختلفة،

بمملكة انكلترا في كل من البر والبحر، وسببوا خسائر كبيرة إلى كل من التجار الوطنيين والأجانب.

وذهب بعض نبلاء انكلترا وايرلندا، الذين لم يكن بإمكانهم البقاء بشكل مشرف في بلادهم، أثناء غياب الملك، وتعرضه لمخاطر الحرب في القارة، ذهبوا في جولة إلى قرب الجزيرة المتقدمة الذكر، فاكتشفوا بأن وليم المذكور وأتباعه لا يمكن اعتقالهم من دون خيانة، فأخبروا الملك، بأنهم ينبغي أن لا يعملوا بالقوة، بل بشكل حكيم، في سبيل اعتقال هذا اللص، وعند ذلك أمر الملك رعاياه — مع وعود بجوائز كبيرة — بأن يسعوا بكل يقظة لاعتقاله، وتحرير البلاد منه، لأن وليم هذا كان مكروهاً جداً من قبل الملك، حيث قيل بأنه قام، بتحريض من أبيه غيوفري، بالتآمر على حياته، ولذلك بعث بذلك المجرم، الذي قدم ليلاً، ليقوم بقطع عنقه، عندما كان في وودستوك، وبذلك استحق الإدانة بالخيانة، وبعد ذلك قتل واحداً من الكهنة، وكان رسولاً من نبيل ايرلندي، كان في حضرة الملك في لندن، وبجراً أنكر وليم المذكور جميع هذه التهم، ومع ذلك لم يحصل على أي تصديق، كما أنه لم يلق أذناً صاغية، ولذلك قام — على كل حال — بحمل نفسه إلى أماكن بعيدة عن الطريق، وصار هارباً وخارجاً على القانون.

وفاة بعض النبلاء

وفي حوالي هذا الوقت نفسه من العام، مات النبلاء: غيلبرت دي غونت، وبلدوين واك Wac، وفيليب دي كايم Kime، وكان ذلك في المناطق الشمالية، وروجر بيرترام Bertram، وبعض النبلاء الآخرين، الذين غادروا هذه الحياة، ومات أيضاً إيرل أوف وورويك Warwick، وفي هذا العام أيضاً، مات هنري، الذي كان واحداً من أبناء الامبراطور، والذي لذنبه قد أودع لوقت طويل في السجن بناء على أوامر أبيه، وهناك أنهى حياته البائسة، ولقد قيل بأنه مات بيديه نفسه.

الأوضاع البائسة للكنيسة الرومانية

وكان البلاط الروماني في هذه الآونة في وضع فوضوي كبير، وفي حالة بائسة ومتهاوية، حيث كان قد بقي هناك ستة أو سبعة كرادلة في روما، وقد بقي الكرسي البابوي شاغراً، وكان بعض الكرادلة قد انتقلوا من هذا العالم، وبعضهم مازال مريضاً، وكان آخرون قابعون متخفين مع أصدقائهم وأقربائهم في مناطق نائية حيث كانوا قد ولدوا، وبذلك كانوا متفرقين في أماكن مختلفة، وكانوا يعانون من اضطراب في عقولهم، وقد انطفأ شعاع العاطفة فيما بينهم، وأصبحوا كأنهم رمل من دون كلس، وعلى هذا فإن بيت الرب الذي احتاج إلى الوحدة ليضمن القوة، لم يعد قادراً على تلقي الدعم بشكل صحيح منهم.

استعدادات الملك الفرنسي للتصدي إلى ملك إنكلترا

وعلم الملك الفرنسي في الوقت نفسه، بأن ملك إنكلترا قد نزل إلى اليايسة لشن الحرب عليه، معتمداً على مساعدة البواتيين، وعلى وعود من الغسكونيين، ولمعرفته بأن كونت دي لي مارشي قد شرع بالحرب ضده، استدعى بوساطة إعلان ملكي جميع القوة العسكرية الفرنسية، وأمر بتزويد قطار العصابات بالسلاح والإمدادات، من أجل أنه عندما تستدعي المناسبة لدعوتهم، يمكن أن يجدهم جاهزين، وتوفر لديه حوالي ألف عربة، فأمر بأن تكون جاهزة لحمل الخيام، والمجانيق، والإمدادات، والسلاح، والأشياء الضرورية الأخرى، ثم إنه أعد قواته، التي كانت أفضل ما يمكن لفرنسا أن تنتجها، ووضعها في نظام حسن، وانطلق زاحفاً نحو بواتو، ليصد بالقوة هجمات ملك إنكلترا وأعدائه الآخرين، وكان هناك حوالي أربعة آلاف فارس مسلحين تمام التسليح وبشكل فخم، وذلك إلى جانب أعداد من الآخرين الذين قدموا من جميع الاتجاهات، وتدفعوا نحو الجيش، مثل تدفق الأنهار، حين تصب في البحار، وقيل بأن عدد الأتباع ورماة القسي الزيارة قد بلغ نحواً من عشرين ألفاً.

اعتقال وليم مارش ومعاقبته في لندن

وفي هذه الآونة، حدث للفارس وليم مارش، الذي أتينا على ذكره، أنه بعدما أمضى بعض الوقت، في الجزيرة المتقدمة الذكر، متورطاً بأعمال السلب والنهب، أنه فوجئ من قبل بعض عملاء الملك، وجرى اعتقاله، وحمله إلى لندن، حيث سجن مضيقاً عليه في البرج، وفي يوم عيد القديس جيمس، وبناء على أمر من الملك، جرت محاكمة وليم المذكور مع ستة عشر من أصحابه كانوا قد اعتقلوا معه، وقد أدينوا وأدينوا، وقضي عليه بموجب أوامر الملك بموت مهين، وبناء عليه جرى سحله أولاً من ويستمنستر إلى برج لندن، ومن هناك حمل إلى آلة العقوبة التي اسمها المشنقة، وبعدها جرى تعليقه عليها لفظ أنفاس حياته الشقية، وبعدها صار جسده متيساً قاسياً بعد الموت، أنزل هذا الجسد وجرى تجويفه، وجرى على الفور احراق أحشائه في البقعة نفسها، ثم جرى تقسيم جسده الشقي إلى أربعة أقسام، أرسلت إلى المدن الأربعة الرئيسية في المملكة، حتى يمكن أن يدخل رؤيتهم الرعب إلى الذين سيشاركونهم، أما بالنسبة لأصحابه الستة عشر، فقد سحلوا في أرجاء لندن، بعد ربطهم إلى ذيول الخيول، وبعد ذلك جرى تعليقهم على المشانق.

وبعدما أدين وليم المذكور، وعندما كان على وشك سماع قرار الإدانة، دعا العدالة الربانية لتكون شاهدة عليه، وأعلن بجرأة بأنه كان بريئاً تماماً وليس مجرمًا ولا مقترفاً لجريمة الخيانة التي ألصقت به، وكذلك بالنسبة لمقتل الكاهن كليمنت المتقدم ذكره، وأكد أيضاً بأنه حمل نفسه إلى الجزيرة المتقدمة الذكر، ليس إلا لسبب واحد هو أن يتجنب غضب الملك، وهو الغضب الذي حاول دوماً، وفوق كل شيء، أن يهدئه بالخضوع إلى أي نوع من المحاكمة، أو إلى أي نوع آخر من التذلل، لكنه بعدما التجأ إلى الجزيرة المذكورة، وعاش هناك لاجئاً، كان

مرغماً على إطالة أمد حياته التعيسة بالاستيلاء على الامدادات، حيثما استطاع أن يجدهم، ثم إنه لفظ روحه بالاعتراف أمام الرب، إلى ج. ل دي سينت جايلز، الذي كان واحداً من رهبان طائفة الدومينيكان، واعترف بذنوبه وهو شديد الندم، دون أن يسوّغ نفسه، أو التفوه بكلمات شريرة، بل بالحري اتهم نفسه، ثم قام عندها هذا الدومينيكاني المستقيم والمتلقي للاعتراف، فأعطاه شيئاً من الترضية اللطيفة، وصرفه بسلام، وأقنعه بأنه ذاهب إلى الموت الذي قضي به عليه بمثابة تكفير، وهكذا عانى كما ذكرنا من قبل، وهو أمر فظيع أن تحكيه، ليس من موت واحد، بل من عدة ميتات مخيفة.

نصر الداوية في الأرض المقدسة

وحصل الداوية في هذا العام في الأرض المقدسة — بوساطة معجزة أكثر منه بوساطة القوة الإنسانية — على نصر مجيد، وغير متوقع، على آلاف كثيرة من المسلمين، كانوا قد قدموا من مناطق قريبة من مصر.

البواتيون والغسكونيون يحصنون أنفسهم ضدّ الفرنسيين

في ذروة الصيف، عندما جففت حرارة الشمس كل شيء، وكل شيء ذبل وتلاشى، قام البواتيون، وهم في حالة خوف عظيم من هجوم الفرنسيين، الذين كانوا الآن يزحفون مسرعين ضدهم، قاموا بتحسين قلاعهم، ومدنهم، وأغلقوا ممرات الجبال، التي كان من الممكن للعدو أن يمر من خلالها إلى بلادهم لإلحاق الأذى بهم، واستخدموا كتلاً ضخمة من الحجارة مع جذوع الأشجار الساقطة، وحولوا الطرقات، والممرات إلى أماكن يتعذر عبورها، وسدّوها بكل نوع من المعيقات، وقطعوا أشجار التفاح والعنب التي اعتقدوا أنها سوف تفيد الأعداء، وطمّوا الآبار، وأفسدوا الينابيع والأنهار التي تسيل منهم، لابل إنهم سمّموا بعضها، واجتشوا النباتات التي كانت مفتوحة أمام أعدائهم،

ودمروا تدميراً كاملاً كل نوع من الإمدادات، وكذلك خربوا الأماكن التي كان من الممكن أن يحصلوا فيها على الراحة، آملين بذلك أن يكونوا قادرين على الحيلولة دون وصول الفرنسيين إلى أراضيهم، لأنهم سوف يعانون من الحاجة إلى كل شيء ضروري، وبالفعل لم يكونوا كلياً مغشوشين في توقعاتهم، لأنه في أيام الشعري [مابين أوائل تموز وأوائل أيلول] هوجم الفرنسيون بموت خطير، إلى حد أن الملك فقد ثيابه نيبلاً، كانوا يحملون أعلامه، حيث أنهم هلكوا في أوضاع بائسة هناك، أو أنهم نقلوا وهم يتلاشون، على محفات إلى بيوتهم، وعلى العموم، سقط الجنود الرجالة، وكانت أعدادهم كبيرة، ضحايا للأمراض، حتى أن الأحياء باتوا في خطر عظيم على أنفسهم، وبصعوبة بالغة كان بإمكانهم دفن الموتى، كما سوف نرى في سياق الرواية.

كيف جرى اعتقال التجّار وتجريدهم من مقتنياتهم في كلّ من فرنسا وإنكلترا

وفي تلك الآونة نفسها، ومع اقتراب حلول فصل الخريف المجهد، أقدم الملك الفرنسي على إجراء غير معتاد، فأمر باعتقال أشخاص التجّار الانكليزي، الذين كانوا يتنقلون مع بضائعهم في جميع أرجاء مملكته، وبذلك أنزل أذى عظيماً على الكرامة القديمة لغاليا، التي وفرت من قبل ملجأً أميناً وحمايةً إلى جميع المنفيين والمحكومين، ولاسيما المسلمين منهم، فمن هذه الظروف كسبت بالأصل اسم فرنسا بلغتها خاصة، ووصلت بالحال أخبار هذا الإجراء غير الشريف والوحشي إلى مسامع ملك إنكلترا، وإلى مشاعره، وبناء عليه أعطى هو أيضاً أوامر قضت بأن أي تجار فرنسيين وجدوا في أي جزء من أجزاء إنكلترا، يتوجب تعريضهم إلى انتقام عادل مماثل، وأرسل في الوقت نفسه إلى الأوصياء على مملكته، أي إلى رئيس أساقفة يورك وزملائه، يطلب إمدادات من المال ونجدات من العساكر، وبناء عليه وفي طاعة منهم إلى

أوامر الملك، أرسلوا من دون تأخير خمسين من رماة القسي الزيارة، ومبلغاً كبيراً من المال، مع كميات جيدة من الإمدادات، وبعض الجنود مع أسلحة تحت توجيه الموانئ الخمسة ولدى رؤية هذا من قبل بعض النبلاء الانكليز، رأوا أنه عملاً غير مشرف الانخراط في الراحة، بينما كان ملكهم منشغلاً بالحرب فوق القارة، ولذلك أعدوا أنفسهم للالتحاق بالحملة وبرجالها، وقد تجهزوا بشكل جيد بالخيول والسلاح، وقام بعض النبلاء الايرلنديون، وبالتحديد رتشارد دي بيرغ، وبعض الآخرين، بناء على اقناعهم من قبل المستقيم موريس، مسؤول العدالة في ايرلندا، فجهزوا أنفسهم بالسلاح، وشحنوا كميات من الإمدادات، وأسرعوا متشوقين إلى مساعدة الملك، وتكوّن من هؤلاء أسطولاً كبيراً، وشكلوا قوة بحرية مرعبة، وعندما علم بهذا البحارة والقرصان، الذين أقاموا حراسة يقظة على الشاطئ الفرنسي المقابل، أعدوا، بناء على أوامر الملك الفرنسي، قوة بحرية، وسلحوا أنفسهم. وأقلعوا في البحر على ظهور سفنهم، وكانت غلايينهم مشحونة بأعداد كبيرة من المجذفين، وكانوا يريدون مهاجمة القوة البحرية المقبلة، في البحر، أو إخافة رجالها حتى يتراجعوا إلى شواطئهم، وعندما اقترب الأسطولان من بعضهما، هبت فجأة عاصفة قوية، ولذلك تفرقوا، بعضهم باتجاه، وبعضهم الآخر باتجاه آخر، ونشد قادة السفن سلامتهم فقط، وكانوا محمولين تحت رحمة الرياح، وعرفوا أخيراً بصعوبة أصحابهم، أو ميزوا سفن أسطولهم على حده، والفرنسيون الذين كانوا أقرب إلى ساحلهم، أكثر من الانكليز أو الايرلنديين إلى سواحلهم، أخذوا طريقهم بكل سرعة إلى الجزء الأقرب من الساحل، ولأن الرياح لم تكن قوية جداً ضدهم، وصلوا إلى مكان سليم وملجأ، لابل إن بعضهم وصلوا إلى موانئهم الخاصة بهم، بينما شعبنا الذي خاف خوفاً عظيماً من غضب الرياح ومن غضب الفرنسيين، فقد شتوا أنفسهم وهم هاربون، وملاحقون بالخوف، والعار، والحزن في القلب، ودفعوا إلى الشاطئ،

إلى أجزاء بعيدة، وغير معروفة من الساحل، وبسبب هذه الانتكاسة، فإن راعي دير ايفهام، ورتشارد دي بيرغ، وكثيراً آخرين، الذين كانوا في موقع القيادة للحملة، لم يتعافوا بعد هذا، ولم يعودوا إلى الوضع الصحي السليم، لابل إنهم تلاشوا رويداً رويداً، حتى باتوا أخيراً غير قادرين على استرداد قوتهم، بعد كثير من العناء والانهك في أرض أجنبية، وفي ظل مناخ غريب، ولذلك لفظوا أنفاس حيواتهم المرهقة، وبهذه الانتكاسة نال الملك خسارة كبيرة لا يمكن تعويضها، تمثلت بفقدان رجال حكماء وأقوياء، وأسلحة وعتاد، وبشكل خاص القمح الذي كان قد جمعه من رئاسة أسقفية كانتربري، ومن الأسقفيات الأخرى، والمال الذي كان قد جمعه من جميع الجهات.

موت مرغريت بيسيت

ماتت في هذا العام، في هذه المناطق، واحدة اسمها مرغريت بيسيت، وكانت امرأة من أسرة مشهورة، ومتميزة بأخلاقها، حيث أنها رفضت تماماً معانقة الرجال، وأسست على حسابها، الذي لم يكن صغيراً، ديراً جيداً للراهبات، وذلك على الرغم من رغبات جميع أصدقائها الدنيويين، وأصبحت المنفقة عليه والراعية، ونالت هذه السيدة شهرة عظيمة، لأنها في إحدى الليالي، في وودستوك، عندما كانت تمضي الليل في غناء الترانيم الدينية، وفي السهر وفي الصلاة، أنقذت الملك، من أيدي القاتل، بصراخها، وقد جرى من قبل شرح ظروف هذه الحادثة.

الجريمة المربعة لـ وولتر بيسيت

وفي تلك الآونة، عقدت مبارزات سيئة الحظ في المقاطعات الشمالية، وفي إحداها التي عقدت على حدود انكلترا وسكوتلندا، أبدع واحد اسمه وولتر بيسيت، وكان شجاعاً وفارساً بارعاً، وقد هزم من قبل خصمه، وهو واحد اسمه باتريك فتز — توماس أوف غالوي

Calway، ولذلك أبدع جريمة لم يسمع بمثلها، من أجل أن ينتقم انتقاماً غير عادل من المتغلب عليه، فبينما كان باتريك المذكور، مقيماً مع بعض النبلاء الآخرين الذين كانوا برفقته في ادمونتون Edmonton، اتخذ مكاناً لنفسه لأمضاء الليل في نوع من أنواع الهري، وعندما كان غارقاً في نوم عميق، قام وولتر بيسيت المذكور، فأغلق الباب من الخارج ببعض جذوع الأشجار، وإثر ذلك دس النار من عدة أماكن في الجدران، بوساطة بعض العصي المحترقة، وأحرق بذلك تقريباً جميع الذين كانوا في الداخل، وهكذا مات لذلك باتريك المذكور مع بعض رفاقه الشجعان والمشهورين، ولكن عندما وصل خبر هذا العدوان إلى مسامع الايرل باتريك والنبلاء الآخرين لسكوتلندا، استعدوا للانتقام لهذه الجريمة الكبيرة، وهاجموا وولتر المذكور، وهم راغبين في تمزيقه إلى قطع، وقد هرب — على كل حال — إلى ملك اسكوتلندا، وطلب العدالة والرحمة منه، ذلك أنه أنكر الشر الذي اقترفه، وعرض أن يبرهن على براءته أمام الملك وأمام بلاطه كله، بعرض جسده ضد أي واحد مهما كان قديراً في السلاح وقوياً، ورفض خصومه — على كل حال — هذا، حيث أعلنوا أن الجريمة الكبرى لا تحتاج إلى برهان إيجابي، ولذلك طلبوا من الملك، بحدة وبسرعة كبيرة، وبمشاعر الكراهية، عدوهم المعلن، الذي كان مايزال ملطخاً بجريمة القتل الحالية، وملوثاً بجريمة غير اعتيادية تماماً، واستطاع الملك بشيء من الصعوبة تهدئة غضبهم، ولطف انتقامهم، بأن وعد بوجوب حرمان وولتر المذكور، وأيضاً بوجوب مغادرته سكوتلندا، وأن يرسل إلى منفى دائم، وبعد شيء من الصعوبة وافقوا على اقتراح الملك، وكانوا واثقين بأنهم سوف يصطادونه عندما ينتقل من حماية الملك، وأن يعاقبوه بموت عادل، ووصلت أخبار هذه الخطة إلى علم الملك — الذي كان رجلاً رحيماً وعادلاً — فأخفى بعناية وولتر المذكور لمدة ثلاثة أشهر، في أماكن لا يستطيع أعداؤه الوصول إليه فيها، وعند انتهاء هذه المدة، هرب من البلاط بشكل

سري، في إحدى الليالي المظلمة، وهو محكوم بالنفي ورجل محروم من ميراثه، ولم يعد ثانية، وكان النبلاء السكوتلنديون، الذين كان كثير جداً منهم يطلبون حياته، كانوا جاهلين تماماً بنجاته، أما بالنسبة لـ وولتر، فإنه مع أنه أقسم بالمضي إلى الأرض المقدسة، وأن لا يعود ثانية، وذلك في سبيل خلاص روحه وأرواح الذين هلكوا بالحريق، مع أنه قال بأن ذلك لم يكن من خلال وسائله، إنه مع ذلك غير اتجاهه، وبادر مسرعاً ليتقدم بشكوى أمام ملك انكلترا، حول الأذى الكبير الذي لحق به، وبناء عليه أعلن بأن ملك سكوتلندا، قد حرّمه بشكل غير عادل من ميراثه، لأنه لم يستطع بأي طريقة أخرى تهدئة غضب الذين كانوا نافرين ضده وغاضبين، مع أنه، أي وولتر، كان جاهزاً لتبرئة نفسه، والبرهنة على أنه كان بريئاً من الجريمة التي ألصقت به، بوساطة محنة مبارزة واحدة، وقد أضاف علاوة على ذلك، أنه بما أن ملك سكوتلندا كان تابعاً إقطاعياً للملك انكلترا، لا يمكنه من دون موافقة ملك انكلترا، حرمان رجل نبيل من ميراثه، ونفيه من بلاده بشكل أبدي، خاصة إذا لم يكن قد أدين بجريمة، وبالإضافة إلى هذا، قال بأن ملك سكوتلندا، قام بإذاء منه لولائه ولتابعيته التي هو مرتبط بها إلى ملك انكلترا، فاستقبل في أراضيه وقدم الحماية، فهو في هذا الوقت بالذات يقدم الحماية إلى غيوفري مارش، الملتجئ من أيرلندا، والمتورط بالجرائم الخيانية لابنه وليم، الذي حكم عليه مؤخراً بالموت، وشنق في لندن، وبهذا ثار غضب ملك انكلترا إلى درجة عالية ضد ملك اسكوتلندا، لكنه احتفظ بغضبه حتى حلول وقت مناسب للانتقام، كما ستظهر ذلك الرواية المقبلة.

ملك انكلترا يلغي الهدنة ويعلن الحرب ضدّ ملك فرنسا

خلال هذه الآونة، أرسل ملك انكلترا رالف فترز — نيقولا، ونيقولا دي مولي Molis — كرسولين خاصين إلى الملك الفرنسي، ليعلنا قراره

—إذا لم يوافق الملك الفرنسي على طلبه— بإلغاء الهدنة، والشروع بالحرب ضده، وعند وصول الرسولين، وجدا الملك الفرنسي يحاصر قلعة فرونتني Frontenaye، التي كانت عائدة إلى كونت دي لي مارشي، والتي قاتلها من دون كلل نهاراً وليلاً، وذلك بحملات عساكره، وبقصف الأسوار بالقذائف من أدوات رمي الحجارة، وبوساطة رمايات متواصلة بالنشاب، كما أنه أخاف المحاصرين وضيق عليهم، حتى أنهم كانوا تقريباً، ولم يعد بإمكانهم تحمل شدته وحملاته غير المنقطعة، وكان في هذه القلعة واحداً من أبناء كونت دي لي مارشي من زوجته الماضية، وكان فارساً شجاعاً، ومعه أكثر الأصدقاء قرباً من الكونت المذكور، الذين وضعهم هناك للدفاع عن هذه القلعة القوية والجيدة التحصين، وكان الملك متشوقاً كثيراً لاعتقالهم، حتى يلقي الرعب في قلوب الآخرين.

ولدى وصول رسولي ملك انكلترا، استقبلها الملك الفرنسي بالثريف والاحترام، وبأدب دعاها لتناول طعام الإفطار على مائدته، وبناء عليه، قدما في الصباح التالي نفسيهما ومثلاً أمامه، وبراعة وبنظام، كشفاً عن الرسالة التي فرضت عليهما بالكلمات التالية:

«لقد بعث ملك انكلترا، الذي هو قريبك، رسالة إليك، بأنه مندهش إلى أبعد الحدود لأنك من دون حياء خرقت الهدنة المبرمة بينك وبينه، والمثبتة بيمين من على الجانبين، والتي من المتوجب أن تظل سارية لمدة ثلاثة أعوام أخرى، وبهذا العمل ظهر غير ماهو متوقع منك، فقد هزرت أركان استقرار الثقة الملكية»، وعلى هذا ردّ الملك بنظرة هادئة:

«الهدنة أنا لم أخرقها قط، كما أنني لا أرغب بأن أفعل ذلك، وفي الحقيقة إنني محافظ عليها دون أن تخرق، وإذا مارغب ملك انكلترا فإنني سوف أطيل مدتها، من دون أي تعويض، وهو أمر أنا لأفعله، لأنه بعيد عني، كملك لفرنسا، أن أخرق بأي طريقة من الطرق هدنة،

أو أي معاهدة دخلت فيها بيني وبينه، لأنني بذلك ألقى جانباً كل تبجيل للرب، واحترام للانسان، ولأظهر احتراماً لروابط القرابة، وأخبراً مولايكم بأنني سوف ألتزم بالهدنة خلال هذه الأعوام الثلاثة، وسوف أمددها، إذا ما رضي، لمدة ثلاثة أعوام أخرى، أي أن تقول لمدة ستة أعوام من الآن من دون أي تعويض يقدم إليّ، علاوة على ذلك أنا على استعداد للتخلي عن مقاطعة بواتو، والجزء الأكبر من نورماندي، الذي هو ليس مصدرراً للشك أو الخوف من قبلي، ففي هذين البلدين، هو يقول بأنه يمتلك حقاً وتوقعات، تماشياً مع اليمين الذي أداه والذي لويس، عندما كان في انكلترا، وبموجب منحة قديمة وإذن من أجدادي، على شرط، أن يكون مسموحاً لي، من دون أية معارضة من جانبه، وذلك كمطالب عادلة، بأن أعاقب أي ضرر ألحق بي أو بمملكتي، من قبل أعدائي، والخونة لي، مهما كانت ثقتهم به من أجل مساعدتهم، إلى جانب هذا، عليّ أن أخبر ملك انكلترا، بأنها مسألة مدهشة بالنسبة لي، وأسأله: بأي روح اقتنع، أو على أي أساس أنا لأعرف، قد قال بأنني خرقت الهدنة بيني وبينه، إذا ما هاجمت أنا قوماً يسكنون قريبي أو بجوار مملكتي، وهم ليسوا عائدين إليه بحق الولاء، وذلك إذا ما آذوني، أو تمردوا عليّ، دون أن أقول: الذين هم خونة لي، ماهو شأنه بالنسبة لشؤون كونت دي لي مارشي؟ لابل بأي حق قد تدخل في مسألة كونت طولوز؟ إنني لم أعمل هدنة معهم، كما أنه لم يرد ذكرهما في الهدنة، وعلاوة على ذلك إنه بالحقيقة ذاتها وهي حمايته، ودفاعه عن أعدائي، قد برهن بالحري بأنه قد خرق شروط الهدنة المذكورة، وكذلك لما يتعلق بالعواطف التي ينبغي أن تتوفر بين الأقرباء، وإنني قد اقترحت — على كل حال — بأن أتصرف بشكل أحسن، وبلطف أكبر مع الاحترام نحوه، ومازلت معطياً له العرض الذي تقدم ذكره أعلاه، حول شروط الهدنة».

وقال الملك الفرنسي هذا كله بأعظم اعتدال، ومن دون أي خداع، لأنه كان خائفاً كثيراً من خيانة ملك أراغون، وملك قشتالة، اللذان كانا من أقرباء ملك انكلترا، كما أنه كان يخاف من كونت طولوز، الذي كان منذ زمن طويل يكره الفرنسيين، الذين نكلوا به، وكان يخاف أيضاً من كونت دي لي مارشي، الذي كان محمياً بقلاعه التي لا ترام، والذي سمن بأموال ملك انكلترا، ويخاف أيضاً من تقلبات النورمان الذين كانوا جيراناً لانكلترا، ومرتبطين بها بنوع من النسب، وخاف فوق كل شيء من خرق يمين أبيه لويس، الذي آداه قبل مغادرته انكلترا، والذي ربط به نفسه بأن يعيد إلى ملك انكلترا حقوقه، إذا ما عاش بعد والده، وكان أبوه، عندما كان على وشك الموت في أفينون قد أوجب عليه، بحكم أنه أبيه، أن يفي بذلك اليمين، وهو لذلك عدّ الأمر مسألة عادلة وتقوية أن يقوم بتحرير روح والده من مثل هذا الرباط.

تسليم رسالة الملك الفرنسي إلى ملك إنكلترا

وما أن تسلم الرسولان جوابهما، حتى عادا على الفور، وباخلاص روياء لملك انكلترا كل الذي رآياه وسمعاه، لكنه — على كل حال — لم يكن على استعداد، ولا بشكل من الأشكال، أن يصغي بإيجابية إلى الرغبات المسالمة للملك فرنسا، أو أن يقبل عرضه النبيل، الذي عرض عليه بكل ميول مسالمة، لأنه كان قد تشجع، وتغيرت مشاعره، بمهارة الخونة البواتيين، الذين أغلقوا عينيه عن رؤية عظمة المنافع المعروضة عليه، وقد وعدوه، أنه بمساعدتهم، فإن جميع تلك المناطق، وأكثر بالاضافة إليها، يمكن الاستيلاء عليها بالقوة، وانتزاعها من يدي الملك الفرنسي، وبناء عليه قام من خلال بعض الاستتارية بتهور بتحدي الملك الفرنسي، لأنه شن الحرب على كونت دي لي مارشي، الذي بحكم العادة كان يدعو به أبي، مع أنه كان زوج أمه فقط.

بداية الحرب بين الفرنسيين والإنكليز

وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا، ندم لأنه عرض مثل تلك الشروط المذلة للسلام على ملك انكلترا، وقال لنبلاته:

«أنا آسف أن ملك انكلترا، الذي هو قريبي، والذي رغبت في أن يكون أعظم صديق لي، هو مفتون، ذلك أنه يصغي أكثر إلى الإثارة الخادعة لكونت دي لي مارشي، ولكونت طولوز، ولأعوانهما، فالأول بينهما مشهور بخيائته، والثاني مشهور بهرطقته، فقد أصغى إليهما أكثر من اصغائه إلى رسائلي الصديقة، وأنا آسف لأنني أهملت، لكنني غير خائف منه، ولست خائفاً من قواته، بل خوفي على اليمين المؤكد لأبي الذي عمله في انكلترا»، ثم إنه تابع نحيبه من دون مواساة حول هذا، وقام واحد من نبلاته بتهديته قائلاً ببراعة: «مولاي الملك، إنك لاحتاج أن تكون خائفاً حول هذا الأمر، لأنه عند مغادرة أليك من انكلترا، عمل يميناً غير قابل للخرق من على الجانبين، بأن لايقوم أي منكما في حالة نشوب حرب، بتسبب أي أذى إلى مغامراتكما على الجانب الأول أو الجانب الثاني، وهذا يمين قد خرقه ملك انكلترا من دون حياء، عندما شنق ظمأ، وبوحشية قسطنطين فتز — ألفوف Aluph، الذي كان مواطناً لندياً، وذلك لمجرد أنه تحدث عن شرف والدك، وهكذا اقتترف الملك الانكليزي اثم الحنث باليمين، في حين أنك بريء من ذلك».

الاستيلاء على قلعة فرونتني

شعر الملك الفرنسي بوساطة هذه المناقشات على ثقة أكبر، وبناء عليه ضغط بشدة على قلعة فرونتني وضيق الحصار عليها، وجمع بالوقت نفسه جيشاً أكبر، عدداً، ووزع المدفوعات على جنوده، وبناء عليه هاجموا القلعة بشدة أعظم من المعتاد، ورموها من دون توقف بالقذائف من

مجانيقهم ومن الآلات الأخرى، وفي الوقت ذاته أصيب عدد كبير من المحاصرين بالجراحة من نشاطهم، حتى أن هذه القلعة التي كانت واحدة من أقوى القلاع قد جرى الاستيلاء عليها خلال خمسة عشر يوماً، وذلك على عكس توقعات البواتيين، ووقع ولد كونت دي لى مارشي مع حلفائه بالأسر، وجرى احضار ابن الكونت وأتباعه الأسرى، على الفور، حيث مثلوا في حضرة الملك، والتمس عدد من الفرنسيين، بإلحاح، وجوب شفقهم، في سبيل رمي الرعب في قلوب الآخرين، غير أن الملك صار بالفعل محامياً مخلصاً عن أسراه حيث قال:

«إنه لا يستحق الموت، إذا كان قد أطاع أوامر والده حتى الموت، وكذلك المشاركون له، الذين أطاعوا سيدهم وخدموه باخلاص، ولنرسلهم على كل حال إلى باريس ليسجنوا هناك»، وهذا ماحدث.

استيلاء الملك الفرنسي على عدة قلاع أخرى

ونزل الآن خوف عظيم من الملك الفرنسي على سكان المناطق المجاورة، وصاروا مرعوبين من أنهم إذا ما ثاروا ضده، فإنهم سوف يتورطون بمصيبة مماثلة، لابل حتى أسوأ منها، لأن القلعة التي رست عليها آمال الجميع، قد جرى الاستيلاء الآن عليها بالقوة، وكان ذلك في وقت قصير، وذهب الذين كانوا مسؤولين عن القلاع العائدة إلى كونت دي لى مارشي من حوله، إلى الملك وسلموا مفاتيحهم إليه، في سبيل التوصل إلى شروط للمصالحة أفضل، وقام الملك في الوقت نفسه باستباحة المناطق المجاورة، واستولى على عدد كبير من القلاع والبلدات، وأخضعهم لسلطانه من دون أية صعوبة، وهدم القلاع الضعيفة وسواها بالأرض، والقلاع التي كانت قوية في وضعها وفي بنائها، زادها تحصيناً، ووضع بعضاً من أتباعه الفرنسيين المخلصين بها، ثم تابع من هناك زحفه نحو الأمام، فاستولى بطريقة مماثلة على قلعة فخمة، هي قلعة فونتني.

استسلام قلعة فوفانت إلى الملك الفرنسي

ووصل الملك الفرنسي الآن إلى قلعة فوفانت Vouvant الفخمة، والتي كانت عائدة إلى كونت دي لي مارشي، وعندما كان يقوم بعمل الاستعدادات لحصارها، عقد القسطلان الذي كان مسؤولاً عنها مؤتمراً مع أصحابه، وبعد ذلك أرسل بعضاً منهم مع رسالة سلام إلى الملك، لأنه كان خائفاً أنه إذا ما أسر بالقوة، لن تظهر العدالة الفرنسية نحوه أية رحمة، وقام بناء عليه بسرعة وبشكل سري، فتشاور مع الكونت مولاه حول هذه المسألة، وأرسل في الوقت نفسه رسالة إلى الملك الفرنسي، أنه إذا ما منحه سلاماً غير مبطن، نال هو —القسطلان— بموجبه والذين معه الحفاظ على حياتهم وعلى سلاحهم، هو سوف يسلم القلعة إليه، على شرط، أنه —على كل حال— إذا ما أعيد السلام بين ملك فرنسا، وكونت دي لي مارشي، في خلال ثلاثة أعوام يتوجب على الملك الفرنسي أن يعيد القلعة إلى مولاهم، كونت دي لي مارشي، من دون خلاف، وبناء عليه فضّل الملك الاستحواذ على القلعة سالمة من دون أي تأخير، على أن يتسلمها في حالة تخريب من رمايات قذائف المنجنيقات، أثناء حصار طويل، ولذلك منحه مطالبه، وهكذا خضعت القلعة على الفور، ومن دون أية مشاكل، إلى سلطانه.

كونت دي لي مارشي يندم على إقدامه على هذه العملية

ومع انتشار هذه الأخبار، استولى الخوف واليأس على كونت دي لي مارشي، وعلى جميع البواتين، وكذلك على جميع سكان غاسكوني، وعلى الذين انشغل ملك انكلترا في الدفاع عنهم، وندم الكونت بمرارة لأنه اندفع بطيش، فثار ضد مولاه، الملك الفرنسي.

لكن عندما على الرأس وضع الخوذة البراقة

بات وقتها متأخراً جداً حتى ينسحب من القتال.

سادة المواني الخمسة يتحولون إلى القرصنة

عندما سمع ملك انكلترا بنجاحات الملك الفرنسي، أرسل أوامر إلى سادة المواني الخمسة للقيام بإلحاق الأذى، بكل طريقة من الطرق، بالتجار وبالأخريين العائدين إلى المملكة الفرنسية الذين يتولون السفر بالبحر، وقام هؤلاء الرجال على الفور بتنفيذ أوامر الملك، وانخرطوا مثل قراصنة، بأعمال السلب والنهب، بوحشية تجاوزوا فيها الحدود التي وضعها الملك، وذلك شرهاً منهم للكسب، ذلك أنهم سلبوا حتى مقتنيات الانكليز، وجيرانهم، والذين كانوا معروفين من قبلهم، عندما كانوا عائدين من حجهم، دون إعطاء أي اهتمام إلى الصداقة أو القرابة، وقتلوا بعض الفرنسيين بشكل وحشي، وعندما سمع الملك الفرنسي بهذه الإجراءات، كتب إلى كونت بريتاني، وإلى سكان ساحل البحر من تلك المقاطعة، وإلى والي روشيل وتلك المناطق، وأيضاً إلى البحارة في ويسانت Wissant، وكالي، وإلى الذين كانوا يتولون حراسة سواحل نورماندي، يأمرهم بصد هجمات الانكليز، وبذلك أعطاهم منفذاً للتنفيس عن غضبهم في البحر، وأمرهم أن لا يوفروا أشخاصهم أو بضائعهم، ونتيجة لهذا الأمر، وبسبب القوات التي أرسلت بدون توقف، ضد الانكليز، عانى سادة المواني الخمسة من خسائر كبيرة، وغالباً ما هزموا بشكل مشين، ونتيجة لذلك أرغموا على طلب المساعدة من رئيس أساقفة يورك.

وصول الملك الإنكليزي إلى مدينة تيلبيرغ

وكان الملك الانكليزي في هذه الآونة مع جيشه قرب قلعة توني Tonnaye، في السهول القريبة من نهر تشارنتي Charente، وفي ذلك المكان منح مرتبة الفروسية إلى أخويه، أولاد كونت دي لي

مارشي، وعيّن لهم مبلغاً من المال، يتسلمونه سنوياً من الخزينة، وقد أعطى إلى الأول منها خمسمائة مارك، وإلى الثاني ستمائة مارك، وذلك إلى أن يتمكن من تزويدهما بمبلغ ثابت ومتساوي بالقيمة، في الأراضي والموارد، ثم إنه غادر ذلك المكان مع جيشه، وسار إلى حقول قائمة أمام مدينة تيليورغ Tailleburg، على نهر تشارنتي نفسه، وبقي هناك لمدة ستة أيام.

فرار الملك الإنكليزي

وكان الملك الفرنسي قد تلقى في الوقت نفسه خضوع عدة اقطاعات مع قلاعهم، فأصبح أكثر وثوقاً في رفع رايته، ووجه زحفه نحو مدينة تيليورغ، وكانت هذه مدينة جميلة، غنية بكرومها الخصبة العظيمة، وكان لديها نهر جميل على مقربة منها، وهو نهر تشارنتي العميق والذي بلاخاضات، وكان محاطاً بمروج غنية، وكان يعبر عليه بوساطة جسر قوي، وعند اقتراب الملك الفرنسي من هذه المدينة، كان السكان غير راغبين بمعارضته، كما أنهم كانوا أيضاً غير قادرين على مواجهته بالقوة، فتبنا خطة حكيمة، حيث خرجوا إلى استقباله بسلام، وسلموا أنفسهم ووضعوا مدينتهم تحت سلطانه، وذلك مع جميع مقتنياتهم وامتيازاتهم، وعند ذلك استقبلهم الملك بالترحاب، ووضعهم تحت حمايته، ودخل إلى المدينة على الفور، واتخذ مقامه فيها مع بعض نبلائه، ونصب البقية خيامهم في الحقل قرب المدينة، وفي اليوم التالي، الذي كان يوم الأحد التالي قبل عيد القديسة مريم المجدلية، عبر الجسر، وعمل الترتيبات للزحف مع جيشه إلى أقصى مناطق بواتو، ووصلت أخبار عن زحفه المنوي وحملت إلى ملك انكلترا، وإلى نبلائه، الذين كان كونت دي لي مارشي هو الرئيس بينهم، وقام ذلك الملك، بناء على نصيحة الكونت، فسحب قواته أثناء الليل، ووصل فجأة مع جيشه إلى حقل مرتبط بالجسر، ونصب خيامه هناك، وعمل مقراً لنفسه في مقابل المدينة،

وبذلك صار من الممكن لكل واحد من الجيشين أن يراقب الآخر، وتألف جيش الملك الانكليزي من ألف وستمائة فارس، وعشرين ألف جندي من الرجالة، وسبعمائة من رماة القسي الزياره، وكان هناك ملك على هذا الطرف من النهر، وملك آخر على الطرف الثاني مثله قريباً من النهر، وشاهد الملك الانكليزي في الصباح الباكر العلم الحريري الأحمر للملك الفرنسي، وخيام ورايات جيشه، وكان الطرف الآخر من النهر مغطى بحشود من الخيم، بدت وكأنها مدينة واسعة ومكتظة بالسكان، ولدى رؤية ملك انكلترا لهذا المشهد، ولأنه كان يتوقع لاشيء سوى القتال، وأنه سوف يفاجئ الفرنسيين بحد السيف، حتى أنه مركز بعض الانكليز ليتولوا حراسة عبور الجسر، عند هذا قال لكونت دي لي مارشي: «أين هي الآن وعودك، يا مولاي وأبي؟ فعندما كنا في انكلترا، أنت وعدتنا، مراراً عدة، بوساطة عدد من الرسل، وأكدت لنا برسائلك الموثقة، أنك وقت الضرورة سوف تعدّ قوة من أجلنا تكون كافية من دون خوف، للتصدي للملك الفرنسي، وأخبرتنا بأن نهتم فقط من ناحيتنا حول المال»، وعلى هذا أجابه الكونت: «إنني لم أفعل ذلك مطلقاً»، فتدخل الايرل رتشارد مقاطعاً إياه قائلاً: «لا بل فعلت، وأنا معي الآن رسائل معتمدة حول هذه القضية»، ثم أجابه الكونت: «إنها لم تكتب من قبلي، أو وقعت مني»، وعند ذلك قال له الملك وهو مندهش: «وما هذا الذي أنا أسمعه منك، يا أبي؟ أو لم ترسل مراراً إليّ، لا بل رجوتني بإلحاح لأن أقدم إلى هنا، بوساطة رسلك، ورسائلك المعتمدة، وكنت تشكو في الوقت نفسه من التأخير؟ أين هي الآن وعودك؟» وعند ذلك قال الكونت، مع يمين مخيف: «إن هذا لم يفعل قط من قبلي، وجه اللوم لا لأحد، إلا لأملك، زوجتي»، ثم إنه أضاف بعد أداء يمين آخر: «بحق عنق الرب، هي التي دبرت هذا كله دون معرفتي»، وعند سماع الايرل رتشارد لهذا الكلام، جرد نفسه من السلاح، وحمل عصاً في يده، وعبر الجسر، للترتيب لهدنة، لأن ملك

انكلترا كان في خطر عظيم، وقد بات أسيراً، وقد حدث هذا في يوم أحد، ولدى وصول الايرل إلى الجيش الفرنسي، استقبل من قبل الفرنسيين بتشريف عظيم، وعدد كبير منهم دعونه باسم منقذهم، لأنه بوساطة السلم الذي عمله في الأرض المقدسة، كان قد حررهم من الأسر، ثم إنه استدعي باحترام إلى حضرة الملك، وعندما أعلمه برغبته في الحصول على هدنة، منحت إليه، بعد شيء من الصعوبة حتى الغد، وقد حصل على هذا لعدة أسباب، لأنه كان انساناً لديه حظوة كبيرة لدى الفرنسيين، لقيامه بتحرير نبلائهم في الأرض المقدسة، الأمر الذي ذكرناه من قبل، وثانية لأنه كان قريباً للملك الفرنسي، وكذلك لأن اليوم كان يوم الأحد، ولدى قيام الملك الفرنسي بوداعه، عندما كان مغادراً قال له: «مولاي الايرل، مولاي الايرل، لقد منحتك هذه الهدنة طوال هذا اليوم والليلة، في سبيل التداول حول الذي هو أفضل لصنعه في المستقبل، لأن الليل يجلب المشورة معه»، وعلى هذا أجاب الايرل: «لهذا السبب طلبت الهدنة التي حصلت عليها»، ثم إنه عاد على الفور إلى ملك انكلترا، وهمس في أذنه بهدوء: «أسرع، أسرع، دعنا ننقل أنفسنا من هذا المكان، لأننا في خطر عظيم، حيث أننا وقعنا بالأسر»، ثم إنهما تناولا وجبة سريعة (لأن الوقت كان ظهراً) وعند غروب الشمس، شغل كل انسان نفسه في جمع أثقاله مع بعضها، وعند حلول الظلام، قام الملك الذي جرب الآن اخلاص، أو بالحري، انعدام اخلاص البواتين، فانسحب بشكل مهين، ولم يتهاون بالسرعة، وقد تبعه جيشه كله، لكن ليس من دون خطر على الخيول وعلى الرجال، لأن كثيراً منهم كانوا لم يتناولوا الطعام، كما كانت خيولهم مرهقة، وكان الملك ممتطياً فرساً سريعاً، لذلك لم يرخ عنانه حتى وصل إلى سانتاغيو.

المعركة التي نشبت بين الفرنسيين والإنكليز عند سانتاغيو

وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا الخبر، كاد أن لا يصدق، ومع ذلك

قام في الليلة نفسها بعبور الجسر بكل هدوء، وقام الفرنسيون في الصباح الباكر من اليوم التالي بنصب خيامهم فوق البقعة نفسها التي كانت القوات الانكليزية مقيمة فيها، وقد ازداد الآن جيشهم بوصول قوات جديدة، وعربات وشاحنات تحمل آلات الحرب والامدادات، وكان عددهم حوالي ألف وستائة، وقد امتد قطارهم حوالي ثلاثة أميال على الطريق، وفي يوم الثلاثاء التالي انطلق الملك الفرنسي مع قواته ليتولى مطاردة ملك انكلترا، وعند الوصول إلى سانتاغيو، كان بعض الفرنسيون يتجولون، عازمين على جمع المؤن (وهو ما يسمى عادة الاحتشاش) فتواجهوا مع كونت دي لي مارشي وهوجوا من قبله، من دون استشاره ملك انكلترا، أو جيشه، وهاجمت كل فئة الفئة الأخرى، وارتفعت صرخات عالية «رجال الملك، رجال الملك» من الجهة الأولى، ومن الجهة الثانية «جبل البهجة، جبل البهجة»، وكانت هذه صرخة جميع الجنود لدى الملكين، ووصلت أصوات الصراخ وقعقة القتال إلى الملك الانكليزي في سانتاغيو، وقد أخبر بأن كونت دي لي مارشي، بشروعه بالقتال، هو قد رغب إما أن يفقد حياته، أو أن ينقذ سمعته، ونهض الجيشان من على الجانبين، وأعقب ذلك قتال عنيف، وقع خارج بلدة سانتاغيو، في الطرقات الضيقة بين كروم العنب، وقاتل الانكليز وهم على حنق، وحاربوا الفرنسيين بحد السيف، وقاتلوا وهم يائسين جداً، حتى أنهم لو عادلوا أعداءهم بالعدد، لنالوا بنجاح نصراً مبيناً على الفرنسيين، الذين هم أنفسهم كانوا شهوداً على ذلك بعد المعركة، وفي هذه المعركة نال: سيمون دي مونتفورت، إيرل أوف ليستر، مع إيرلي: سالسبري، ونورفولك، وروجر بيغود، ووارن دي مونتشنيل Montchesnil، وهيوبرت فتر—ماثيو، ورالف فتر—نيقولا، وعدد كبير آخر من الشجعان الانكليز، وحصلوا على شهرة سرمدية، وذلك حسبما تحدث خصومهم، ومن الجانب الفرنسي، وقع جون دي باري Barres، مع ستة فرسان أسرى، بيد وليم دي سي، لكن

جرى فيما بعد مبادلتهم بعدد مساوي من الأسرى الانكليز، وكان هناك عدد كبير آخر من الفرنسيين قد أخذوا أسرى، وكان من بينهم بيتر أورغي Orige، قهرمان كونت بولون، وكان أسرهم جون مانسيل Mansell، وكان محاسباً ومستشاراً خاصاً لملك انكلترا، وقد عدّ هذا بين الرجال الشجعان، ومن جيش ملك انكلترا وقع هنري هيستنج Hastings بالأسر، مع حوالي عشرين فارساً، ومجموعة كبيرة من الرجال، وقد قدموا هؤلاء جميعاً بدلاً عن جون دي باري، والذين أخذوا أسرى معه.

كونت دي لي مارشي يسعى للتصالح

بشكل سري مع الملك الفرنسي

وبما أن جيش الملك الفرنسي قد ازداد يوماً مثل بحيرة تضخمت بمياه سيول الأمطار، بدأ كونت دي لي مارشي يشعر بالخوف بشكل جدي أكثر من ذي قبل، لأن التقارير الشريرة المتأخرة جرحت قلبه يوماً، وكان أولها الاستيلاء على قلعة فرونتني، التي فيها وقع ابنه مع أربعين فارساً وذلك إلى جانب عدد كبير آخر من الأتباع قد وقعوا بالأسر، وجرى أيضاً الاستيلاء على كميات كبيرة من السلاح، ففي تلك القلعة كان قد مركز جميع آماله وثقته، ثم إنه فقد بعد ذلك قلعة فوفانت، التي كانت مشحونة بمائة وأربعين فارساً مع حوالي ستائة من رماة القسي الزيارة المسلحين، ثم أعقب ذلك سقوط قلعة فيلير Vilers مع عدد آخر من القلاع والبلدات مع اقطاعاتهم وحصونهم، وأخيراً جرى الاستيلاء على فونتني مع المناطق المجاورة لها، ولذلك قام وهو معرض من الألم الداخلي في قلبه، ومدفوع بالخوف واليأس، مع أنه أخفى اضطراب تفكيره، تحت ملامح هادئة، قام الكونت المذكور فشرع بالتقلب، وبتقدير من الذي يمكنه بوساطته أن يقبل ثانية في خطوة الملك الفرنسي الذي هو مولاه، والذي نال باستحقاق غضبه، وبعد

بعض التقدير للأمور، بعث بشكل سري إلى كونت بريتاني، وكان صديقاً قديماً له — وكان هو نفسه خائناً يرأسل خائناً — ورجاه أن يعمل بالتعاون مع أسقف سانتاغيو، بكل يقظة ممكنة، بشكل سري وحذر، وأن يسعى إلى إعادته إلى حظوة الملك الفرنسي، وبناء عليه ذهب كونت بريتاني مع أسقف سانتاغيو إلى الملك، وقالوا له وهما يتسلمان: «لقد توقفت الحرب لأنها انقطعت بوساطة واحد متقلب»، وبعد التفوه بخطاب أكثر نعومة وفيه المزيد من الإطراء والإثارة، تابع الكونت حديثه، وذلك على مسمع من الأسقف المتقدم ذكره، وعدد قليل آخر من النبلاء الفرنسيين، الذي كان قد بعث خلفهم للاجتماع به والتشاور معه، وقال: «مولاي الملك، إن رعيتك، كونت دي لي مارشي، الذي اعترف بأنه أذنب بشكل خطير نحوك ونحو تاجك، لا يسأل الآن العدالة بل الرحمة، كما يقول المثل العام: «إلى الشقي الرحمة ضرورية، وإلى المذنب علينا منح الشفقة»، وهو قد أرسل بي إليكم، بحكم أن روحه يمكن أن تثق بي، ولهذا أتوجه بالالتماس إليكم بكل اخلاص، وإلى لطفكم الأصيل، وإلى جلالتم، وأرجوكم تقبله بصدركم الرحيم المفتوح، فهو رعيتكم، وقد أصبح الآن مخلصاً إلينا من دون أي من تعليقاته المعتادة»، ثم إنه غمز بعينه نحو الملك، وقال بصوت خافت: «إنني أنصحك بعدم رفض طلبه، لأنك تستطيع أن تضعه وسيلة ضغط لصالحك حسبما تشاء في المستقبل».

كونت دي لي مارشي يصبح متصالحاً مع الملك الفرنسي

وجرى بناء عليه استقبال كونت دي لي مارشي بالحظوة من قبل الملك الفرنسي، على شرط أن يتنازل — أي الكونت — له عن ملكية جميع القلاع التي استولى عليها الملك مؤخراً بالقوة، وأن يكون ذلك حق دائم، وفي سبيل منفعة المملكة، جرى تجريد الكونت مع ورثته منها بموجب قرار قضائي، وأضاف الاشتراط أيضاً بأن جميع قلاع الكونت

المذكور، وهي كوغنك Cognac، ولوزغنان Lusignan، وميربن Merpins، والقلاع التي يظن أنها عائدة إليه، سواء التي هي ملكه، أو التي هي ملك لأصدقائه الذين يستطيع أن يسوغهم، ينبغي أن توضع تحت سلطات الملك، وبناء عليه ينبغي أن تبقى تحت سلطانه، في سبيل إبقاء الملك تحت المراقبة، وأن يرغم، وإن كان بغير رضاه، بأن يكون مخلصاً إلى الملك، والمسألة سوف تتوقف بعد مضي ثلاثة أعوام على إنعام الملك، وذلك إذا ما خدمه باخلاص، فمن الممكن إعادة القلاع المذكورة إلى الكونت، وعلاوة على ذلك، يتوجب، خلال الأعوام الثلاثة، أن يخدم الملك الفرنسي، إذا ما دعاه بهائتي رجل مسلح على حسابه، وأن يقاتل باخلاص لصالح الملك المذكور، ضد كونت طولوز، أو أي نائر آخر ضده، أو ضد الكنيسة، وعلاوة على ذلك أضاف الملك الفرنسي: «إن الصك الذي ناله آباءه من أجدادي منذ زمن طويل مضى، والذي مازال حتى الآن يمتلكه، وينال عنه ألف باوند سنوياً من خزيتي، في سبيل حراسة هذا الجانب من حدود مملكتي، والذي غالباً ما أسيء القيام به، لاسيما الآن، إن هذا الصك، أنا أقول عليه التخلي عنه لي من دون أية معارضة، والتخلي في الوقت نفسه عن الدخل السنوي المتقدم الذكر»، ولهذا ابتسم كونت بريتاني، وكشر مقطباً، وهمس في أذن الملك قائلاً: «أنا أنصحك بالاحتفاظ بالقلاع والمورد، وأن تستحوذ من الآن فصاعداً شخصياً المسؤولية عن التخوم»، ثم إنه غادر آخذاً بيد الأسقف حيث قال: «لقد استكملت»، وعندها سأله الأسقف: «ما الذي استكمل؟» فأجابه: «العمل الذي جئنا من أجله وعند ذلك قال الأسقف: «أنت تتولى رعاية ذلك، فأنا لم أسمع همساتك السرية».

كونت دي لي مارشي يوافق على الشروط مع أنها شروط قاسية
وعندما باتت هذه الشروط والمفروضات من أجل الحصول على

حظوة الملك معروفة من قبل الكونت المذكور، أي كونت دي لي مارشي، حيث حملها إليه كونت بريتاني، حزن حزناً عميقاً، وظل لوقت طويل رافضاً الموافقة عليهم، لكنه وافق أخيراً عليهم، بناء على نصيحة كونت بريتاني المذكور، وأصدقائه السريين الآخرين، الذين كان يثق بهم، لكن موافقته لم تكن من دون ألم بالقلب، وفعل ذلك للحيلولة دون وقوع أي شيء أسوأ إليه، وبناء عليه ترك ابنه ملك انكلترا، الذي كانت أمواله قد استهلكت الآن إلى أبعد الحدود، وهرب إلى الجيش الفرنسي، حيث رمى بنفسه على ركبته أمام الملك، فحصل على حظوته، التي لم يستحقها، ثم جرى إرساله على الفور مع كونت بريتاني نفسه، لشن الحرب على كونت طولوز، لأنه كان متحداً مع ملك انكلترا بروابط القرابة، كما أنه كان حليفاً، بناء على قسم، وكان متابعاً للحرب ضد الملك الفرنسي، ولهذا السبب، شغل كونت طولوز، منذ ذلك الحين، نفسه بالنظر إلى أمور دفاعه، وبات غير قادر على مساعدة ملك انكلترا، الذي إليه وعد بتقديم مساعدة فعالة، لدى تسلمه المال سلفاً.

وبالطريقة نفسها، لم يعد بإمكان ملك انكلترا الحصول على المساعدة من ملك أراغون، لأن الطرق كانت مغلقة ضده، ولا كذلك من أي واحد آخر، كان قد وضع فيه ثقته، وقدم في الوقت نفسه كونت طولوز سراً إلى ملك انكلترا، وبعدما سوغ نفسه واعتذر قال: «لاتيأس يامولاي الملك، وابن عمي، لاتيأس أيها الأمير الأعظم قوة من أن لاتكون قادراً على صد الملك الفرنسي، بما أنك تتذكر أنني وحدي، مع مساعدة البابا، قد صدته، وحالما أتمكن من طرد هذين الخائنين لي من أراضي التي هي الآن تحت احتلالهم، سوف أقدم إليك بكل سرعة، لتقديم المساعدة»، وبعد قليل من المحادثات الأخرى، غادر ذلك الكونت، وهو يحمل بالهدايا.

سبب فقدان الملك لسانتاغيو

وبينما كان كونت دي لى مارشي يتابع تنفيذ خططه الخيانية المتقدمة الذكر، من دون معرفة ملك انكلترا، كان آنذاك ملك انكلترا مقيماً لبضعة أيام في سانتاغيو (التي كانت معروفة بموجب الحقوق القديمة ملكاً خاصاً، ومسكناً للملك انكلترا) وقد قام فيما بعد من دون مشاورة المواطنين، لابل ضد رغباتهم، فأعطى تلك المدينة، وثبت منحه بوثيقة إلى هوغ برن Brun، ابن كونت دي لى مارشي، وأخاً أصغر له شخصياً، وقد كره المواطنون هوغ هذا المذكور، لأنه كان متعجرفاً، ورجلاً شريراً، وغالباً ما قام بتهديدهم بالضغط عليهم، ونتيجة لهذه المنحة، لم يعد المواطنون ينظرون بعين الحظوة نحو ملك انكلترا، كما أنهم لم يعودوا يوافقون على سلوكه وأعماله.

فرار الملك الإنكليزي إلى بلي

ومع اقتراب حلول شهر آب المجهد، وفي الوقت الذي كان فيه ملك انكلترا يظن أنه آمن، ولديه مكان التجاء مضمون في سانتاغيو، وكان يفكر بالبقاء هناك لعدة أيام قليلة، حتى يحصل على وقت يسترد فيه أنفاسه، أرسل فارس فرنسي، كان واحداً من الذين حررهم في الأرض المقدسة الإيرل رتشارد، وكان مطلعاً بشكل سري على خطط الملك الفرنسي، أرسل رسالة سرية مستعجلة إلى الإيرل المذكور، بأن ملك فرنسا قد أبدع خطة سرية واستقر رأيه عليها، حيث سيقوم فجأة بتطويق ملك انكلترا في مدينة سانتاغيو، مع حفر خنادق من جميع الجهات، ومن ثم حصاره هناك، فهو ما أن يكمل حشد قواته بقدر ما تستطيع فرنسا تقديمه كما هو معلوم، سوف يتابع الحصار، ولن يتخلى عنه حتى يأسر جميع الإنكليز الذين هم هناك، مع ملكهم، وأن يحملهم أسرى مغلولين إلى باريس، وأضاف الرسول نفسه على سرعة، أو وهو مقطوع الأنفاس تقريباً، بأن كونت دي لى مارشي قد تحول، أو بالحري

تبدل وانقلب من كونه صديقاً الى أنه بات العدو الأعظم للملك إنكلترا — ومن كونه أباً زائفاً الى صيرورته زوج الأم — وأنه لا يمكنه أن يتأمل أي شيء آخر من نبلاء بواتو الآخرين، وما كاد يتوقف عن الحديث، حتى وصل رسول آخر الى الملك، من أخيه الأصغر هـ . H المتقدم ذكره، ومن غي دي لوزغان — أخيه الأكبر — يعلن أن الانكليز إذا ما بقيوا في البلدة تلك الليلة، هم سوف يقعون جميعاً بالأسر مع ملكهم ومع السكان، أو أنهم سوف يحاصرون حتى يمكن أسرهم، وحدث هذا في اليوم التالي لعيد القديس بانتاليون Pantaleon، عندما جاء الملك من بونز Pons خلال أركياك Archiac، ثم إلى هيربيزي، ثم وصل إلى سانتاغيو، داره كما كانت، لكن عندما كانوا على وشك اتخاذ مقرات لهم هناك، وكان وكلاؤهم قد تقدموا عليهم، وكان المراقبون والمارشالات قد أعدوا جميعاً طعام افطارهم، وكان الملك نفسه على وشك تناول طعام افطاره، وصل رسول ثان أكد بينة الرسول الأول، وبذلك لم يترك أي مجال للشك في هذه القضية، وبناء على ذلك غادر الملك المدينة على الفور، معطياً أوامر باحراقها، لأنه كان قد سمع من الرسول المتقدم الذكر، بأن المواطنين قد أعدوا شروطاً للسلام مع الملك الفرنسي، وأباحوا بشكل خيافي أسرار خططه إلى ذلك الملك، وعند ذلك لم يوفر هنري مهمازه، أو لكز جانبي فرسه، بل إنه هرب من دون توقف حتى مدينة بلي Blaye، وكان صائهاً وجائعاً، ولم يهتم سوى قليلاً بقواته التي تبعته، وعندما علم نبلاؤه بفراره، تركوا فجأة طعامهم نصف المطبوخ، وركبوا خيولهم السريعة، ولحقوا ملكهم، وهم يرجون ايجاد ملجأ لأنفسهم معه في مدينة بلي.

وسار خلفهم حشد كبير من الانكليز، على أقدامهم، وهم في حاجة شديدة، وكانوا يتساقطون من الجوع والضعف، وقد فقدوا عدداً كبيراً من الرجال المرضى، والخيول المحملة، والعربات والشاحنات، حتى أن

الدموع عطفاً عليهم تدفقت من أعين جميع الذين شاهدوا أوضاعهم، لأنها كانت رحلة عشرين ميلاً، وفقاً لتقديرات تلك المنطقة، لكنها كانت حوالي الأربعين أو قريباً من الخمسين وفقاً للحسابات الانكليزية، ولولا أنهم قسوا أنفسهم، وهم على الطريق، بأكل التفاح البري والتوت، لتخلت قواهم عنهم نهائياً، ووصل الملك الفرنسي في الوقت نفسه إلى سانتاغيو، حيث جرى استقباله باحترام من قبل رجال الدين والمواطنين، واسترد سلطاته من دون صعوبة على تلك المدينة النبيلة، وبعد فرار مهين ومدمر، وصل الانكليز المنهكون وغير القادرين على التنفس إلا بصعوبة، إلى مدينة بلي، وبعدما مكث الملك هناك لبضعة أيام للراحة ولاسترداد قواه (لأنه كان لم يأكل أية وجبة ولم ينم منذ يومين وليلتين)، قرر أن يغادر ذلك المكان أيضاً، بحثاً عن مكان أكثر أمناً للالتجاء إليه، ولذلك عقد مؤتمراً مع نبلائه، ثم إنه قرر الانطلاق نحو الأمام إلى بوردو، وفي هذا الفرار فقد ملك انكلترا بيعته مع جميع تزييناته المقدسة بالإضافة إلى الآثار وأشياء أخرى كثيرة، عددها كبير جداً حتى نتولى ذكره، وأثناء فرار الملك الانكليزي إلى بلي طارده الملك الفرنسي بحرارة حتى وصل إلى مكان اسمه كارتليو Cartelgue، حيث أرغم على التوقف بسبب المرض.

استسلام مدينة بونز إلى الملك الفرنسي

وعند سماع رينالد دي بونز بهذه الأخبار، طار على الفور نحو جناحي الملك الفرنسي، ونشد السلام من خلال وساطة بعض الأصدقاء، وقد حصل عليه مع بعض الصعوبة، وسلم نفسه والمدينة إلى سلطات الملك الفرنسي.

الملك الفرنسي يشحن بالجند مدينة بونز وبعض القلاع

وبعدما أعيدت مدينة بونز على هذه الصورة إلى الطاعة، وكذلك

بعض القلاع من حولها، قام الملك الفرنسي على الفور بطرد البواتيين، ووضع بعضاً من الفرنسيين المخلصين هناك.

رئيس الأساقفة وليم يلتحق بالملك الفرنسي

وعندما وصلت أخبار هذه الحوادث إلى الذي يدعى برئيس الأساقفة وليم، قرر هو العمل بطريقة مماثلة، لكنه عزم أولاً أن يضمن نفسه على مقتنيات ملك انكلترا، ولذلك قام بشكل مخادع فأرسل رسالة سلام ومواساة إلى الملك المذكور، معلناً وداعياً القضاء الرباني أن يكون شاهداً، — مع أن جميع البواتيين ينبغي عليهم الانحناء، وإبعادهم من دون كرامة عنه، هو، أي رئيس الأساقفة — أنه طالما نفس الحياة موجود في صدره، لن يتخلى عن ملك انكلترا، الذي أضفى عليه ثروات عظيمة، ولن يفر إلى الملك الفرنسي، الذي داس بعجرفته التي لا تحتمل — والتي جاءت بعدما ربحوا القدرة — على جميع رعيته، وكأنهم كانوا وحلاً في الشوارع، وبناء عليه التمس من ملك انكلترا، أن يرسل إليه من دون تأخير، بحكم كونه مولاه الطبيعي، الذي عنه لا يمكن أن يفصل بنفسه، بعض الفرسان الشجعان، المجهزين بجميع الحاجيات الضرورية إلى مدينة بارثني Parthenaye التي كانت مدينته، وذلك مع المال لتحصينها، وإلى هذه الكلمات الناعمة والمعسولة أصغى الملك برغبة كبيرة، وتصرف وفقاً لطلبه، لكن لدى وصول الفرسان الذين أرسلوا من قبل ملك انكلترا إلى مساعدته، طردهم بالقوة من المدينة، واحتفظ لنفسه بالمال الذي أرسل إليه للدفع إلى عساكره، ثم إنه طار مع جميع أعوانه والمواطنين للجوء تحت جناحي الملك الفرنسي، لعمل سلام معه، لكن الملك الفرنسي ضايقه ووجّه الملامة إليه، وقطع لسانه، وأشار إليه باصبعه، موجهاً الملامة إليه بسبب سلوكه، ووبخه ووسمه بأنه خائن، وانسان موسوم بعلامة قابيل.

عمدة طولوز يتحول عن جانب الملك الإنكليزي

وبات في هذه الأثناء، عمدة طولوز أيضاً على بينة بأوضاع القضايا، وكان رجلاً كدس عليه ملك انكلترا أكواماً هائلة من المنافع، وقد رفع من شأنه في كثير من الطرق، لكنه عندما وجد جيوب سرج خيوله مليئة بأموال استيرلينية جيدة، جاء رده على ذلك خيانتته، وبوساطة أصدقائه عمل سلمه مع الملك الفرنسي، وأعيدت مدينته إليه مع البلدات المجاورة، والتحق هو بالجيش الفرنسي، مظهراً بذلك أي نوع من الثقة ينبغي أن توضع في البواتيين.

البواتيون جميعاً يتحولون إلى الملك الفرنسي

ثم إن المواطنين وحراس البلدات، رأوا هؤلاء الأعلى مرتبة منهم أنفسهم قد تحولوا، وأن ملك انكلترا، الذي كان من المتوقع أن يقدم الحماية إليهم، قد هرب، مثل ملاح يهجر سفينة غارقة، تبارى أحدهم مع الآخر في الفرار إلى الحكم الفرنسي المعروف جيداً، وقام أتباعهم في المقاطعات أيضاً، بالتخلي فوراً عن أنفسهم وعن ممتلكاتهم إليه.

إخلاص هارتأولد قسطلان قلعته ميربو

وعندما كانت أخبار هذه الأحداث ومايائثلها تنتشر لتعم مناطق بواتو، كان هناك واحد اسمه هارتأولد Hertold، كان القسطلان المخلص لقلعة ميربو التي لاترام، وقد شعر بحزن عميق، وكان يشعر بشكل مؤكد أنه عندما يحرم من مساعدة ملك انكلترا، هو لم يرغب على كل حال — بذلك، بل يرغب بالتصدي للهجمات الصادرة عن الملك الفرنسي، وقد قال لرفاقه في السلاح: «أصدقائي، ورفاقي الحقيقيين، إن جميع منطقتنا هذه، وبالأسف، عرضة للخراب والدمار، فما الذي ينبغي فعله؟ إن بني قومنا مختلفون فيما بينهم أنفسهم، وهم منقسمون، وهم بالتالي في حالة اضطراب، وإننا سوف نتحول إلى درجة

العبودية من قبل أعدائنا»، وقرر أخيراً، بعد كثير من البكاء، في قرارة نفسه، أن يذهب إلى ملك انكلترا، الذي هو مولاه الطبيعي، ليتشاور معه حول هذه القضية، وعندما وصل إليه، كانت الدموع مبللة وجنتيه، والتهنيدات قطعت كلامه، حيث قال: «مولاي الملك، إن جلالتك ترى بأن الحظ مضاد لنا في كل شيء، وأنا رجل تعيس إلى حد أنني لأدري ما الذي عليّ أن أفعله؟ هل يمكنك مساعدتي في هذا الخطر العظيم، وإذا ما كان عليّ صد المحاصرين بالقوة إذا حدث وحوصرت؟ وهل سوف أنا أتورط مثل جيراني، في المأساة العامة، وأن أرغم بالأخير على تحمل النير الفرنسي، الذي رفضه آبائي دوماً حتى الآن، وصدوه، وقذفوا به»، وعلى هذا رد عليه الملك وهو مكتئب قائلاً: «أنت ترى ياهارتأولد، مقدار قوتي، التي هي بالكاد كافية لتأمين نجاتي، وإن مولانا وخلصنا يسوع المسيح، قد جرت خيانتة من قبل تلميذه يهوذا، وبناء عليه من الذي يمكنه أن يتوقع أن يكون آمناً؟ لقد تركني كونت دي لي مارشي، الذي عددته وأحببته بمثابة أب، وقد ضرب مثلاً مدمراً لكم جميعاً، فلقد اعتمدت على قصبة وجعلتها بمثابة عصاي، فجرحتني شظاياها، وأنت وحدك عملت بطريقة محمودة، بقيامك بمشاورتي في هذه القضايا، وبناء عليه إن جميع مائتلكه باسمي، أنا أمنحك إياه بحرية، بمثابة هدية مني، وبناء عليه، افعل الذي تراه أكثر مواءمة لك ولحقك»، ثم إن هارتأولد غادر حضرة ملك انكلترا وهو آسف، وذهب على الفور بشعر مشعث، وعينان حمراوتان من البكاء إلى الملك، الفرنسي الذي إليه توجه بالخطاب قائلاً كما يلي: «مولاي الملك، لقد كدس الرب الغاضب أكواماً هائلة من الشرور عليّ، حتى بت مرغماً — مع أنني غير راغب — بأن أطير إلى رحمتك. حتى أنال الحماية والملاجئ، لقد تركت إلى نفسي، ولذلك طرت إلى جلالتك، وبناء عليه تسلم قلاعي، وتقبل في الوقت نفسه خدمتي»، وعلى هذا رد الملك الفرنسي بنظرة هادئة: «ياصديقي لقد عرفت معرفة جيدة بأنك قد ذهبت إلى ملك انكلترا،

وأنا أعلم الذي قلته له، فأنت وحدك قد عملت باخلاص، وأنا على هذا عن رضا أتعلم القيام بحمايتك أنت والذين أتباع لك، وكما أنت، أنا أتعلمك، ولذلك فإن صدر الرحمة هو مفتوح لك دوماً، ولذلك تخلى هارتأولد عن قلعة ميربو الفخمة، ووضعها بين يدي الملك الفرنسي مع جميع متعلقاتها، لكن ذلك الملك قام على الفور، إثر تلقيه يمينه بالتابعة، بإعطائه المسؤولية عنها ثانية، وكذلك معها جميع جزء تلك البلاد، باستثناء مونتوبان Montouban، وعدد قليل من الأماكن، فهذه جرى تسليمها إلى سلطات الملك الفرنسي.

ولادة ملكة إنكلترا لطفلة في بوردو

وبقي ملك إنكلترا في بلي حتى عيد صعود العذراء المباركة، عندما جاء المخاض ملكته التي كانت مقيمة في بوردو — وكانت خيامه منصوبة في حقول جميلة قرب تلك المدينة — وكان مستعداً لأن يطير على الفور، إذا ماسمعه من جواسيسه بأن الملك الفرنسي قد اقترب من بلي، وفي يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ولدت زوجته، الملكة إليانور — كما ذكرنا من قبل — بنتاً في بوردو، وقد منحت اسم بيترايس Beatrice، الذي كان اسم أم الملكة.

قدوم كونتيسة بيرني إلى ملك إنكلترا في بلي

وفي الوقت نفسه، قدمت كونتيسة بيرني Biarne، التي كانت بمفردها ذات حجم كبير إلى الملك مع ابنها غاستون Gaston، وكان برفقتها ستين فارساً، وقد اقتنعت بفعل ذلك برغبتها بالحصول على بعض المال، حيث كانت تعرف بأن ملك إنكلترا كانت لديه كميات وافرة منه، وبعدما دخلت معه في اتفاقية من أجل الدفع، بقيت مع الملك، وهي تسلم منه يومياً مبلغ ثلاثين باونداً استيرلينيًا، ولكنها كانت ذات موقف معادي منه، وقد تخلت بالنهاية عنه كلية، أو بالحري خائنته وأفقرته.

انتشار وباء بين الفرنسيين

ورأى الملك الفرنسي في الوقت ذاته أن الحرب متطورة لصالحه بين يديه، فعقد مؤتمراً مع نبلاته، وقرر أن يلاحق الملك الانكليزي بعدوانية إلى بلي، لأنه كان يعرف بأن هذا الملك كان قد حرم من مساعدة البواتين، وكان الآن غارقاً في وضع ميؤوس منه، وقرر أيضاً أن يطارده من بلي إلى بوردو إذا ما تراجع إلى هناك، وهكذا تصور أنه يمكنه بيقظة غير متوانية، أن يجلب الحرب إلى نهاية، غير أن الرب «الذي يمنح الخلاص إلى الملك كما يريد» امتلك رحمة نحو الملك ونحو مملكة الانكليز، ففرق بين قلوب الفرنسيين المتعجرفين الذين لا يعرفون التهاون، بإثارة الشقاق والخلاف فيما بينهم، وعلاوة على ذلك، فإن جيشهم الذي كان كبيراً جداً، كان مرهقاً يعيش تحت نقص الامدادات، ولذلك فإن الجوع والعطش قد استبد بهم، وأخذ الناس يتلاشون بوساطة الأمراض، ولإصابتهم بمختلف الآلام، لفظوا حيواتهم الضعيفة، لأن السكان المحليين كانوا قد أغلقوا أفواه الآبار، وسمموا وأفسدوا الأنهار والينابيع، وفلحوا المروج، ونقلوا القمح، ونتيجة لذلك هلكت الخيول لحاجتها إلى الماء، وفي أيام الشعري (ما بين أوائل تموز وأوائل أيلول) التي كانت آنذاك في ذروتها، التزم الناس بمضاجعهم وهم مرضى، ولأنهم كانوا غير قادرين على الحصول على الراحة وعلى الدواء ماتوا، ومات من الجيش الفرنسي، ثمانون نبلاً ممن كانوا يحملون الرايات، ومن الجنود الرجالة وقع حوالي العشرين ألفاً ضحايا، وفي هذه الآونة، وقع الملك نفسه مريضاً مرضاً خطيراً، ووقع على الفرنسيين خوف عظيم وقنوط كبير، ذلك أنهم خافوا أن يفقدوا ملكهم بين يدي الموت، الموت الذي لم يوفر أحداً، وذلك وفق الطريقة نفسها التي فقدوا فيها والده الملك لويس فجأة، ومات بسبب المرض نفسه كثير من الفرسان الشجعان الذين لا مثيل لهم، وكان من بينهم روبرت مالت

Malet, وكان نورماندياً، ورجلاً استحق التميز بالشئاء، ورتشارد بيومونت Beaumont, وكان رجلاً من أصل نبيل، ومتميزاً بين الفرنسيين لأعماله النبيلة، وكان واحداً ممن حرره الايرل رتشارد في الأرض المقدسة، ولذلك أرغم الملك الفرنسي، بسبب الظروف المعاكسة، على الموافقة على هدنة لمدة خمسة أعوام، وهي التي طلبها الملك الانكليزي، ثم إنه عاد إلى فرنسا إلى مناخه المعتاد عليه، ولذلك منحت الهدنة إلى الملك الانكليزي عن رضا، لابل مع سرور عظيم.

الملك الفرنسي الذي وقع مريضاً يبرم هدنة مع ملك إنكلترا ويعود إلى فرنسا

وبناء عليه، قام الملك الفرنسي، فجأة بتغيير خططه، وعاد إلى فرنسا، من أجل أن يمتلك وقتاً للتنفس، ولأن ملك إنكلترا كان مستعداً للانتقال إلى أقصى منطقة من البلاد، وكان من الصعب مطاردته في أراضيه، ولأن فصل الشتاء الممطر بات قريباً جداً، وهكذا أخذ طريقه مروراً بمدينة سانتاغيو، التي كان قد استرد ملكيتها، فأمر بتحسينها، في سبيل تقدم المملكة الفرنسية، بأسوار جديدة، وبتحصينات خارجية، وبترميم الأسوار القديمة، وأعطى الأوامر نفسها فيما يتعلق بالمدن الأخرى، وتلقى يمين الاخلاص، والرهائن، من الذين تركهم مسؤولين عنهم، وقام بشحن القلاع بشحن فرنسيين، وبالذين كانوا مخلصين له، وتراجع ملك إنكلترا في الوقت نفسه، من دون خطة بذهنه، إلى غسكوني، حيث أمضى أيامه من دون نشاط مع ملكته، وأثناء ذلك أظهر الغسكونيون مع (الكونتيسة، دي بيارد) Biard قليلاً من الرحمة نحو أمواله، وفي ثمانية القديس متى الرسول، وصل الملك الفرنسي إلى فرنسا، والذين زرعوا بذور الفوضى في المقاطعات البواتية قد اعتقلوا مع الالهانة، بعدما عادوا إلى فرنسا، وبعد أيام طويلة غادروا جميعاً طريق الجسد.

الملك الفرنسي يطلب الحصول على مساعدة مالية من اللاهوتيين
وبعد مضي وقت قصير دعا الملك الفرنسي وأمر أساقفة المملكة
الفرنسية بالاجتماع بباريس، وهم:

رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان
السود من طوائف السسترشيان والبرامونستريت، ورؤساء هيئات
الكنيسة الكاتدرائية، وطلب مساعدة مالية منهم، ولكي لا يعطي
فرصة يمكن أن تتخذ ذريعة لرفض طلبه، أعطى سبباً بأنه يرغب
في مهاجمة الهرطقة الألبينيين، لأنه اتهم كونت طولوز بجريمة
الهرطقة القديمة، وكبرهان على ذلك قال بأن ذلك الكونت قد قتل
مؤخراً، بشكل دنيء، بعض الرهبان الدومينيكان، ونظراً لإدراك
الأساقفة أنهم كانوا محرومين من حكومة البابا، ومع أنهم لم يكونوا
ملزمين بحق الاسهام بأي شيء، بناء على أمر أي علماني، حتى لا تنظم
الكنيسة، ومع ذلك مقدرين أن الزمان كان زماناً سيئاً، وبما أنه كان
هناك عدداً داخلين في اطار الخطر، كان لابد من إعطاء بعض المرونة
للأحكام القاسية، ووافقوا بالاجماع على عمل تسوية للقضية، بمنح جزء
من عشرين من مواردهم لذلك العام، وأن يجري دفع ذلك في وقت
قصير.

تكريس الكنيسة في وولتهام

وفي اليوم التالي لعيد القديس ميكايل في هذا العام، جرى تكريس
كنيسة ديرية تابعة إلى كهنة وولتهام Waltham، بشكل مهيب من
قبل وليم أسقف أوف نورويك، وقد ساعده في ذلك عدد كبير آخر من
الأساقفة المحترمين والنبلاء، وقد حدث هذا فوراً، إثر تكريس كنيسة
القديس بولص في لندن في سبيل أن يعبر الحجاج ثم يعاودوا العبور من
الأولى إلى الثانية من دون زيادة تأخير.

استخراج ضريبة بدل الخدمة العسكرية من قبل الملك

في هذا الوقت نفسه أمر الملك باستخراج ضريبة بدل الخدمة العسكرية من جميع أرجاء انكلترا. وفي هذا العام جرى تثبيت آدم رايمي دير ويردون Waredon، أسقفاً على كونور Connor، وهو كرسي موجود في انكلترا، خاضع إلى المطرانية الأسقفية العائدة لرئيس أساقفة أرماغ Armagh.

بعض نبلاء إنكلترا يطلبون الإذن بالعودة إلى الوطن

وفي الوقت نفسه، جاء إلى الملك إيرل بيغود، وإيرل روجر أوف وينشستر، وعدد آخر من النبلاء، واشتكوا إليه بمرارة، بأنه جرهم بشكل غير معقول من بيوتهم إلى المقاطعات النائية لهؤلاء الخونة له، من دون أن يقدموا إليهم أية مواساة أو مساعدة، ولذلك عندما تراجع الملك الفرنسي مع جيشه إلى داخل فرنسا، من أجل تجنيد قواهم، هم سألوه أيضاً الإذن بالمغادرة والعودة إلى انكلترا من أجل الغرض نفسه، فسألهم الملك: «هل الطريق آمن؟» وعلى ذلك أجابوا: «إننا سوف نسأل»، ثم إنهم طلبوا عمراً حراً خلال فرنسا من الملك الفرنسي، فممنحهم إياه قائلاً: «دعوهم يغادرون بحرية، ويسافرون من دون اعتراض خلال أراضي، وأنا أمل أنهم لن يعودوا مطلقاً، وعندما ليم على هذا من قبل نبلائه، قال: «بودي لو أن جميع أعدائي يرتحلون بعيداً عني، وأن لا يعودوا مطلقاً»، وبناء عليه أخذ الانكليز طريقهم بسلام خلال فرنسا — ليس على كل حال من دون نيل الأذى من السكان — وعادوا إلى انكلترا، وقد حدث في حوالي الوقت نفسه، أن واحداً من النبلاء الانكليز، واسمه وليم دي روز Roos، وكان قد جاء من المناطق الشمالية لانكلترا، لم تتوفر لديه الامكانيات للمكوث أية مدة أطول مع الملك في القارة، ولذلك أمر الملك بتهور أن تنتزع منه أراضي من دون حكم صادر عن نظرائه، وقد بدا هذا إلى الجميع أنه عمل غير

عادل، وتصرف طغياني، لأنه بسبب أن وليم دي روز المذكور كان رجلاً فقيراً، قال للملك: «تقبل أراضي تحت اسم تعهد، وامنحني الوسائل لكي أخدم بشكل موثم كفارس، ومن ثم سوف أقيم»، ولدى سماع الايرل رتشارد بهذا الإجراء وبإجراءات أخرى مماثلة، وجه اللوم إلى أخيه بحدّة، ونشب خلاف بينهما نتيجة لذلك، وقد ترك أخاه وهو متألم بروحه كثيراً، وقرر العودة إلى الوطن، ولذلك استدعى بعض النبلاء، وعمل الاستعدادات من أجل الابحار.

ثم إن الملك، تصرف فجأة بشكل غير حكيم، فانفجر غضباً مهدداً ضد الايرل، ولكي يخفي الايرل عنف أخيه وغضبه، كظم مشاعره، وبقي معه، ولكن عندما رآه قد تصرف بشكل مضاد مباشرة لنصيحة شعبه، قام مع وليم، الايرل مارشال، وايرل هارتفورد، وعدد كبير آخر من النبلاء، وترك الملك، الذي كان قد أسلم نفسه تماماً لرغبات أهل بوردو، مع الغسكونيين، وازدري نصيحة رعيته الطبيعيين، ولذلك أخذ سفينة وعاد على الفور إلى الوطن، وشغل الملك نفسه وتمتع بالراحة مع ملكته إليانور، التي جلبت له بنتاً، فأطال إقامته في بوردو من دون عمل، وبدد أمواله في مختلف الطرق غير النافعة.

المخاطر التي واجهها الايرل رتشارد ورفاقه في البحر

أقلع النبلاء الذين تقدم ذكرهم في البحر في يوم عيد القديس لوقا، وبعدما عانوا من كثير من المخاطر والعديد من الاضطرابات أثناء رحلتهم، وصلوا مع كثير من الصعوبة إلى كورنول، وبعدما عمل ايرل رتشارد نذراً بزيارة أحد الديرة من أجل الحفاظ على حياته، تمّ انقاده بعد صعوبات جمة من فكي الموت، ونزل على جزيرة قرب كورنول، أما السفن الأخرى، التي كانت قد غادرت الساحل الفرنسي، في الوقت نفسه الذي غادرت فيه سفينة الايرل رتشارد، فقد تفرقت بعنف العاصفة، وحملت إلى شواطئ أخرى.

عاصفة وأمطار غزيرة

في يوم عيد القديس إدموند، من العام نفسه، كان هناك رعد متميز مترافق ببرق، مع نذير شؤم عن وصول عاصفة طويلة، مخيفة للقلوب والأذان للأحياء، ولم يكن الانذار زائفاً، لأنه تبعه أنواء متواصلة في غير وقتها، وبأوضاع للرياح مزعجة ومضطربة، استمرت لعدة أيام، وتساقطت آنذاك أمطار غزيرة جداً، حتى أن نهر التيمز فاض عن حدوده المعتادة، وعن شواطئه القديمة، وأظهر نفسه فوق المنطقة الممتدة نحو لامبث امتداداً حتى ستة أميال، وغمر المنطقة بالطول وبالعرض، واستحوذ على البيوت وعلى الحقول في تلك المنطقة، ونظراً لفيضان المياه، ركب الناس في القاعة الكبرى في ويستمنستر على ظهور الخيول.

إرسال مؤن من إنكلترا إلى الملك

وأرسل الملك في تلك الآونة رسالة إلى رئيس أساقفة يورك، الذي كان وصياً على المملكة، آمراً إياه بارسال القمح الذي نما في أسقفية كانتربري، وفي العزب الأخرى التابعة للأسقفية نفسها، وكانت آنذاك فارغة، إليه إلى بوردو من دون تأخير، ومع القمح لحم خنزير وملح والأشياء الأخرى اللازمة والامدادات من أجل الشتاء، وكذلك أقمشة من أجل صنع ملابس، ونتيجة لذلك جرى إرسال عشرة آلاف عبوة من القمح وكثيراً من لحم الخنزير، إنما وهي مرافقة بمبلغ كبير من المال، وكان إنكلترا كانت بئراً لا ينضب.

أوامر غير صحيحة لملك إنكلترا

وأرسل الملك أوامر دقيقة إلى رئيس الأساقفة المذكور، كي يصادر أراضي وممتلكات الذين هجروه على القارة، وتركوه بلادفاع وعرضة لتقلبات الأحداث، وعندهم خونة، وبشكل خاص ممتلكات وليم دي روز، وبعض النبلاء الآخرين، العائدين إلى المناطق الشمالية من إنكلترا،

وقد عانى هؤلاء، نتيجة لهذا الأمر من خسارة كبيرة، وكان رئيس الأساقفة على كل حال، رجلاً حكيماً، ومقدراً للأمور، وكان يعرف أنهم ينبغي عدم لومهم، إذا كانوا قد تركوا الملك لبعض الوقت، بعد إبرامه الهدنة، وقد تركوه بسبب الفقر الذي استبد بهم، أو تركوه لكي يستردوا صحتهم، ولذلك لم يرغب، لدى صدور هذه الأوامر الطغيانية، أن يُلطخ أخلاقه وسمعته، من أجل رسالة ليست ذات قيمة، بل فضل أن يتركها تمر بصمت، لاسيما وأن الملك كان مرغماً على الموافقة على المشورة الحكيمة لكل من أخيه الايرل رتشارد، ولرعاياه الآخرين الموثوقين، بأن عليه والأفضل له العودة إلى مملكته، لكنه اختار الكلام الناعم للغسكونيين، وبقي في بوردو مع مملكته وسط سخيرية ومزاح الفرنسيين، الأمر الذي لم يكن لمصلحته تماماً، هذا وبقي مع الملك سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر، وايرل وليم أوف سالسبري، وعدد كبير آخر من النبلاء الانكليز، لكن ليس من دون المعاناة من خسائر كبيرة، مع تعريض أنفسهم للأذى، حيث أثقلوا بالديون، وعانوا من جميع أنواع الشدائد، وكانوا يقضون أوقاتهم من دون عمل ونائمين بشكل مهين.

تزايد خزي ملك انكلترا وعاره

وفي الوقت نفسه وصم الملك نفسه بوصمة من غير الممكن إزالتها، بسبب أنه رفض نصيحة مستشاريه الطبيعيين، حيث أذعن مراراً، وبطريقة صديقة تماماً واستجاب لرغبات كونت طولوز، وكذلك لرغبات ملك أراغون، وكانا صديقين هشين من القصب، حيث لم يقدموا له في وقت الحاجة أي عمل جيد، لابل بالحري عارضاه ووقفاه ضده، فقد كان أولهما هرطقي، وكان الثاني ملطخاً بعار عدم المحافظة على معاهداته وخرقها، لابل لانيهما حاولا زرع بذور الخلاف بينه وبين رعاياه الاقطاعيين، لاسيما الايرل سيمون دي مونتفورت، على أساس

الكراهية السالفة لأبيه، الذي كان من قبل قد ألحق هزيمة شديدة، بملك أراغون والألبينين، ولم يقم الغسكونيون لا الآن، ولا من قبل، لا بتدليل ملك انكلترا، ولا بإطرائه، الأمر الذي عندما أخبروا به ملك فرنسا، من أجل أن يفرح لدى سماعه له، قال: «كونوا هادئين، كونوا هادئين، ولا تسخروا منه، أو أن تحاولوا جعلي أكرهه، لأنكم تكرهونه، إن صدقاته وقداساته، سوف تنقذه من جميع المصائب والمخاطر»، ولقد سمعت أيضاً أن رأياً مماثلاً صدر بشأنه عن اللويلين، أمير شمالي ويلز، الذي كان عدواً له.

وفاة رتشارد دي بورغ

وفي هذه الآونة نفسها، مات رجل نبيل، هو رتشارد دي بورغ، وكانت لديه أراضي كثيرة وممتلكات في إيرلندا، كان قد ورثها من أعمال التوسع لأبيه المشهور.

موت هيوج دي لاسي

وفي هذا العام نفسه، غادر هيوج دي لاسي هذه الحياة، وكان مقاتلاً صاحب شهرة كبيرة، وحاكماً مشهوراً لشطر كبير من إيرلندا.

روبرت أسقف لنكولن يترجم أناجيل البطارقة الاثني عشر

وفي هذه الآونة أيضاً، ترجم روبرت، أسقف لنكولن، وكان رجلاً بارعاً جداً، إلى اللاتينية، من الاغريقية، ترجمة صحيحة جداً أناجيل البطارقة الاثني عشر، وكانت هذه الأناجيل غير معروفة منذ سنين طويلة، ومخفية من خلال حسد اليهود، لأن النبوءة المتعلقة بمخلصنا موجودة فيهم، لكن الاغريق الذين هم أكثر المتقنين بحشاً من دون ملل عن جميع الكتابات، كانوا أول من علم حول هذا الموضوع، فترجموهم عن العبرية إلى الاغريقية، ولم يكونوا معروفين في أيام القديس جيروم، أو من قبل أي مترجم آخر للكتابات المقدسة، ولم

يصلوا إلى معرفة المسيحيين، بأي شكل من الأشكال، بسبب الخطط التآمرية لليهود، وبناء عليه، قام الأسقف المذكور بالترجمة، يساعده نيقولا، وكان اغريقياً، وكاهناً في دير القديس ألبان، وجاءت الترجمة إلى اللاتينية، واضحة، وكلمة مقابل كلمة، لتلك الرسائل المجيدة، في سبيل تمثيل الإيمان المسيحي، ولتسبب الإرباك الكبير لليهود.

وفاة راعي دير إيفهام

وفي هذه الآونة، أنهى أيامه، راعي دير إيفهام، وأسقف كوفنتري، في غسكوني، بعدما شغل دوراً كبيراً أساسياً في انكلترا، وبعدها أمضى كثيراً من الأيام المجهدة في خدمة الملك، وحدثت وفاته في منطقة اسمها ريغيولا Regula أو لي ريولي Reole، في اليوم الثامن من كانون أول، وتولى أسقف تلك المنطقة دفنه بكل احترام.

وفي هذا العام نفسه، في التاسع والعشرين من تشرين الثاني، مات جوسلين، أسقف باث، عن عمر مديد، وكان متميزاً بحياته الجديرة بالثناء وأخلاقه.

إنهاك خزينة ملك انكلترا وطلبه المال

وفي هذه الآونة أيضاً ضلل ملك انكلترا من كل جانب، أو بالحري خدع من قبل البواتيين والغسكونيين، وبات فقيراً، وسيء السمعة، لأن بدلات الخدمة، والاستخراجات، وجميع الخزائن والهدايا التي جمعت من أجله، جرى تبديدها من دون فائدة، فضلاً عن هذا عاد إلى ممارسة الاستخراجات، وفرض الضرائب، والطرائق الأخرى، فبعدها فقد أراضيه وكرامته في بواتو، وجد الآن نفسه في غسكوني مثقلاً بالدين، مع أنه يبذل الخدمة استخرج — لكن ليس من دون مصاعب حمة سببها للانكليز — ثلاثة ماركات عن كل بدل، وقال بعضهم لابل استخرج عشرين شلناً.

الملك يطلب العون من السسترشيان

وفي ذلك الوقت، طلب ملك انكلترا بشكل رسمي، وتقدم بالرجاء بشكل حبي إلى رئيس أساقفة يورك، بأن يقوم رئيس الأساقفة بتوجيه الدعوة إلى جميع رعاة دير طائفة السسترشيان إلى الاجتماع وأن يلقاهم بكلمات لطيفة، وأن يحرضهم وأن يثيرهم للاهتمام بمولاهم وملكهم، الذي كان يحارب في مناطق أجنبية، في سبيل رفع شأن المملكة ومن أجل مصالحها، إلى حد تعريض شخصه إلى حظوظ الحرب المشكوك فيها، ولذلك يتوجب عليهم أن يقدموا إليه خدمة فعالة، بتقديم المال إليه، وبذلك يقدمون إليه معروفاً، ومساعدة قيّمة، وبناء عليه اجتمعوا، وردوا عليه في الاجتماع الأول قائلين: «كم تريد يامولاي؟» فأجابهم رئيس الأساقفة قائلاً: «قليلاً»، وعندما سأله السسترشيان: «وكم هذا القليل؟» قال لهم رئيس الأساقفة: «بقدر مايمكن أن تحصلوا عليه من أصوافكم لعام واحد»، مما كان مساوياً إلى قول:

حياتك كلها هي كل ما أطلبه،

والبقية أتركها بين يديك.

لأنه من الذي يمكنه أن يعاني من الحاجة إلى ضروريات الحياة لأيام قليلة، وقد حرم من الضروريات التي تتطلبها الحياة، من الذي يمكنه أن يفعل ذلك دون أن يلفظ أنفاسه؟ لكنها كانت كلمة الملك في فم رئيس الأساقفة.

جواب السسترشيان

وشعر هؤلاء السسترشيان بأن مصيدة قد نصبت إليهم، وأن خسارة وشيكة الوقوع، لذلك أجابوا بحكمة كما يلي:

«مولانا رئيس الأساقفة، نعمتك وحسن تقديرك على دراية بأننا جميعاً

جسد واحد، وأنا لا يمكننا الموافقة على الذي طلبته لصالح مولانا الملك من دون إذن الهيئة الرهبانية العامة، علاوة على ذلك، لنفترض أنه جرى الآن عقد اجتماع للهيئة الكهنوتية العامة، نحن نعلم، وأنتم بحكم تقديركم تعلمون، أنه غير مسموح لنا تقديم المساعدة إلى أي إنسان، يباشر أعمال الحرب، التي فيها سفك للدماء، لاسيما الدماء المسيحية، خشية أننا بتقديم مثل هذه المساعدة، سوف ننأى عن أحكام نظام طائفتنا، التي تخاف خوفاً عظيماً من الدماء، لكننا على استعداد لتقديم العون إلى مولانا وولي نعمتنا بصلوات مفيدة ومستمرة، وبالصدقات وبأعمال أخرى من التقوى، وإنه بدون شك علينا الاعتقاد، أنه بهذا سوف يفوز، وذلك مما لاشك فيه، كما أنه سوف ينتصر بشكل مجيد أكثر، ولسوف يشعر بأن العون اللاهوتي سوف يمد قضيته بالتقدم، إذا ما تابع — كما هو الآن — وظل ثابتاً بإيمانه»، وعلى هذا رد رئيس الأساقفة، وهو منزعج، وملاحظه مضطربة متبدلة قائلاً: «بأي وجه سوف تطلبون أي شيء من الملك وقت الحاجة، وهو الذي أجبتموه بهذه الطريقة الجافية، ورددتكم على رجائه في هذه الأزمة الهامة؟»، فقال واحد من الرعاة السسترشيان: «مولانا نحن نتذكر، أنه عندما توج ملكاً، أقسم أنه سوف يظهر العدل نحو كل إنسان، ونحن سوف لن نسأله أي شيء خارج الطريق العام، كما أنه لا يمكنه، ولا يجوز له، أن يحرمننا الذي أقسم على منحه لنا، وعليه أن يحكمنا بعدل، دون أن ينزل بنا أي ضرر غير قانوني، لكنه إذا أراد، في سبيل صالح روحه، أو أرواح أجداده، ولفائدة مملكته، أن يضيف أية منفعة خاصة علينا، سوف نفتح له صدورنا شاكرين لاستلامها».

الرعاة السسترشيان لا يعبرون البحر إلى الهيئة الرهبانية العامة

وكذلك في ذلك العام، لم يسمح لرعاة الديرة السسترشيان، بعبور البحر، كما أنهم أنفسهم لم يرغبوا أن يفعلوا ذلك، لأنهم خافوا خوفاً

عظيماً من أن تكون هناك مكيدة منصوبة لهم من رجال الملك في البحر، وكأن ذلك بدون معرفة الملك، وذلك بسبب أنهم رفضوا منحه صوف سنتهم، ولذلك اعتذروا عن أنفسهم بأدب، بوساطة أساقفتهم، حتى لا يظهروا أنهم كانوا هم السبب.

أوضاع الهواء خلال السنة كلها

وانقضى هذا العام، بعدما وفر كميات كبيرة من الفواكه والخضراوات، وذلك على الرغم من أنه كان جافاً وحاراً، وكان هناك قرب نهايته وباء عام، وحميات ربعية.

ملك انكلترا يبدد وقته في بوردو

في سنة النعمة هذه التي هي السنة ١٢٤٣، والتي هي السنة السابعة والعشرين لحكم الملك هنري، كان الملك نفسه يمضي الشتاء في بوردو، ومكث هناك في حالة بهجة، واستخرجت كونتيسة بيارد منه مع ابنها غاستون الغسكونيين المال يومياً، وذلك إلى جانب راتب مفروض، لم يكن تافهاً بالمرّة، ولقد استخرجوا هذا كله من الملك، الذي كان تحت سلطانهم.

حصار دير فيرني

بينما كانت الأمور تسير على هذا المنوال، ولكي لا يكون رجال الملك من دون عمل، جرى اخضاع بلدة لبعض العصاة الغسكونيين في أراضي بوردو، وجاء اخضاعها بالقوة وجعلها تحت سلطان الذين ظلوا مخلصين للملك، وكان هناك دير اسمه دير فيرني Verine، فيه اعتصم العصاة على الملك، حيث حولوا الكنيسة إلى قلعة، أو بالحري إلى كهف لصوص، وجرى حصار هذا الحصن بشدة، وهوجم من قبل خدم الملك المخلصين، لكن من دون نجاح، ووقتها قام واحد من كتّاب الملك، وكان مستشاراً خاصاً لديه، واسمه جون مانسيل، وكان رجلاً

شجاعاً بالحرب، وصاحب روح عالية، قام بتوجيه اللوم إلى المهاجمين، واتهمهم بالتقاعس وإضاعة الوقت، وفي الوقت الذي كان يريد أن يضرب فيه مثلاً للآخرين بالنهوض بشكل أكثر فعالية ضد الأعداء، وكان يرغب في إعداد طريق، قام واحد من المحاصرين، وكان متمركزاً في الجزء الأعلى من الكنيسة، بإطلاق حجرة ذات وزن ثقيل نحو الكاتب المذكور، فسحق ساقه مع المفاصل والنخاع في عظامه، وعندما كان الرجل نفسه يعدّ العدة لتحطيم بقية جسده بالحجارة، قام رفاقه المرتبطين به بإخلاص، فغطوه بأجسادهم، وبترسية كبيرة، اسمها الدراي، وهكذا حرروه بصعوبة من خطر الموت، وظل جون هذا نفسه الذي أصيب بجراحة حادة في جسده، لمدة طويلة فاتر الهمة وضعيفاً، غير أنه تعافى بوساطة براعة الجراحين، وبدأ يتنفس، وعندما رأى الملك هذه الشجاعة الكبيرة، وشاهد إخلاصه حوله من كونه مستشاراً خاصاً له، وعمل من جون المذكور مستشاراً أكثر خصوصية، ذلك أنه استحق بفضائله المبرهن عليها أن يكون صاحب مرتبة بين الأعلين في انكلترا.

رهبان كوفنتري ينتخبون قائد جوقة المرتلين لديهم أسقفاً

وحوالي هذا الوقت نفسه، سمع رهبان كوفنتري رواية مؤكدة عن وفاة راعي دير ايفهام، الذي كان قد عمل بوسائط الملك أسقفاً لشيستر، فانتخبوا وأعلنوا بموافقة عامة، وبوساطة موافقة بعض كهنة لشفيلد، أسقفاً لهم، رئيس جوقة المرتلين لديهم، الذي هو وليم أوف مونتبلر Montpelier، غير أن الملك، الذي كان ناوياً وضع إنسان آخر في ذلك الكرسي، لم يقبل لابلانتخاب ولابالأسقف، ووقف بعض كهنة لشفيلد إلى جانب الملك، وقد أثار هؤلاء على الجانبين خلافاً مرهقاً ونكدًا.

ملك انكلترا يشكو من فقره

وفي حوالي الوقت نفسه، ومع اقتراب شهر آذار، قدمت رسائل من ملك انكلترا من المناطق الأجنبية، إلى رئيس أساقفة يورك (الذي مارس في مملكة انكلترا أعمال الحاكم الرئيسي) تحتوي على شكاوى تعيسة، لأن ما من سفينة قدمت إليه، تحمل مساعدات عسكرية أو مساعدات مالية، منذ تاريخ وصول راعي دير ايفهام، الذي تأرجح بوساطة الأمواج العاتية، وبعدها أرهق لعدة أيام فارق هذا العالم، لكن رئيس الأساقفة كان مندهشاً كثيراً تجاه هذا، لأنه كان قد أرسل إليه مالا، مع كميات كبيرة من الإمدادات والمؤن، ولذلك بات يعتقد بثبات، ويخشى من أن الغضب المنتقم للرب الخالق قد دمرهم وأغرقهم في أعماق البحر، ولذلك أعد مؤناً حتى ترسل إلى الملك، مع مال، كان الآن مبلغاً صغيراً جداً.

ولاة الموانئ الخمسة يطلبون المساعدة من رئيس أساقفة يورك

وقدم أيضاً ولاة الموانئ الخمسة إلى رئيس أساقفة يورك، يشكون إليه بشدة، بأنهم قد صدوا الآن ثلاث مرات، ليس من دون خسائر لاتعوض بالرجال، وبالسفن والأشياء الأخرى، وذلك من قبل الناس الذين يواجهون شواطئهم، وبشكل خاص سكان كالي Calais الذين هاجمهم في سبيل النهب، وعلاوة على ذلك أكدوا بشكل يقيني، أنه لا هم أنفسهم، لابل ولا حتى الأسطول الانكليزي كله، يستطيع أن يصمد في وجه الأسطول الذي جرى إعداده من قبل هذا العدو، وأضافوا قائلين: «يتوجب على مجلس الملك الاستعداد والتجهز ضد الخونة الخفين، وضد الغارات المكشوفة، التي أعدت، وسوف تعدّ ضد أنفسهم، وضدنا نحن، والتي تهدد بأن تصبح كل وقت أكثر إخافة، وأكثر شدة، لأن كونت بريتاني، مع جميع سفن بريتاني وبواتو، قاموا وهم مجهزون بشكل جيد بالرجال والسلاح، بمهاجمة جميع الذاهبين من

جهتنا، ومن عندنا إلى الملك، وكذلك جميع المسافرين من عند الملك، إلينا، بطريقة عدوانية، وحيث أننا بتنا محرومين من جميع المساعدات من الملك، وكذلك من المساعدات المالية والعسكرية، فررنا إلى طلب العون من نصيحتكم، لأننا بتنا أنفسنا عاجزين عن تشكيل رأي، وعلاوة على هذا، وتتويجاً لاضطراباتنا، نادراً ما يسمح لنا سكان تخوم نورماندي، والذين يحرسون السواحل الأكثر بعداً، مع قرصان ويزانت Wissant وكالي، ولو حتى إلى مسافة صغيرة، بالقيام بأعمال صيدنا للسمك، والقراصنة أيضاً الذين يحرسون أعماق البحار في غلايين، لايسمحون حتى للمسافرين بالعودة إلى بلادهم، كما أن ملك انكلترا محصور الآن في بوردو، وكأنه في سجن، ما لم تزودنا حكمتكم بحملة عسكرية بحرية وبكثير من المال».

وعندما وصلت هذه الأشياء إلى مسامع رئيس الأساقفة، لم يعد يتجسراً الآن على أن يرسل إلى الملك السفن المحملة، التي أصبحت جاهزة، وذكر للملك بشكل رسمي أنه إذا كان يقدر نفسه، وممتلكاته، عليه أن يبادر بسرعة إلى تصحيح أخطائه التي وقع فيها، وأن يخرج ناجياً من المصائد التي وقع فيها بشكل خياني، وأن يعجل عودته إلى انكلترا، وقال ممزحاً للملك، عن طريق الإشارة:

السلاح على الأرض، والسفن عند البحر، ونحن نخاف

فبين الاثنين، عليك أن تدير الدفة بحذر

إعاققة انتخاب بابا بسبب الخلافات بين الكرادلة

وبقاء الكرسي البابوي شاغراً

وفي الوقت نفسه أبلغ الامبراطور فردريك الكرادلة، الذين كانوا في مناطق مختلفة، ولكل منهم موقفه، برغبته بضرورة وجوب اجتماعهم مع بعضهم، والقيام بشكل اجماعي بانتخاب بابا، وأكد لهم أنه بسبب

غلطتهم قد عانى شخصياً من ضرر كبير لحق سمعته، لأن كثيرين يعتقدون ويؤكدون، من خلال جهلهم بحقيقة الوقائع، بأنه هو كان الميعق الرئيسي لتقدم كنيسة روما، ولمنافعها، وأنه كان السبب في بقاء الكرسي الرسولي شاغراً، لكن الكرادلة الذين لم يروا أدنى بارقة أمل، ولا حتى بصيص نار تحت الرماد، وذلك من خلال مكائد الشيطان، العدو القديم للجنس البشري، لم يكونوا مجمعين في رغباتهم، كما أنهم لم يكونوا راغبين بالاجتماع من أجل انتخاب حبر روماني، وقاموا على كل حال بتقديم الرجاء على الفور إلى مولاهم الامبراطور فردريك، أنه إذا ما رغب في أن يعدّ المحامي عن سلام الكنيسة وحريتها، أن يسمح لأساقفة الكنيسة، الذين مايزال يحتجزهم، بأن يغادروا محررين، تحت أمل أكيد جداً بسلام سعيد.

إطلاق الامبراطور فردريك سراح النواب البابويين والأساقفة

وبناء عليه، وضع الامبراطور ثقة مطلقة بكلام الكرادلة، ولاعتقاده بثبات بأن بابا سوف يجري اختياره، وأن الكرادلة سوف يكونوا متأكدين بأنه سيكون موافقاً لصنع سلام مشرف بين الامبراطورية والبابوية، ولذلك سمح من دون مقابل، للنواب البابويين والأساقفة الذين كانوا مسجونين لديه بالمغادرة أحراراً من دون أية معيقات أو فدية.

بقاء الكرادلة غير قادرين على الاتفاق لانتخاب بابا

لكن الكرادلة بقيوا متصلبين، ومكثوا مختلفين مع وجود كراهية متبادلة، وكأنهم كانوا يملقون للامبراطور، أو كأن الشيطان قد زرع الخلاف فيما بينهم، لذلك ما برحوا غير راغبين بالاجتماع مع بعضهم، ولهذا توجهوا جميعاً بالدعاء والصلاة إلى نعمة الروح القدس، وأن يزودهم بسعادة وبشكل موافق في سبيل صالح الكنيسة العالمية، وكذلك

الكرسي البابوي، علماً بأنهم عندما أطلق مؤخراً سراحهم من السجن الامبراطوري، قد وعدوا الامبراطور، الذي أطلق سراحهم، أنهم بوساطة البحث الدقيق عن الحق، وبكلمة الصدق، التي هي كلمة الرب، سوف يبذلون غاية جهدهم، للحصول على السلام للكنيسة، وأن يكون ذلك موثقاً للامبراطورية، ولمكانة ورفعة الكرسي البابوي.

الإمبراطور يمنح جنوده ممتلكات الكرادلة

وعندما وجد الامبراطور فردريك وعودهم فارغة من التنفيذ، وأنه قد خدع بآماله، شعر بغضب عظيم، ولأنه كان قد حشد جيشاً كبيراً تألف من تسع وحدات، تحتوي كل واحدة على خمسة آلاف من الفرسان، قام بحصار الشطر الأكبر من روما، لمعاينة المواطنين والكرادلة الذين وضع أنهم فعلة هذا الشقاق وموسعيه إلى حد مدمر للكنيسة وللإمبراطورية.

ولكن سكان المدينة الذين سببهم قرر الامبراطور مهاجمة المدينة، سوغوا أنفسهم بشكل قانوني، وبرهنوا بما فيه الكفاية على براءتهم، وأكدوا بأن الكرادلة كانوا منقسمين في أرواحهم أكثر منه بالجسد، وكانوا موزعين ومتخفين في بلدات مختلفة، وبناء عليه أمر الامبراطور برفع الحصار، وأن يجري نشر المرسوم والأمر التالي في جميع أرجاء الجيش: «تتوجب استباحة جميع ممتلكات وكنائس الكرادلة، وكذلك الممتلكات العائدة للكنيسة، من قبل الجيش».

اجتماع الكرادلة لخوفهم لانتخاب بابا

ثم قام بعض من المسلمين، ولصوص آخرين، مع مقترفين للشروع، كانوا يقاتلون مأجورين لدى الامبراطور بهجوم مفاجئ على مدينة ألبانو المشهورة، واستباحوها بشكل وحشي، وهكذا حدث أنه ما بين مائة وخمسين كنيسة، ما من واحدة وفرت، أو تركت من دون استباحة،

وقد سلبوا الأثواب، وكؤوس القربان، والكتب، وفي الحقيقة استولوا على كل شيء ظهر أنه كان ثميناً، أو أن له أية فائدة ومريح، وكان ذلك بعدما نهبوا الناس ومحقوهم بشكل رهيب، وعندما بات الجيش مستعداً للقيام بسلب مشابه للممتلكات الأخرى للكنائس، راسل الكرادلة مولاهم الامبراطور، وتوسلوا إليه بتواضع كي يوقف غضبه، وأن يأمر بايقاف أعمال الاستباحة، حتى يتمكنوا على الفور، تماشياً مع تصوره ورغبته، فيمضون وهم واضعين الرب نصب أعينهم، فيختارون حبراً رومانياً، موائماً للكنيسة وللإمبراطورية، وبناء عليه هدأ غضب الامبراطور، وأوقف بموجب مرسوم امبراطوري أعمال السلب والنهب.

استخراج المال من مواطني لندن

وتعرض سكان لندن في هذا الوقت نفسه إلى ضيق شديد، بسبب فرض ضريبة ثقيلة عليهم، أطلق عليها اسم المكس الاقطاعي، وجرت جبايتها على الشكل التالي: قدم الجباة الملكيون والموظفون إلى كذا وكذا من المواطنين، قائلين: «ينبغي أن تقرضونا كذا وكذا مبلغاً من المال إلى مولانا الملك، الذي يحارب في مناطق أجنبية في سبيل مصالح المملكة، وذلك إلى أن يعود إلى الوطن»، ووفقاً لإرادة هؤلاء الجباة وتقديراتهم، جرد السكان من أموالهم، علماً بأن جميع هذه الأشياء، وأكثر، كان السكان مستعدين عن طواعية لتحمل دفعها لو أنهم رأوا أنها سوف تفيء الملك أو المملكة، ولكن:

عندما يتوقف الجهد والعمل،

تزداد بالفعل مطالبنا.

عقد هدنة بين ملكي إنكلترا وفرنسا

في يوم عيد القديس جورج، جرى تثبيت الهدنة التي كانت قد

أعدت، وجرت الموافقة عليها بين ملك فرنسا وملك انكلترا، وجاء التثبيت من على الجانبين، لمدة خمسة أعوام، وكان ذلك بوساطة تدخل رجال حكماء ومخلصين، كانوا أصدقاء لكلا الطائفتين، وتم الاتفاق على إبقاء كل ما استولى عليه الملك الفرنسي في تلك الحملة، بين يديه، علاوة على ذلك أعيدت بعض البلدات إلى حكم الملك الفرنسي، وهي التي بعدما عاد ملك فرنسا من كونتية بواتو، كان الملك الانكليزي قد استولى عليهن بمساعدة الغسكونيين، ولكي يتم ضمان تنفيذ هذه المعاهدة الصعبة في البر وفي البحر، خلال ذلك الوقت المحدد، تعهد ملك انكلترا بأن يدفع باخلاص إلى ملك فرنسا مبلغ خمسة آلاف باوند استرليني، أي ألف باوند عن كل سنة، غير أن كونت بريتاني، الذي كان رجلاً ماكراً وداهية، تظاهر بأنه كان جاهلاً بجميع هذه الأشياء، وشغل نفسه بيقظة وفق طرائق القرصان بالسلب والنهب فوق سطح البحر بغلايينه وسفنه الأخرى، ولم يرغب بالقدوم إلى الشاطئ، خشية أن تكبح الارادة الملكية حملاته الشريرة والمفسدة، وكان من الأعمال التي اقترفها بشر كونت بريتاني المذكور، الاستيلاء على، ونهب سفينة تجارية كبيرة جداً تابعة لبيوني Bayonne، وكانت محملة بالتين واللوز، ومختلف أنواع التوابل، وكانت متوجهة ومبحرة نحو انكلترا، وحدث هذا قرب أيام الصوم الكبير، ثم إن ملك فرنسا، كبح —بناء على طلب ملك انكلترا— وأوقف الهجمات الشريرة للكونت المذكور، وذلك تحت تهديد الحرمان من الميراث.

وفاة هوغ دي ألبيت إيرل أرونديل

وفي السابع من أيار، من العام نفسه مات هوغ دي ألبيت Albinet إيرل أرونديل Arundel، وهو في زهرة شبابه، حيث أنه كان بالكاد قد اجتاز حدود الشباب، وقد دفن في ويموندهام Wymonham، في كنيسة القديسة مريم، وهي رئاسة رهبان عائدة

إلى دير القديس ألبان، وجاء دفنه إلى جانب أبيه، الذي كان راعي تلك الكنيسة ومؤسسها، وإثر موته جرى تقسيم ميراثه النبيل بين أخواته الأربعة.

وفاة هيوبرت دي بيرغ إيرل كنت

وفي الوقت نفسه، في الثاني عشر من أيار، أنهى أيامه إيرل كنت، يعني هيوبرت دي بيرغ، وجاءت وفاته عن عمر طويل، ووفق طريقة تستحق أعظم الثناء، وكان ذلك في عزبته في بانستد Banstead، وذلك بعدما تحمل عدداً من الحملات غير المسوغة والاضطهادات من الملك مع كثير من تقلبات الحظ، وجرى حمل جسده المحترم بكل تقدير إلى لندن لإدخاله إلى بيت الرهبان الدومينيكان، الذين منحهم أثناء حياته كثيراً من الأعطيات، وأشياء أخرى كان من بينها قصره الفخم، الذي لم يكن بعيداً جداً عن قصر الايرل رتشارد في ويستمنستر، والذي اشتراه فيما بعد رئيس أساقفة يورك.

رغبة ملك إنكلترا بالعودة إلى الوطن

لكنه منع بسبب ظروف متنوعة

وفي هذه الآونة، رأى مولانا الملك أن الحظ معارض له في كل شيء، واكتشف بأن أتباعه الانكليز المخلصين قد أخبروه الصدق، فعاد إلى نفسه ثانية، مع أن ذلك جاء متأخراً، وندم أنه لم يدعن إلى آرائهم الصحيحة، ولذلك أشار إلى رئيس أساقفة يورك أن يحضر له اسطولاً، عندما يستطيع، وأن يرسله حتى يقابله، لكي يتمكن أثناء سفره من تجنب مصائد أعدائه بشكل فعال، إذا ما صدف وكان أي شيء من هذا القبيل قد أعد له، كما أنه أعطى أوامر بوجوب استقباله بسرور من قبل جميع نبلاء إنكلترا، على الشاطئ، عندما ينزل إلى اليابسة، وجرى ارسال اسطول كبير لمقابلته، وكانت نتيجة هذا الأمر إفقار نبلاء إنكلترا

بشكل تعيس جداً، الذين كانوا ينتظرونه يومياً على شاطئ بورتماوث، ليس من دون تحمل نفقات عالية، والمعاناة من الارهاق والانهك، لأنه آخر عودته حتى عيد القديس ميكائيل، لأن الملكة كانت مرهقة بالحمل أو بمتاعب أخرى، وعلاوة على ذلك، وجد شعب بوردو، لأبل بالحري جميع الغسكونيين، بأن تأخر الملك كان عظيم المنافع لهم، ولذلك كانوا يسعون بكل وسيلة ممكنة، لاقتناع الملك لإمضاء الشتاء معهم، وأن يبذل ماله من دون فائدة له شخصياً، سواء المال الذي استخرجه أو سوف يستخرجه من مملكته، المهم أن ذلك مفيد لهم، ولقد حدث على الفور، بعدما كان الملك على وشك مغادرة بوردو، وبعدها كان قد عيّن نيقولا دي مولي Molis، كشخص مناسب ليعمل بمثابة حاكم، وهو الذي يدعونه القهرمان، وبعدها اتخذ جميع الإجراءات الاحترازية من أجل سلامة الأرض، وبعدها ألقع بسفينته، وكان مبحراً في أعماق البحار، متوجهاً نحو انكلترا، نشب خلاف حاد بين الغسكونيين، فجري استدعاء الملك على وجه السرعة، بوساطة غليون أرسل خلفه، وقد أرغم على العودة، من أجل أن يخمد النزاع الكبير الذي نشب، وهكذا أعيقت رحلته إلى انكلترا بكثير من المعوقات.

نشوب خلاف بين دير كانتربري وأسقف لنكولن

وأثناء مرور هذه الأيام، وبينما كان الملك، كما تقدم وقلنا، كان ما يزال في الخارج، نشب خلاف ساخن بين دير كانتربري، وأسقف لنكولن، وقد نشب بسبب مايلي: طالب أحد الكهنة بشكل غير لائق راعي دير بارديني Bardeney بسداد دين، وكان واحد من هؤلاء قد تعاقد عليه مع سلف الراعي نفسه، وعندما نشب خلاف حول هذا، كان هناك رئيس شمامسة لنكولن، وكان يرغب في الخط من مكانة الراعي المذكور الذي كان مرشحاً لمرتبة أسقفية، وكذلك أن ينال من مكانة ديره، المكانة التي تمتع بها رهبان الدير دون أن يؤذيهم

أحداً، ولذلك قال للكهنة المذكور، عندما كان يطالب بسداد الدين المذكور: «تقدم بشكوى إليّ بطريقة جادة وموائمة فيما يتعلق بهذا الضرر الذي عانيت منه، وأنا سوف أتولى اخضاع وتطويع هؤلاء الذين لم يعرفوا الخضوع حتى الآن، أعني خصومك الرهبان، وسوف أستردهم جميع الدين إليك، وأستخرجهم منهم بالقوة، إذا كان ذلك ضرورياً».

وبناء عليه تبع نصيحة هذا الأرعن المختال، فتقدم بشكوى قاسية ضد راعي الدير ورهبانه بشكل معلن، أمام رئيس الشمامسة، الذي استدعى راعي الدير للظهور أمامه، حتى ضمن امتيازاته، للاستجابة للقانون حول هذا العنوان، وعندما أدرك راعي الدير أن ذلك كان ضد قانون الكنيسة، وضد العرف، تقدم بشكوى استئناف مضادة، ثم إن رئيس الشمامسة عندما وجد نفسه معارض بشكل غير قانوني، استدعى راعي الدير للظهور في مكان آخر، لكن راعي الدير قال: «لا»، مستنداً على شكواه الاستئنافية المتقدمة، لأنه كان عارفاً بأنه كان يتأمر ضده، وكان لا يطلب شيئاً سوى حجة من أجل مسح امتيازاته، وتحويله إلى لا شيء، وكانت عدة محاولات قد جرت من قبل، أكدتها هذه المحاولة الأخيرة، جعلته يتأكد أن ذلك كان مقصد عدوه، وقد عرف علاوة على ذلك، أنه إذا ما جرى تقديم هذه الشكوى أمام الأسقف، (وهو ما كان رئيس الشمامسة يسعى بدهاء أن يفعله) فإن الأسقف سوف يكون مؤثراً اخضاع الرهبان، لأنه كان يعدّ مضطهداً عاماً لطوائف النساك، ومعادياً بشكل خاص للامتيازات الممنوحة للرهبان، ولهذا استهدف رئيس الشمامسة الحصول على سبب لتفجير خلاف وصراع، وصنع مصاعب لا يمكن لأحد التخلص منها، لذلك تقدم بشكوى حول هذه المعارضة إلى الأسقف، وبناء عليه استدعى الأسقف راعي الدير للاجابة على هذه الشكاوى المضاعفة، لكن راعي الدير ظل ثابتاً باعتياده

على استئنافه المتقدم، فرفض الاستجابة إلى هذا الاستدعاء، ولأنه كان يعرف أن الأسقف سهل الإثارة إلى حد الغضب، وأنه في هذه الحالة سوف يظهر المحاباة لرئيس الشمامسة، وبناء عليه غضب الأسقف غضباً شديداً، وامتلاً حقداً أكثر مما ينبغي، فقام بانزال عقوبة الحرمان الكنسي ضد راعي الدير، في تلك البقعة، وعدّه متمرداً، الأمر الذي تحمله راعي الدير بصبر، حتى لا يتعرض في النهاية للعقوبة من أجل العصيان، وبعد مضي عدة أيام أرسل الأسقف مفتشين إلى بارديني، وكانوا مدنيين، وكان الهدف توجيه الاهانة إلى الرهبان، وليس تقويم الذنوب، إذا كان أياً منها موجوداً، ولذلك رفضوا منحهم القبول، لأنهم جاءوا باسم الأسقف، الذي كان عدوهم المكشوف، ولأنهم كانوا مرسلين بشكل شرير، يضاف إلى هذا، لأنهم كانوا مدنيين، وجاهلين تماماً بالأنظمة الديرية، ثم بسبب أن راعيهم، الذي كان رئيسهم وقائدهم، والذي من دونه لا يمكنهم اتخاذ أية إجراءات، كان مغلولاً بسلاسل الحرمان الكنسي، بموجب قرار صادر عن الأسقف المذكور، وبناء عليه أصبح المفتشون عرضة للإهانة، لابل حتى عرضة للتهديد، وصاروا معرضين أنفسهم للعنف من قبل الذين أثاروهم، وصدهم البوابون، وبعدما أغلقوا الأبواب قالوا لهم: «نحن نرجوكم بتواضع بالمغادرة بسرعة، قبل أن تتعرضوا للهجوم عليكم من قبل عدد كبير من الساخطين من الناس في هذه المنطقة، فنحن لا يمكننا ضبط عنفهم»، ثم إنهم غادروا بعدما عملوا تهديدات وتقدموا بشكاوى حول هذه الأشياء إلى الأسقف، لكن مع مبالغات كبيرة جداً، وقالوا بأنه كان لدى الرهبان رجال مسلحين لمهاجمتهم، وأن خدام الرهبان قد ضربوهم بالهراوات، وبذلك أسرفوا بشكل وقح بتجاوز حدود الصدق، ولذلك أثير غضب الأسقف إلى أبعد الحدود، فهدد بانزال الدمار والفوضى على راعي الدير، وعلى الرهبان، وذلك بقدر ما يمتلك من قدرة، ولذلك أصيب راعي الدير بالحزن، وأخذ يفكر بالذي يمكنه أن يعمل، وبعد التقصي علم بأن دير

كانتربري يمتلك امتياز تلقي وسماع شكاوى الاستئناف أثناء فراغ الكرسي البابوي، لذلك لجأ إلى هذا العلاج، وتقدم بشكوى حادة حول الأذى الذي تحمله.

وبناء عليه، قام الأسقف وهو حائق جداً، فجمع في هارتفورد آدم أسقف كونور Connor وبعض رعاة الدير من الطائفة السوداء، الذين كانوا في أسقفيته، مثل رعاة رمزي Ramsey وبيتربورا، وخلع بشكل شائن راعي دير باردني المذكور، أثناء غيابه، ولأنه لم يكن هناك انسان آخر يجيب عنه، وعدّه مداناً ومتمرداً، وادعى بأن راعي الدير لم يسر بشكل نظامي باستئنافه، ولم يبدأ بالتقدم بالشكوى إليه، فهو كان أسقفه، كما أنه أعلم رهبان باردني بأنهم غير ملزمين بطاعته بأي شيء، بل يمكن عدّه وكأنه وضع جانباً وخلع، وذلك بالاضافة إلى كونه محروم كنسياً.

وعندما علم دير كانتربري بأن أسقف لنكولن قد خرق امتيازاته واعتدى عليها بهذه الطريقة الفاجرة، جمعوا خمسين كاهناً من الأسقفية المذكورة، وقاموا مع جمع كامل فيه خمسين راهباً— كاهناً، أو حتى أكثر من ذلك، والشموع مشتعلة، والأجراس تقرر، فحرموا كنسياً بشكل مهيب، الأسقف المذكور، أسقف لنكولن، على أساس أنه عاق، لابل هو متمرد نحو الكنيسة، التي من الواضح هو أسقف فيها، ولكن عندما تسلم الأسقف رسائل هذا الحكم، ألقى بها وهو غاضب أرضاً، وداس عليها، مما أدهش كثيراً الذين رأوه، لأن صورة القديس توماس كانت مطبوعة على الشمع، وقد وصل غضبه إلى حد الجنون، حتى أنه قال إلى جميع الذين سمعوه: «أنا لا أريد ولاأطلب بأن يقوم الرهبان بالصلاة بشكل معاكس من أجل نفسي، إلى السرمدية كلها»، وبعدما أثقل الرسول بكثير من الشتائم والاهانات، أمر باعتقاله، وكان خدمه مكرهين، وخائفين من فعل هذا، بسبب احترامهم للكهانة (لأن المرسل

كان كاهناً) فأمر بالكاهن نفسه بأن يطرد من البيت، مثل عبد شرير، أو بالحرى لص من اللصوص، الأمر الذي زاد من دهشة واستغراب جميع الرجال المستقيمين، والأشخاص المتعلمين، الذين كانوا في الدير، وبات الحال، إنه لو لم يكن هناك من سبب، سوى قيام الكاهن المذكور بشكل منطقي باتهام الأسقف بوضع أيدي العنف عليه، لكفى، لكن الأسقف المذكور أعطى قليلاً من الاهتمام إلى قرار الرهبان، لابل استخف به، فلم يتوقف عن ممارسة أعماله الأسقفية، وبالقيام بتكريس الكنائس، وبلا استمرار بالقيام بوظائفه وواجباته الأسقفية، ومن الممكن أن يكون القرار غير عادل، لكن رفضه للبلاط واستخفافه بالمحكمة، كان من الممكن أن يصبح ضده خطيراً جداً.

الفرنسيون يطالبون بوجوب انتخاب بابا

وأرسل الفرنسيون في الوقت نفسه رسائل رسمية إلى مجلس الشيوخ الرومان، يرجونهم بطريقة مقنعة ولطيفة ويخبرونهم برغبتهم بكل دقة وفعالية بأن يقوم الكرادلة بشكل نظامي بانتخاب بابا، وأن يتم تجهيزهم بإمكانية المداولات من أجل الكنيسة الكاثوليكية، في سبيل أن يكون لها راعياً يقدم لها العزاء، وإذا ما ثابروا على إهمالهم، فإنهم سوف يقومون من دون تأخير بانتخاب، ويتأمن حبر حاكم من هذا الجانب من الجبال، وهم سيقومون بأداء اليمين على طاعته، وقد أعلنوا عن هذا بحرية، معتمدين على امتياز قديم، تمثل بإذعان القديس كليمنت، وتسليمه إلى دنس Denis المقدس رسولية الشعب الغربي إليه، وبناء عليه نهض الكرادلة، وكأن الإثارة والتشجيع جاءت من الجانب الأول من قبل السيد الامبراطور، ومن الجهة الثانية من قبل الفرنسيين، فاجتمعوا مع بعضهم، وقدموا إلى روما، وهناك عقدوا مؤتمراً، وانتخبوا بابا.

رؤية نجوم تساقطت من السماء

وفي العام نفسه، في ٢٦- تموز، كانت السماء صافية تماماً، وكان المناخ نقياً جداً، ولذلك ظهر درب التبانة واضحاً، حسبما اعتاد أن يفعل في أكثر ليالي الشتاء الهادئة، وكان القمر في اليوم الثامن، وفجأة رؤيت نجوم تتساقط من السماء بسرعة، وتنقذف نحو الأمام ونحو الخلف، ولكن على عكس ما يحدث عادة، لم يكن هناك أي شرر اندفع بعدها، حسب عادات النجوم (الأمر الذي ذكر على أنه ظاهرة طبيعية في كتاب أرسطو «الظواهر الجوية»)، أي مثل البرق الذي ينتج بوساطة الرعود، وشوهد في حالة واحدة ثلاثين أو أربعين قد انقذت أو تساقطت، كما ظهرت نجمتان أو ثلاثة نجوم وهي تطير فوراً في قطار واحد، وعلى هذا إنهم إذا كانوا نجوماً حقيقية (الأمر الذي لا يعتقد أنه انسان عاقل) ما من نجم قد بقي في السماء، ما لم يعلن الفلكيون عن ماهية هذا النوع من الأشياء، وعما تنذر به، الأمر الذي يبدو غريباً وإعجازياً لكل من رأوه.

صيرورة السلطة البابوية وانتقالها إلى جماعة الكرادلة

أثناء شغور الكرسي البابوي

وفي الوقت الذي كان الزمان يدور فيه، ولأن كثيرين اعتراهم الشك ولم يكونوا متيقنين إلى من صارت السلطات البابوية، أثناء شغور الكرسي البابوي، وهل آلت إلى جماعة الكرادلة، أم لا، نحن نمتلك رواية مؤكدة حول هذه القضية، من الرسالة التالية، التي رأينا أنه من المناسب ادراجها في هذا العمل:

«بوساطة الرحمة الربانية، من كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة: رومانوس أسقف أوستيا، وفيليتري Velleti الأول، الذي له لقب القديس براكسس Praxes، وسينبولد Sinibald الذي له

لقب القديس لورانس في لوسينو Lucino، وستيفن، الذي له لقب القديسة مريم فيما وراء التير، والكهنة: رينير Reynier، الذي له لقب القديسة مريم في كوسمدين Cosmedin، وجايلز الذي له لقب القديس كوسماس والقديس دوميان Domian، وأوتو، الذي له لقب القديس نيقولا في سجن توليان، والشامسة، إلى الرجل المقدس راعي دير ويردون Waredon، صحة بالرب:

بالنيابة عن المعلم بطرس، كاهن كنيسة رئيس الرسل، وقسيس كنيسة موردون Mordon، ابن جيمس جون كابوت Capot، المواطن الروماني، لقد أعلن أمامنا، أنه منذ وقت طويل، منذ أيام مولانا البابا غريغوري، صاحب الذكرى المباركة، قد أثير بوساطة اقتراحات باطلة، فوجه رسائله إلى أسقف إيلاي، ذاكرةً إلى ذلك السيد أو إلى شخص آخر باسمه، بأن عليه عدم تقديم أي حساب عن موارد الكنيسة المتقدمة الذكر، وأن لايسمح بتقديم أي حساب، بل أن يحتفظ بتلك الكنيسة بين يديه، وأن يجمع مواردها ويتمتع بها، وأن يصرفها لصالحه ولسروره، وأن يضبط جميع المعترضين بانزال العقوبات اللاهوتية بحقهم، من دون استئناف.

ولقد قرر البابا المتقدم الذكر، بأنه ينبغي عدّ جميع الرسائل ملغية وفارغة، سواء أتم الحصول عليها من الكرسي المقدس، باسم السيد المتقدم الذكر، أو سوف يتم الحصول عليها من الآن فصاعداً، وبذلك ما من واحد ينبغي دعوته لتقديم حساب بموجب قوتهم، وما من واحد أيضاً يمكن أن يعاني من أية إجراءات قضائية بموجب سلطانهم، وإذا كانت أية إجراءات قد بدأت من خلالها، ينبغي عدها لاغية وفارغة، مالم يعملوا ذكراً كاملاً للمتقدم الذكر، وجرت إنابة عمدة يورك، ورئيس شامسة ريتشموند للقيام بأداء هذه الأشياء كلها، ولقد قيل بأن الأسقف نفسه، السائر في تنفيذ هذه الوصاية، قد فرض عليك

بوساطة رسالة، بأنه إذا كان ضمنان الكنيسة المتقدمة الذكر، أو أي جزء منها، صدف ووقع بين يديك، عليك أن تؤمن التخلي عنها وايداعها في بارنول Barnwell، ووضعها تحت وصاية رئيس الرهبان، والحافظ للدخائر للمكان نفسه، ومنذ ذلك الحين فلاحقاً، عدم تقديم حساب، ولا بشكل من الأشكال إلى السيد المذكور، أو إلى أي شخص باسمه، وذلك فيما يتعلق بموارد الكنيسة المتقدمة الذكر، بل يتوجب أن تودع هناك، وأن أي حساب يقدم حول الأمر نفسه، يتوجب أن يكون وفقاً لرغبات الخبر الأعظم.

وبناء عليه لقد طلب منا السيد بطرس المتقدم الأكبر بتواضع، أنه يرى أنه غير جدير، وضد المنطق، إنزال عقوبة بواحد برىء كلياً من التهم التي قدمت ضده، إننا سنتلطف برحمة منا بتقديم حل موائم حول هذه القضية، ونحن الآن، الذين بين أيدينا راسية السلطة، أثناء شغور الكرسي الرسولي، نرغب في تقديم رعاية وإحسان خاص إلى السيد المتقدم الذكر من أجل استقامته، ونأمركم بدقة، بموجب سلطة هذه التقديمات بأن تقدموا ترضية كاملة إلى السيد المذكور أو إلى نائبه، أو رسوله، فيما يتعلق بضمان الكنيسة المتقدمة الذكر، وأن تأخذوا منه سلطات الوصاية المتقدم ذكرها، وأن تقدموا الآن حساباً كاملاً، حسبما أنتم ملزمون، دون الاهتمام بالرسائل المتقدم ذكرها، أو بالاجراءات القضائية التي بدأت حول الموضوع، ولكي لاتعود إلينا وصايتنا ملغاة وفارغة، ليكون معلوماً من قبلكم، بأننا أعطينا رسائل إلى رئيس الرهبان الدومينيكان في نورويك، وإلى بطرس دي أرشي Arche، كاهن كنيسة القديس أنجليوس Angelus أوف فيرينتينيوم Ferentinum، لضبطكم بوساطة العقوبات اللاهوتية، من أجل الغاية أعلاه، فيما إذا كان ضرورياً، انه سيفعل ذلك. صدر إلخ، في سنة ألف ومائتين وثلاث وأربعين لتجسيد الرب، حيث الكرسي الرسولي شاغراً.

تحدي إيرل التخوم للمبارزة

وفي هذه الآونة، وجد إيرل التخوم، أن الحظ معاكس له من كل جانب، حيث تم هجرانه كلياً من قبل ملك انكلترا، الذي كان قد تخلى عنه بشكل شرير، كما كان قد استحق أن يكون مهجوراً من قبل ملك فرنسا، ولذلك تعرض للاتهام بشكل علني، وجرى تحديه من قبل فارس فرنسي جريء، وكان ذلك بحضور ملك فرنسا وأخيه ألفونسو، كونت بواتو، ولهذا السبب جرى حجز الايرل المذكور، وكأنه قد وضع في سجن، ومع أن الايرل المذكور أنكر بثبات التهمة، فإن الجندي المتقدم الذكر، أقدم على الفور، وفي الطريقة الفرنسية المعتادة، فسلمه قفازه، عارضاً عليه البرهنة على ذلك بجسده أمام البلاط، وذلك وفق رغبة البلاط الملكي، طالباً تقديم العدالة إليه عن طريق المبارزة، تماشياً مع شريعة الفرنسيين، الموافق عليها منذ القديم، والتي أقسم الآن قضائياً عليها من قبل الملك الفرنسي.

وأخذ الايرل القفاز، بمثابة تعهد بالقتال، واعدأ بالدفاع عن نفسه بالقتال ضد الرجل الذي ألصق تلك التهمة به، وعندما أطلق سراح الابن الأكبر، لايرل التخوم، من سجن الملك، وسمع بهذا، ثارت عاطفته، وقال على الفور متعجباً: «إذا كان يرضيك، فإنني سوف أقاتل من أجل أبي، وأبين براءته، ضد أي انسان في العالم، لأنه سوف يكون عملاً وحشياً، أن يقوم انسان صاحب سلطة كبيرة، وسن متقدم بالقتال مبارزة»، لكن ألفونسو، كونت بواتو أجاب: «ليس كذلك، هو سوف يقاتل من أجل نفسه، ويظهر نفسه بشكل واضح أنه عجوز مسن، ملطخ بعدد مضاعف من الجرائم».

ثم جرى تحديد يوم، ومكان للقتال، وبعد ذلك غادروا، وبناء عليه، عندما سمعت الكونتيسة بهذه الأخبار المحزنة، وهي التي كانت من قبل ملكة انكلترا، واسمها ايزابلا، وكانت مدركة

لكثير من الأعمال السيئة التجأت إلى دير للراهبات في فونتيفرولت Fontevrault، ولكن حتى هناك، في قلايتها السرية، تحت الرداء الديني، لم تكن بالفعل سالمة، لأن عدداً كبيراً من الفرنسيين والبواتيين طاردوها بكرامية لاهوادة فيها، قائلين بأنها يتوجب تسميتها بـ «يزبل» Jezebel الشريرة، وليس بـ «إيزابلا»، لأنها زرعت بذور كثير من الجرائم.

انقاذ الإيرل نفسه من خطر الموت من قبل أصدقائه

وانتشرت الآن الأخبار بسرعة، بأن إيرل التخوم، سوف يقاتل في مبارزة مفردة ضد مبارز جريء، وهو إما سوف ينظف سمعته، أو سوف يعاقب قضائياً، وعندما بدأ الخبر ينتشر بين الأوساط العليا الفرنسية، بأنه سوف يهلك في المبارزة، وسوف يجري اعدامه بموجب القانون الفرنسي، وأنه بالتالي سوف يقوم أولاده، وأقرباؤه بالشورة، ولسوف يتقمون من مثل هذه الوحشية، ويشكلون مؤامرة لقتل الملك الفرنسي، إما بالسم أو بالتآمر، أو باغتيال مكشوف، أو في جميع الأحوال، الذين سوف يتولون بواتو ويستحذون عليها سوف يشورون بموجب مثل هذا السبب، من أجل تجديد الحرب، وستتم خسارة الحرب، من دون حذر، مثلما ربحوها تحت حكم ملك ضعيف ولين، ورأوا أن البواتيين متقلبون مثل ديك الأنواء، لذلك حزن أصدقاء الفريقين، وكذلك فعل الرجال المخلصون، ولهذا بذلوا غاية جهودهم للتدخل، وهكذا تمكنوا من تهدئة غضب الملك مع أخيه، بحيث أعطيا التشريف المستحق، وجرى انقاذ القانون، وأظهرت الرحمة، وقاموا بإرضاء المتحدي، وتمكنوا بحسن تصرفهم من تحرير إيرل التخوم من امكانية الوفاة بشكل مهين، وبناء عليه غادر البلاط، وهو مغلول بروابط أقوى مما ارتبط به قط بالسلطات الفرنسية السامية.

الملك الإنكليزي يوقف نفقاته التي بلا فائدة

وصار الآن ملك انكلترا، وإن جاء ذلك متأخراً، متأكداً بوساطة كثير من المؤشرات الواضحة، كما أنه تعلم بالتجربة، بأن عليه تجنب دهاء ومكر البواتيين، ولذلك استهدف منذ ذلك الحين فصاعداً، أن يضع في خزائنه الخاصة الأموال التي أنفقها بشكل مجنون عليهم في كل عام، لأنه كان قد أعطى سنوياً إلى هؤلاء الذين ضحكوا عليه، لابل ضحكوا عليه واستخفوا به، سبعة آلاف استيرلينية من خزائنه المنهكة، التي زودته بها انكلترا، وتفصيل ذلك: خمسمائة إلى رينالد دي بونز، والمبلغ نفسه إلى وليم رئيس الأساقفة، وأيضاً المبلغ نفسه إلى فيزكونت دي ثوارث Thouars، وإلى عدد كبير آخر من نبلاء بواتو، الذين لا تستحق أسماؤهم الذكر، لابل ولا حتى الكتابة، حتى وصل المبلغ إلى العدد الذي ذكرناه من قبل، وذلك إلى جانب الأعطيات التي منحها إلى كونت دي لي مارشي (الذي دعاه الملك بأبي الأكثر محبة)، والذي نال بالخصص أكثر من جميع البواتيين الآخرين، وبالخصصة نفسها تلقى النسبة الأعلى، أما بالنسبة لزوج الكونت، فقد اعتاد الملك، بسبب الأمومة، أن يقدم إليها أعطيات استثنائية مسرفة بقدر الإمكان، وكانت كل هذه الفوائد التي حصل عليها الملك.

عودة الملك إلى إنكلترا

وفي هذا الوقت أيضاً، وبالتحديد في حوالي عيد القديس رمي Remy، كان ملك انكلترا قد قام بتسوية الذي توجب عليه تسويته في غسكوني، وعهد بحكومة البلاد إلى نيقولا دي مولي، الذي كان جندياً شجاعاً جداً وحكيماً، وذلك بعدما عمل منه قهرمان غسكوني، وبعد هذا أخذ سفينة، وتمتع برحلة جميلة عبر القنال، وعاد إلى انكلترا، فنزل في بورتماوث في الخامس والعشرين من أيلول، وبناء عليه أعلن على الفور إلى رعاة الديرة، وإلى رؤساء الرهبان، بأن عليهم شراء

خيول، وعربات تجر بوساطة فرسين، وخيالة يسرون في الأمام، للإعلان عنه بموجب حقهم الضروري بالمرور، لأنه كان تماماً مجرداً من مثل هذه الأشياء، و ذلك من أجل أن يتمكن الانكليز من أن يعلموا مباشرة، بوصول ملكهم، وعندما وصل إلى وينكستر، جاء إلى هناك تقريباً جميع نبلاء انكلترا لاستقباله وتحيته، فأعطى أوامر بوجوب تزيين المدينة أثناء دخوله، بالمعلقات، والستائر، والأكاليل، والشموع المشتعلة، وأن على المواطنين استقباله في ثياب العيد، ويتوجب كذلك قرع أجراس المكان بسرور، وعلاوة على ذلك، تدبر الإعلان بوساطة صوت المنادي، وبوساطة أسرع الرسل، بوجوب خروج أربعة من أكثر المواطنين أهمية، أو البورجوازيين من كل مدينة أو منطقة، لاستقباله، وكل منهم قد ارتدى ملابس ثمينة، وامتطى على مطية غالية، وهكذا بناء على أوامره، ومرسومه، الذي فرض طاعته، أرغم كثيرون على الاسراع من أقصى المناطق الانكليزية لاستقباله، ولم يكن ذلك من دون نفقات عالية ومتاعب جمة، ولدى وصوله إلى لندن، خرج الناس إلى استقباله وهم يرتدون ثياب العيد، ويمتطون خيولاً هي الأغلى ثمناً، وهي مجهزة حديثاً، ومشوا لاستقباله في مسيرة، وكل واحد منهم يتبارى مع الآخر، ليكون الأول في استقبال الملك آنذاك، الذي حيوه باحترام، وريح كثيراً بوساطة هداياهم المتنوعة والتمينة، ولدى حلول الاحتفال بعيد القديس إدوارد، أي في الثالث عشر من تشرين الأول، أمر الملك، بأن يرتدي الرهبان ثيابهم اللاهوتية، وأن يمشوا أمام المسيرة لاستقباله، وهم يحملون كميات كبيرة جداً من الشمعدانات، وهكذا استقبل بشكل اسطوري وبفخار، وبأبهة كانت مترفة.

انتخاب انوسنت الرابع بابا

وجرى في هذا العام أيضاً، في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، انتخاب اللورد كاردينال سينيبولد Sinibald بابا، بعدما

ظل كرسي البابوية شاغراً لمدة سنة وتسعة أشهر، وجرى تكريسه في يوم عيد الرسولين بطرس، وبولص، ومنح اسم انوسنت الرابع، وبعد التكريس قام مباشرة بتثبيت القرار الذي كان قد صدر ضد الامبراطور فردريك، من قبل سلفه غريغوري، وقد عمل بابا في أناغني Anagni، ولذلك انزعج الرومان وامبراطورهم، وكأنهم أصيبوا بجراحة مضاعفة، فاستعدوا لاضطهاد البابا الجديد، والتأمر لنصب المصائد ضده، وصاروا أكثر استعداداً لأن الامبراطور قد اعتمد على انتخاب بابا يكون موافقاً له، ولذلك وضع الامبراطور حراسات يقظة على الطرقات والموانئ، ووزع كذلك الغلايين في البحر، حتى لا يتمكن الحاملين للمراسيم الابحار والذهاب مسرورين بالسفر من دون إعاقة، وليس بعد مضي وقت طويل من هذا اعتقل الامبراطور اثنان من رهبان طائفة الفرنسيسكان، وكانا يحملان بشكل سري خبيث — بناء على أوامر من سادتهم — رسائل موجهة لإثارة الحرب بين بعض النبلاء، وبشكل رئيسي ضد الامبراطور، فأمر بشنقهما على الفور.

أعمال عدوانية من الداوية ضد الاستبارية

وفي هذه الأثناء، اضطهد الداوية بحدة الاستبارية في الأرض المقدسة، إلى حد عدم السماح لهم بحمل موتاهم إلى خارج بيتهم (الذي كان في عكا) من أجل دفنهم، وعلاوة على ذلك، قام الداوية أنفسهم، كراهية منهم للامبراطور، بطرد الرهبان التيوتون التابعين لكنيسة القديسة مريم، ونفيهم من مناطقهم، وبذلك أنزلوا على رؤوسهم غضب الرب، ورفعوا من شأن آراء أعداء الصليب.

ارفضاض اجتماع الهيئة الكهنوتية العامة للسسترشيان

وفي هذه الآونة، وفي التحديد بعد ارفضاض اجتماع الهيئة الكهنوتية للسسترشيان، قدم إلينا رعاة الديرة من اجتماع الهيئة الكهنوتية،

وأخبرونا بشكل صادق بالأخبار التالية، التي أفادت بقدوم ملك فرنسا إليهم، وأنه على عكس عادات الرومان، كتب إليهم — أي إلى الهيئة الكهنوتية — مولاهم البابا، يلتبس منهم بعبارات لطيفة، بأن يقوموا من ذلك الوقت فصاعداً، بتقديم صلواتهم لصالح الكنيسة المتداعية، ومثل هذا أيضاً طلب منهم بعض الكرادلة وبعض الشخصيات الأخرى، الأعطية الثمينة نفسها، أنهم في قتالهم من أجل الرب، يمكنهم خدمة الكنيسة، وبشكل مؤكد أكثر يمتنون وضعهم، ولأنهم يعلمون أن رعاة ديرة تلك الطائفة، قد أعيقوا في العام المنصرم، بسبب الحرب، من القدوم إلى اجتماع الهيئة الكهنوتية، يمكنهم الآن القدوم بأعداد أكبر إلى الاجتماع العام للهيئة الكهنوتية، وقد طلب ملك فرنسا مساعدتهم، وصلواتهم بشكل أكثر إخلاصاً من الآخرين، لأنه تصور، أنه منذ ذهابه إلى الحرب في بواتو، قد ضعفت صحته كثيراً، وأنه فقد كثيراً من نشاطه الجسدي، هذا وأرسل ملك انكلترا لوحده، رسلاً خاصين إلى هناك، طالباً على الفور مساعدات مالية منهم، وكان الرهبان الذي وجدوا هناك من كل طائفة سستريشان شعب من الشعوب تحت الشمس، فمن هؤلاء جميعاً الذين كانوا حضوراً، استحق الملك الانكليزي لوحده الرفض دون نيل فائدة، لكن مع اضطراب كبير ومضايقة للانكليز الذين كانوا حضوراً، لأنه طلب صوفهم من جميع رعاة الديرة المقيمين في انكلترا.

أسقف لنكولن ورهبان دير كانتربري يرفعون شكواهم إلى البابا

رسالة البابا

أثناء هيجان تلك الأيام، قام أسقف لنكولن من الجانب الأول، ورهبان دير كانتربري من الجانب الآخر، بإرسال رسل خاصين، كانوا كهنة مخلصين، إلى البلاط الروماني، من أجل تسوية النزاع الذي نشب بينهم، وكان القرار الذي جلبوه معهم حول هذا الموضوع هو التالي:

«من أنوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أبنائه المحبوبين رهبان ورئيس كنيسة كانتربري المسيحية، تحيات ومباركات رسولية:

ذكرت الشكوى التي تقدم بها إلينا أخونا المحترم أسقف لنكولن، بأنكم ادعيتُم ممارسة السلطة عليه وعلى الذين تحته، بالدفاع عن قضاياهم وعن استئنافاتهم، وأنكم أيدتم هذا الإدعاء بالمحاجة بأن الادارة القضائية للمطرانية هو عائد إليكم، أثناء شغور كرسي كانتربري، في منطقة كانتربري، وذلك بمثابة امتياز من الكرسي الرسولي، وكذلك من الامتياز العام، وهو الامتياز الذي لم تمارسونه حتى الآن، ونظراً لتصوره لحاق ضرر به، وقيام مصاعب ضده شخصياً، أحال القضية إلى الكرسي الرسولي، حيث من الصعب تقرير إلى من تعود المقاطعة، أثناء شغور الكرسي المطراني، ولقد أمسكتُم بهذه الفرصة، واستخدمتموها حسب رغباتكم، فأنزَلتم به وبالذين تحته قرارات التعليق والحرمان الكنسي، وبناء عليه التمس منا بتواضع، أن نزوده في هذه القضية بمواساة أبوية، واستجابة، ورغبة منا في منصبنا بتقديم النجدة إلى الأسقف المذكور، وإلى الذين تحته، ولكي لانخرق امتياز انسان آخر، نحن نأمر جماعتكم بموجب الكتابات الرسولية، أن تقوموا خلال ثمانية أيام بعد استلام هذه الرسائل، من دون تسبب الأذى إلى أي من الطرفين، بسحب القرارات المتقدمة الذكر، في ظل ضمانة مناسبة، وعلاوة على ذلك أعطينا أوامر برسائلنا إلى أخويننا: رئيس أساقفة يورك، وأسقف درم، بأن يقوموا على الفور، ومن دون تسبب الأذى إلى أي من الطائفتين، بحل القرارات المذكورة، وكذلك فيما يتعلق بقضايا الإدعاء، وأيضاً قضايا التملك، وضبط جميع الاستنكارات بوساطة العقوبات اللاهوتية، من دون استئناف. صدر في أناغني في اليوم الثالث والعشرين من آب، في السنة الأولى من بابويتنا».

تثيت أسقف نورويك أسقفاً لوينكستر

وفي الوقت نفسه جرت تسمية أسقف نورويك لتسلم أسقفية وينكستر، وقام دون المبالاة بمعارضة الملك ومقاومته بالانتقال إلى ذلك الكرسي، وكان ذلك بوساطة البابا، الذي آثره ووجد الخطوة نحوه لديه.

تثبيت بونيفيس في رئاسة أساقفة كانتبري

وفي هذا الوقت بالذات جرى تثبيت بونيفيس، خال الملكة، الذي كان منتخباً لبلي Bellay، ومن شعب بروفانس، تثبيته من قبل البابا، في رئاسة أساقفة كانتبري، وذلك من خلال الضغوط الشديدة للملك، مما أدهش الكثيرين، وفي الحقيقة قام الملك في سبيل أن يجعل رفع بونيفيس إلى رئاسة أساقفة كانتبري أكثر سهولة، بكتابة كتاب، بناء على تحريض من الملكة، حيث أسرف كثيراً في إطرائه ومدح أخلاقه، وعلمه، وكرم بونيفيس المذكور، مع أنه كان غريباً بالنسبة له، ووضع خاتمه عليه، وجعل تقريباً جميع الأساقفة الانكليز يفعلون الشيء نفسه، وكان راعي دير القديس ألبان الوحيد الذي مال إلى تجنب تقديم مثل هذه الشهادة الزائفة، ذلك أنه عندما شاهد ختم راعي دير ويستمنستر مثبتاً، قال بأنه لم يكن من المتصرفين بشكل جيد نحوه، لأنه من المؤكد أن راعي دير القديس ألبان هو الأجدر، وذكر امتياز «على أساس أن القديس ألبان كان أول شهيد في انكلترا، ولذلك فإن راعي ديره هو الأول في الطوائف وفي المرتبة بين جميع رعاة الديرة في انكلترا» ولذلك يتوجب أن يظهر خاتمه أولاً، ولذلك ترك المسألة تمر حتى جرى بحث حولها، وأرسلت هذه الكتابة إلى البابا، من أجل أن يكون كامل المعرفة حول فضائل بونيفيس.

استخراج ذهب وفضة من اليهود

وفي حوالي الوقت نفسه استخرج الملك من اليهود التعساء كثيراً،

فدية كبيرة من الذهب والفضة، ودون أن نتحدث عن الآخرين، استخرج من يهودي واحد، هو هرون اليوركي أربعة ماركات من الذهب، وأربعة آلاف مارك من الفضة، وتسلم الملك من كل يهودي سواء أكان رجلاً أو امرأة، الذهب الذي كان بين يديه، وأصبح هذا من الملك بمثابة نوع من جمع الضرائب، لكن الفضة جرى تسلمها من قبل آخرين لصالح الملك، وقد تسلم هدايا ثمينة من رعاية الديرة، ورؤساء الرهبان وفق هذه الطريقة، وكان إذا لم يعجبه شيئاً ولم يرضه، يرفضهم، ويستخرج أعطيات أكثر ثمناً، وأكثر إرضاء للمقام الملكي، وكل من رفض، كان لا يجده ملكاً، بل طاغية.

انتخاب وولتر أوف سفيلد أسقفاً لنورويك

هذا وعلم رهبان نورويك بتثبيت اللورد دي ريل Rale، الذي كان مرشحاً لأسقفية وينكستر، والذي كان أسقفهم، فاستمطروا النعمة من الروح القدس، وانتخبوا بالاجماع ليكون أسقفاً لهم، وراعياً لأرواحهم المعلم وولتر أوف سفيلد Suffield، وكان رجلاً صاحب علم كبير، ومتميزاً في أخلاقه، وبسمعته، وبأصله وجرى تقديمه أصولياً إلى الملك، وكما جرت العادة أعطى الملك موافقته لكل من المنتخب والانتخاب، لأنه لم يكن هناك من سبب للاعتراض، ومع ذلك أجل لبعض الوقت منح خطواته الكاملة، وذلك حتى يصبح متأكداً بمعلوماته حول تثبيت أسقف وينكستر.

وصول رائع لبيترايس كونتيسة بروفانس

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في الأول من كانون الثاني، نزلت في دوفر بيترايس كونتيسة بروفانس، وأم ملكتي انكلترا، وفرنسا، وكانت امرأة ذات طلعة بهية، وحكيمة ومتحضرة، وجاء قدومها بناء على دعوة من الملك، الذي دفع نفقات رحلتها، وقدمت في أبهة عظيمة مع كثير

من الاحتفالات الفاخرة، ومضى كثير من النبلاء الانكليز لاستقبالها وذلك بموجب أوامر الملك، وجاء ذلك على شاطئ البحر، من أجل تجنب كل تأخر مختلف عليه، وفي ثمانية عيد القديس-مارتن، وهو التاريخ الذي كان من المتوقع وقتها لوصول الكونتيسة المذكورة إلى لندن، أمر الملك بوجوب تزيين مدينة لندن بالمعلقات، والستائر، وبمختلف أنواع التزيينات الأخرى، وذلك شروعاً من الجسر إلى ويستمنستر، وأن يزال من أمام ناظري العابرين خلال المدينة المعينات من الأخشاب، والطين، والأوساخ، وجميع أنواع المعينات، وقد جلبت معها ابتتها سينشيا، حتى تتحد بالزواج بالايرل رتشارد، وجرى ارغام كثير من النبلاء من قبل الملك، على القدوم من المناطق النائية للمملكة، لابل حتى من الأجزاء القائمة على حدود سكوتلندا، لاستقبالها وهي على طريقها.

موت رالف تشينديوت

ولفظ في اليوم نفسه روحه رادولف تشينديوت Cheinduit الذي كان المضطهد القاسي والذي لايعرف الملل، لكنيسة القديس ألبان، والمغتصب الوقح لامتيازاتها لمدة ثلاثة أعوام، وأنا أقول هذا لأن جميع الأتباع المؤمنين بالمسيح تمكنوا أن يروا بينة المعجزة، والانتقام العادل، الذي أنزل به ألبان الشهيد الرائد لانكلترا، وفي الحقيقة، بعد بقائه لمدة ثلاثة أعوام تحت العقوبة، ولأنه بوقاحة استخف بمفاتيح الكنيسة، وقام وهو في قصر ويستمنستر، وهو يهز رأسه بطراً، فقال لكثيرين كانوا قد اجتمعوا هناك: «ها، مالذي تقولونه حول رهبان القديس ألبان؟ إيه، مالذي تقولونه حولهم؟ لقد حرموني كنسياً منذ وقت طويل، مراراً وبشكل فعال، إلى حد أنني الآن أفضل حالاً بسبب ذلك، ووضعي جيد، وقوي وثابت، حتى أنه يصعب عليّ القعود في سرج فرسي، عندما أركب على ظهره»، وما أن كاد ينهي كلامه حتى

أصيب فجأة بالضعف وبفقدان القوة، وصار في وضع ميثوس منه، ولا يكاد يستطيع التنفس، وقد حمل إلى البيت، وهو على وشك لفظ أنفاسه وأظهرت الحشرة التي تقدم على الموت نفسها، وقتها أظهر اللطف العظيم للشهيد القديس ألان نفسه، ففرض بمشيئة الرب، الذي لا يرغب بهلاك أي إنسان، قبل أن يهتدي، أن تمكن رالف من التنهد بعمق، وأمر بأن يدعى بسرعة كبيرة بعض الرهبان، الذين كان يعرفهم أكثر من الآخرين، حتى يخضع لإرادتهم، وليقدم لهم ترضية كاملة عن الاعتداءات التي هو مجرم بها نحوهم، الأمر الذي تقبلوه بكل صلاح، من أجل أنه إذا مات، لا يسقط في متاهة اليأس ولكي لا يهلك بذلك وهو مدان وملعون، بسبب جرائمه، وقد منحوه منفعة التحليل، عندما وعد بعمل تكفير عن الأذى وعن الشرور التي اقترفت من قبله، ومثل هذا أيضاً عانى قليلاً أيضاً عدد من الآخرين، كان من بينهم فرسان أقوياء، ومغتصبين، ومزعجين، معتدين على امتيازات كنيسة الشهيد المذكور، كما عانى آخرون من عقوبات أكثر شدة بوساطة حكم الانتقام الاعجازي، ويمكنني أن أضرب مثلاً بالان دي بيكل Alan de Beccles رئيس شامسة نورويك، وآدم بن وليم المسؤول عن مقعد العدالة الذي أصيب بموت مفاجيء.

وفي العام نفسه، في يوم عيد القديس كليمنت، اقترن الايرل رتشارد بزوجه سينشيا، ابنه ريموند كونت بروفانس، وأخت الملكة، وكان ذلك في ويستمنستر، وكان هناك احتفال عرس بهيج، واحتفال عظيم بين الضيوف من النبلاء، حيث مامن شيء كان من الممكن مقارنته بفخامة العناية بالضيوف، وسوف يحتاج ذلك إلى رسالة طويلة وشاقة لوصف ذلك، ومن الممكن لي تلخيص الكثير من الأقوال ببضع كلمات، فقد كان في مكان الطبخ ثلاثين ألف صحن كانوا جاهزين لتقديمهم إلى الذين جلسوا وراء الموائد للطعام، وجرى عرض أكثر العروض روعة

بحضور الملك، والاييرل العريس الجديد، والملكة واختها سينثيا Cynthia، التي كانت عروسة شابة، وقد جرى تغيير اسمها إلى سينثيا، وييترايس كونتيسة بروفانس، وشخصيات نبيلة أخرى، كانت أكثر من أن تعدّ، وكانت في الوقت نفسه أعين المشاهدين وعقولهم مفتونة بسرور أمام أبهة دنيوية لم يسمع بمثلها من قبل، فقد جرى عرض كل نوع من أنواع المباهج والمجد، في أشكال الناس المغنين المرحين، وأنواع ملابسهم المتنوعة، وعدد الصحون، وحشود المحتفلين، ولكن هذه كلها جاءت برهاناً كيف أن مثل هذه المسرات زائلة وعشبية، وكم هو غير مشرق ومخادع في هذا العالم، وذلك عندما ينقشع فجر اليوم التالي، وتكون هذه الأعمال المتنوعة مثل سحابة عابرة.

منع أسقف وينكستر من الدخول إلى مدينته

وفي هذه الأيام كانت علاقات الملك سيئة مع وليم دي ريل، أسقف وينكستر، لأنه تصرف بذاته، وكأنه كان أسقفاً حقيقياً، ونظر إليه وكأنه كان كذلك، وهكذا دعي، إلّا من قبل بعض الرهبان في وينكستر، ولذلك رفض الملك قبوله لنيل القبلة، أو لاستقباله بأية تحيات صديقة، ومع ذلك فإن هذا الرجل بعد وصوله من المناطق الأجنبية، جرى الاحتفاء به بالتهاني المدنية، وبالتحيات، وسلم عليه جميع نبلاء انكلترا تقريباً، وخاصة الأساقفة بقبلة، وأقاموا محادثات مقبولة معه، وشعر الأسقف بنذير سوء من هذا العمل، ورأى الأسقف بوضوح مثل ضوء النهار، بأن غضب الملك المتجذر، قد ازداد قسوة، وتحول إلى كراهية دائمة، فأخفى نفسه بين أصدقائه، الذين اعتقد بأنهم يميلون لأن ينالوا حظوة البلاط، وذلك حتى يزوره اليوم الذي سوف ينبع من عليين، وغضب الملك قد تلاشى، لكن الملك ثابر على غضبه، وأقام مراقبة دقيقة على عزب الأسقف، وبذلك بوساطة موظفيه، الذين كما كانت عاداتهم، تجاوزوا كثيراً أوامر الملك في إلحاق الأضرار وسوء معاملة أهل

الأسقفية، بكل نوع من أنواع الإذلال، وكانوا فقط متشوقين لنيل الربح لأنفسهم، وعندما قدم الأسقف المتقدم الذكر لزيارة الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر، ورغب بدخول تلك المدينة، أمر الملك بحراسة الأبواب بدقة، وقام رئيس رهبان وينكستر — لو أنه استحق أن ينظر إليه على أنه رئيس رهبان، أو أن يدعى بمثل هذا الاسم — بصحبة شطر كبير من الرهبان بعمل تأمري، ورفعوا كعبهم ضد أسقفهم، حيث أكدوا بشكل معلن، أن كل من يقدم له عوناً أو نصيحة، سوف يعدّ عدواً مكشوفاً لمولانا الملك، ولسوف ينال عقوبة حادة لقيامه بذلك، ولذلك كان هناك انشقاق بين كل من الرهبان، ورجال الدين العلمانيين، ونشب صراع شديد، وصل إلى حد سفك الدماء،

موت رئيس رهبان وينكستر

لفظ هذا الرجل التعيس، الذي حمل المظهر الخارجي لرجل دين، وصار يدعى رئيس رهبان بناء على أوامر الملك، وذلك بهدف الاشراف على عدد كبير جداً من الرهبان، الآن أنفاسه، في وسط هذه الاضطرابات التي أثارها.

زيادة الملك يومياً من اضطهاد أسقف وينكستر

ولم يكن من الممكن ضبط الملك بأي تقدير مهما كان نوعه، بل تابع مساقاً بإرادته، واستمر في إلقاء يده أثقل فأثقل على الأسقف، وعلى ممتلكات كرسية، وأعلن علانية بأنه لا يجوز لانسان تقديم الرعاية لبيت وليم دي ريل، الذي ادعى بشكل زائف (هكذا قال) فجعل الناس تحييه بمثابة أسقف لوينكستر، كما منع الناس من التعامل معه، أو تزويده حتى بالضرورات الحياتية من أطعمة، وأعلن أن أي انسان سوف يساعده بمثل هذه الطريقة، سوف يعدّ بمثابة عدو للملك وللبلاد، كما أرسل الملك رسائل إلى أكسفورد، لتشويه سمعة الأسقف

نفسه في أعين الجامعة، وأكد أنه حصل على موافقة بوساطة تصريحات زائفة من مولانا البابا، بوجوب تسميته لأسقفية وينكستر ونقله إليها، وأن الملك سوف يكشف، وسوف يبرهن بوضوح، ويعرض جميع أعمال الخداع التي مارسها أمام البلاط الروماني، وأمام مملكة انكلترا، وكي يثبت هذا، أحضر بعض المستدرين الرومان ليكونوا مراسلين له لحمل رسالته هذه، كما أمر بمصادرة أسقفية نورويك، حتى يحرم الأسقف المتقدم الذكر من جميع سبل المواساة، ويصبح محاصراً من كل جانب، وعلاوة على ذلك، أرسل مولانا الملك إلى البلاط الروماني ضد الأسقف المتقدم الذكر: ثيوبولد، وكان راهباً من ويستمنستر، ورئيس رهبان هيرلي Hurley، وأيضاً المعلم الاسكندر، وكان محامياً كنيته المدني، بقصد أن يقوم هذان الاثنان، بوساطة التوسل، أو بوساطة الرشوة، أو بأي طريقة أخرى بقدرتهما، حتى يتمكنوا من خلع الأسقف من وظائفه ومناصبه.

وضع مدينة وينكستر تحت الحرمان من شراكة المؤمنين

ووصل في الوقت نفسه الأسقف وهو حافي القدمين، ولباس متواضع إلى واحد من أبواب المدينة، ثم انتقل بعد ذلك إلى الأبواب الأخرى في خارج المدينة، وطلب السماح له بالدخول إلى كنيسته، لأنه وجد لدى وصوله أن جميع الأبواب قد أغلقت ضده، وواجهه عمدة المدينة وتصدى له مع ضباط الملك، وبوقاحة رفضوا السماح له بالدخول، وعلاوة على ذلك أضافوا إهانة إلى إهانة، وعند ذلك تفوه الأسقف بقرار الحرمان من شراكة المؤمنين على المدينة، وعلى الكنيسة الكاثدرائية، وعلى الكنائس الأخرى، وغلّ بالوقت نفسه بأغلال عقوبة التكفير المربعة جميع الرهبان الذين يتبعون رئيس الرهبان المذكور أو يؤيدونه، وطعنهم بذلك ومعهم الملك.

خسارة الامبراطور مدينة فيتربو وأماكن أخرى في الأحواز

جعلت أعمال الظلم، التي مورست في ذلك الحين، من قبل رجال الملك، على سكان فيتربو، تلك المدينة مع المنطقة المحيطة بها، تقرر التحول إلى الرومان الذين أيدوا البابا، وتحت ثقل الظلم، ونير عبودية غير معتادة، وشدة المعاناة تحولوا بأنفسهم وبمدينتهم، وانتقلوا إلى الحزب الآخر، ولجأوا إلى الكاردينال رينير دي فيتربو، حتى يقدم إليهم العون والمشورة من أجل أن يتمكنوا من الدخول بتحالف مع الرومان، ونسوا جميع الخلافات القديمة، وصاروا شعباً واحداً، حتى يكونوا أقوى للثورة ضد أعدائهم، وحولوا أنفسهم بشكل أكثر ضماناً وانتقلوا من الأسى الامبراطوري، بوساطة تجنبه على هذه الصورة، وحدث بناء عليه من خلال عمل متواصل وجهد كبير قام به رينير المذكور، فحاك مؤامرة يجري تنفيذها فوراً وبشكل سري، وبموجبها وصل الرومان بأعداد كبيرة، واعتقلوا بحسن تدبير جميع الحرس الامبراطوري، واقتادوهم، بعدما اتخذوهم أسرى، عائدين إلى روما، حتى يسجنوا هناك، وأبرمت معاهدة بين الرومان، وبين شعب فيتربو، وأحلوا محل الاداريين القضائيين الامبراطوريين أناساً من قومهم، أي من الرومان ومن أهل فيتربو، وكذلك فعلوا بالنسبة للأبراج والقلاع والأماكن الحصينة، وهكذا بات الرومان في عدائهم للامبراطور فيتربوين، والفيتربوين روماناً.

وعندما سمع الامبراطور بهذا اغتياز كثيراً، ومضى مسرعاً مع قوة مسلحة كبيرة، وحاول طم الخنادق بالبراميل، والأعشاب، وقطع الأخشاب، وأكوام التراب، وأراد شق طريقه بالقوة، حتى يتمكن على الفور من قتل جميع السكان، وشاهد السكان من الأعلى ما كان يقوم به، وما هو عازم عليه، فصدوه بفعالية، ومنعوا من الداخل أعداءهم وأحبطوا محاولاتهم، هذا من الداخل، أما من الخارج، فقد وصل الرومان بأعداد كبيرة، وتمكنوا بقوة من إحباط محاولات الامبراطور،

وكانت هناك معركة، سقط فيها كثيرون من جانب الامبراطور، وكان هناك عسكري مشهور من جانب الامبراطور، كان مزيناً بدروع خاصة، فهلك بشكل تعيس، مما سبب حزناً كبيراً للامبراطور، ذلك أنه أصيب برمية قوس زيار، وارتفع تهليل وصراخ أعدائه لسقوطه، وصرخوا بسرور، ظانين أنهم قتلوا الامبراطور نفسه، لكن الامبراطور زحف تتقدمه أبواقه، وتمكن بصعوبة من تخليص جيشه من أيدي أعدائه الغاضبين، الذين كانوا قد زحفوا ضده، بشكل غير متوقع، ثم إنه انكفأ، وتراجع نحو بيزا، ليجند قواته، علّه يصبح أقوى، من أجل مهاجمة العصاة، لكن الذين سكنوا في تلك الأحواز والمناطق، عندما شاهدوا التراجع المهين للامبراطور، مع الخسائر الكبيرة، بالرجال وبالأموال، ومع العار، تخلى كثير منهم عن ولائهم له، وتحالفوا مع الرومان والفيربوين، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

الرعاى المتقلبون يتبدلون دوماً مع الأمير

اظلام شهرة الامبراطور

ولهذا تناقصت شهرة الامبراطور بسبب هذه الحادثة كثيراً، لأن كونت سيمون أوف توسكانيا، الذي إليه كان قد أسند المسؤولية عن فيتربو مع ثقة كاملة، قد حمل مع رفاقه، كما ذكرنا من قبل، واقتيد أسيراً إلى روما، وتم فقدان مدينة فيتربو نفسها بالاضافة إلى بعض البلدات والقلاع في الجوار، والامبراطور نفسه أرغم تقريباً على الفرار، فكان أن تلطخت سمعته، وقد أشيع من حوله أنه لم يتنازل بعد ذلك لحضور القداسات، وأنه لم يعد يصلي، أو يعامل اللاهوتين باحترام، ولم يعد يراعي الإيمان الكاثوليكي بشكل صحيح سواء في الممارسة، أو بكلماته، وأن له علاقات حميمة وجنسية مع امرأة مسلمة، وأنه قد دعا مسلمين، وكذلك كفاراً آخرين إلى امبراطوريته، وسمح لهم ببناء مدن محصنة.

كثير من النبلاء يتخلون عن الامبراطور

ولذلك تخلى عن الامبراطور عدد كبير من النبلاء الحكماء والأقوياء، مثل: مركيز دي مونتفرات، ومركيز مالاسينا Malaspina، وفيرسيلي Vercelli، وألسسندريا Alessandria، وعدد كبير من نبلاء المدن، وعلى هذا تضاعف أعداؤه، لأن الناس اعتادوا فقط على اتباع أصحاب الحظ، وفي ألمانيا أيضاً، تخلى كثيرون عن قضيتهم، ولم يرغبوا بالاستمرار بأن يكونوا من رعاياه المخلصين، فاختاروا لأنفسهم ملكاً آخر، أو امبراطوراً، هو اللاندغريف، وكان رجلاً شجاعاً وصاحب مكانة عالية، وإليه وعدت ألمانيا والشرط الأكبر والأعظم الأقوى من إيطاليا، بتقديم العون والرأي، من دون كلل أو ملل، إلى حد عرض حياتهم وتقديمها في خدمته.

تصرف الامبراطور في أزمته

وتصرف الامبراطور نحو هذه المخاطر بعقل عميق التفكير، وعهد بقيادة جيشه إلى واحد من أقرب أصدقائه إليه، ولم يجبر أحداً بالضرورات التي دعت لاتخاذ مثل هذه الخطوة المفاجئة، وبسرعة أدار توجهه إلى هناك، وكان على ثقة كبيرة، لأن اللاندغريف المذكور لم يكن قد وافق تماماً على الانتخاب المتقدم الذكر، لابل إنه لم يعطهم حتى موافقته، وأكثر من هذا هو لم يعطهم حتى جوابه، لأنه كان مرتبطاً بالامبراطور، ويمقت مغالطات البلاط الروماني، ولذلك وصل الامبراطور إليه، واستدعاه بشكل حبي وسري إلى مكان آمن، ودخلا في نقاش متبادل، وبحوار صديق، وتضافحاً قبل أن يفترقا، ودخلا في تحالف، وبذلك صار اللاندغريف وتحول من كونه مشكوكاً به إلى الصديق الأعظم ثقة، وأعلن بشكل مكشوف إلى جميع الذين انتخبوه، أنه لا يمكنه ولا بأي شكل من الأشكال الموافقة على مثل هذا العمل السريع والطائش، وبعدما أنهى الامبراطور هذه القضية وسواها بما

يرضيه تماماً عاد إلى جيشه، بالحكمة نفسها، التي غادره بها.

إذلال الامبراطور

وارتفع شأن الذين كرهوا الامبراطور، وفرحوا، واعتلاهم السرور كثيراً تجاه الخسائر التي عانى منها، وهي الخسائر التي أتينا أعلاه على ذكر تفاصيلها وتعدادها، ولذلك تعرض الامبراطور في تلك الأثناء إلى قليل من الإذلال، وذلك وفقاً لقول النبي: «املاً وجوهم بالعار حتى يمكن أن يلتمسوا اسمك يارب»، ولذلك تدخل رجال نبلاء على درجة عالية من الحكمة، وعملوا بيقظة وبشكل متواصل، وشغلوا أنفسهم في سبيل إعادة تأسيس السلام بين الكنيسة وبين الامبراطور، لكن الامبراطور رفض ولم يقبل بأي شكل من الأشكال أن يقسم على اخضاع نفسه تماماً للعقوبات اللاهوتية، مالم يجري الاصغاء إلى مناقشاته، ويتم ايضاح الطريق أمامه، مع شرح جميع الشروط، أو التخلي عن الذي استحوذ عليه، كيفما كانت طريقة الاستحواذ، وذلك فيما يتعلق بالامتيازات القديمة للامبراطورية، وهكذا تجدد الخلاف ثانية بواسطة بدع عدو الجنس البشري، وفي تلك الآونة، عمل أوتو، الذي كان كاردينالاً بلقب القديس نيقولا في سجن تولىان، والذي كان نائباً بابوياً في انكلترا، عمل أسقفاً لبورتو Porto.

رسالة مرعبة حول وحشية التتار

وفي الوقت نفسه، جرى ارسال الرسالة التالية، إلى رئيس أساقفة بوردو، وهي مرعبة كثيراً حتى إلى أكثر الناس شجاعة، وتتوافق الرسالة في كثير من الأمور مع الرسالة الامبراطورية التي جرى إرسالها إلى كثير من الملوك المسيحيين، فيما يتعلق بالدمار المريع الذي أحدثه القوم غير الانسانيين، الذين يدعون باسم التتار، وقد ورد اسمهم في هذه الرسالة باسم التاتار أو التتر.

«إلى جيرالد، الذي هو بنعمة الرب رئيس أساقفة بوردو، لقد جرت تسميتك من قبل نربوني Narbonnes كان من قبل أدنى كهنتك، صحة وقوة تتحول إلى مواهب الذين عهد بهم إليه:

إن أرواح غير العابثين المشغولين بالشؤون الأرضية، غير مهتمة بتهديدات العدالة الربانية، ولم يدخل الرعب إلى قلوبها العنيدة، حتى تطعن بوساطة قرار بالإدانة المرعبة، لأنني أعجب عندما يجري تهديد المسيحيين بمثل هذا الافناء والمحق، والعناد مسيطر بشكل عام على الملوك وعلى بقية رجال السلطة على الأرض، وكيف أنت الذي قيل بأن لديك غيرة من أجل الرب، لم تحاول تحريك القلوب المتصلبة بموجب ثقل نفوذك، وأنت ترى كثيراً من الناس العقلاء سوف يلتزمون بسلطتك ويؤمنون بكلامك، والخبرة وحدها تظهر مدى عظم المخاطر التي تهدد المسيحيين من خلال غزو التتار، لأن وصف وحشية ودهاء ذلك الشعب هي حقيقة غير مشوهة بذاتها ولا يمكن أن تكون كذباً، ولسوف نخبركم باختصار عن عاداتهم الشريرة، ولسوف لن أذكر شيئاً هو مشكوك به، أو مجرد رأي، بل الذي سأذكره هو المبرهن عليه بكل تأكيد، وهو الذي أنا أعرفه.

وسلف من قبل أن اتهمت — كما تعلم — من قبل منافسي، بتهمة هرطقة الفسوق، بحضور روبرت كورزون Curzun، النائب البابوي للبلاط الروماني، من دون تمحيص بالضمير، ولقد انزعجت كثيراً بسبب دناءة التهمة، ورفضت هذا الحكم، وغدوت لهذا السبب هدفاً للمزيد من الريبة، ولذلك عندما سمعتُ بتهديدات ذلك الرجل صاحب السلطة، هربت من وجه المضطهد، وأرغمتُ على الارتحال والسفر إلى كثير من البلدان، وتفوهت بشكايتي إلى البيرنيين Peterinians، الذين سكنوا في مدينة كوما، وكيف أنني بسبب عقيدتهم التي — يشهد الرب — أنني لم أتعلمها قط، أو اتبعتها، إنني

الآن في المنفى، بسبب قرار حكم صدر ضدي، ولقد فرحوا لسماحهم هذا، وقالوا بأنني أستحق الحسد، لأنني عانيتُ من الاضطهاد في سبيل الاستقامة، وجرت استضافتي بينهم هناك لمدة ثلاثة أشهر في شهوانية وفخامة، وأصغيتُ في كل يوم بصمت إلى كثير من الأخطاء، أو بالحري الآثام المرعبة، التي تفوهوا بها ضد الايمان الرسولي، وقد ربطوني إليهم بإحسانهم ولطفهم حتى أنني وعدت من ذلك الحين، بأنني سوف أسعى لإقناع المسيحيين، الذين سوف تكون لي أحاديث جدية معهم، بأن ما من أحد يمكن انقاذه بإيمان بطرس، وبأنني سوف أثابر بجرأة بالتبشير بهذه العقيدة، وعندما وعدتهم بكلمتي متعهداً بشرفي، بأن أفعل هذا، بدأوا يكشفون لي أسرارهم وأخبروني بأنهم أرسلوا من جميع مدن لومبارديا تقريباً مع بعض من توسكانيا، طلاباً باحثين أكفاء إلى باريس، بعضهم لدراسة المسائل المعقدة للمنطق، وآخرين لدراسة المقالات اللاهوتية، من أجل الحفاظ على أخطائهم، ونقض قواعد الإيمان الرسولي، وللغاية نفسها أرسلوا كثيراً من التجار إلى الأسواق، لحرف الأغنياء من العلمانيين، وكذلك رفاقهم على الموائد، ومضيفيهم الذين امتلكوا فرصة للحديث معهم بود، وبذلك قاموا بمقايضات مضاعفة، فحصلوا من هذا على أموال الآخرين، ووضعوها بين أيديهم، وجمعوا في الوقت نفسه أنفسهم أنفساً لصالح المسيح الدجال، وحصلت أخيراً على إذن بالمغادرة من عند هؤلاء الرهبان المرتدين، وأرسلت من قبلهم إلى ميلان، حتى تجري استضافتي من قبل أتباعهم الدينيين، وبهذه الطريقة اجتزت خلال جميع مدن لومبارديا على شواطئ نهر البو Po، وكنتُ أقيم دوماً بين البيترنيين، وكنتُ دوماً عند مغادرتي أتسلم تقدماً إلى آخرين من الطائفة نفسها، ووصلت أخيراً إلى كريمونا Cremona، وإلى بلدة مشهورة في فريولي Frioli، حيث شربْتُ أفضل خمرة للبيترنيين، وأكلت من زبيبهم المحفوظ، وتوتهم، ومن لحوم أخرى مثيرة، وخدعت المخادعين، وأعلنت عن نفسي أنني من

البيترنيين، مع أنني مازلت مستمراً، بعون الرب، مؤمناً بالمسيحية، على الرغم من أنني لستُ تماماً كذلك من حيث الأعمال، ووقفتُ لمدة ثلاثة أيام في كريمونا، وتسلمت أماناً من الرهبان، لكن اللعنة من واحد من أساقفتهم اسمه بطرس غلّو Gallo، الذي نظر إليّ نظرة ريبة، وقد سمعتُ — على كل حال — فيما بعد، أن هذا الرجل قد خلع من قبلهم بسبب الفسوق، ثم إنني انطلقتُ مع راهب علماني، ووصلتُ أثناء سفري إلى أقنية أكويليا Aquileia، وتابعنا من هناك سفرنا، واتخذنا لأنفسنا مقراً مع بعض الرهبان في بلدة صغيرة في فريساك Frisac، وفي اليوم التالي تركني الراهب العلماني، وبقىْتُ لوحدي، وعبرتُ لوحدي خلال كارينثيا Carinthia، وتابعت السير على طريقي في النمسا، وتوقفتُ في بلدة اسمها باللغة الألمانية نوستادت Neustadt، أي المدينة الجديدة، حيث أكرمت وفادتي من قبل رهبان في طائفة جديدة اسمهم البيغونيين Beguins، ثم أخفيتُ نفسي لبضع سنوات في جوار مدينة فينا وفي المناطق المجاورة، مازجاً — يؤسفني القول — الخير مع الشر، لأنني عشت عاجزاً ملطخاً بإثم الشيطان، وكنت عدواً قاتلاً لنفسي، مع أنني تمكنت من تخليص عدد كبير من إثم البيترنيين، الذين كنتُ قد تحدثتُ عنهم.

ونتيجة لهرطقتهم، ولأشياء من الذنوب كثيرة قامت بين المسيحيين، استثير غضب الرب، وأصبح غاضباً مدمراً، ومنتقماً مرعباً جداً، وأنا أقول هذا، بسبب عرق حاد من المخلوقات غير البشرية، والذي شريعته هي اللاشريعة، والذي غضبه حق، وهو عصا غضب الرب، وهو الآن يقوم بعبور منطقة واسعة من البلاد، ويقوم بالعيث فيها فساداً بشكل ممت، ويتولى محق كل شيء بشكل مخيف بالنار والسيف، يعترض سبيلهم، ففي خلال هذا الصيف بالذات، غادر هؤلاء القوم، الذين اسمهم التاتار بانونيا، التي استحوذوا عليها بالاستسلام، وقاموا

بوساطة آلاف لاتخصى، بحصار البلدة المذكورة أعلاه بشدة، والتي صدف أنني كنتُ آنذاك مقيماً فيها، ولم يكن في البلدة عساكر من جانبنا للتصدي لهم، سوى خمسين فارساً، وعشرين من رماة القسي الزيارة، كان الدوق قد تركهم في الحصن، ولدى صعود هؤلاء فوق مكان مرتفع في الجوار، شاهدوا الجيش العملاق معسكراً من حولهم، وارتعدوا بسبب شدة هؤلاء الذين هم من أتباع المسيح الدجال، وسمعت الآن أهات صاعدة نحو رب المسيحيين، من الذين دهشوا في المنطقة المجاورة، وقد هلكوا جميعاً سواء من دون تمييز بالمرتبة، أو المكانة، أو الجنس، أو العمر، وجاء هلاكهم بمختلف أنواع الموت، وتغذى أتباع المقدمين الذين كانوا مثل كلاب آكلة للحوم البشر، من لحوم أجساد الموتى، وكأنها كانت خبزاً، ولم يتركوا شيئاً سوى العظام للوحوش، لكن مدهش أن نقول بأن الوحوش والطيور الجارحة، مع أنها كانت جائعة، لم تقبل بأكل بقايا اللحوم، إذا صدف وكان قد بقي شيء منها، وأعطيت النساء العجائز والقيحات إلى المسؤولين عن الكلاب الآكلة للحوم البشر — كما كانوا يسمون — ليكونوا طعامهم اليومي، لكن اللائي كن جيلات احتفظ بهن أحياء، ليخنقن وليقهرن من قبل عدد من مغتصبيهن، على الرغم من صراخهن وبكائهن، فقد جرى اغتصاب العذراوات حتى متن من الإنهاك، ووقتها كانوا يقطعون أثدائهن ليجري الاحتفاظ بهن بمثابة طعام لذيد لمقدميهم، أما أجسادهن فاتخذن لوجبة طعام سارة للمتوحشين.

وشاهد في الوقت نفسه، الذين كانوا ينظرون من أعلى مكان مرتفع، وصول دوق النمسا، وملك بوهيميا، وبطريق أكويليا Aquileia، ودوق كارينثيا Carinthia، ومركز بيد Bade، كما قيل، مع عدد كبير من أمراء الدول المجاورة، وكانوا على تعبئة جاهزين للقتال، وفي لحظة واحدة اختفى ذلك العرق اللعين، وعاد الخيالة إلى هنغاريا

التعيسة، ومثلما وصلوا فجأة، كذلك اختفوا بشكل مفاجئ، وهذه واقعة خلقت رعباً عظيماً في عقول الذين شاهدوها، وأسر أمير دلماشيا ثمانية من الفارين، وكان واحداً منهم معروفاً من قبل دوق النمسا، على أنه رجل انكليزي، كان قد نفى بشكل أبدي من مملكة انكلترا، بسبب إحدى الجرائم التي كان قد اقترفها، وكان هذا الرجل قد قدم مرتين كرسول وترجمان من ملك التاتار إلى ملك هنغاريا، وبشكل مكشوف هدد الهنغار وأنذرهم بالشروع التي وقعت فيما بعد، إذا لم يذعن ملكهم ويتنازل هو ومملكته ليكونوا خاضعين للتاتار.

وأقنعه الأمراء ليقول الحقيقة حول التاتار، وقام هو من دون تردد، بعد أن أدى كل نوع من أنواع الأيمان، وقدم إفادات قاسية جداً، حتى أنه من الصعب على الشيطان نفسه أن يصدقها، وتحدث أولاً عن نفسه، أنه بعد نفيه، وقبل أن يكون في الثلاثين من عمره، خسر كل شيء كان لديه بالميسر في مدينة عكا، وأنه لم يمتلك في أيام الشتاء سوى قميص من المسوح، وحذاء من جلد الثور، وقبعة مصنوعة من شعر الحصان، وتمكن بهذه الحالة من العوز، وإظهار حالة من الضعف بالجسد، وبشعر مشعث كأنه شعر مهرج، وباطلاق صرخات جمجمة كأنه رجل أخرس، فعبر كثيراً من البلدان، ولاقى لطفاً كبيراً من الذين قدموا له الضيافة والإحسان، متصرفاً بحياته بشكل أو آخر، مع أنه رغب يومياً في طيش لسانه والجنون في قلبه، ورغب في قرارة نفسه أن يكون لدى الشيطان، وأخيراً بعد طويل أمد أصيب بمرض شديد، بسبب الإنهاك الشديد الذي عانى منه، وبسبب تغير الأنواء والأطعمة، بين الكلدانيين، وصار مالاً من حياته، ولم يعد قادراً على متابعة السفر نحو الأمام، أو العودة، فوقف حيث كان، وكان يتنفس بصعوبة، ولأنه كان معتاداً بعض الشيء على الكتابة، بدأ يدون كتابة الكلمات التي جرى الكلام بها هناك، ثم شرع يتفوه بهن بشكل صحيح، إلى حد أنه عدّ من السكان المحليين،

وقد تعلم عدة لغات ببراعة، وسمع التاتار عنه من خلال جواسيسهم، وتمكنوا من جره إلى جانبهم، وعندما شرعوا يسعون بتطبيق دعواهم باخضاع العالم كله، ربطوه بهم، ولكي يكون مخلصاً في خدمتهم، منحوه كثيراً من الأعطيات، لأنهم كانوا بحاجة ماسة لأشخاص، يكونوا تراجمة لهم.

وفيا يتعلق بأخلاقهم وسماتهم، وأوهامهم التي يؤمنون بها، وأمزجة وآفاق ذواتهم، وبلادهم وطرائق قتالهم، أقسم أنهم كانوا جشعين، وانفعاليين، ومخادعين، وبدون رحمة بشكل فاقوا به الناس الآخرين، وشدة وقسوة العقوبات التي تنزل بهم من قبل مقدميهم، تمنعهم من النزاعات، أو بالحري من خداع بعضهم بعضاً، أو إلحاق الضرر ببعضهم بعضاً، ويدعون الذين أسسوا قبائلهم الأرباب، ويطبقون تعبدات في بعض المواسم، ولديهم احتفالات خاصة كثيرة، وأربعة أعياد نظامية فقط، ويعتقدون بأن كل شيء قد عمل من أجلهم، ويؤمنون أنه لا توجد وحشية في ممارسة كل نوع من أنواع القسوة، ضد الذين يشعرون ضدهم، ولهم صدور ثابتة وقوية، ووجوه مائلة وشاحبة، وكتفين قاسيين وعاليين، وأنوف قصيرة ومشوّهة، وذقونهم حادة وعالية، وفكهم العلوي منخفض وعميق، وأسنانهم طويلة وقليلة، وتمتد حواجبهم من الشعر إلى الأنف، وعيونهم سوداء وغير مستقرة، وملاحظهم طويلة وقاسية، ومظهرهم الخارجي عظمي وانفعالي، وأجلهم غليظة لكنها قصيرة تحت الركبة، والبناء الجسدي مساو لنا، لأن الذي خسروه تحت الركبة جرى تعويضه بطول أكبر لأجزاءهم العلوية.

وببلادهم الأصيلة هي مساحات واسعة، وكانت من قبل صحراء، واقعة خلف الكلدانيين، قد طردوا منها الأسود والديبة، والوحوش الأخرى، وكان ذلك بوساطة قسيهم وأسلحة الحرب الأخرى، وقد

صنعوا من الجلود المدبوغة لهذه الحيوانات لأنفسهم دروعاً هي خفيفة المظهر، لكن لا يمكن خرقها، ولديهم خيول ليست ضخمة، لكنها قوية جداً، وتتطلب قليلاً من الطعام، وهم يربطون أنفسهم بثبات على ظهورها، ويستخدمون النشاب، والمراوات، وبلطات القتال، والسيوف في الحرب، ويقاتلون بشجاعة وثبات، وميزتهم الأساسية هي في استخدامهم القوس، وفي براعتهم في القتال، ودروعهم الواقية لظهورهم رقيقة، حتى لا يحاولوا الفرار، وهم لا يتراجعون عن القتال حتى يرون العلم الرئيس لمقدمهم يتراجع، وعندما يسقطون لا يطلبون الرحمة أبداً، وهم أنفسهم لا يوفرون واحداً قد سقط، وفي غايتهم الثابتة في إخضاع العالم كله ووضعه تحت سيطرتهم، يصرون على ذلك كأنهم رجل واحد، كما أنه من غير الممكن عدّ الألف منهم مثل ألف من الآخرين، وعدد أتباعهم، الذين يدورون في فلهم ستمائة ألف، وهم يرسلون هؤلاء أمامهم لإعداد أماكن من أجل الجيش، ويستطيعون على ظهور خيولهم السريعة قطع مسافة سفر ثلاثة أيام في ليلة واحدة، ويقومون فجأة بنشر أنفسهم فوق منطقة واحدة، وينقضون على السكان غير المسلحين، والذين بلا دفاعات، والمتفرقين، محدثين فوضى ودماراً عظيماً، إلى حد أنه لو حاول أمير أو ملك البلاد المحاصرة حشد جيش ليحضره إلى ساحة القتال ضدهم يعجز عن ذلك، وفي أيام السلم يخدعون الناس وأمراء البلدان بأسباب هي غير منطقية، فهم يقولون أحياناً بأنهم تركوا بلادهم لاسترداد الأجساد المقدسة للملك المجوس، الذين يزينون مدينة كولون Cologne، ويقولون في أحيان أخرى، إنها في سبيل ضبط شره وتفاجر الرومان، الذين ظلموهم في القديم، وهناك سبب آخر، هو أن يخضعوا تحت سلطانهم شعوب وقبائل الهيربوريان Hyberborean البربرية، ثم إنهم قالوا بأن غايتهم هي إطفاء غضب التوتون بوساطة تسامحهم ولطفهم، وأحياناً لتعلم فن الحرب من الفرنسيين، وأحياناً أخرى للحصول على أرض خصبة كافية

للقيام بأود حشودهم، وقالوا أخيراً بأن الغاية هي القيام بالحج إلى القديس جيمس في غاليسيا Galicia، وتمكنوا بهذه الحكايات من السيطرة على بعض الملوك البسطاء، لأن يرموا معاهدات معهم، ولكي يمنحهم مجازات حرة خلال أراضيهم، ولا يحافظ التاتار على المعاهدة، ويتعرض هؤلاء الأمراء للهلاك سواء.

ولدى رؤيتنا مثل هذه المخاطر العظيمة، وهي قائمة مهددة جميع العالم المسيحي، ما الذي يعمل به هؤلاء الرهبان المقدسين، مع طقوسهم الدينية الجديدة، وصدوراً عن نار القرن الجديد التي صيغوا منها، من الذي يرغب أن يعتقد بأنهم وحدهم قد عثروا على طريق الكمال دون الآخرين؟ وبوساطة الاعتراف ووسائل الإلفة الأخرى سوف يتمكنون من الحصول على الخطوة لدى الملوك والأمراء، وهم يصرخون بحرارة وإلحاح في آذانهم ضد التاتار، وهم يسيئون، إذا لم يصرخوا، ويفعلون الأسوأ إذا اكتفوا بالتظاهر بذلك، والأسوأ من هذا كله إذا ما قاموا بمساعدة العدو، فما الذي يفعله الرهبان السود والبيض؟ وما الذي يفعله الكهنة النربونيين الذين يرغبون بالتفكير لو أن العالم ميت؟ لماذا لا يبشرون بصليبية ضد التاتار لدى رؤيتهم اقتراب جميع هذه المخاطر؟ وعجباً للاستشارات الحمقى للملوك! وللصمت الفاتر للأساقفة ورعاة الديرة! ولشدة التاتار ولوحشيتهم التي لم يسمع بمثله! فلقد جرى حتى الآن تدمير ست ممالك مسيحية، والمصير نفسه معلق فوق الآخرين، في حين إن مثل الذين هلكوا لا يفيد كوسيلة انذار للأحياء، فنحن قد أهملنا أسوأ أعدائنا في داخل البلاد، وقاتلنا الذين بدون أذى فيما وراء البحر.

وهذه هي الأسباب التي اقتادتني، أنا الذي أدين بالفضل لعنايتكم الأبوية، فأنا كما أنا، أتقدم بالنصيحة إليكم في الرب، بأن تقوموا بإقناع ملوك: فرنسا، وانكلترا، واسبانيا، الذين بينهم تحتلون مكاناً وسطاً، وأن

تستخدموا كل الوسائل التي باستطاعتكم استخدامها، لكي يضعوا جانباً خصوماتهم الخاصة، إلى الأبد، أو على الأقل لبعض الوقت، وأن يعقدوا بسرعة وعقلانية مؤتمراً فيما بينهم، حول كيف يمكنهم بأمان التغلب على مثل هؤلاء الآلاف من هذه النوعية من المتوحشين، وأدعو أنا الإيمان بالمسيح، الذي به آمل بالانقضاء أن يكون شاهداً، أنهم لو توحدوا جميعاً، فلسوف يسحقون هؤلاء التينيات، أو سوف يسحقون إفرادياً من قبلهم. وداعاً».

الصراع بين الامبراطور وبين البابا يثير اضطراب كل شيء

كان مقدراً لهذه الرسالة المرعبة أن تثير كثيراً قلوب الملوك والنبلاء، الذين وصلت إليهم، ولكانت أثارهم بشكل فعال للانتقام للأذى الذي ألحق بالمسيح، وبالكثيسة الكاثوليكية، وبالمسيحية كلها، لولا قيام النزاعات المتبادلة بين البابا وبين الامبراطور، ومن ثم نشرها الاضطراب فوق العالم كله، ولذلك فإن هذا الصراع قد تفجر في الخارج خلال جميع المناطق، في الطول وفي العرض، لأنه لم يكن في كل المسيحية أحداً أعلى مرتبة، لابل ما من أحد في مثل تلك المرتبة العالية، مما أنعش قلوب التاتار، وأبهجها، لابل جميع الكفار، وعلاوة على ذلك جميع أعداء المسيح، وجعلهم يضاعفون أمالهم، ولذلك قالوا وهم يتفاخرون ويتقيئون أنفسهم، بأن الرب منزعج وضد المسيحيين، الذين قاتلوا ومزقوا بعضهم بعضاً، وأنه بات أكثر راضياً عنهم ولصالحهم. وزاد من تعدادهم، وضاعف قوتهم.

تشديد الحراسة على الطرق في روما

ورأى الامبراطور في الوقت نفسه، أن البابا المنتخب حديثاً، قد قام بتأكيد قرار سلفه، وأنه لا يرغب بتقديره بأية طريقة من الطرق، ولذلك رفض من جانبه الخضوع تمام الخضوع إلى وصاياات الكنيسة، وأعطى

أوامر بتشديد الحراسة على جميع الطرقات، والموانئ، والجسور، وأن لا يكون هناك انسان يقوم بالعبور وهو يحمل مالا، لأنه كان يعرف بأن في البلاط الروماني عطش بشكل غير متناهي، وصرف ابنه كونراد نفسه بيقظة لهذا العمل، ووقف بتيقظ في الطرقات وسدها، في كل من البحر والبر، ولم يوفر أحداً من المسافرين، حتى الرهبان الفرنسيين والدومينيكان، أو أي واحد متخفي، وكل من اعتقله عذبه حتى الموت.

تزايد أعداد البيغونيين

وفي الوقت نفسه، وبشكل خاص في ألمانيا، أعلن كثير من بعض الأشخاص من كلا الجنسين، لكن بشكل رئيسي من النساء، أنهم صاروا رهباناً، وارتدوا اللباس الديني، ولم يكن هذا اللباس ثقيلاً جداً، وعملوا تعهداً بعفة الحياة وبساطتها، بوساطة تعهد خاص، وذلك من دون الالتزام بأحكام أي قديس، كما أنهم لم يحبسوا أنفسهم داخل إطار أي دير، وباختصار تزايدت أعدادهم إلى درجة أنه وجد في مدينة كولون وجوارها، ألفين منهم.

خلاف بين الرهبان الفرنسيين والدومينيكان

ولكي لا يظهر العالم أنه شاغر من تزايد الاضطرابات من كل جانب، نشب صراع بين الرهبان الفرنسيين والرهبان الدومينيكان، مما سبب الدهشة لكثيرين، لأنهم بدوا بأنهم اختاروا الطريق السليم، أي طريق الفقر والصبر، فمن الجانب الأول ادعى الدومينيكان وأعلنوا أنهم هم الذين تأسسوا أولاً، ولذلك السبب هم أعلى مقاماً، وأنهم أكثر عقلانية في مظهرهم الخارجي، وعن جدارة استحقاق نيل اسمهم ومقامهم من أعمالهم التبشيرية، وأنهم كانوا بالفعل والحقيقة حصلوا على تميز بوساطة المقام الرسولي، وقدم الفرنسيين من الجانب الآخر جواباً، بأنهم اختاروا في سبيل الرب طريقاً للحياة أكثر قسوة وتواضعاً، ولذلك فهم

أكثر جدارة، لأنهم أكثر قداسة، وأن الرهبان يمكنهم، وينبغي بشكل مؤكد أن ينتقلوا من طائفة الدومينيكان إلى طائفتهم، على أساس الانتقال من جماعة أدنى إلى جماعة أكثر تفوقاً وتشدداً، ونقض الدومينيكان مقالتهم مواجهة، قائلين صحيح أن الفرنسيين يسرون وشم حفاة، ويلبسون ألبسة خشنة، وهم متحزبون بحبل، وهم يتمتعون بامتياز أكل اللحوم، أو أطعمة أكثر لطفاً ولذة، وأن هذا ليس محظوراً عليهم حتى أمام الناس، وهو أمر محظور بالنسبة لجماعة الدومينيكان. ولذلك لا يمكن القول بأن الدومينيكان يمكنهم الدخول إلى طائفة الفرنسيين لأنها طائفة أكثر تشدداً وأكثر جدارة، بل إن العكس هو الصحيح، ولذلك نشب نزاع بين هؤلاء، مثلما نشب أيضاً بين الداوية والاسبتارية، في الأرض المقدسة، من خلال بذور الخلاف التي زرعها عدو الجنس البشري، صراع تأمري عنيف، وكان مثله مثل الصراع بين الرجال المتعلمين والجامعيين، لابل أشد خطورة بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية، وكان علامة على غضب عظيم سوف يحل بساحتها، والذي هو مزعج، ونذير سوء هو أنه لمدة ثلاثمائة سنة أو أربعمائة أو أكثر، لم تسرع الطوائف الرهبانية نحو الدمار مثل اسراعها الآن، كما تفعل طائفتيهما، ذلك أن رهبانهما لم يمض الآن على وجودهم في انكلترا بالكاد عشرين عاماً، حتى بنوا لأنفسهم مساكن نافسوا فيها القصور الملكية، وهؤلاء هم الذين يعرضون للمشاهدة كنوزهم التي لا تقدر ولا تحصى، ويوسعون مبانيهم الفخمة، ويشيدون الأسوار العالية، ولذلك خرقوا بحماسة حدود فقرهم الأصيل، واعتدوا على قواعد دينهم، وذلك وفقاً لنسبة الألمان هيلد غريد Hildegrade، فعندما يكون الرجال النبلاء والأغنياء على حافة الموت، يقومون بحث الذين الذين يعرفون أنهم مستحوذين على ثروات كبيرة، وفي حبهم للربح يحثونهم بإلحاح لإلحاق الأذى والخسارة بالأساقفة العاديين، وأن يستخرجوا اعترافات ووصايا خفية، رافعين أنفسهم، وطائفتهم فقط،

وواضعين أنفسهم أمام جميع الآخرين، وهكذا فإن الرجل المؤمن الآن يعتقد أنه يمكن أن يحفظ، فقط إذا جرى توجيهه بمشورات الدومينيكان والفرنسيسكان، ورغبة من هؤلاء في الحصول على الامتيازات في بلاطات الملوك والأعيان، أخذوا يشغلون أدوار المستشارين، والحجاب، والساسة رجال الأعراس، والمتوسطين من أجل الزيجات، وهم الذين يتولون تنفيذ الاستخراجات البابوية، وهم في قداساتهم إما يتولون الإطراء أو النقد الحاد، ويكشفون الاعترافات، أو يقومون بأعمال الاتهام بوقاحة، ويزدرون أيضاً الطوائف التي تولى وضعها الآباء المقدسون، أي التي أسسها القديس بندكت، والقديس أوغسطين، ويستخفون أيضاً بأتباعهم (وظهر هذا الشيء بوضوح في قضية كنيسة سكاربورا Scarborough، عندما انسحب الفرنسيون بشكل مهين) وهم يضعون جماعتهم أمام الآخرين، وهم ينظرون إلى الرهبان السسترشيان على أنهم أجلاف، لا يؤذون، شبه أصلاء، أو بالحري ذوي أصل رديء، ويعدون كهنة ورهبان الطائفة السوداء متكبرين ومنغمسين بالملذات الحسية.

جامعة باريس تتراجع عن أخطائها وتستنكرها

وكذلك في ذلك الوقت، وبالتحديد بعد عيد القديس ميكائيل، تمت عملية إعادة اجتماع المدارس والدارسين، وبدأ معلمو اللاهوت، خاصة كبار المحاضرين من الدومينيكان والفرنسيسكان المناظرة والمناقشة بدقة تفصيلية أكبر، وبعث أعظم مما ينبغي، أو مما هو مفيد، ولم يترددوا في وزن الجبال، حيث يمكن لمجد الرب أن يخزيهم، وغامروا بطيش في تفحص أسرار الرب القدير التي لا يجوز البحث بها، وأقدموا على البحث في أحكامه التي هي عميقة جداً، وكانوا بالنتيجة غير أكفاء بالنسبة للمهمة، وتفحصوا هكذا بعمق، وتجولوا حيث ليس هناك ممر، بسبب انتقام الرب، الذي يكون أكثر رضا بالبساطة الصحيحة للإيمان

الثابت، أكثر من رضاه بالبراعة الأكثر ظهوراً في اللاهوت، ومع أنه أسلم وأكثر فضيلة أن نتقبل ببساطة وأن نعتقد في الآثار التي تلقيناها من الآباء، من أن نحاول البرهنة عليهم، بهذه الوسائل التي يقدمها العقل البشري، لقد اختاروا أن يغرروا بأنفسهم وأن يرتفعوا فوق المستوى الصحيح.

هذا وعندما علم أساقفة الكنائس بهذه الأشياء، وكانوا متيقظين من أجل مصلحة الكنيسة والإيمان المسيحي، واستندوا على سلطة الانجيليين والأنبياء في لجم وقاحتهم الطائشة، ودعوا إلى اجتماع للناس ذوي الإيمان المستقيم، وأعلنوا بحكمة عن حقيقة الإيمان، وكانت غلطتهم الأولى: هي أن الجوهر اللاهوتي لم يشاهد، ولن يشاهد، من قبل إنسان في حال الطهارة أو من قبل ملاك، وعلى هذا أجاب الأساقفة: نحن ندين هذه الخطيئة، ونحرم كنسياً الذين أعلنوها ويتمسكون بها، لأننا نؤمن بثبات، ونؤكد، بأن الرب في جوهره، وتكوينه، أو طبيعته، سوف يشاهد من قبل الملائكة المقدسين، عندما يكون في حال التجلي، وكانت الخطيئة الأخرى هي: مع أن الجوهر اللاهوتي هو نفسه في الأب والابن، والروح القدس، ومع ذلك بالنسبة للشكل، إنه ليس نفسه في الروح القدس كما هو في الأب والابن مأخوذتين مع بعضهما، ومع ذلك إن الشكل هو الشيء نفسه، كجوهر لاهوتي، وعلى هذا قدم الأساقفة الجواب التالي: نحن ندين هذه الخطيئة، إلخ، لأننا نؤكد بشكل ثابت بأن هناك اتحاد بالجوهر، والتكوين، أو الطبيعة، في الأب والابن، والروح القدس، وأن الجوهر هو نفسه بالنسبة للشكل، وهو نفسه في الأب، والابن، والروح القدس، وخطيئة أخرى هي: أن الروح القدس، لكونه نوعاً من الحب، أو رباطاً من التعاطف، لم يصدر عن الابن، بل عن الأب فقط، نحن ندين هذه الخطيئة، إلخ، لأننا نعتقد بثبات ونعلن بأن الروح القدس، لكونه نوعاً

من الحب، أو رباطاً من التعاطف، قد صدر عن الاثنين، وخطيئة أخرى هي: أنه لا الأرواح الطاهرة، ولا الأجساد الطاهرة سوف تكون مع الملائكة في السماء العليا، بل في السماء المائية، أو الشفافة، الموجودة فوق قبة السماء، حيث أنهم افترضوا، ووضعوا العذراء المقدسة، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات ونعلن، بأن المكان الجسدي نفسه، أي السماء العليا، سوف تكون مشاعاً للملائكة، ولأرواح القديسين، وللرجال الممجدين، ومثل هذا المكان الروحي نفسه مشاعاً للرجال وللملائكة، وخطيئة أخرى: هي أن الملاك كان شريراً من اللحظة الأولى لخلقه، ولم يكن قط غير ذلك، أي غير شرير، إننا ندين هذه الخطيئة ونمنعها، وأولئك الذين يعلنونها ويتمسكون بها، إلخ، لأننا نعتقد بثبات ونؤكد بأنه كان فيما مضى صالحاً وليس شريراً، وقد صار فيما بعد سيئاً باقتراف الذنب، وخطيئة أخرى: هي أنه كان هناك من الأزلية حقائق كثيرة، وهي لم تكن رباً، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن، بأنه كانت هناك حقيقة واحدة من الأزلية كلها، التي هي الرب، وأنه كان هناك باطل، هو لم يكن رباً، وخطيئة أخرى، هي أنه يمكن لملاك أن يكون في أماكن مختلفة في الوقت نفسه، لابل حتى في كل مكان إذا ما اختار، نحن ندين، إلخ، لأننا نؤمن بثبات ونؤكد هو أن ملاكاً موجوداً في مكان واحد مؤكد، وبناء على ذلك إنه إذا كان هنا، لا يمكنه في الوقت نفسه واللحظة ذاتها أن يكون في مكان آخر، لأنه من الممكن لواحد أن يكون كلي الوجود، لأن ذلك معزو إلى الرب وحده، وخطيئة أخرى: هي أن البداية، والوقت الحالي، والخلقة، والآلام هي كلها ليست خالقاً ولا مخلوقاً، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن بأنهم جميعاً قد جرى خلقهم، وخطيئة أخرى: هي أن الملاك الشرير، لم يمتلك قط أرضاً يمكنه الوقوف عليها، ولا حتى آدم عندما كان مايزال في مرحلة البراءة، نحن ندين إلخ، لأننا نؤمن بثبات، ونعلن أنها امتلكت مكاناً ليقفا عليه، لكن — على كل حال — لم يربحها من ذلك، وخطيئة أخرى:

هي أن الذي لديه ونال المنحة الأحسن بشكل طبيعي، سوف يكون بالضرورة لديه المزيد من النعمة والمجد، ونحن نستنكر هذه الخطيئة، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن بأن النعمة والمجد سوف تمنحنا حسبما يراه الرب مناسباً. وهذا مقدر من ذي قبل.

خلاصة أحداث هذا العام

وعلى هذا عبر هذا العام، مع وجود مخاطر مهددة واضطرابات للكنيسة، وكان عاماً وافراً بما فيه الكفاية في الخضار والفواكه، وقد جلب الموت والازعاج لعدد كبير من النبلاء في العالم المسيحي، وجلب الملامة والأذى إلى مملكة انكلترا وإلى ملكها، وأحضر معارك وعداوات إلى الايطاليين، وانعدام ثقة بالنسبة إلى الأرض المقدسة، وحدوث انشقاق ومؤامرات بين الداوية والاستتارية.

الوليمة السخية للإيرل رتشارد في وولنغفورد

في سنة النعمة ١٢٤٤، التي هي السنة الثامنة والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، كان الملك نفسه في عيد الميلاد، ضيف أخيه، الإيرل رتشارد، في وولنغفورد Wallingford، حيث أقيمت وليمة سخية، قد دعي إليها جميع النبالة الانكليزية تقريباً، وكانت هذه الوليمة آخر الحفلات التي شرع بها في لندن، وكل مايمكن أن يفكر به قد أحضر لجعل احتفالات الزواج فخمة، وكان بين الحضور بيترايس، كونتيسة أوف بروفانس، وابنتها سينشيا، المتزوجة حديثاً، وكانت جميلة المظهر، وقد بذل الملك جهوده كلها حتى يظهر لطيفاً وكريماً.

مغادرة كونتيسة بروفانس لإنكلترا

وبعد الفراغ من هذه الاحتفالات، بادر الملك، ترافقه بيترايس، الكونتيسة المذكورة، مع عدد كبير من النبلاء من الجنسين، ومن العائدين إلى كل من انكلترا، وبروفانس، بادروا مسرعين إلى لندن، في أيام عيد

الختانة، للاحتفال هناك، بأعظم أبهة، بعيد القديس ادوارد، بحضور الضيوف من بروفانس، وأمام أعينهم، وتوجهت بعد ذلك الكونتيسة المذكورة نحو البحر، وعادت إلى موطنها وجرت مرافقتها بشكل رسمي حتى البحر من قبل الملك مع حشد كبير، لكن حتى لا يمر سرور في هذا العالم من دون انتكاسات، حدث أنه قبل أن تغادر الكونتيسة وتركب السفينة في دوفر، وصلها حملة لأخبار مخزنة، حيث أعلنوا لها بأن زوجها ريموند كونت بروفانس قد أصيب بمرض عضال، وهو على حافة قبره، وهو الرجل الذي قدم مساعدات فعالة إلى الكنيسة الرومانية، في جميع أزماتها، بإلحاقه الأذى بالامبراطور، وعندما جرى إعلام الملك بهذا، أصيب بحزن عميق، وطلب رحمة الرب للكونت، بالصلوات، وبتقديم الصدقات، إلى غاية ما كان بإمكانه.

إرسال البابا الجديد رجلاً جديداً إلى انكلترا لاستخراج المال

وأرسل في تلك الآونة نفسها البابا المنتخب حديثاً، مستخرجاً جديداً للمال إلى انكلترا، اسمه المعلم مارتن، وهو يحمل رسالة اعتماد من البابا، ومفوضاً بسلطة فرض عقوبة الحرمان الكنسي، والتعليق وبانزال العقوبات بطرق كثيرة، بالذين يعارضون رغباته، وقام وهو متسلح بمثل هذه السلطات، فعلق الأساقفة الانكليز، حتى لا يعود بإمكانهم جباية أية منفعة من منافعهم حتى يكونوا قد أرضوا نهم البابا، الذي جبا جميع مواردهم لصالح كهنته أو أقربائه، وقد أرتأى أنه ليس بذي قيمة أن يتسلم أي مبلغ ما لم يصل إلى ثلاثين ماركاً، أو أكثر، خشية أن يبدو ذلك الرجل العظيم حريصاً على التوافه، ولذلك شرع المعلم مارتن المذكور بغطرسه بمطالبتهم والاستخراج من الأساقفة وخاصة من الرهبان، الهدايا، وخاصة الخيول الفخمة، فقد فرض في رسائله مثل هذا على رعاة الدير، أو رؤساء الرهبان، أن يرسلوا إليه خيولاً تكون موائمة لكاهن خاص للبابا، ليمتطيها، والذين عارضوا، وتقدموا

بتسويغات، وعرضوا أسباباً لعدم الطاعة، حتى وإن كانت أسباباً منطقية (من ذلك على سبيل المثال راعي دير مالمسبري Malmesbury، ورئيس رهبان ميرتون Merton) جرى تعليقهم، ومعاقتهم بقسوة إلى أقصى حد يرضيه، لأن هذا المنقب الحريص تجول بعينه وتطلع نحو جميع الكنائس الشاغرة، وجميع الأوقاف، حتى يتمكن بوساطتهم من سداد جميع المطالب المكشوفة للبابا مع حاجاته، وكان من بين أوقاف الكنائس الغنية، أوقاف كنيسة سالسبري، التي كانت مرتبطة بقائد جوقة المرتلين، التي غدت شاغرة، فوضع يديه على هذا الوقف، على الرغم من معارضة الأسقف، وجميع أعضاء الهيئة الكهنوتية، وقام بناء على أوامر البابا، بإعطاء هذا الوقف إلى واحد من أحفاده، وكان مجرد طفل، مما أدهش كثيرين وآلمهم، لأن كثيرين اعتقدوا وأملوا بأن نهم البلاط الروماني، سوف يعتدل بوساطة شيء من العقلانية، وذلك بعد العقوبات التي نزلت به حتى الآن مراراً بوساطة غضب الرب.

تصرف غير عادل من الملك نحو أسقف وينكستر

وحدث كذلك في الوقت نفسه، أن قام الملك بشكل غير صحيح بظلم أسقف وينكستر، بوضع يد ثقيلة عليه، ولم يتنازل مطلقاً بقبوله في مؤتمر مصالحة، أو لنيل قبلة سلام وصدقة، وذلك أثناء عودته من مناطق عبر البحر، حيث قدم الأسقف نفسه بكل تقوى، وقد لاحقه بكرهية شديدة، ولم يسمح لأي رجل علماني بأن يعيش معه، أو يتولى خدمته، ولم يأذن له بتلقي الضيافة في أي من الديرة، بل إنه نظر إلى الذين استقبلوه وواسوه، على أنهم أعداء معلنون، وأعاق أيضاً بوحشية ومنع أن يصل إلى الأسقف سفينة وعربات محملة بالمؤن والإمدادات القادمة من نورويك، ولدى سفر الأسقف إلى لندن، لم يتجرأ على الدخول إلى قصره في ساوثوورك Southwark بسبب خجله من

الظلم الذي تلقاه من أتباع الملك، واستضيف وهو متخفي في بيت رهبان ساوثوورك، الذي هو قرب قصره، وواقع في أسقفيته، وانتظر هناك بتواضع تبدل الأوقات المعارضة، وإلى أن يزوره التوفيق والرضا من عليين، لكن الملك الذي كان يتصرف بناء على نصيحة قوم ظالمين، منع كل واحد في مدينة لندن من بيعه حتى ضروريات الحياة، الأمر الذي لا نتذكر أن مثله قد أوقع حتى بالقدّيس توماس رئيس أساقفة كانتربري، ثم إن الأسقف قام وهو حزين يعاني من كثير من الأذى والاضطراب، فاشتكى — مع سبب صحيح — إلى زملائه الأساقفة، وعندما علموا بذلك قام أساقفة لنكولن، وووركستر، وهيرفورد، تحركهم العاطفة، وغاضبين غيرة على العدل، فبادروا مسرعين إلى ردغ، حتى يتمكنوا من توبيخ الملك، ونصيحته حتى يقوم أخطائه، لكن الملك أعلم بقدمهم، فهرب رافضاً نصيحتهم المسالمة، إنما عندما وجدوه أخيراً، انفجر غاضباً وتفوه بكلمات تسويغ لنفسه وكراهية، ولم يكن من الممكن تسكينه بتحريضاتهم، بل إنه تصرف على العكس بشكل واضح، فبعث لإلحاق الأذى بالأسقف، بشيولد دي هيرلي Hurley، والمعلم هنري دي سوسا Susa إلى البلاط الروماني، مع مبلغ كبير، استخرجه لهما حتى ينفقاه، ولكي يعدا بمبلغ أكبر بكثير إلى البابا وإلى البلاط الروماني، على شرط أن يقوموا بخلع الأسقف المذكور بشكل مهين، لكن بما أن ذلك سوف يكون غير مستقيم بشكل مكشوف، وغير عادل، وسوف يسبب فضيحة عامة ضد الكنيسة، لم يتمكنوا بأية وسيلة من الوسائل من إكماله، ولأن رئيس الرهبان المتقدم ذكره أعلاه، كان يعرف هذا بشكل مؤكد، عاد بشكل عقلائي، لكن رفيقه هنري هرب بشكل شرير ودنيء، وأخذ مال الملك وهرب به، وسافر إلى مناطق موطنه، حاذياً حذو الغراب الذي لم يعد إلى سفينة نوح، ولم يعاود الظهور في انكلترا.

موت الكاردينال جون أوف كولونا

وفي ذلك الوقت نفسه من السنة، أي في ثمانية عيد طهارة العذراء المباركة، مات جون أوف كولونا Colona، وكان كاردينالاً رومانياً، ووعاء لكل أنواع العجرفة والوقاحة، وكان الأكثر شهرة، والأعظم قوة في الممتلكات المدنية بين جميع الكرادلة، وكان الفاعل الأكبر والراعي المغذي للخلاف بين الامبراطور والبابا.

تثبيت المعلم روجر أسقفاً لباث

وجرى في الوقت نفسه تثبيت المعلم روجر، رئيس جوقة سالسبري في أسقفية باث، حيث شاهد بسرعة أن وقفه في سالسبري، سوف يعطى إلى حفيد البابا، وفي الوقت نفسه كان هناك راهب اسمه توماس أوف غلوستر، جرى انتخابه بشكل نظامي من صدر الكنيسة، ومن ثم تم تنصيبه بصورة شرعية راعياً لدير ايفهام.

موت رالف نيفيل أسقف شيلستر

وأيضاً مات في العام نفسه الأب المبجل رالف نيفيل، أسقف شيلستر، ومستشار انكلترا، وكان رجلاً يستحق الثناء بكلية، وكان عموداً لا يمكن زحزحته بالاخلاص لشؤون الدولة، وقد أنهى مهمته الحياتية ليدخل في الحياة السرمدية، في الأول من شباط، وكان ذلك في لندن، في قصره الفخم، الذي بناه من الأساسات على مسافة عظيمة عن الهيكل الجديد.

حرمان النورمان من ممتلكاتهم الانكليزية

وفي مجريات هذه الأيام، قام ملك فرنسا، فجمع في باريس، جميع الناس من عبر البحر الذين لديهم ممتلكات في انكلترا، وخاطبهم على هذه الصورة:

«بما أنه من غير الممكن لأي رجل، يعيش في مملكتي، ولديه ممتلكات في انكلترا، أن يخدم بشكل كامل سيدين، لذلك عليه إما أن يربط نفسه بي بشكل لا يمكن قصمه، أو بملك انكلترا»، وبناء عليه توجب على الذين لديهم ممتلكات وموارد في انكلترا، أن يتخلوا عنها، وأن يحتفظوا فقط بالممتلكات التي لديهم في فرنسا، والعكس صحيح، وعندما وصل هذا إلى علم ملك انكلترا، أمر بوجوب انتزاع ممتلكات جميع الناس الذين هم من الشعب الفرنسي وخاصة النورمان، ومن ذلك بدا الأمر بالنسبة للملك فرنسا أن ملك انكلترا قد خرق المعاهدات التي أبرمت بينهما، بسبب أنه لم يفعل كما فعل ملك فرنسا، بإعطاء خيار للذين سيخسرون أملاكهم، بأن يكون ذلك في المملكة الأولى، أو في المملكة الثانية، وبذلك يمكنهم أن يختاروا لأنفسهم أي المملكتين يمكنهم أن يبقوا فيها، لكن بما أنه كان ضعيفاً جداً بجسده منذ عودته من بواتو، لم يرغب في تجديد الحرب، وفضل أن يلتزم بالصمت، لابل إنه استهدف اسكات الشكاوي الملحة للنورمان، وكذلك الرغبات النهمة والغاضبة التي أظهروها، للثورة ضد ملك انكلترا.

رسالة حول أحوال الأرض المقدسة

وانتشرت في الوقت نفسه في الأجواء المسيحية أخباراً مرضية، تأكدت بوساطة الرسالة التالية:

«من الراهب هيرمان أوف بيرغورد Perigord، القسيس المتواضع لفقراء جنود الهيكل، إلى أخيه العزيز في المسيح، روبرت أوف ساندفورد، المدرس في انكلترا، تحيات في الرب:

بما أننا ملتزمون بإخبار اخوتكم برسائل أو برسل حول ما يتعلق بأحوال الأرض المقدسة، كلما تهيأت الفرصة وقدمت نفسها، والذي ينبغي أن تعرفه أن سلطان مصر، بعد الأضرار التي تلقاها منا، وأن

الناصر، الذي كان آنذاك يتوسع بمشاريعه، والذي هو مساعده، والمضطهد للصليبيين، والذي لم يتوقف، قد أرغم مؤخراً وذلك وفقاً لقواتنا، على التفاوض معنا، وإن كان مكرهاً، وعلى إعادة عقد الهدنة، وقد وعد بأن يعيد إلى الصليبيين جميع الأراضي الواقعة على هذا الجانب من الأردن، وبناء عليه رأينا أنه من المناسب أن نرسل في هذه المناسبة، إلى حضرة السلطان المذكور في مصر، مندوبين، رجالاً نبلاء ومستقيمين من إخواننا الرهبان، وقد تحفظ عليهم وأبقاهم لمدة نصف سنة وأكثر، وقد اقتطع مما كان وعدنا به من قبل: غزة، والقديس ابراهيم (الخليل) ونابلس، وبيسان، وأماكن أخرى، وكان هذا الإجراء مؤذياً لنا، ثم إنه لم يعطنا شيئاً سوى كلام مخادع وفارغ، لكننا نحن أدركنا بفضل النعمة الربانية مكره وغدره، لأنه أراد الحصول على الهدنة منا فقط، حتى يتمكن بسهولة أكبر أن يضع تحت سيطرته سلطاني: دمشق، وحمص، والناصر صاحب الكرك مع أراضيهم، حتى عندما يتمكن أخيراً من وضع الأراضي الإسلامية بين يديه، التي هي مجاورة لأراضي الصليبيين، هو لن يحافظ ولا بشكل من الأشكال على أي من عهوده معنا، وذلك مثلما خرق وعوده مع قومه، ووقتها سوف لن يتمكن الصليبيون، الذين هم على هذا الجانب من البحر، والذين هم ضعفاء جداً، وعددهم صغير من الصمود، ووقتها لن يكونوا قادرين على المقاومة، وقد قمنا بحكمة بالتداول حول هذه المسألة، وكنا بحاجة إلى نصيحة الأساقفة وبعض بارونات البلاد، وبعد ذلك رفضنا بشكل صحيح هدنة السلطان المذكور، ورأينا من الأفضل التعامل مع سلطان دمشق، ومع الناصر صاحب الكرك، وبناء عليه تخليا للصليبيين عن جميع الأرض الواقعة على هذا الجانب من الأردن، وذلك باستثناء القديس ابراهيم، ونابلس، وبيسان.

ولهذا يتوجب على الملائكة والرجال أن يتتهجوا، لأن مدينة القدس

المقدسة مسكونة الآن من قبل الصليبيين فقط، لأن جميع المسلمين قد جرى طردهم منها، وجميع الأماكن التي منذ ست وخمسين سنة لم تشهد دعاء لاسم الرب، يقوم أساقفة الكنيسة باصلاحها وتطهيرها، ويحتفل بالقداسات الآن فيها يومياً، ولذلك الحمد للرب وله الشكر، ولزيارة هذه الأماكن الطريق هو مفتوح وحر، وآمن للجميع، وهذا ليس أمراً مشكوكاً به، بل من الممكن بقاء ذلك بسعادة، وبوضع مزدهر لوقت طويل من الزمن، إذا ما كان المسيحيين وحدهم على هذا الجانب من البحر، شروعاً من هذه اللحظة بعقل واحد، وبقلب واحد، ولكن بالأسف، كم عددهم كبير الذين موجودين، والذين من خلال الكراهية والحسد هم مضادين لنا، ويسببون الاضطرابات لنا، في هذه القضايا وسواها، التي توسع الأرض المقدسة.

وبناء عليه إننا وحدنا، مع رهباننا، وأساقفة الكنائس، مع عدد قليل من بارونات الأرض، الذين قدموا إلينا كل مساعدة ممكنة لديهم، نحمل على أكتافنا عبء الدفاع عن الأرض، وقد رغبتنا بامتلاك مدخل إلى المنطقة، التي تلامس أرض مصر، وممراً أيضاً في أرض القدس، أي أن نقول نحو غزة، وبهذا نلنا العون من سلطان دمشق، وكذلك من الناصر، صاحب الكرك، لكن ليس من دون خطر عظيم، ومتاعب وانهاك لأشخاصنا، ونفقات كبيرة في المال، مع تفكير حكيم وطويل قد أعطي إلى هذه الأعمال، ومع ذلك نحن نخشى بأن يقوم الرب بأخذ انتقام ثقيل، بمعاينة العاقين الذين كانوا مترخين وعصاة في هذه القضية، علاوة على ذلك، إننا نقترح، في سبيل حراسة وسلامة أرضنا، أن نبني قرب القدس، فوق جبل الطور، قلعة قوية جداً (إذا ما نجحنا بالحصول على عون رجال شجعان) بها نأمل بأن تكون عملية الحفاظ على الأرض أكثر سهولة، ومدافع عنها إلى الأبد، ضد الأعداء، ذلك أن الأشياء التي نمتلكها، إننا ولا بحال من الأحوال في وضع يمكننا فيه

تملكها والدفاع عنها بقوة لوقت طويل ضد السلطان، الذي هو قوي جداً، ورجل بارع، وذلك إلا إذا قام المسيح وأتباعه المخلصين بتقديم مساندة فعالة لنا.

مصادقية الرسالة المتقدمة مدعاة للتساؤل

عندما وصلت هذه الأشياء إلى مسامع كثير من المسيحيين، لم يتمكنوا من منح الثقة لا إلى الكلام ولا إلى الكتابة، ومرد ذلك وسببه سوء سمعة الداوية، ومثلهم أيضاً سمعة الاستبارية، لأنهم قالوا بأنهم دوماً يثيرون الصراع بين الصليبيين والمسلمين، حيث يمكنهم أثناء الحرب الحصول على المال من الحجاج القادمين من جميع البلدان، وكذلك بسبب خلافاتها المتبادلة، وكذلك بسبب أن لديهم نية باعتقال شخص الامبراطور، علاوة على ذلك، يمتلك الداوية في العالم المسيحي تسعة آلاف عزبة، ويمتلك الاستبارية تسعة عشر ألفاً إلى جانب التعويضات ومختلف الموارد التي تأتي من رهبانهم، ومن المقتنيات، التي كلها تزداد بامتيازاتهم، ويمكن لكل عزبة من هذه العزب، أن تجهز من دون صعوبة جندياً واحداً، مسلحاً بشكل جيد وأن يكون شاكي السلاح، من أجل نجدة الأرض المقدسة، وأن يكون أيضاً مزوداً بجميع الأشياء التي لها علاقة بالتسليح الكامل للجندي، وعندما يتأمل المسيحيون بهذه الأشياء، ويتفكرون حولها، يفترضون دوماً أنهم يخفون بعض الغش، وأن لديهم بعض الخيانات الذئبية تحت رداء الشيا، لأنه لو لم يكن هناك بعض الخيانة والغش، لأمكن لأعداد كبيرة جداً من الفرسان الغربيين الشجعان، أن يخرقوا جميع صفوف المشاركة وأن يلحقوا بهم هزيمة ماحقة.

إصلاح طائفتي الدومينيكان والفرنسيسكان وفق نظام البندكتيين

وفي الوقت نفسه، كان الرهبان، وبشكل رئيسي رهبان الدومينيكان،

جاهلين بأحكام طائفتهم، وقد أدينوا بشكل غير حكيم تماماً، على أساس تجاوزهم لأنظمة القديس بندكت، الأمر الذي أظهرناه في هذا الكتاب، قبل عدة فصول، وقد عوقبوا بممارسة القسوة البابوية عليهم، وجرى توجيههم نحو طريق أفضل بموجب سلطات الرسالة التالية:

«من أوتو الذي هو بالاذن الرباني، أسقف بورتو Porto، للقديس روفين Rufin و غودفرد Godfred، وبالرحمة الربانية كاردينال شماس للقديس أدريان Adrian، إلى جميع الذين سوف يحترمون هذه الرسائل، تحيات الرب:

اعلموا بأننا رأينا، وبيقطة تفحصنا الرسائل الرسولية، التي لم تمح، أو تمسح، أو تتشوه، في أي جزء، بل هي في شكلها الأصيل، فوجدنا مرسوماً صحيحاً، لم تتعرض خياطته أو كتابته، ولا ورقه للتلف، والذي محتواه هو التالي:

من انوسنت، إلخ، إلى معلم ورهبان طائفة الدومينيكان، صحة ومباركات رسولية: إنه ليس فقط لصالح الرهبان، بل أيضاً لصالح الدير، أنه جرى منح وقت للامتحان وسمح به من قبل الآباء المقدسين، في أن يتمكن أحدهم في الحصول على نموذج عن صرامة طريق الحياة ذلك، وأن يتمكن الآخر من الحصول على الوقت لكي يتعلم مبادئ مثل الدير والرهبان، وفي أحكام القديس بندكت جاء الأمر أيضاً، أن الذين هم على نقطة التحول، سوف لن يجدوا دخولهم إليه سهل جداً، بل حسب تعاليم الرسول، ينبغي فحصه لتبيان فيما إذا كانت الروح من الرب، وأن المصاعب والمخاطر القائمة على الطريق إلى السماء، يتوجب إيضاحها تماماً، وأضيف فيما بعد في الأحكام نفسها، ينبغي إخباره، أن هناك شريعة، في ظلها عليك أن تتابع الأعمال الروحية المفيدة، فإذا ما كنت قادراً على الالتزام بها، ادخل إلى الرهينة، لكن إذا لم يكن بإمكانك ارجع حراً كما أتيت، وعلاوة على ذلك، فإن سلفنا البابا غريغوري،

صاحب الذكرى السعيدة، قد وضع شريعة قضت بإعطاء المستجدين الذين هم تحت الامتحان، قبل ارتداء الزي الديني، إلى الذين يعملون النذور الرهبانية، أو قبل أن يعملوا نذورهم، يمكنهم — إذا أرادوا — خلال عام، العودة إلى طريقهم الماضية في الحياة، ومرة ثانية، حتى نزيل كل شك حول هذا الموضوع، بما أنه هناك في بعض الدير، زي المستجدين فيها ليس متميزاً عن زي المحترفين، لأن الثياب التي تعطى إلى الذين عملوا نذورهم تجري مباركتها أثناء الاحتراف، من الممكن عمل تمييز بين أزياء المستجدين وأزياء المحترفين، ومع أنك بحماسك، لديك رغبة عظيمة لكسب الأرواح إلى الرب، مع ذلك إنه بسبب أنه من المطلوب ومن الموائم، أن لا يكون حكم العقل بحاجة إلى نقاء الضمير، خشية أن يحصل أذى إلى الخلاص من ذلك المصدر، الذي صمم فقط لمنح المنفعة الروحية، قمنا نحن بناء على نصيحة إخواننا، وبموجب سلطات هذه العروض، بمنعكم بكل دقة، بموجب فضيلة طاعتكم، وتحت طائلة آلام عقوبة الحرمان الكنسي، من الإقدام على قبول أي واحد سوف يعمل النذر في طائفتكم، أو أن يتخلى عن الدنيا، قبل انقضاء سنة امتحان، تؤسس بشكل نظامي بمشابة عون للضعف البشري، ولنع أي إنسان، بكل طريقة من الطرق، إذا كان في وضع المستجد أو الامتحان، من العبور، أثناء سنة الامتحان نفسها، إلى أي طائفة رهبانية أخرى، سوف يظن أنها أفضل، أو يعتقد أنه أحسن إلى حريته الانتقال حسب إرادته، دون أن يعبا بأي نظام يمكن أن يكون معاكساً، وإذا كنا قد أمرنا قط بشيء من هذا، نحن نعلم هنا أن ذلك ملغى وفارغ، أو أية رسائل تم الحصول عليها، أو سيتم الحصول عليها من الآن فصاعداً، من الكرسي الرسولي، لا تقدم ذكراً واضحاً للمقدمات، وإذا صدف بشكل ما وأقدمتم على استقبال أي واحد بشكل معاكس لهذه المحظورات، نحن نرسم، بأن الذي جرى استقباله على هذه الصورة، هو ليس مرتبط بطائفتك، وأنت منذ وقت تقبله

للاحتراف في الطائفة نفسها، سوف تكون بالفعل معلقاً، وأكثر من هذا عرضة للعقوبة التي يجري انزالها برهبان الطائفة، بسبب جرائم أعظم، لاتدع أحداً، بناء عليه إلخ. صدر في مدينة كاستيلانا Castellana، في السابع عشر من حزيران، وفي السنة الأولى من حبريتنا».

«وقمنا بناء على شكوى الرهبان الفرنسيين، بنسخ محتويات هذه الرسائل كلمة كلمة، وأن يجري تثبيتها بأختامنا. صدر في سوتري Su- tri في اليوم الثالث من حزيران».

وجرى نشر هذه الرسائل، التي تمّ الحصول عليها، في هذه الآونة من السنة وتعميمها، مع الأمر بالالتزام بها كما تقدم.

ملك إنكلترا يتولى تعيين بعض المستشارين الجدد

وفي هذه الآونة عيّن السيد الملك اللورد بوينتز بير Poyntz، Piper فارساً، يقوم بأعمال القهرمان لقصره، وكذلك بوينتز نفسه، وجون مانسيل Mansel، مستشار كنيسة القديس بولص في لندن، وكانا معاً شخصين حكيمين ومجربين، ليكونا مستشاريه الرئيسيين وكذلك المعلم لورانس من كنيسة القديس مارتن، الذي كان فيما مضى مقيماً كمراقب لمقرّب لوليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، وليج، والذي هو مدير لجميع مجالس الملك، وجميع القضايا المتعلقة بالكنيسة، فقد جرت ترقيته الآن ليكون قسيسه وكاهنه الخاص، لأنه كان رجلاً صاحب حكمة كبيرة وخبرة.

فرار أسقف وينكستر إلى فرنسا

وفي تلك الآونة، لاحق أساقفة: لنكولن، وووركستر، وهيرفورد، الملك، الذي وضح أنه كان يتجنبهم، ووجدوه، أخيراً في ويستمنستر، فوجهوا الملامة إليه بحدة، من أجل اضطهاده وطغيانه، الذي لم يتوقف عن ممارسته يومياً نحو أخيه وزميلهم، أسقف وينكستر، وفي الوقت

الذي قدموا فيه الالتماس بعد الالتماس، أضافوا التهديد إلى التهديد، وكانوا جاهزين لوضع بيعته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، طلب الملك بعض التأخير، حتى يمكنه إجابتهم حول الموضوع بدقة أكبر، وذلك حتى يعود رسوليّه، اللذان كانا قد عبرا الألب، لأنه كان يأمل، من دون أدنى شك، بأنهما سوف يرشوان البلاط البابوي، وأن ينفذا كل شيء وضعاه بذهنيهما، وتولى الأساقفة الذين تقدم ذكرهم أعلاه الاستجابة لطلب الملك، ولكن عندما شاهد أسقف وينكستر انخفاض حرارة اندفاعهم، هرب بشكل سري، في العشرين من آذار، حيث ركب ظهر سفينة في لندن، في سبيل أن يعبر إلى فرنسا، وقد أبحر عبر نهر التيمز، وقطع مسافة قصيرة إلى البحر، ووصل إلى ميناء القديس فاليري Valerie، قبل حمل أخباره إلى الملك، أو إلى أي واحد من أعوانه، ثم أنه انتقل من هناك إلى أبيفيل Abbeville، وهناك استقبل بشكل رسمي من قبل مبعوث من ملك فرنسا، فقد استقبله هذا المبعوث نيابة عن سيده، بسرور وبهجة، وبأسارير فرحة، ووعد به جميع الأشياء التي نصح بها الملك، وبالمساعدة، مع كل مواساة وحماية، وأعطى أيضاً أوامراً صادرة عن سيده، بأن يقوم عمدة أبيفيل بإعداد جميع سكان أبيفيل، وأن يجعلهم جاهزين للدفاع عن الأسقف المذكور، إذا صدف وأمر ملك انكلترا بملاحقته وإلحاق الأذى به، وأن يطيروا وقت تطلب الحاجة إلى السلاح، وأن يقاتلوا برجولة ضد جميع المهاجرين دفاعاً عنه.

مقتل غريفن بن اللويلين أثناء محاولته الفرار من برج لندن

أثناء موت الحظ، وتأثيره هكذا على شؤون العالم، كان غريفين الابن الأكبر لـ «اللويلين» أمير شمالي ويلز، مايزال محبوساً سجيناً في برج لندن، وكان يتسلم كل يوم من خزانة الملك، نصف مارك لتزويده بالطعام والخ، وبسبب مكانته، ومع أن زوجته تسلمت إذناً بزيارته،

كان متأثراً بعمق بمشاق السجن الطويل التي كان غير معتاد عليها، وفكر كثيراً حول كيف يمكنه الفرار من موضع سجنه، وفي إحدى الليالي، قام بعدما خدع سجانيه، فعمل حبلاً من أغطية فراشة، ومن ستائره وأغطية مائدته، قام بتدلية نفسه عامودياً، بوساطة الحبل نفسه، وذلك من أعلى البرج، وبعدما نزل بعض المسافة، انقطع الحبل، بسبب وزن جسده، وسقط من علو كبير، لأنه كان رجلاً كبيراً، وبدين جداً، وبهذه الطريقة دق رقبتة ومات، وتم العثور على جسده المحزن في الصباح قرب سور البرج، وقدم مشهداً مؤسفاً لجميع الذين رأوه، لأن رأسه مع رقبتة كانا مدفونين تقريباً في صدره، بين كتفيه، وعندما سمع الملك بهذا، وبخ الحراس وعاقبهم بسبب إهمالهم، وأمر بابن غريفين المذكور، الذي كان مسجوناً مع أبيه، فشدد الحراسة عليه، ومات غريفين المذكور، الذي سقط من البرج كما ذكرنا، في اليوم الأول من آذار.

تناقص شعبية ملك إنكلترا بسبب نفي أسقف وينكستر

عندما نفي أسقف وينكستر، تناقصت سمعة ملك إنكلترا كثيراً، في جميع أرجاء البلدان الواقعة على هذا الجانب من الألب، واتخذ الفرنسيون، الذين كانوا دوماً خصوم الإنكليز، ذلك حجة من أجل فضحهم، قائلين:

«انظروا إلى هناك، نحو ملك إنكلترا، الكسول والمهمل بالنسبة إلى جميع أعداء المملكة، لكن المضطهد والمعذب لأساقفته المقدسين، ولقد كان هناك من قبل القديس أنسلم رئيس أساقفة كانتبري، ومن بعده القديس توماس الشهيد، والآن في السنوات الأخيرة المعترف المجيد ادموند، ومثل ذلك هناك الآن الرجل التقي أسقف وينكستر، الذي خدمه لوقت طويل بإخلاص، وكان صديقاً مقرباً منه، لكنه الآن يرفض أن يسمح له أن يكون في أمان السلام، والذي طرده، بلا حياء،

إلى خارج حدود مملكته، ثم هو يطارده بطريقة عدوانية»، الأمر الذي عندما بات معروفاً من قبل بونيفيس الأسقف المنتخب لكانتربري، قام صدوراً عن عاطفته ولطفه الفطري، ولحزنه على تناقص شعبية الملك، فكتب بطريقة حبية كثيراً إلى أسقف وينكستر كلمات مواساة، وإلى ملك إنكلترا كلام تقريع، وفق الصيغة التالية:

رسالة بونيفيس المنتخب لكانتربري إلى أسقف وينكستر

«من بونيفيس، الذي هو بنعمة الرب، المنتخب الحقيق لكانتربري، إلى الأب المبجل في المسيح وليم، الذي هو بنعمة الرب أسقف وينكستر، تحيات في الرب:

بما أنك قدمت في رسائلك طاعتك إلينا، وللمنصب الذي نشغله، نشكرك في المسيح من أجل تقواك، وحسبما قضيت أنه مناسباً أن تتقدم بطلب إلينا بوساطة المعلم وليم، الذي هو كاهنك، إعلم بأننا تعاطفنا مع شكواك، بقدر أن لانغضب الرب، أو نخرق القانون، وسوف تسمع المزيد حول هذا من وليم المذكور، واعلم واسترح متأكداً، أنه قبل قدومنا إلى إنكلترا، إذا لم يكن السلام بينك وبين الملك لم يسترد، بإننا سوف نصرف أنفسنا بكل فعالية لذلك، ولسوف نستخدم وسائل أقوى للحصول على محصلة عادلة لهذه القضية، وبما أنه ليس لدينا ختم خاص بنا، استخدمنا هذا الختم العائد لهيئة كهنة بيلي Bellay، وداعاً».

رسالته إلى ملك إنكلترا

«من بونيفيس، إلخ، إلى الملك، إلخ:

لقد تلقينا رسائل من بعض الأساقفة المساعدين في كانتربري، يلتمسون فيها بكل اخلاص إقامة سلام بينكم وبين الأب المبجل المسمى لكنيسة وينكستر، والذي تسميته قد جرى قبولها من قبل الكرسي المقدس، ولذلك يتوجب تثبيته، وإننا بناء عليه، رغبة منا

بالهدوء للمملكة، وبالحفاظ على سلام الكنيسة، التي هي عرضة للخطر في هذه المناسبة، ولأن الذي يصغي، كما يليق إلى شكوى الأب المذكور، يجد من المعروف أنه مفيد ونافع لكل من الكنيسة وللمملكة، نرجو سموكم بتقوى بأن تتلطفوا بأن تعيدوا الأب المذكور إلى حظوتكم، بحكم أنكم ملك صالح، وأمير يخاف الرب، وهكذا ينبغي أن يفعل، وبما أنه ليس لدينا ختم خاص بنا» إلخ (كما من قبل).

كما أنه كتب أيضاً إلى أسقف هيرفورد، ليشغل نفسه بيقظة وبفعالية، بما يتعلق بهذه القضية، أي قضية أسقف وينكستر بالإقناع بالالتماسات وبالتهديد.

ملك هنغاريا يطلب المساعدة من الامبراطور فردريك

وكان ملك هنغاريا في هذه الآونة قد طرد من مملكته من قبل التتار، لذلك تقدم بطلب إلى بلاط الامبراطور، وطلب نصيحة فعالة ومساعدة ضد العدو المشترك، وجرت مداولات سرية وطويلة، إثر ذلك، وقد تقرر بأن يقوم الامبراطور بيد قوية بالعمل على تحرير مملكة هنغاريا من نير الاحتلال البربري على شرط قضى أنه عندما سيسترد الملك مملكته، وعندما تعود إلى الحرية والسلام بوساطة الامبراطور سوف يعدّ الامبراطور سيداً سامياً له.

وبناء عليه جرى إرسال جيش كبير، وتمكن الامبراطور من تحرير المملكة المتقدم ذكرها أعلاه من التتار المتوحشين، لكن ذلك لم يكن من دون بذل كثير من المال، والتعرض لمخاطر عظيمة ولقد طردهم بقوة وبقدرة إلى ما وراء حدود المملكة، وكان هناك بعض الذين قالوا بأن هؤلاء التتار المقنوتين، قد جاءوا أولاً بموجب دسائس الامبراطور ومؤامراته، وكانوا بانتظار مطالبه، ومرتبطين بتنفيذ أوامره، وقد تصرفوا بطريقة تمكن الامبراطور من اخضاع ذلك الملك ووضعه مع مملكته

تحت سلطانه، لكن هذا ما كان قد تهامس به الذين كانوا غيورين منه، ومثل هذا الافتراء ينبغي عدم تصديقه، وعندما على هذا صارت مملكة هنغاريا محرة، وعاد ملكها بسلام، صارت هنغاريا خاضعة إلى الامبراطورية، وصارت ملزمة بتقديم ثلاثمائة فارس مع أتباعهم، للقتال على الحدود لصالح الامبراطور، باخلاص واستقامة.

هزيمة امبراطور القسطنطينية والتجائه إلى الامبراطور فردريك

وفي ذلك الوقت نفسه هرب امبراطور القسطنطينية من اضطهاد الاغريق، وبما أنه لم يكن لديه شيئاً في خزينته يمكنه من متابعة الحرب، أو الوقوف ضد الهجمات المتتالية للاغريق، هرب إلى بلاط فردريك الامبراطور الروماني من أجل النصيحة والمساعدة، وقام الامبراطور أولاً بتقديم تهديد مرعب ضد الاغريق، ثم إنه قام بشكل أكثر حكمة بالمناقشات معهم، وحصل له أخيراً على هدنة لمدة عام، ووافق الامبراطور فردريك نفسه على زواج بين ابنته وبين المقدم الكبير للاغريق واسمه بتاكيوس Battacius. وسبب هذا غضباً عظيماً وازعاجاً لمولانا البابا وإلى البلاط الروماني كله، بسبب الشقاق الذي أثير بوساطة بتاكيوس، وقامت منذ ذلك الحين كراهية قاسية جداً ومستمرة بين مولانا البابا، وبين الامبراطور فردريك.

التتار يتفرقون باتجاه الشرق

وفي الوقت نفسه، كان التتار يتربصون هناك، غير قادرين على الصمود أية مدة أطول ضد هجمات الامبراطور، لذلك غادروا المناطق الشمالية، وارتحلوا مسرعين نحو الشرق، وعندما كانوا يجتاحون بشكل وحشي بعض مناطق ايران، كان هناك بعض الناس المتوحشين جداً، والذين سكنوا على تخوم البحر الأحمر، وكانوا إلى حد بعيد خاضعين لسلطان مصر، وكانوا يعرفون باسم الخورازمية، وكانوا قد هربوا من

أمام تهديدات العاصفة الهوجاء، محاولين تجنب الاجتياح التتري، وقد ذهبوا إلى سلطان مصر، وطلبوا بسرعة وبوقاحة وصلف مكاناً يسكنون به، وعندما وجد السلطان أنه إذا مارفض برعونة مطالبهم سوف يستولون بالقوة على ماطلبوه وسيحصلون عليه بحد السيف، قال لهم:

«هناك على مسافة ليست بعيدة عن هذا المكان، يوجد بعض الناس، الذين يدعون باسم الصليبيين، وهم يسكنون في الأماكن الساحلية، وهم يزدرون شريعتنا، وهم مثيرين للمتاعب لنا، ويسببون الأضرار لنا، ويهددون بالبقاء هكذا والاستمرار، ومركزهم المهم ومقرهم الرئيسي هو مدينة القدس، اذهبوا بناء عليه، واطردوهم وعيشوا حيث يعيشون الآن، وهذا عندما تحصلون عليه، سوف تصبحون أثرياء بالأسلاب الثمينة، وسوف تمتلكون أراضي خصبة، وستتهجون بالقلع والمدن التي تتمناها قلوبكم، وسوف تكونون من ذلك الوقت سعداء في ظل حمايتي، وظل حماية جميع شعبي»، وبناء عليه فرحوا كثيراً بهذا الكلام، وهاجموا أولاً القدس وقتلوا عدداً كبيراً من الصليبيين، حسبما حصلنا على معلومات وافية عن ذلك في رسالة من نبلاء تلك البلاد.

رسالة الامبراطور حول إفراغ الأرض المقدسة من السكان

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن ختنه المحبوب، رتشارد، إيرل أوف كورنول، تحيات، وعواطف خالصة أكيدة:

في راما سمع صوت بكاء ونحيب، وعويل، وحزن عظيم، وهو صوت، انتشر، كما أفادت الأخبار، مثل انتشار أخبار حزننا، وهو صوت، كما يبدو يدفعه تيار الحظ المعاكس إلى آذاننا، ليوضح أن الشرور لا تأتي لوحدها، فهناك أخبار تجلجل مثل أصوات الرعد ويتردد صداها حول القدس، وتعلن عن العاصفة المقبلة، التي فيها إفناء دموي لأتباع

المسيح، وعن الخسارة المؤلمة لضريح الرب، ثم عن التدمير المريع للمدينة المقدسة، وهذا في أيامنا! وفتحت هذه البروق سحب السماء، ليس من أجل تساقط الندى، أو زخات مطر خفيفة، بل لتهطل علينا بفيض من المصائب، ولبعض الوقت أنعش الحب، والإيمان الصحيح، المسيحيين الذين نجوا من المذبحة التي عملها الخوارزمية، ليقوموا بالانتقام لذلك الدمار، ولتلك الفاجعة الكبرى، ففي اللحظة نفسها لمؤتمرات القادة، ومع رغبة كل عسكري خاص ألهم لأن يفعل شيئاً ما رداً على تلك الانتكاسة، كان بطريك القدس، يأمل بأن يحصل لنفسه على مجد النصر كله، وكان يبحث عن كل أمير آخر، وشريك هناك غير جدير ليكون شريكاً معه، وهنا بدأ يبشر بصليبية الرب، ورفع من معنويات الذين سمعوه، وألهبهم بشجاعة وصلت إلى حد الطيش، وبناء عليه قام الجيش الصليبي، من دون انتظار للساعة المواتمة، وهي القاعدة الأكثر أهمية في الحرب، في يوم الاثنين قبل عيد القديس لوقا الإنجيلي، وهو مكوّن من جميع أنواع الفرسان الأجانب، قام أفرادهم بإلقاء أنفسهم على الخوارزمية المتقدم ذكرهم، الذين كانوا متوقعين للهجوم، وكانوا مستعدين للمقاومة، وهكذا حدث في هذه المعركة السيئة الطالع، أنه لم ينج أحد من جميع الصليبيين، من القتل، أو من الوقوع بالأسر، ونجا آخرون — وكانوا قلة قليلة — بفضل وسائل التفريغ التي واجهوها أثناء فرارهم، وكان معظم هؤلاء من الذين لم يندفعوا بطيش إلى وسط حومة القتال، حيث كان هناك قرع للسلاح، وزحمة ضربات المتنازلين، وكان الذين نجوا من بين جميع بارونات الأرض المقدسة، ومن عساكر مملكة القدس، ومن بين جميع عسكري رهبان الداوية، الذين بعثوا بثلاثمائة، ومن اسبتارية القديس يوحنا، الذين كانوا قد أرسلوا مائتين، ومن بين جميع الذين حشدتهم فرسان رهبان القديسة مريم للتيوتون، كان الذين نجوا من هؤلاء ليس أحداً، إلا البطريك المتقدم الذكر، واللورد سيمون دي مونتفورت (الذي كان

حامل علم المملكة، وقائد المقدمة) وأربعة فرسان، وعدد ضئيل جداً من خدم الداوية، وتسعة عشر من الاستارية، وثلاثة خدم فقط من خدم الفرسان التيوتون، فهؤلاء فقط الذين عادوا، ولقد عادوا إما لحسن حظهم، أو بوساطة الفرار، وكان هناك رجال من ذوي الشهرة مثل أسقف اللد، وصاحب حيفا، قد سقطا على أرض المعركة، وقد أصيبا بجراحة مميتة، وقد أصيب وولتر أسقف يافا بجراحة قاتلة، أما رئيس أساقفة صور الذي لم يمت من جراحاته، فقد ألقي به في السجن، وقد علم سمونا بهذه الأشياء كلها، من الرسائل التي أرسلت إلينا من بيت رهبان القديسة مريم للتيوتون.

وتسبب هذه المحصلة المحزنة للأشياء، وتقدم في ذاتها سبباً للأسى، وتسحب المرارة من قلوبنا، ومن قلوب جميع أمراء الإيمان المسيحي، وهي تستحق انهار فيض من الدموع من أعيننا، بسبب طبيعة الفاجعة، لأنه تقدم عليها خطأ كبير، وتبعها كثير من الإهمال، لأنه بالاضافة إلى إثارة هياج الفخار الديني للداوية، الذين عاشوا على موارد بارونات الأرض، لقد أرغموا بحرب غير عادلة وغير حكيمة سلطان مصر على طلب مساعدة الخوارزمية، وذلك في ازدراء كامل لمعاهدتنا الملكية التي عقدناها مع ذلك السلطان، ومعنا بيتي رهبان القديس يوحنا، والفرسان التيوتون للقديسة مريم، وقد أظهر هؤلاء الذين تقدم ذكرهم سذاجة طفولية، ودليل على حماقة وذلك عندما وضعوا ثقتهم في البرابرة المتذبذبين، متوقعين أن يجدوا الوفاء لدى الخونة، فباستخدامهم لوسائل غير آمنة، اتحدوا مع سلطاني دمشق، والكرك، اللذان لم يختلفا عنهم بالعقيدة فقط، لابل تفاوتاً معهم بالمصالح، وكان الهدف من ذلك تقديم العون ضد الخوارزمية والسلطان، وكانوا بهذا كمن أرسلوا بكميات من الزيت لصبها فوق النار الملتهبة.

وبناء عليه، حسبنا سمعنا بشكل واضح، وروي لنا، من بعض

الرهبان الذين قدموا من المناطق الأجنبية، استقبل الداوية السلطانيين المتقدمي الذكر، مع أتباعهما في أرباض بيوتهم، أي بيوت الداوية مع الفرح و الاحتفالات، وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم الوهمية، وأبتهتهم المدنية، مع الدعاء باسم محمد (صلى الله عليه وسلم)، ولم يعد من الممكن إبعاد هؤلاء الذين وجهت إليهم الدعوة، ولا بأي شكل من الأشكال، ولا باللطف من طبيعتهم، كما أنهم لم ينشوا عن البقاء بوساطة وعد التحالف، الذي أقسموا عليه، وذلك عن متابعة ميولهم العدوانية، لابل أظهروا بشكل واضح جداً أن الحنث باليمين وليس بالحري الوفاء به، هو الذي قائمين به، أما سلطان حمص، الذي أرسله سلطان دمشق، لمساعدة الذين عملوا تحالفاً للقتال ضد سلطان مصر، والذي لم تكن لديه آمال بنيل الخير على يدي سلطان مصر، فقد هرب، ونجا من المعركة مع خمسة فقط من رجاله، أما بالنسبة للبقية، فإنهم بعد صراع قصير، تظاهروا فيه بالقتال، ذهبوا سالمين مع رجالهم كلهم إلى سلطان الكرك، من دون قتال، ولا حتى ما يشبه القتال، وهكذا صفوا أنفسهم على جانب الذين اقترنوا بهم في قلوبهم، وعلاوة على ذلك إن الإهمال الشديد الذي هو الخطوة الأخيرة نحو الدمار، عندما تكون سلامة واحد معلقة على عصا، ويلفظ كل خطر، ويهددنا بدمار سريع، وبالنسبة لزعماء الشريعة الأرثوذكسية — وهو أمر نحن جميعاً أرثوذكس — لا يمكننا أن نكتب عنهم من دون ألم كبير، هم بعيدين عن التفكير حول ترميم مثل هذه المأساة المحزنة، باستثناء التنهات، وفق طريقة أجدادنا، من أجل مثل هذه الأحداث المؤسفة، ولكن وكأن الشؤون لم تكن شؤون المسيحيين، أو الإيمان المسيحي، لم نهتم بجراحاتنا، ولم نهتم حول أوجه المعالجات، فالرب قد طاردنا، ونحن لم نتشكى، فنحن محاطون من كل جانب بأسقفنا المحترقة، ومع ذلك لم نركض من أجل احضار الماء، لابل كل واحد متمجد مسرور في سوء حظ الآخر، ففي المكان الأول الوحشية الجديدة للتتار قد أذهلتنا، وفي

المكان الآخر هناك النكد القديم للشعوب البربرية يحرقنا ويعذبنا.

ثم هناك في الأماكن الأخرى الخيانة المخجلة للبيترنيين التي قد أغضبتنا، وفوق كل شيء، خيانة الذين يضعفون الامبراطورية المقدسة في إيطاليا بوساطة أعمال عصيانهم، حيث أنهم بذلك يعيقوننا عن اخضاع الشعوب البربرية إلى الامبراطورية المسيحية، وفقاً لما تطلبه الكنيسة الكاثوليكية في طقوسها المقدسة، وهكذا دفعنا في كل اتجاه من قبل الأعداء المعلنين، أو من قبل عذاب الأعداء المتخفين، والشيطان يعمل بشكل متواصل، وهو متيقظ، بينما سمعان نائم، ونحن غير مُتسامح معنا هناك، حيث يمكن للنوم أن ينعش أعيننا، وللرقاد أن ينعش قلوبنا، وانفضوا بناء عليه، أيها الرجال الشجعان، واحملوا سلاحكم وترستكم للانتقام لأذى أيامنا، فهي مدونة بشكل أننا لايمكن أن نتجنبها، والرب هو الشاهد علينا، بأننا قدمنا دوماً بكرم زائد العون لمساعدة الأرض المقدسة، أكثر مما طلبته من عون من الآخرين، لأننا نعتقد أنك لست جاهلاً بالعسكريين من وراء الألب، الذين هم قوم يحبون القتال، وكيف أنهم حملوا شارة الصليب الرائع، وعهدوا بأنفسهم لخدمة الأرض المقدسة، ثم كيف دعوا بوجوب أن يعهد بها إلى مقدم مشهور، وأن يجري توجيهها من قبل الذين كانوا يعبرون البحر، فلم يرفض سمونا منحها التأييد بموافقتنا.

علاوة على ذلك، لقد عرضنا شخصنا، أو شخص ابننا، أو أي قائد آخر، يراه هؤلاء القوم أنه شخص مناسب، واعددين بوجوب أن يصاحب الجيش ألف فارس مأجورين، نحن سوف نتولى الدفع إليهم باستمرار، للمساعدة في مثل هذا الشيء الجيد، وبناء على هذا أرسلنا بيرارد Berard، رئيس أساقفة بلرم، وأسقف ريغيو Reggio، وفلورانسا، وكذلك غ. G أسقف سوسة، المحبين منا والمقربين إلينا، إلى غريغوري، الذي كان آنذاك الخبر الأعظم الحاكم، وذلك

ليكونوا بمثابة نواب خاصين من سمونا، ليسألوه لاشيء أكثر من الحماية —بوساطة حارس أمين ومناسب— لنا، ولأولادنا، ولامبراطوريتنا، وللملكنا، ولكي يمكن أخيراً إرجاع اللومبارد المعاندين الوقحين والعصاة علينا، إلى معاودة الاعتراف —حسباً متوجب عليهم أن يفعلوا— بالحقوق وبالسيادة العائدة إلى الامبراطورية الرومانية، ومن أجل أنه عندما يشاهد العصاة المتقدم ذكرهم أعلاه، أن يتحادثهم، أو بالحري، تأمرهم قد جرى تدميره، وقتها يمكن أن يدفعوا من أجل أن يسددوا لنا مواردنا، مثلما يفعل رعايانا الآخرون، وكما تدفع الدول الأخرى إلى ملوكها وسادتها الشرعيين.

ثم إننا بعدما قدرنا الظروف، وأحوال الزمان، رأينا مسبقاً ماوقع حالياً، وارتعنا منه، (مع أن معرفة الذي سيكون هو أمر مرفوض ولا يمكن معرفته من قبل إنسان فاني) لأن شرور الأيام قد اتسعت بشكل كبير، وأنه في سبيل دمار إيطاليا سمح البابا الحاكم للكنيسة، بموافقة مع البابوية وتنسيق بزيادة عدد أعدائنا، وغريغوري البابا الحاكم قد مات، وقد ضعفت السلطة البابوية بخلافات هذا الوقت وتمزقاته، والذي يحكم الكنيسة الآن، والموضوع على رأس البابوية، قد قدمنا له، بوساطة مندوبينا مقترحات أكبر بكثير، مما كان من قبل، وهي مقترحات ما من أحد فكر مصيباً قط، أن من الحق جواز رفضها، وعدم قبولها، وهذه المقترحات، هي أننا بعد اعتمادنا على مولانا الجبار يسوع المسيح، الملك المنتصر، صرفنا أنفسنا لأن نحمل على أكتافنا حملاً ثقيلاً، وأن نثقل أنفسنا بجميع شؤون ماوراء البحر، وعلاوة على ذلك فيما يتعلق بالعاصفة المهددة للتتار، وبالمخاوف من جهة امبراطورية القسطنطينية، فذلك سيكون وفقاً لما قدمه الرسول المتقدم لسمونا من تعليمات إليكم وإلى الملوك الآخرين والأمراء.

آه، كم كانت الفوائد كبيرة، التي كانت ستكون بعد حين، لفائدة

الصالح العام، من الترياق الذي تم عرضه من قبل اخلاصنا، في الوقت الذي كان من الممكن فيه معالجة الضعف، وذلك قبل وقوع الضربة الثانية من الحظ المعاكس، وتوجيهها ضد الجرح، ومضاعفة آلام الندبة الأولى، ونحن لانعتقد أن الأمور ينبغي أن تترك هكذا لليأس أو للموت من دون التفكير بعلاجات هي ممكنة وينبغي العودة إليها، وبالنسبة إلينا، إن جبروتنا لايمانع في المساهمة في خطة مفيدة من هذا النوع، لابل إننا نعد بتقديم مكاتبنا الجيدة برغبة أعظم، ولأننا نشاهد بأن الفأس قد وضع عند جذر الشجرة، نقدر أنه بات من الضروري بالنسبة لنا ولجميع أمراء الإيمان الصحيح، أن يقدموا بناء عليه المساعدة، حيث مادامت إيطاليا على كل حال بسلام معنا، وممتلكاتنا وحقوقنا التي تمتع بها أبوينا الأقربين بسلام في كل من الامبراطورية والمملكة، حيث عادت إلينا ومعنا بسلام، فإنه بذلك استرد جناحانا نشاطهما، وتماسك ريشهما، فهما يمكن أن نحلق عالياً بأمان أعظم. صدر في فوجيا Foggia، في السابع والعشرين من شباط، في العلامة الثالثة».

رواية موجزة حول الفاجعة المذكورة أعلاه

وكان سبب هذه الفاجعة المحزنة، التي ورد ذكرها أعلاه، والتي وقعت أولاً في مدينة القدس هو مايلي: عندما قام الخوارزمية بهجومهم المفاجيء على البطريك، وعلى سكان المدينة، هرب البطريك المذكور، مع أسر أهل المدينة بكل سرعة إلى يافا، لالتهجا هناك، وقام الخوارزمية المكورة، في سبيل إعادة الفارين، واصطيادهم لقتلهم، برفع أعلام الصليبيين —الذين كانوا قد هربوا فجأة— فوق شرافات أسوار المدينة، ونتيجة لهذا، فإن بعض الصليبيين الذين كانوا متخفين خارج المدينة، تركوا أماكن تخفيهم، وامتطوا خيولاً سريعة، ولحقوا ببني جلدتهم الصليبيين، بموجب عواطف روح الأخوة، ودعواهم للعودة، وأعلنوا

بأن رفاقهم الذين بقيوا في المدينة، قد انتصروا بسعادة على أعدائهم، ورفعوا أعلامهم بسرور فوق الأسوار، وبناء عليه عادوا، لكن عندما حملوا أنفسهم مع شعور بالأمان، ودخلوا إلى المدينة، أو إلى أحوازها، كان القوم المتقدم ذكرهم مسلحين حتى أسنانهم، وكانوا مستعدين من قبل، ولذلك انقضوا على الصليبيين الفارين، وقتلوه جميعاً بحد السيف، ثم قام قومنا الذي بقيوا سالمين ولم يتعرضوا للأذى في المدن والقلاع الأخرى، فحشدوا جيشاً كبيراً، وقرروا بالاجماع طلب الانتقام لدماء إخوانهم، وأن يكون انتقامهم من أعدائهم دمويًا وبأيدي ثقيلة، وأنشبو معهم القتال، لكنهم سحقوا، كما هو واضح من رسالة الامبراطور المكتوبة أعلاه، وهكذا كان نصيب الأكثرية القتل، وكانوا قلة الذين جرحوا والذين نجوا بالفرار، بعدما تركوا أعداءهم يتفاحرون بالنصر الدموي الذي نالوه عليهم، وذلك حسبما اعترف الأعداء أنفسهم بأفواهم، بعد المعركة، التي استمرت من الصباح الباكر حتى وضع حلول ظلام الليل نهاية لها، لأنه لم يعد بمقدور أي من الفئتين تمييز الأخرى.

رسالة أخرى أكثر تفصيلاً من مقدم الاستبارية في القدس

«إلى اللورد م. M دي ميرلي Merlaye الأعظم قوة، يرسل تحياته غ. G من القلعة الجديدة (نيوكاسل) الذي هو بنعمة الرب المقدم المتواضع للدير المقدس في القدس، والوصي على الأتباع الفقراء للمسيح:

من المعلومات الواردة في رسائلنا التي أرسلناها لكم في كل عبور يمكنكم أن تروا بما فيه الكفاية من الوضوح، كيف سارت شؤون الأرض المقدسة بشكل سيء، وذلك بسبب النزاعات التي كانت قائمة منذ زمن طويل، وذلك في وقت عمل الهدنة، وفيما يتعلق بالارتباط بموقف الدمشقيين ضد سلطان مصر، ونحن نرغب أن يعلم معاليكم

بالأحداث الأخرى بعد انقضاء الهدنة، حيث اعتقدنا أنه من المفيد أن نخبركم أنه في حوالي بداية الصيف الذي انصرم أخيراً، تصالح سلطان دمشق مع السلطان الناصر، صاحب الكرك، بعدما كانا من قبل متعادلين، فقد أقاما سلاماً فيما بينهما، ودخلا بمعاهدة مع الصليبيين، على شرط أن يعيدا إلى الصليبيين جميع مملكة القدس، والأراضي التي كانت بحوزة الصليبيين قرب نهر الأردن، إلى جانب بعض القرى، التي احتفظوا بملكيتها في الجبال، ومقابل ذلك توجب على الصليبيين أن يعطوهم كل المساعدات التي بإمكانهم في قتال سلطان مصر، وتمت الموافقة على شروط هذه المعاهدة من قبل الفريقين، وشرع الصليبيون يتخذون أماكن استقرارهم في المدينة المقدسة، بينما بقي جيشهم في غزة، برفقة جيش السلطانين المتقدمي الذكر، لمناوشة سلطان مصر ومضايقته، وبعدما انخرطوا في هذا العمل لبعض الوقت، وصل بطريرك القدس من بلاد ماوراء البحر، وبعد استراحته جسدياً لبعض الوقت، حرّكه الشوق لزيارة ضريح ربنا، وانطلق ليقوم بذلك الحج، حيث كنا أيضاً برفقته، وبعدما وفينا بنذر حجنا، سمعنا في المدينة المقدسة، بأن حشداً لا عدد له، من الجنس المتوحش والعنيد، والذين يعرفون باسم الخوارزمية، قد قام بناء على استدعاء سلطان مصر وأوامره، باحتلال جميع المنطقة الموجودة في الجزء الأقصى من أراضينا المجاورة للقدس، وتغطية وجهها، وقد جعلوا كل نفس حية طعماً للموت، بالنار وبالسيف.

وجرى عقد مؤتمر حول هذه المسألة، من قبل الصليبيين، الذين كانوا يعيشون في القدس، وبما أنه لم يكن بمقدورهم مقاومة هؤلاء الناس، ترتب بشكل عقلائي، بأن يقوم جميع سكان القدس من كلا الجنسين، ومن كل عمر، بالزحف تحت حراسة كوكبة من الفرسان إلى يافا، بحكم أنها كانت مكاناً آميناً للالتجاء إليه، وفي تلك الليلة نفسها،

وبعدما أنهينا مداولاتنا، اقتدنا قومنا بحذر إلى خارج المدينة، وسرنا ونحن مطمئنين، نصف المسافة، حيث أظهر المعيق الأكثر تدميراً لنا نفسه، وذلك بسبب تدخل الشيطان الذي هو عدونا الماكر القديم، وقد رفع القوم المتقدم ذكرهم على أسوار المدينة بعض الأعلام التي تركها الفارون خلفهم، حتى يمكنهم بهذه الوساطة إعادة الغافلين، بمنحهم الاعتقاد بأن الصليبيين الذين بقيوا، قد هزموا أعداءهم، وبادر بعض أتباعنا من الصليبيين بالإسراع خلفنا، لإرجاعنا، وبعثوا الطمأنينة بنفوسنا بملامح مشرقة، وأعلنوا بأن أعلام الصليبيين، التي يعرفونها معرفة جيدة، قد رفعت فوق أسوار القدس، وذلك بمثابة علامة على أنهم هزموا الأعداء، وهم بهذا قد خدعوا، وخدعونا معهم أيضاً، وبناء عليه عدنا ونحن مسرورين واثقين إلى المدينة المقدسة، ظانين أننا سوف نسكن هناك بأمان، وقام كثيرون انطلاقاً من مشاعر التقوى، وآخرون بأمل الاستحواذ على مواريتهم والاحتفاظ بها، بالاندفاع من دون حذر، فعادوا إلى المدينة نفسها أو إلى أرباضها، وسعينا نحن — على كل حال — لثنيهم عن هذا كله، خائفين من خيانة من هؤلاء القوم الغادرين، ولذلك تحلينا عنهم وغادرناهم، وحدث بعد أمد وجيز من مغادرتنا، أن قدم هؤلاء الخوارزمية الخونة بقوات كبيرة، وطوقوا الصليبيين في المدينة المقدسة، وحملوا عليهم حملات عنيفة يومياً، مع الحيلولة بينهم وبين الدخول إلى المدينة أو الخروج منها بكل وسيلة من الوسائل، وأنزلوا بهم البلاء بمختلف الطرق، وبسبب هذه الهجمات، والجوع، والأسى، وصلوا إلى حالة اليأس، واتفقوا جميعاً على تعريض أنفسهم لحظوظ مخاطر الموت على أيدي العدو، وبناء عليه غادروا المدينة أثناء الليل، وارتحلوا وساروا فوق الطرقات في المناطق المهجورة من الجبال، حتى وصلوا أخيراً إلى ممر ضيق، وهناك وقعوا في كمين للعدو، الذي طوقهم من جميع الجهات، وهاجمهم بالسيوف، والنشاب، والحجارة، وغير ذلك من الأسلحة، وقتلهم، ومزقهم، وقطع إلى أشلاء

حوالي سبعة آلاف من الرجال والنساء، وذلك وفقاً لأصح الاحصائيات، حتى أن دم هؤلاء المؤمنين، قد جرى على جوانب الجبال مثل الماء، وذلك كما رأيته وأنا حزين، وأخذوا الشباب والعذراوات معهم إلى الأسر، وعادوا إلى المدينة المقدسة، حيث قطعوا أعناق الراهبات والرجال المسنين الضعفاء، الذين كانوا غير قادرين على تحمل متاعب الرحلة والفرار، وذبحوهم وكأنهم أغنام كان من المقرر ذبحهم، وجاء ذلك بعدما هربوا إلى كنيسة الضريح المقدس، وإلى الجمجمة، وهو المكان الذي تكرر بدم ربنا، وهكذا اقترفوا في هذا المعبد المقدس، جريمة، لم تشهد أعين الناس مثيلاً لها منذ بداية الدنيا.

وبعد مرور بعض الوقت، وبما أن وحشية هذه الجريمة الكبرى، التي لا يمكن التهاون نحوها، أثارت المشاعر الدينية لدى جميع الصليبيين، ودفعتهم إلى الانتقام من الإهانات التي ألحقت بخالقهم، ولذلك جرى الاتفاق الإجماعي بأنه يتوجب علينا جميعاً —بعد طلب المساعدة من السماء— إعداد أنفسنا وتنظيمها، للاشتباك بمعركة مع هؤلاء القوم الخونة، وبناء عليه هاجمناهم، وقتلناهم من دون استراحة من الصباح الباكر حتى انتهاء النهار، عندما حال الظلام بيننا وبين التمييز بين قومنا وبين أعدائنا، وقد سقطت أعداد كبيرة من جانبنا، كانت أربعة أضعاف ما قتل من أعدائنا، فهذا ما أمكن معرفته بعد القتال.

وفي اليوم التالي (عيد القديس لوقا الانجيلي) كان فرسان الداوية والاستبارية قد وجدوا أنفسهم، قد استردوا شيئاً من قوتهم، فاستمدوا العون من عليين، مع جميع الرهبان الآخرين الذين كرسوا أنفسهم لهذه الحرب، وأوقفوا طاقاتهم عليها، واحتشد جميع الصليبيين في الأرض المقدسة، بناء على دعوة وإعلان من البطريك، وتحت قيادته، واشتبكوا بمعركة هي الأكثر دموية مع الخوارزمية المتقدم ذكرهم، وخمسة آلاف فارس مسلم آخرين كانوا الآن يقاتلون تحت قيادة سلطان مصر، وذلك

بعد انضمامهم مؤخراً إلى هؤلاء الخوارزمية، وجرى قتال حاد من على الطرفين، ولم يكن بإمكاننا تجنبهم، لأنه كان هناك جيشاً قوياً وكبيراً على جانبيها، وكنا أخيراً غير قادرين على الصمود في وجه مثل تلك الحشود، لأن قواتاً جديدة غير متعبة من الأعداء، تابعت التدفق علينا، ذلك أنهم كانوا عشرة أضعاف تعدادنا، وكنا منهكين وجرحى، وما برحنا نشعر بتأثير المعركة التي وقعت مؤخراً، ولذلك كنا مرغمين على الفرار، تاركين لهم ساحة المعركة، مع نصر دموي وغالي جداً، لأن أعداداً كبيرة سقطت من على جانبهم كانت أكثر مما سقط من على جانبنا، وقد ساعدنا كثيراً من قبله، الذي هو حافظ للأرواح، حتى أنه لم ينج مائة بالفرار، لكن طوال ما كنا قادرين على الصمود، شجعنا بعضنا وواسينا بعضنا بعضاً في المسيح، وقاتلنا بدون تعب وبشجاعة، مما أدهش أعداءنا، حتى وقعنا أخيراً بالأسر، وهو ما حاولنا أن نتجنبه، بأن نقتل، ولذلك قال العدو، فيما بعد، وهو مندهش، إلى أسراه: «أنتم عن طوعية ألقيتم بأنفسكم في طريق الموت، فلماذا كان ذلك؟» وعلى هذا أجاب الأسرى قائلين: «كنا نفضل بالحرى أن نموت في المعركة، ذلك أننا بموت أجسادنا، نحصل على التمجيد لأرواحنا، وذلك بدلاً من أن نفر بدناءة، فمثل هؤلاء الناس، هم بالحقيقة، يُخاف منهم كثيراً»، وسحقت في المعركة المذكورة، قدرة الصليبيين، وكانت أعداد الذين قتلوا من على الجانبين لا تحصى، وجرى قتل مقدمي الداوية والاسبترارية، وكذلك مقدمي الطوائف الأخرى، مع فرسانهم وأتباعهم، أما وولتر كونت بريين Brienne، واللورد فيليب دي مونت فورت، والذين قاتلوا تحت لواء البطريك، فقد جرى تمزيقهم إلى أشلاء، ونجا من الداوية ثمانية عشر فقط، وستة عشر من الاسبترارية، وكانوا فيما بعد آسفين، لأنهم أنقذوا أنفسهم. وداعاً».

كيف استهدف الانكليز رمي نير العبودية البابوية

بينما كان الجنس البشري هكذا مضطرباً كثيراً، بوساطة عدد كبير من العواصف، في سورية، وفي انكلترا أيضاً، والبلدان المجاورة لها:

لعبت القدرة اللاهوتية بالأشياء الإنسانية

لأن البلاط الروماني، الآن في أيام بابانا الجديد، انوسنت الرابع، قد ألقى جانباً جميع مشاعر الحياء، وتابع دون توقف — على عكس جميع آمالنا — استخراج مواردنا بوساطة مراسيم يومية وقحة، وتفجر الآن عدم الرضا الذي شعر به الانكليز طويلاً، واعتمل في قلوبهم، نتيجة لذلك، على شكل شكايات مكشوفة، وذلك بعدما تمخض طويلاً، وتكلموا بشكل مكشوف، لأنه لم يعد بإمكانهم حبس أنفسهم، ولأن صبرهم صار إهمالاً وتراخياً، وصار تواضعهم غير مفيد أبداً، لابل بالحري مؤذياً، وفي مؤتمر جرى عقده، جرى التصريح بالاعتبارات التالية لصالح الملك والمملكة:

إذا ما قام البابا بالنظر بعين عقله إلى أوضاع الكنيسة الأولى في انكلترا، وكيف كانت في عمرها الوسيط، وكيف هي الآن، هو لن يهز أساسات الكنائس، واللاهوتيين، ولن يقوم بظلمهم والضغط عليهم على هذه الصورة، أو أن يدعي، أو أن يستخرج من الكنائس، التي ليست كنائسه، لأنه بموجب تبشير القديس أوغسطين، الذي هو رسول الانكليز، جرى تحويل الملك ايثلبيرت Ethelbert إلى الإيمان بالمسيح، وأسس كنائس: لندن، وروكستر، وكانتربري، ووضع رجال دين وكهنة في مكان أول، ورهبان في مكان آخر، وعيّن إليهم مايكفي من الأراضي والممتلكات من أجل عيشهم، وأوكل إليهم وظيفة واحدة هي أداء القداسات في الأماكن المعينة إليهم، وصب الحمد والشكر إلى الرب في الليل والنهار، ومنح الصدقات، وممارسة أعمال التقوى الأخرى، وتقديم الضيافة إلى الفقراء، وفقاً لطاقة إمكاناتهم، ووفق الطريقة نفسها أيضاً، قدم الملوك الآخرون الهبات إلى الكاتدرائيات

الأخرى، وإلى الكنائس الكهنوتية والرهبانية، وهو ما يمكن رؤيته لدى تفحص تعليماتهم وقوائم أعطياتهم، وهم على كل حال، لم يعطوا هذه المقتنيات بكرم مطلق، بل كانت مقرونة بثلاثة شروط دائمة، فالأشياء الممنوحة إليهم هي من أجل الفائدة العامة للمملكة، أي من أجل الحملات العسكرية، ومن أجل ترميم وإصلاح الجسور والقلاع، لأنه بهذه الوسائل يمكن صد هجمات الأعداء، وإذا كانت هذه الأشياء — بناء عليه — قد أعطيت من الأوقاف، ومن الإيجارات المدنية للملك والأمراء، إلى الأماكن الروحية فأى حق — نحن نسأل — يمكن لأساقفة هذه الأماكن، كناس مثبتين في الكنائس الكاتدرائية، وكذلك رعاة الديرة والراعيات، يمكنهم — من دون إلحاق الأذى بحق الآخرين — تحويلهم إلى استخدامات واحد آخر، أو استخدامات أخرى؟ خاصة إلى الاستخدامات التي منها صدر الذبح، والنار، وسفك الدماء، لأنه عندما سأل بطرس قائلاً: «مولانا، إذا ضربنا بالسيف»؟ أجابه الرب: «ضع سيفك في الغمد»، ومجدداً إذا ما جرى إرسال الموارد الأساسية لرجال الدين في انكلترا إلى إيطاليا، من أين يمكنهم تأمين الوسائل لترميم الجسور والقلاع، ومن أجل الحملات العسكرية إذا كان ضرورياً؟ ومن أين يمكنهم الحصول على الوسائل لإبداء الضيافة؟ وكيف سيكونون قادرين على البقاء في الأماكن المعينة إليهم؟ ومجدداً، هناك شرور أخرى، فالذين سيذهبون من انكلترا إلى البلاط الروماني، يمكن أن يتعرضوا إلى الأذى على أيدي عمال الامبراطور، فالذي هو واضح وملموس بما فيه الكفاية، أن أراضي الامبراطور مفصولة فقط عن انكلترا ببحر ضيق، من الممكن عبوره بتيار مدّ أو جزر واحد، وبما أن الامبراطور ذاهب الآن إلى تلك الجهات، يخشى أنه إذا ما استثير الامبراطور على هذه الصورة، أن يقوم بغزو المملكة كعدو، وذلك حسبما قال المعلم وولتر دي أوكرا Ockra بحضرة الملك أثناء مؤتمر عام للبارونات

في لندن، عندما رجا الملك بحرارة عظيمة، باسم الامبراطور، بأن لايسمح بجمع المكوس من المملكة، سواء من الكهنة أو من العلمانيين، في سبيل مساعدة البابا ضد الامبراطور، وأعطاهم بالوقت نفسه أن يفهموا بشكل مكرر، أنهم إذا فعلوا كذلك، سوف تشور حروب لا تحصى في المملكة، وأن الملك ونبلاء المملكة سوف يكشطون أنفسهم إلى العظام.

ومجدداً قام الملك بناء على نصيحة الكنيسة ورغبتها وطلبها، فأعطى اخته بالزواج إلى الامبراطور، وهي التي إليه أعطت أولاداً، هم بشكل واضح من جنسنا، ومن الدم الانكليزي، فما الذي يكونه، إذا ما أسهمنا بالمال ضد الامبراطور، غير تدمير هؤلاء الأولاد الذين نبعوا من أمتنا؟ لاسمح الرب بذلك، وماذا أيضاً سوف تكون النتيجة سوى منع الامبراطور من مساعدة ملكنا في استرداد أراضيه؟ ومجدداً لو أن البابا قام بتقدير النوازل والخسائر، التي لحقت بانكلترا، على يدي الملك الفرنسي لويس، الذي غزاها، والذي لم يوفر لاكنائس ولا لاهوتيين، بل إنه نهب كل شيء إلى درجة أن أساقفة انكلترا بات من الصعب عليهم التنفس بحرية منذ ذلك الحين فصاعداً، إن البابا لو قدّر ذلك لما أقدم على تكديس النوازل فوق النوازل ثم فوق النوازل، بل لاخذ خطة أفضل، بالقيام بتقدير للخسائر التي لحقت بالكنيسة، ومن ثم إرسال جيوشه وبعثها ضد العدو، وهو أمر كان قادراً على أن يفعله — على الرغم من أن ملك انكلترا عارض ذلك — دون أن يطلب من الامبراطور المساعدة، ضد الملك والمملكة.

ومجدداً لدى الكنيسة ذهباً، ولديها ميراثها، وعندها مدن، وحصون وقلاع، ومع أنهم قد يكونوا غير كافين للتصدي لمثل هذا الأمير القوي، يمكنها أن تستدعي إلى بين يديها منافع الايطاليين والرومان التي منحتهم إياها، وهم ليس عددهم صغيراً، وكذلك في انكلترا، وفي

بلدان أخرى، ومن منتجات أولئك الذين أفادتهم كثيراً، حيث يمكنها بذلك صنع ترتيبات عدوانية، ولكن ليس بمواردنا، التي هي لم تمنحنا إياها، والتي ندين نحن بها إلى أولياء نعمتنا فقط، الذين أعطونا كل ما يستطيعون، وهم الذين علينا دعمهم في كل حاجة، إذا ما حدث وطلبوها، وعلى البابا أيضاً أن يتذكر أنه أثناء عذاب الاسرائيليين وضائقتهم، أطلق فرعون سراح الكهنة واللاويين وحررهم من دفع أي مكس مهما كان نوعه.

ملك إنكلترا يكتب إلى البابا يشكو من مكوسه

وبناء عليه، ثار الملك، بسبب هذه المضار، وغضب من الشره المضاعف للرومان، فكتب إلى البابا كما يلي:

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح مولانا إنوسنت، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم، إليكم من هنري الذي هو بالنعمة نفسها ملك انكلترا، إلخ، صحة وقبالات إلى قدميه المباركتين:

كلما أخضع الابن نفسه أكثر إلى رغبات أبيه، وأظهر نفسه أكثر استعداداً وإخلاصاً لإطاعة أوامره، كلما استحق الحصول على حماية أبيه، وقطف منافع إخلاصه وخدمته، وفي هذا المقام، أظهرنا —بناء عليه— أنفسنا، خلال حكمنا كله مع مملكتنا، طائعين لرغباتكم ولأوامركم في كل شيء وخلال كل شيء، ومع أننا وجدنا في بعض القضايا المتعلقة بنا أنفسنا وبمملكتنا، بشكل عام الاهتمام واللفظ الأبوي، مع ذلك وجدنا في بعض مراسيمكم، التي منحت من قبلكم إلى كهنة انكلترا وبلدان أخرى، أنه جرى إيقالنا نحن أنفسنا ومملكتنا، وظلمنا ليس بدرجة شديدة، وفي الحقيقة أثقلت الكنائس الانكليزية بكثير من مثل هذه الإثقات، ومن هذه النوعية، إلى حد أنه ليس فقط أولياء نعمة الكنائس وحمايتهم، والذين وإجهم هو هبة المنافع اللاهوتية، قد سلبوا

من حقوقهم، بل إلى جانب هذا قد جرى التخلي عن كثير من أعمال الإحسان، لأن المنافع التي منحت بالعادة من أجل أعمال الإحسان، إلى البيوت الدينية من أجل عيشها، هي وجميع الآخرين تقريباً، قد أنهكت بوساطة مراسيمكم، وبما أن الكرسي الرسولي عليه أن يظهر الخطوة نحو المشتكين إليه، وأن يزود الآخرين بحقوقهم لا أن يتولى إضرارها، رأينا من واجبنا أن نتضرع إلى قداستكم أن تتوقفوا عن منح موارد من هذا النوع، على الأقل لبعض الوقت، وأيضاً في الوقت نفسه نلتمس من قداستكم، أن تقوموا بمواساتكم الأبوية بحماية حقوقنا وامتيازاتنا، التي يمكنكم عدها عائدة لنا بشكل صحيح، وليست مرتبطة بالآخرين، وأن تحفظوهم غير مخروقين وسالمين، وأن لا تسمحوا لهم بالتعرض للأذى في بلاطكم بأية طريقة من الطرق، أو بناء على اقتراحات أية أشخاص، وأنا واثق بأن قداستكم سوف لن تثارون فتغضبون ضدنا، إذا ما كنا قد قمنا في أية نقطة بمعارضة فحوى أوامركم، بما أن صراخ الفئات الشاكية قد حرضتنا على هذا، على أساس اعتقادنا أنه لا يجوز لنا أن نخفق في الدفاع عن حقوق أي إنسان، بل يتوجب، بموجب فضيلة المنصب الملكي الذي منح إلينا من قبل الرب، علينا أن نؤمن العدالة الكاملة، في القضايا المدنية».

وبطريقة المحاججة البارة نفسها، قام الملك الضعيف جداً، والمهمل، من قبل بالتوجه بالرجاء إلى سلفه البابا غريغوري، حتى يتوقف عن ظلم مملكة انكلترا، بمثل هذه الاستخراجات، لكن لا الأول ولا الثاني تنازل ليوقف ميوله في هذه القضية، ونتيجة لذلك، نحن نعتقد بأن الرب، ورسوله بطرس (الذي لم يتبعنا خطواته) قد أثير مع سبب صحيح، لأن يغضب ضد الكنيسة الرومانية، فأعدّ، ولوى ذراعيهما.

كيف سعى البابا إلى جلب ويلز إلى طاعته

أعتقد أنه لن يكون غريباً عن موضوعنا، أو غير مرتبط به، أو غير مفيد لتاريخ انكلترا، أن نوضح إلى أجيالنا المقبلة، كيف سعى البابا انوسنت الرابع المذكور، إلى إعفاء داوود أمير شمالي ويلز من ولائه إلى ملك انكلترا، الذي كان به مرتبطاً بطرق مضاعفة، وأن يحوله ليكون من رعايا دولته، بتسلم خمسمائة مارك منه سنوياً مقابل استئجار شمالي ويلز ومتعلقاتها، وكانت الروابط والأدوات التي كان داوود المذكور، ونبلاء ويلز مرتبطين بالملك هنري الثالث، هي كما يلي:

الشروط التي ربطت بها سينينا زوجة غريفيين نفسها باسم زوجها بملك انكلترا

«جرى الاتفاق بين مولانا الملك هنري الثالث، الملك اللامع لانكلترا، من جهة، وبين سينينا Senena زوجة غريفيين بن اللويلين، الأمير الأخير لشمالي ويلز (وغريفيين المذكور هو الآن معتقل بالسجن من قبل أخيه داوود مع ابنه أوين Owen)، وباسم غريفيين المذكور ونيابة عنه: لقد تعهدت سينينا المتقدمة الذكر، باسم زوجها غريفيين المتقدم الذكر، بدفع ستماية مارك إلى مولانا الملك، على شرط أن يتدبر إطلاق سراح غريفيين المتقدم الذكر، وابنه أوين المتقدم ذكره، من السجن المذكور، وأنه سوف يلتزم بقرار محكمة بلاطه، فيما إذا توجب حبسه بالسجن، وأن مولانا الملك سوف يسمح له ولورثته فيما بعد بالمحاكمة في محكمة بلاطه، وفقاً للقانون الويلزي، وذلك حول مايتعلق بحصة الوراثة لأبيه للويلين الأخير، وهي الحصة العائدة إليه، والتي داوود قانم الآن باستجازها بالفترة ومغتصب لها من غريفيين المتقدم الذكر، وإذا ماحصل غريفيين المذكور، أو ورثته، بموجب حكم محكمة بلاط مولانا الملك، على الحصة التي قالوا بأنها عائدة إليهم من الميراث المذكور، وقتها تتعهد سينينا عن غريفيين المذكور وورثته، بأن يقوم هو

وورثته المذكورين من قبل بالدفع إلى الملك ثلاثمائة مارك سنوياً، وذلك بشكل دائم، وبالنسبة لدفع هذا المبلغ، فإن ثلثه يجري دفعه نقداً، والثلث الثاني على شكل ثيران وعجول، وأما الثلث الثالث فعلى شكل خيول، وذلك بناء على تقدير محكمين اقطاعيين، ويتم دفع المبلغ المذكور إلى عمدة شروبري، ويجري حمله بيدي العمدة المذكور إلى خزانة الملك، حيث يجري إيداعه هناك، ويكون دفع القسط الأول في يوم عيد القديس ميكائيل، والقسط الثاني في الفصح، وتعهدت سينينا المذكورة أيضاً باسم زوجها غريفين المذكور وورثته، بأنهم سوف يحافظون على السلام مع أخيهام داود المتقدم ذكره، وذلك فيما يتعلق بحصة الميراث المتقدم ذكره، التي سوف تبقى لداود المذكور، وتعهدت سينينا المذكورة، نيابة عن زوجها، غريفين المتقدم ذكره، الذي هو زوجها، وباسم ورثته، أنه إذا ما قام أي نبيل ويلزي في أي وقت من الأوقات بالثورة ضد مولانا الملك وورثته، فإن غريفين المذكور وورثته، سوف يقوم على حسابه بإرغامه على تقديم الترضية للملك وورثته، وفي سبيل مراعاة جميع الشروط المتقدم ذكرها بإخلاص، سوف تعطى سينينا المذكورة ولديها: داود، وروثر Rother إلى الملك بمثابة رهائن، مع تفاهم أنه في حال اطلاق سراح زوجها غريفين المتقدم ذكره، وابنه أوين المسجون معه، لأسباب انسانية، فإن واحداً من الولدين المذكورين سوف يجري رده إلى سينينا المذكورة، ويكون ذلك قبل اطلاق سراح غريفين المذكور وابنه، واخراجهما من السجن، ولسوف يبقى الابن الآخر كرهينة، علاوة على ذلك أقسمت سينينا المذكورة على الانجيل المقدس، نيابة عن نفسها، وعن زوجها غريفين وورثته، بأنها سوف تراعي بإخلاص جميع هذه الشروط، وتعهدت بأن زوجها غريفين المذكور سوف يؤدي القسم نفسه عندما يطلق سراحه من السجن، وتنفيذاً لكل ماتقدم ذكره، قامت باخضاع نفسها باسم زوجها غريفين المذكور لحكم الأبوين المبجلين: أسقفى هيرفورد وليفيلد، وبذلك

يمكن للأسقفين المذكورين، أو لواحد منهما، يختاره الملك، أن يقوم بناء على طلب من الملك، بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي ضد أشخاصهم، وعقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين على أراضيهم، لإرغامهم على مراعاة جميع الشروط المتقدمة الذكر شرطاً شرطاً، وتعهدت سينينا المذكورة عن طيب خاطر وباخلاص بتنفيذ جميع هذه الشروط التي تقدم ذكرها، وبمتابعة تنفيذهم جميعاً، وأن زوجها غريفيين المتقدم ذكره عندما سيطلق سراحه من السجن سوف يقوم مع ورثته بحمل هذه التعهدات وإكمالها، وسوف يعطي إلى الملك تعهداً مكتوباً باسمهم بأنهم سوف يفعلون ذلك، وفق الطريقة والشكل حسبما تقدم ذكره.

ومن أجل ضمانه أكبر حول هذه القضية كُتبت ودُوت بين مولانا الملك وبين سينينا المذكورة، باسم زوجها غريفيين، وبالنسبة لنسخة الوثيقة التي تركت عند الملك، أثبت عليها ختم غريفيين المذكور بيدي سينينا زوجته المذكورة، وذلك بالإضافة إلى ختم سينينا المذكورة، أما بالنسبة لنسخة الوثيقة التي تركت بحوزة سينينا المتقدمة الذكر، باسم زوجها غريفيين المتقدم ذكره، فقد أثبت عليها ختم مولانا الملك، وفي سبيل التنفيذ، والمراعاة المخلصة لجميع الشروط المذكورة أعلاه، أعطت سينينا المتقدمة الذكر باسم زوجها، غريفيين المتقدم الذكر، الأشخاص المذكورة أسماؤهم أدناه، بمثابة كفلاء لصالح مولانا الملك، وهم: رالف دي مورتيمير Mortimer، وولتر دي كلف فورد Clifford، وروجر دي مونتهوت Monthaut، قهرمان أوف شيلستر، وميلغون فتز-ميلغون Mailgun، وموردوك Murdoch فتز-روبرت، وغريفيين بن مذكوك Maddoc دي برونفيلد Brunfield، وهويل Howal وموردوك أخيه، وغريفيين بن غوين أنوين Gwenunwin، وذلك باسم سينينا المتقدم ذكرها ومن طرفها، وقد تعهدوا بمراقبة تنفيذ الشروط المتقدم ذكرها، وقدموا أيضاً صكوكهم

إلى الملك من أجل الشيء نفسه. أبرم في شروبري Shrewbury يوم الاثنين التالي لما قبل صعود القديسة مريم العذراء، في السنة الخامسة والعشرين من سني حكم مولانا الملك المذكور».

صك تعهد روجر دي مونتهونت

«إلى كل من تصله هذه الكتابة، تحيات من روجر دي مونتهونت، قهرمان أوف شيستر:

ليعلم جميع الناس بأنني أعطيت نفسي كفيلاً لسينينا، زوجة غريفين ابن للويلين، أمير شمالي ويلز المتوفى، وارتبطت لصالحها مع مولاي هنري، الملك المشهور لانكلترا، بأنها سوف تنفذ باخلاص نحوه جميع الذي وعدت به الملك المذكور، نيابة عن زوجها المذكور، للحصول على اطلاق سراحه مع ابنه أوين، من السجن الذي وضعه فيه أخوه، وأيضاً للحصول على الحصاة العائدة لغريفين المذكور من ميراث أبيه، للويلين المتقدم ذكره، وهي الحصاة التي اغتصبها داود المتقدم ذكره منه، وبمثابة شهادة، وضعت على هذه المدونة ختمي. صنع في شروبري في يوم الاثنين قبل صعود العذراء المباركة، في السنة الخامسة والعشرين من حكم الملك المذكور».

ووفق الشكل نفسه لصك التعهد المتقدم ذكره، أعطى البارونات الانكليز والويلزيون صكوكهم إلى الملك، وربطوا أنفسهم بالطريقة نفسها.

صيغة صكوك تعهد لوردات كيني في ويلز

«ليعلم جميع الحضور والذين سيأتون، بأنني أنا مردوك فترز— هويل، قد أقسمت على الانجيل المقدس، أنني من هذا التاريخ فصاعداً، أثناء حياتي، بأنني سوف أكون خاضعاً باخلاص لمولاي ملك انكلترا، ولسوف أخدمه باخلاص وأمانة مع جميع قواني، وسوف أبذل أعمالي».

طاقتي، في أي مكان يمكن أن يحتاج فيه إلى خدماتي، وسوف أراعي
باخلاص من جانبي الهدنة التي أبرمت بين اللورد رالف دي مورتيمير
وبيني، حتى عيد القديس ميكائيل، في السنة الخامسة والعشرين من
حكم الملك هنري الثالث، وبمراعاة ولائي إلى مولانا الملك بشكل
دائم، وكذلك من أجل المحافظة على الهدنة المتقدمة الذكر، حتى الموعد
المذكور أعلاه، وقد وضعت نفسي تحت حكم السيد أسقف هيرفورد،
وأسقف كوفنتري، وأسقف للانداف Llandaff، أو واحداً منهم،
سوف يتولى الملك اختياره للغرض، وذلك من أجل أنه إذا كان أياً من
أعمالي مخالفاً بأي شكل من الأشكال لولائي للملك المذكور، أو سوف
يحول دون مراعاة الهدنة المتقدمة الذكر، فوقتها يكون مشروعاً لهم
حرمان كنسياً وجميع قومي، وأن يضعوا أرضي تحت الحرمان من شراكة
المؤمنين، حتى أقدم جميع التكفيرات عن الذي اقترفته من ذنب، وإذا
حدث عدم إعادة إقامة السلام بيني وبين رالف مورتيمير، المتقدم
ذكره، قبل موعد عيد القديس ميكائيل، ومع أنني قد أشن الحرب بعد
ذلك العيد ضد رالف مورتيمير المذكور، فإن يميني المتقدم ذكره سوف
لن يعيقني عن فعل ذلك، مادمت ملتزماً بشكل مستمر بولائي نحو
الملك حسبما تقدم الذكر، وإذا مانشت الحرب بيننا بعد المدة المتقدم
ذكرها، فإن الملك مع ذلك سوف يسمح لي ولأتباعي بأن نستقبل في
أراضيه بمشابة رعية مخلصه له، وبالنسبة لمراعاة الشروط المتقدم ذكرها
نحو مولاي الملك ونحو ورثته، أربط نفسي باليمين المتقدم ذكره،
وبتثبيت ختمي على هذه المدونة من أجل ضمان أبعد للقضية المتقدم
ذكرها. أبرم في اليوم التالي لعيد صعود مريم المباركة، في السنة الخامسة
والعشرين من حكم الملك هنري الثالث.

وأعطى الكلمات نفسها أيضاً أوين فتز — هويل، وميلغون فتز —
ميلغون، ومردوك فتز — مردوك، وهويل ابن كادوول لون Cadwal،

lon وكادوول لون فترز— هويل، في صكوك تعهدهم إلى الملك.

صك تعهد داود بن اللويلين أمير شمالي ويلز

«إلى جميع الأتباع المخلصين للمسيح، وإلى جميع الذين سوف يصلهم هذا العرض، تحيات من داود بن اللويلين:

اعلموا بأنني قد أعطيت موافقتي إلى مولاي هنري المشهور، ملك انكلترا، ابن الملك جون، بأنني سوف أطلق سراح أخي غريفين، الذي أنا محتجزه بالسجن مع ابنه الأكبر وآخرين، وبسبب أن غريفين المتقدم ذكره محتجز بالسجن من قبلي، فأنا سوف أسلمه إلى مولاي الملك، ولسوف ألتزم بعد ذلك بقرار محكمة بلاطه، وذلك فيما يتعلق بوجوب إبقاء غريفين المذكور محتجزاً بالسجن، وفيما يتعلق أيضاً بالحصة من أراضي والدي المتوفى، للويلين المتقدم ذكره، وتبيان فيما إذا كان أي منها عائد إلى غريفين المذكور، وذلك وفقاً للعادات الويلزية، وذلك في سبيل امكانية تأسيس السلام وحفظه بيني وبين غريفين المتقدم الذكر، وقد أعطيت ضمانات من أجل تمسكي بذلك وفقاً لحكم بلاط الملك المذكور، وأنا، وكذلك غريفين المتقدم الذكر، سوف نستحوذ على الحصص العائدة لنا، من الأرض المتقدم ذكرها، من مولانا الملك بشكل رئيس، وكذلك سوف أعيد إلى روجر دي مونتھوت، قهرمان شيلستر أراضي في مونتھوت مع متعلقاتها، وسوف أعيد إليه وإلى البارونات الآخرين والرعايا المخلصين الملكية المطلقة للأراضي التي جرى احتلالها، منذ ابتداء قيام الحرب بين صاحب الجلالة الملك جون وبين والدي، للويلين المتقدم الذكر، باستثناء حق الملكية، لأي عقد من العقود، والمواثيق، وفيما يتعلق بهذا سوف نلتزم على الجانبين بقرار بلاط الملك المذكور، وسوف أسدد إلى مولاي الملك جميع النفقات التي تحملها هو شخصياً أو أتباعه بسبب تلك الحرب، وسوف أقوم، وفقاً لقرار البلاط المذكور بعمل ترضية له ولأتباعه عن الخسائر وعن

الأضرار التي عانوا منها، أو أنني سوف أتخلى عن جميع الجناة نحو الملك، ولسوف أقدم إلى مولاي الملك جميع أنواع الولاء، التي كان والده الملك جون قد تلقاها، والتي ينبغي أن يتلقاها الملك المذكور، ولا سيما ولاء جميع النبلاء الانكليز، وكذلك سوف لن يطلق الملك المذكور سراح أي من مساجينه من دون أن يتركوا ممتلكاتهم في حوزة الملك ووكلائه، وكذلك إن أراضي انغلمير Englesmere مع متعلقاتها سوف تبقى إلى الأبد ملكاً للملك المذكور ولورثته، وكذلك سوف لن أستقبل منذ الآن فصاعداً خارجين على القانون أو قراصنة ضد مولاي الملك وباروناته من الحدود في أراضي، ولن أسمح لهم بالاستقبال هناك، ومن أجل المراعاة المخلصة الأبدية للشروط كلها المذكورة أعلاه، للملك ولورثته، سوف أقدم ضماناً عن نفسي وعن ورثتي بوساطة الرهائن، أو بوساطة الأيمان، أو بوساطة أية طريقة أخرى يمكن للملك أن يختارها ليمليها، وفي هذه الحالة والحالات الأخرى سوف ألتزم بإرادة الملك وبأوامر مولاي الملك، ولسوف أطيع قرار بلاطه في كل شيء، وكشهادة على هذا العرض، وعلى العمل الحالي المدون كتابة وضعت ختمي. صنع في ألنت Alnet قرب نهر ايلفي Elvey في أسقفية القديس آساف Asaph، في عيد قطع رأس القديس يوحنا المعمدان، في السنة الخامسة والعشرين من حكم مولانا الملك المذكور».

«وكذلك ليكن معلوماً أيضاً أن الذين محبوسين في السجن مع غريفيين المتقدم الذكر، سوف يجري تسليمهم إلى مولانا الملك، بالطريقة نفسها، حتى يصدر قرار عن بلاطه حول فيما إذا كان ينبغي إطلاق سراحهم، وكيفية ذلك، وأنا داود المذكور، قد أقسمت على الصليب المقدس، الذي أمرت بجلبه إلى أمامي، أن أقوم باخلاص بمراعاة جميع هذه الشروط، وقد وعد الأب المبجل هويل أيضاً، أسقف القديس

آساف، بناء على طلبي، باسم طائفته المقدسة أن يفي بجميع الشروط المقدمة الذكر، وسوف يبذل كل طاقاته في سبيل الوفاء بهم، وعمل ايدنفث وانغان Edenevet Wangan أيضاً، وأدى بناء على طلبي اليمين نفسه، على الصليب المتقدم ذكره. عمل، إلخ، كما ورد أعلاه».

«بالإضافة إلى هذا، لقد التزمت أنا عن نفسي وعن ورثتي، أنني إذا ما حاولت أنا أو هم أي شيء مضاد لسلام مولانا الملك، أو ورثته، بشكل معارض للشروط المتقدم ذكرها، سوف تتم مصادرة ميراثنا لصالح الملك وورثته، وفي سبيل تنفيذ جميع الشروط المتقدم ذكرها شرطاً شرطاً، وضعت نفسي وورثتي تحت حكم رئيس أساقفة كانتربري، وأساقفة: لندن، وهيرفورد، وكوفنتري، للوقت الحالي، وبناء عليه يمكنهم جميعاً أو واحداً منهم، يمكن أن يختاره الملك للغاية والغرض، امتلاك اصدار حكم الحرمان الكنسي لنا، ووضع أراضينا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، إذا ما حاولنا صنع أي شيء مضاد للشروط المتقدم ذكرها، ولقد أقنعت كل من أسقفى بانغور Bangor والقديس آساف، بإعطاء صكوك تعهد إلى الملك، تعهدا بها القيام بتنفيذ إصدار قرارات الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين، والتفوه بها من قبل رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، والأساقفة، أو أي واحد منهم، بناء على تلقي الأوامر من أجل هذه الغاية».

كيف سعى داود إلى رمي النير الانكليزي

ولقد قلت ماتقدم من التفاصيل، في سبيل أن أظهر إلى العالم طبيعة الالتزامات العظيمة والكثيرة التي التزم بها داود المذكور، الذي كان حفيداً للملك، حيث كان خائناً، وقاتلاً لأخيه، وكذلك بالنسبة للنبلاء الآخرين (مع أنهم وضيعي العادات) لويلز، وتعهد وتعهدوا بها بأنفسهم إلى مولاهم الملك، لكن الآن مزقوا جميع روابط القرابة،

وحنثوا بعهودهم وخرقوا جميع شروط الاتفاقية، فبدون حياء ركلوها ضد سلطة مولاهم الملك، وشنوا عليه الحرب وألحقوا به كثيراً من الأضرار على الحدود.

علاوة على ذلك وفي سبيل أن يحرر داود المتقدم ذكره عنقه من الولاء إلى الملك، انضوى تحت جناحي البابوية من أجل الحماية، واعداً بأن يستحوذ على ذلك الجزء من ويلز العائد إليه من البابا نفسه، ونتيجة لذلك أثر البابا قضيته، والذي أعدّه حالة يتوجب أن يندهش المرء كثيراً نحوها، هو أنه فتح له صدره، وأعطاه الملجأ إليه، مع أنه كان عاصياً ضد الملك، ما لم يكن —ربما— قد حدث وحصل على مساعدة البابا، بوساطة قمع الحقيقة، وبإفادات زائفة، لأنه مَن من المسيحيين يمكنه أن ينكر بأن أمير ويلز كان من الاقطاعيين الصغار لملك انكلترا؟.

الملك يمنع بيع صوف السسترشيان

وفي السنة نفسها، منع ملك انكلترا نقل صوف الرهبان السسترشيان إلى القارة لبيعه من أجل منفعتهم، وقد سعى بهذه الوسائط للعسف بهم وإلحاق الأذى بهم، لأنهم لم يرغبوا —في الحقيقة كانوا غير قادرين— بإعطائه مساعدة مالية، عندما كان في غسكوني.

عمل ميرون مقدس في دير القديس ألبان

وعمل في هذا العام أيضاً ميرون مقدس في الكنيسة الديرية للقديس ألبان، من قبل المبجل جون أسقف هارتفورد.

شهادة عن معجزات القديس إدموند المعترف

وعمل في هذا العام أيضاً معجزات من قبل القديس إدموند، رئيس أساقفة كانتربري والمعترف، وغدت متوالية الحدوث في بونتغني، حتى بدا وكأن أيام الرسل قد تجددت، ولم تحدث هذه المعجزات في فرنسا

فقط، بل في انكلترا أيضاً، خاصة في كيتباي Cateby، وهو المكان الذي كان فيه طيلسان القديس وبعض الصور المرسومة، التي اعتاد أن يحملها، فهناك كانت محفوظة، وأصبحت عدة أماكن أخرى مشهورة، وجرت زيارتها بمباركات معجزات واضحة، وبناء عليه، حتى لايتهم راعي دير بونتغني مع الجماعة الديرية بالجمود، شرع في الثناء عليه، ورغب لسبب جيد، في أن يجري تطويبه، وأن يدرج اسمه ويوضع في لائحة قديسي الكنيسة، ولذلك كتب إلى البابا كما يلي:

«إلى الأب الأعظم قداسة، والمولى انوسنت الرابع، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم، يقوم خدمه المخلصون ج ل، المسمى راعياً لدير بونتغني، وجماعة الدير في ذلك المكان، الذين هم من طائفة السسترشيان، بكل اخلاص، وخضوع، وتبجيل، بتقبيل قدميه المباركتين:

إن أعمال الخالق، التي تحمل برهاناً للمجد، وتشريفاً لكهنته، ينبغي أن لا تبقى سرّاً، وإذا كان من غير الممكن، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل القيام بإحصاء الوقائع التي حدثت عند ضريح ادموند، مع هذا يتوجب أن لا — كما لا يمكننا — أن نبقي صامتين تماماً، تجاه ما يحدث ليس فقط عند ضريح ادموند، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان من قبل رئيساً لأساقفة كانتربري، والذي جسده، تلك الكومة المشهورة من الأرض، والذي هو راقد في كنيستنا، التي اختارها بتقوى عالية جداً لتكون مكان دفنه، أن لا نبقي صامتين، لأن ذلك قد انتشر الآن في جميع أرجاء العالم، بوساطة معجزات متميزة وواضحة، لأنه حدث في أماكن متنوعة ونائية، لدى التوجه بالدعاء إلى اسمه، أن عملت معجزات، ليست معجزات من نوع واحد، بل سلاسل من المعجزات واحدة بعد الأخرى، ولسوف نستعرض أخبار هذه المعجزات باختصار وبسرعة، وذلك حسبها شاهدناها بأعيننا وسمعناها بأذاننا، فقد جرى رد البصر إلى أطفال عميان، والذين كانوا عرجاناً منذ ولادتهم، استردوا القدرة

على المشي، وعاد المصابون بالاستسقاء إلى الحجم الطبيعي، والذين كانوا طرشاناً منذ الولادة، قد استردوا السمع، والخرسان منذ الولادة تكلموا بوضوح، واسترد الأشخاص المشلولين قوتهم، والذين كانوا مسكونين من قبل الشياطين تحرروا منهم، وفتحت السجون، وحلت الأغلال، ونجا من الموت المصابون بالحمى الربعية وبحميات أخرى، وكان هناك بعض الذين يعانون من الصرع، ومن أوجاع أخرى متنوعة، ومصابين بأمراض خفية حادة، كما كان بعضهم محرومين من استخدام أطرافهم، والتي أصبحت من دون حركة، وكأنها قطعة من الخشب، وآخرون كانوا قد أصبحوا فجأة من دون عقل، وكان بعضهم قد أصيب بمرض الناسور، وآخرون أصيبوا بعلل التورم، هؤلاء جميعاً عادوا بفضائله إلى أوضاعهم الصحية السالفة، وتم إيقاف نزيف الدم في النساء وشفى أحدهم من اليرقان، وانتهت أوجاع الأسنان عند آخر، وزالت البقع الخبيثة من أحدهم، دون أن تترك أثراً أبداً، وجرى شفاء المصابون بالفتق، والمحدودة ظهورهم، والمصابون بالحصا، وبالبواسير، أو بأمراض أخرى حادة، وآخرون قد سقطوا في حفرة، أو في أنهار وفي مياه عميقة، وآخرون قد قذف بهم من أماكن مرتفعة، ما أن قام هؤلاء بالدعاء إلى اسمه، لم يصابوا بأي أذى جسدي، أو بشيء بسيط جداً وخفيف، وكان بعضهم قد وقع في مصائد الردة المنهكة، وجرح آخرون من قبل الأفاعي، وكاد آخرون أن يصابوا بالاختناق، وكسب آخرون القنوط، وقد حصل هؤلاء جميعاً على النعمة الرائعة لهذا الأسقف، وانتزعوا من موت كان محيقاً بهم، وتحرر آخرون —مجدداً— من ورم الفكين بفضائله وصلواته، وآخرون من ربط الحلقوم، وآخرون من نزيف الدماء، والذين تحطمت نفوسهم في أوقات الأزمات، والذين غرقوا تقريباً في أعماق اليأس، تمت مواجهتهم —لسرورهم— بالمواساة والشفاء، لدى إعادتهم لاسم هذا الأب إلى ذاكرتهم، وكان هناك بعضهم الذين تغلبت عليهم معيقات كثيرة متنوعة، وكانوا في حالات

الخطر، لكن عندما دعوا اسم هذا العابد للرب، والمحبوب من الملائكة، مع أن ذلك مزعج ومكروه من قبل الشياطين، قد تحرروا من جميع شياطينهم، وشعروا بحضور فضائل مولانا يسوع المسيح، وهذه ومعجزات أخرى عملت من قبل الرب فقط، الذي هو مبارك فوق الأشياء كلها دائماً أبداً.

ومن الوقائع المثيرة للدهشة أيضاً، هو أن الحيوانات المتوحشة قد شعرت بالمنافع من خلاله، وبناء عليه، إنه بالتقدير الرائع للرب، الذي أوجد كل شيء بشكل حكيم وصحيح تماماً، حدثت في المكان الذي يرقد فيه جسده، معجزات مجيدة كثيرة، وكانت سمعة أعمال الشفاء عظيمة جداً، وحشود الناس المجتمعين كثيفة جداً، وهم على درجة عالية من التقوى، ولذلك فإن الكنيسة تعني للرب وفق الطريقة نفسها، ومثل ذلك يمكن أن يغنوا عن عبده ويقولون: «الذين ضلوا عنك، سوف يعودون إليك، وسوف يعبدون آثار قدميك»، ذلك أن جميع أعداء هذا الأب المذكور، قد اجتمعوا مع بعضهم وتعبدوا في المكان الذي وقفت فيه قدماءه، لابل حتى بعض أتباع الكفر، وأهل العناد، الذين أقدموا على الاستخفاف بفضائل الرحمة اللاهوتية، وكذلك فضائل الأب المذكور قد أصيبوا فجأة بالقناعة، وأرغموا، حتى وهم غير راضين على نشر أخبار هذه الأشياء، وهناك واقعة يعجب الإنسان نحوها أكثر من الوقائع الأخرى، وهي واقعة لم يسمع بمثلها في أي وقت من الأوقات، وقعت في قضية أحد الأطفال، وكان قد ولد من دون قدمين، واستمر هكذا لمدة ثمانية أعوام، عندما فجأة بدأ ينمو له قدمان جديدان، وكان أمراً غير اعتيادي البتة لإحلال أطراف جديدة حيث لا يوجد أطراف، وهذا أصعب من شفاء أطراف مريضة وإعادتها صحيحة وقوية! آه أيها الكاهن صاحب الفضائل العظيمة، آه أيتها الفضائل لمثل هذا الكاهن! من الذي فكر قط بمثل هذه الجوائز، أو

بمثل هذا الامتياز لفضائله، أو مثل هذه الجدارة العظيمة لكاهن، فمثلاً أضفى المسيح الحياة السرمدية على الروح التي استعيدت من الموت الأبدى، مثل هذا فعل الأسقف التقي المحب للمسيح، فبوساطة عملية الرحمة اللاهوتية، استرد الحياة الآنية إلى الأطفال الضعفاء، وإلى الذين غرقوا، وإلى عدد كبير آخر كانوا بالفعل أمواتاً في الجسد، لأن أية معجزة يمكن أن تكون أعظم روعة من إحلال فائدة الصحة محل شر الموت؟ وعلى هذا يبدو أن الأمر لم يكن بلا فائدة عندما تعرضت بشكل مختصر لأخبار مثل هذه المعجزات الرائعة.

«لأن المعجزات الحالية سوف تؤكد المعجزات الماضية، والمعجزات المتوقعة في المستقبل، حيث أن هذه ستكون ثابتة ولا يمكن قلقلتها، وفي الحقيقة يبدو أن احتشاد الناس في المكان المذكور، جدير بالاعجاب أكثر من المعجزات نفسها، وهذه الحالة نفسها هي معجزة، لأنه ما الذي يمكن أن يكون أكثر اعجازاً، وأكثر إدهاشاً، من قيام الناس في عالم اليوم بعبادة إنسان، كانوا في البارحة يكرهونه؟ أي قيام الذين هربوا منه بالأمس بالفرار إليه اليوم، وأن يقوم بالصلاة اليوم إلى الرب من أجل الوقاية الكاملة لنا، رجل تجنبنا بالأمس كل علاقات معه، إما خوفاً من سلطة أرضية، أو من خلال سلطاتنا الشخصية الشريرة، وهذا في الحقيقة بدا لكثير من الرجال العقلاء هو الأعظم بين هذه المعجزات، وبالقدر نفسه حتى لاتندرس ذكرى هذا الرجل العظيم، وتهمل في قبره، وأن لايعهد بها إلى النسيان مع ضريحه، ألقينا بأنفسنا عند قدمي قداستكم، ونرجوكم بتواضع وباخلاص، أن تقوموا بعد فحص مناسب وصحيح لهذه المعجزات، بادراج اسم الأب المذكور في قائمة القديسين، ونحن نعمل في هذه القضية بأعظم ثقة، بسبب أن توماس المبارك من المعروف أنه قد أعطى شهادة، وأنه كان متنبئاً مخبراً بهذه الأحداث وواعداً بها، لأن توماس المذكور، بعدما أقام مدة طويلة أثناء

نفية في ديرنا، بناء على أمر من البابا الاسكندر، صاحب الذكرى الطيبة، أظهرت له العلامات من السماء، بأنه سوف يعود إلى كنيسته، ومن هناك سوف يغادر إلى الرب، مع سعة الشهادة، وبما أنه لم يمتلك الوسائل ليكافئنا، بوساطة هدايا كريمة، ومنافع، من أجل المعروف الذي أبدي نحوه من قبل سلفنا، وخوفاً منه أن يكون قد أثقلنا، مع أنه لم يفعل ذلك ولا بشكل من الأشكال، وعد بأن خليفة له، سوف يأتي من بعده، وسوف يرضينا عوضاً عنه ولصالحه، ونحن نعلم بأن هذا جرى الوفاء به من دون إحباط، ولكي تبقى ذكرى القديس توماس الشهيد محفوظة بالفكر، كان الرجل الأول الذي شفي بفضلته في كنيسة اسم توماس، وعلمنا من هذه الحقيقة أن علينا أن نؤمن بجميع الأعمال الجيدة المتعلقة به، في سبيل تشريف وتمجيد مولانا يسوع المسيح، الذي، إلخ».

براهين حول قداسة القديس إدموند المعترف

وبشأن ما يشبه العبادة التي اعتاد الرجل الأكثر قداسة على ارتدائها، لا يصح ولا بشكل من الأشكال أن نقف صامتين، لأننا نعتقد بأنها كانت نوعاً لم يجرب من قبل الرجال المقدسين في العصور الماضية، ولم يسمع بمثلها في هذه العصور الحالية، فعبادته لم تكن مصنوعة آنذاك بوساطة فن الحياكة، من خيوط رفيعة، بل كانت معمولة من قبل حبال صغيرة شبكت مع بعضها مثل شبكة كثيفة جداً، فالوصلات الحاوية للعقد، عديدة مثل القصاص، في نظام كثيف، ولكي تكون العقد أكثر ضغطاً على جسد المرتدي، لم تكن العبادة سليمة في الجزء الخلفي منها، بل كانت مفتوحة من الأعلى نحو الأسفل، بفتحات صغيرة هنا وهناك، فبهذه العقد المنسوجة بشدة وإحكام، حارب نفسه، في سبيل أنه بالتعذيب الداخلي، سيتمكن من قهر الجسد، وذلك حتى يصبح شهيداً، ويحصل على النصر على نفسه، ولم يكن هو قانعاً بمكتفياً بصلب الجسد بالتعذيب بوساطة العبادة، بل أراد أكثر من ذلك، وكان الذي أوقعه

زيادة على نفسه، قد ضاعف من دهشتنا أكثر من أي شيء آخر، ففي سبيل أن يربط هذه العبادة ويشدها أكثر قرباً على جسده، ولكي يمكن تمزيقه بحدة أكبر، بوساطة الحك والكشط، ربطها على نفسه، بحبل أغلظ، ومرره مرتين حول نفسه من عند الجزء الأعلى من جسده، ومرّ هذا الحبل نازلاً من صدره حتى حقويه بوساطة عدة لفات متداخلة، قد جرى ربطها، والتقت النهايتان مع بعضهما في الأسفل، وبذلك التصق الحبل بالعبادة باستخدامه، وبذلك صار من المادة نفسها.

وبناء عليه حزم نفسه بحبل من شعر، ولم يحزم حقوي جسده حسبما تطلبت الشريعة، بحبل من كتان مجدول، بل عمل مثل ابن الرب، فحزم نفسه بحزام كان عالياً حتى صدره.

وباختصار، نجد أن أجزاء جسده، التي لم يتمكن من تعذيبها بالنهار، أي يديه، وكذلك الأجزاء العارية من رقبته، قد غطاها بقماش من الشعر أثناء الليل، حتى يتمكن بذلك من جعل جسده كله قربان حرق ذي نكهة طيبة، إلى الرب، فلماذا أنا بحاجة لقول أي شيء عن صومه الذي لم يتعب منه وعن صلواته؟ ومع أنه سمح لطعام قليل جداً بالدخول إلى فمه، كان دوماً يتفوه بالحمد والشكر إلى الرب، وكان دوماً يتلفظ بكلمات مهذبة، وكانت هذه الكلمات كأنها صادرة من نبع صدر مولانا، وكانت خطاباته عميقة ومهذبة حول اللاهوت، الذي كان به متميزاً كثيراً، حيث كان مثل أوغسطين آخر، وكان يلقي خطاباته وسط التهنيدات والأنين، مع يديه وعينييه مرفوعتان دوماً — مثل القديس مارتن — نحو السماء، وبذلك أثار تقوى الجميع وجذبهم أثناء كلامه.

الشفاء الرائع لأسقف درم

ووصلت هذه البراهين وبراهين أخرى عن قداسة هذا الرجل المقدس إلى علم نيقولا أسقف درم، الذي كان مصاباً باستسقاء لا يمكن

شفائه، حتى أن لونه تغير بوساطة يرقان أصفر، وقد تلاشى جسده حتى أصبح هيكلاً، وفقد جميع الرطوبة العائدة لجسده، وجف جسده بالسعال والربو، وصار لونه حالك السواد، حتى ظهر بأنه بات على حافة الموت، ولم يترك له، كما ظهر سوى القبر، وفي هذه الحالة من اليأس والقنوط من أي علاج إنساني، وضع ثقة كاملة بالرجل المقدس المذكور، وبناء عليه نذر، أنه إذا ما عادت إليه صحته الجسدية، وصار بإمكانه، سوف يزور بتقوى وإخلاص ضريح ادموند المبارك، رئيس أساقفة كانتبري، وعلى هذا جرى نقله بعربة إلى الأجزاء الجنوبية من انكلترا، لكي يستفيد من استنشاق هواء موطنه المحلي، وليكون أيضاً أقرب إلى بونتغني، ليفي بنذر حجه، وبعد إقامته هناك لبعض الوقت صار ضعيفاً إلى حد بدا فيه أنه بات صورة أكثر منه إنساناً، ولذلك عمل وصيته، وقال وداعاً إلى جميع أصدقائه، وتلقى قربان الموت كاملاً، والمسح الأقصى، لكن عندما كان متمدداً وهو في نفسه الأخير، جاء و. W وكان واحداً من خدمه، كان من قبل حلاق، وبواب القديس ادموند، عندما كان رئيساً لأساقفة كانتبري، وكان متصوراً في ذهنه — لسبب صحيح — أن الرب سوف يجعل ذلك الأسقف بين قديسيه، لذلك احتفظ ببعض شعر لحيته، التي كان من واجبه حلاقتها، آملاً بأن هذا الشعر سوف يكون مفيداً للمرضى، في مستقبل الأيام، وعندما اقترب هذا من الأسقف نيقولا، الذي كان نصف ميت، لكن محتفظاً بنشاط ذاكرته، أمر الخادم المذكور، أن يضع الشعر في بعض الماء المقدس، وإعطائه إياه للشرب، وجرى عمل ذلك، وبعدما شرب الأسقف ذلك، أعقب ذلك غثيان، ثم خمود تورمه وآلامه، وانتعش هو كلياً، وعاد في وقت قصير إلى الصحة تماماً.

الإمبراطور يتعهد شخصياً بالحفاظ على السلام مع الكنيسة
وفي الوقت الذي كان فيه خادع العالم يزعج النفوس بهذه المقلقات

المزعجة، وقع الامبراطور فردريك تحت تأثير نصيحة حكيمة، ومع أنه تظاهر بالتواضع، وعد بتقديم ترضية إلى الكنيسة وإلى الكنائس الأسقفية، وفقاً للشروط التالية: فيما يتعلق بالضمانات التي يتوجب تقديمها، نقول كما يلي: سيقدم الامبراطور ضمانات قائمة على يمين، ومكتوبة، وبكفالة من قبل الملوك، والأمراء، والنبلاء والايالات، والكونتات، من مختلف البلدان، وعلاوة على ذلك، إنه فيما يتعلق بالضمانات المتقدمة الذكر، هو سيضع نفسه تحت إملاء صاحب القداسة البابا والوسطاء:

«فردريك الأغسطس الدائم، الذي هو بنعمة الرب امبراطور الرومان، وملك القدس وصقلية:

إننا نعلن بوساطة هذه الأداة الحالية إلى الجميع، بأننا منحنا إلى R، الذي هو الكونت المشهور لطولوز، وقرينا المحبوب، والذي هو من رعايانا المخلصين، وإلى المعلم بيتر دي فينيا Vinea، وثاديوس Thaddeus دي سيسا Sessa، القاضيين في محكمتنا العليا، والذين من رعايانا المخلصين، منحناهم سلطة كاملة وخاصة بأن يقسموا بأرواحهم، نيابة عنا ولصالحنا، بأننا سوف نلتزم بأوامر البابا والكنيسة، فيما يتعلق بمسائل الأذى، والخسارة، والاعتداءات، التي تعرضت لها الكنيسة والأشخاص اللاهوتيين، قبل صدور قرار الحرمان الكنسي وبعده، والأسباب التي من أجلها جرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي المذكور ضدنا بشكل رسمي من قبل غريغوري، الحبر الأعظم، والتصديق على، وتأكيده وتثبيت كل الذي سيقدر رعايانا المخلصين المتقدم ذكرهم، أنه ينبغي أن يفعل في هذه القضية، وللتذكير بها وتأكيدها، أمرنا بتنفيذ هذه الكتابة الحالية، وختمناها بختمنا الامبراطوري الذهبي والتوبازي Topaz.»

رسالة الإمبراطور فردريك إلى ملك إنكلترا

«من فردريك، إلخ، إلخ:

فيما يتعلق بمحادثات شروط السلام بيننا وبين الكنيسة، تم وضع الترتيبات الأولية، كما نعتقد من قبل قريبتنا المحبوب، وحليفنا المخلص، كونت طولوز، لذلك يتوجب أن يكون رسلك حضوراً، فهذه هي رغبتنا، ونحن نرجو جلالكم باخلاص، أن ترسل رسلاً خاصين، من أجل توجيه هذه القضية، وأن يكونوا ممن تثق بهم، وأن يكونوا أكفاء في كل من البراعة، والاخلاص الجيد، لترتيب هذه القضية. صدر، إلخ، إلخ».

بنود الاتفاقية التي وعد الإمبراطور بموجبها بتقديم ترضية إلى
الحبر الروماني

فيما يخص قضية الأراضي، جرى إعداد شروط أعطت الرضا إلى الطائفتين معاً، وهي، إن جميع الأراضي التي امتلكتها الكنيسة في أيام الحرمان الكنسي، سوف يجري التخلي عنها، وأيضاً فيما يتعلق بالذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، أما فيما يتعلق بازدراء المفاتيح، يتوجب على الإمبراطور أن يكتب في جميع أرجاء العالم بشكل عام، أنه باستخفافه بالكنيسة، وبسلطة الكنيسة، هو لم يعامل بازدراء الحكم الذي تفوه به سلف البابا، وبما أن القرار المتقدم الذكر لم يجر التفوه به إليه، هو تابع السير بموجب نصيحة الأساقفة وبقية النبلاء في ألمانيا وإيطاليا، لأنه لم يكن ملزماً بمراعاته، قبل أن يجري التفوه به إليه، ومع ذلك هو يعترف ويقرّ، بأنه أخفق، وتصرف بشكل سيء بالنسبة لهذه القضية، بعدم مراعاته له، لأنه كما هو معروف بشكل جيد، وحسبما يعتقد بشكل ثابت، بأن للحبر الأعظم سلطة كاملة في القضايا الروحية، وكذلك عليه وعلى جميع المسيحيين من ملوك، أو أمراء، أو رجال دين، أو علمانيين، حتى لو كان هو نفسه مذنّباً، لاسمح الرب بذلك، وعلى

الرغم من كل ذلك، سوف يقدم الامبراطور المذكور، بسبب خطيئته، كذا وكذا مساعدة، عسكرية ومالية، إلى أي أمير في العالم المسيحي، حسبما يبدو موثماً إلى صاحب القداسة البابا، وسوف يقدم الصدقات، ويحافظ على الصوم، وفق ما يرسم به البابا، وسوف يلتزم باخلاص وتواضع بقرار الحرمان الكنسي المذكور حتى وقت تحليته، وفيما يتعلق بالأساقفة المعتقلين، في المقام الأول: إن جميع المقتنيات التي جرى الاستيلاء عليها في غلايينهم، والتي وقعت بين يدي الامبراطور، أو التي يمكن العثور عليها بحوزته هو سيعيدها وسيتدبر إعادتها كاملة، وفيما يتعلق بالبقية، إذا كان الذين عانوا من الأذى، يودون وعلى استعداد، هو سوف يقدم ترضية لهم، وذلك وفق ما يأمر به البابا، الذي يثق بلطفه، وهو أيضاً تكفيراً عن الذنب المذكور، وفي سبيل تمجيد الرب، سوف يبني مشافي وكنائس، حسبما سوف يقرر البابا، وذلك بالنسبة للعدد والمكان، ووفق الطريقة التي يراها موثمة، وسوف يمنحهم حسبما سيأمر البابا، وبالنسبة لما تقدم ذكره، وبالنسبة إلى جميع الأضرار والخسائر والاعتداءات التي تسبب بها إلى الكنائس وإلى اللاهوتيين منذ بداية الخصومة، ومنذ صدور القرار، ومن أجل الأضرار التي حرم بسببها كنسياً، هو — الامبراطور — سوف يقسم بدقة على الالتزام بأوامر البابا، شريطة الحفاظ على امتيازاته ومراتبه كما هي تماماً، ومن دون أي انتقاص لامبراطوريته ولملكه، ومع أننا نعتقد بأن ترضية كافية قد قدمت مقابل الأضرار المتقدم ذكرها، مع ذلك إنه في سبيل تقديم ترضية، وفي سبيل ضمان تنفيذ القضايا المتقدم ذكرها، وأيضاً في سبيل هذه المنافع المذكورة، سوف يلتزم الامبراطور بخطط وقرارات الوسطاء، الذين هم: ستيفن أسقف أوستيا، والكاردينالين: جايلز، وأوتو، الذين سوف — باستثناء شخص البابا — يقدمون مايرون أنه ضروري أن يقدم، على شرط، أن لا يعمل الوسطاء المتقدم ذكرهم أي شيء، من دون نصيحة البابا وأمره، باستثناء أنه بالنسبة للنقاط المتقدم

ذكرها، في قضية الترضية والضمانة، سوف يفعلون كل الذي يقرره البابا المتقدم الذكر، بوساطة نصيحة إخوانه، وكذلك فيما يتعلق بالذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، نحن نقول إنه من هذا التاريخ، جميع الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، بعد بداية الخصام، مهما كانت الجهة التي جاءوا منها، سوف يعفى عنهم فيما يتعلق بجميع الأضرار التي عملت من قبلهم، قبل النزاع وبعده، سواء أكان ذلك لحساب الكنيسة أو لحساب أي جهة أخرى، وسوف يجري إلغاء جميع الحرمانات والقرارات التي صدرت ضدهم، وهو سوف يحررهم من الأعطيات، ومن الاتفاقيات، ومن الروابط، التي عملوها له، بعد صدور القرار، أو بعد وقفهم إلى جانب الكنيسة، وسيعيد إليهم جميع ممتلكاتهم، وحقوقهم، ومراتبهم كاملة، مع أنها قد تكون قد أعطيت إلى آخرين، وفيما يتعلق بالآخرين، الذين كانوا قبل نشوب الخلاف ثائرين ضد الامبراطور، وكانوا آنذاك في حرب معه، نحن نقول بأن جميع ذنوبهم سوف يجري غفرانها كلها، والتي اقترفوها فيما بعد ضده، وضد الامبراطورية، وبالنسبة للاعتداءات والذنوب التي اقترفت قبل نشوب النزاع، سوف يلتزم الامبراطور بشروط البابا وبمراسيمه مع اخوانه، التي سوف يجري إقرارها، قبل التاريخ الذي سلف وأعدده البابا، وهو سوف يمنح سلاماً كاملاً إليهم، منذ ذلك التاريخ، وبالنسبة للضمانات إلى الرومان، الذين ارتبطوا بالكنيسة بعد نشوب الخلاف، وكذلك بالنسبة لنبلات منطقة تريفيسو Treviso، وإلى مركيز مونتسرات Montserrat، وللنبلات الآخرين في جميع المناطق، وافق الامبراطور على أنه ينبغي عدم ربط النبلات المتقدم ذكرهم — مالم يكن بناء على أوامر البابا — بتقديم الخدمة شخصياً إلى الامبراطور، بل بوساطة بدلاء، وأنهم سوف يدعون إلى الالتزام بقرار أتباعهم النبلات ونظرائهم في المقاطعة نفسها، والذين ارتبطوا بالكنيسة ليسوا مستثنين، أما فيما يتعلق بالذين هم بالاعتقال، بسبب أعمال حقيقية أو شخصية، أو حتى إن كانوا متهمين بإعتداءات

جرمية، خاصة بالنسبة لحالة الرومان، سوف يقوم الامبراطور، من أجل تقديم الضمانة الأعظم إلى الذين ارتبطوا بالكنيسة، بتعيين واحد من مقدمي الأساقفة في إيطاليا، أمامه فقط يمكنهم الترافع بقضاياهم، وذلك في سبيل تقديم الترضية لصاحب القداسة البابا، وكذلك فيما يتعلق بالقضايا المدنية والجرمية، وسيجري اختيار هذا الأسقف بموافقة من البابا، ويبقى للمدة الزمنية التي يمكن أن يختارها، وأماكنهم الخاصة للدفاع، سوف يضعها الامبراطور في عهدة الذين يعتقد أنهم موثمين، وهو لن يلمس أماكن الدفاع للمتقدم ذكره، أو يؤذيها من دون موافقة الأسقف الذي انتدب لهذه القضايا، وبالنسبة إلى الذين هم عائدین إلى منطقة تريفيسو، سوف يتعاون الامبراطور مع واحد من الرهبان يعتقد أنه موثماً للاختيار لهذا العرض، وتقديم مقدم إليه وحده سوف يرتبط الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، لتقديم تقدير حول أراضي تريفيسو المذكورة، وهو أيضاً سوف يطلق سراح جميع الأسرى الذي اعتقلوا في الغلايين، والذين اطلاق سراحهم الآن هو مطلوب، وكذلك التوسكانيين، والرومان والأسرى الآخرين، الذين اعتقلوا منذ صدور قرار الحرمان الكنسي، وسوف يحررهم من جميع الأيمان، ومن جميع المتوجبات التي ربطوا أنفسهم بها، منذ وقوعهم بالأسر، وكذلك جميع الذين أطلق سراحهم، ومثلهم الذين سوف يطلق سراحهم بعد الآن، ومن أجل هذا سوف يعطي رسائل معتمدة إلى رعاياه المخلصين، بأن جميع الذين هم سجناء، سوف يطلق سراحهم في كل مكان من قبل سجانهم، وسوف يسمح للذين طردوا من البلاد بسبب الخلاف الأول أو الخلاف الثاني، من رجال دين أو علمانيين، بالعودة إلى مواطنهم، ليمكثوا هناك بأمان، وأن يعيد إليهم ممتلكاتهم وبضائعهم كلها.

وبالنسبة لخلافه مع الرومان، سوف يلتزم الامبراطور بالترتيبات التي سوف يعدها البابا واخوانه، وكذلك فيما يتعلق بعمل تعويضات عن

الخسائر التي عانوا منها على كلا الجانبين في تلك الحرب، وكذلك فيما يتعلق بالمسائل الأخرى، على شرط أن ذلك — على كل حال — سوف يجري ترتيبه حول مايتعلق بالخلاف حول ممتلكاته وتحديداتها، باستثناء قلعة أنتكولي Anticoli، التي حولها لايقبل التسوية، وفيما يتعلق بالمضار التي عملت من قبل الامبراطور، أو موظفيه ونوابه، بناء على أمره، إلى كنائس رجال الدين، وكذلك بالنسبة للعلمانيين والكنائس الأخرى، وذلك منذ صدور القرار ضده، سوف يقدم الامبراطور ترضية، حسبما يمكن أن ترى حكمة الكرسي الرسولي ولطفه أنه من المناسب تقريره، وكذلك حيث لايعلم الامبراطور بأن الأذى قد عمل من قبله، أو من قبل جيوشه.

وقد منح إلى غريغوري دي مونت لونغو وإلى أقربائه، سلاماً كاملاً وأماناً، وأرض الكونت وليم التي استحوذ عليها من قبل الكنيسة سوف تعاد، وبالنسبة للأراضي الأخرى، سوف يجري تحكيم حولها بين الامبراطور، وبين الكاردينال أوتو، رئيس أساقفة روان، وهكذا فإنهما هما نفسيهما يمكن أن يقررا الشريعة التي ينبغي أن يقرراها.

وتفوه رسل الامبراطور وأعطوا وعدهم، بأنهم سوف يعملون تسوية حول مايتعلق بالممتلكات والمقتنيات، وفي الوقت نفسه سوف يعترفون، ويحددون، ويقسمون، أنهم سوف يسعون لمخلصين تماماً ومن دون خداع، إلى اقناع مولاهم الامبراطور، بأن يسمح للأساقفة المتقدم ذكرهم، بالترافع قضائياً بشكل جماعي أو بشكل فردي حول قضية الممتلكات وحقوق الملكية، ولسوف يطلب الأساقفة الثلاثة من الامبراطور أن يفعلوا ذلك، وتعهدوا بالنسبة لأنفسهم، بأنهم سوف يتصرفون في هذه القضية باخلاص وصلاح نحو الامبراطور، شريطة أن يسمح لهم بالترافع قضائياً، حسبما يعتقدون أنه عمل موائب، في الاستماع لهذه القضية وفي تقريرها، وذلك حول المقتنيات، وحقوق الملكية، جماعياً

أو فردياً، وأنه إذا لم يستطيعوا جميعاً أن يكونوا حاضرين، وأعيق أحدهم بأي معيق معقول، يمكن لاثنين منهم الترافع بالقضية.

حول معيق تطويب القديس إدموند المعترف

وما ان جرت تسوية هذه القضية الصعبة، حتى اعتقد البابا بأنه حلّ جميع القضايا بسعادة، فردد الشكر إلى الرب، وإلى القديس ادموند، الذي طلب عونه في وقت متاعبه، وبناء عليه وعد وقرر، أن يقوم تماشياً مع طلب راعي دير ورهبان بونتغني، بشكل مهيب بتطويب ادموند المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، الذي عرفه من التقرير العام بأنه أشع بكثير من المعجزات التي تمت الاشارة إليها أعلاه، وأرسل أندلم Andelm، رئيس أساقفة أرماغ مع رجال آخرين مستقيمين وذوي نفوذ، للقيام بفحص مناسب وتقصي حول هذه المعجزات، وعندما سمع المضطهدون القدامى والمتجذرون للقديس المذكور قالوا بين بعضهم: «إنه إذا ماجرى تطويب هذا الرجل، وتمت ترقيته إلى مرتبة القدسية المتميزة سوف نكون في وضع مربك مهين»، ولذلك قاموا من أجل خراب أرواحهم، فعملوا مؤامرة مع النائب البابوي أوتو، لمنع هذا القديس من التطويب مع أن الرب قد أظهر للناس كثيراً من معجزاته.

تراجع الإمبراطور عن شروط السلام التي رتبها

وأبعد الامبراطور وتغرب بوساطة بعض المزعجات، والإثارة له، حيث أظهر أولاً شموخاً، ثم أسف لوعوده، وتراجع بشكل محزن عن الشروط التي أقسم بمراعاتها، وعن التواضع، وعن تقديم الترضية الموعودة، وفي الوقت نفسه، حتى تزداد أحزاننا، كتب الأساقفة الذين يسكنون في الأرض المقدسة، إلى الأساقفة الذين يسكنون على هذا الجانب من البحر، مايلي:

رسالة مبكية

«إلى الآباء المبجلين في المسيح، وإلى جميع أصدقائنا: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، والأساقفة الآخرين في انكلترا وفرنسا، وإلى الذين سوف تصلهم هذه الرسائل، يتمنى لكم روبرت، الذي هو بنعمة الرب بطريك الكنيسة المقدسة في القدس، والنائب للكرسي الرسولي، وهنري رئيس أساقفة الناصرة، وج. ل. الأسقف المنتخب لقيصرية، ور. R أسقف عكا، وأسقف صيدا، والراهب وليم أوف روكفورت Rochefort، نائب مقدم بيت فرسان الداوية، ورهبان البيت نفسه، وهـ. H رئيس رهبان ضريح ربنا، وراعي دير القديس صموئيل لطائفة رهبان البريمونستريت Premonstrate، ورعاة الدير: ب. B راعي دير جبل الزيتون، وج. J راعي دير هيكل ربنا، وب. P راعي دير جبل الطور، ور. R راعي دير جبل صهيون، الصحة والنجاح وفقاً لرغباتكم:

قدمت حدة الحيوانات الشرسة من مناطق الشرق، ووجهت مسارها نحو منطقة القدس، التي مع أنها اعتادت في أوقات كثيرة أن تتعرض للمضايقات بطرق متنوعة من قبل المسلمين المحيطين بها قد تمتعت بالآونة الأخيرة بشيء من التنفس بحرية، لأن أعداءها القريبين قد أخذوا إلى الراحة، ومع ذلك فإن ذنوب المسيحيين قد أثارت شعباً غير معروف، حتى يقدم على تدميرهم، وقد جلب السيف المنتقم وسلطه عليهم، من بعيد، نعم لقد هز غضب التتار ورعبهم جميع منطقة الشرق، بوساطة المصائب المضاعفة والمرعبة، فقد اضطهدوا الناس سواء، ولم يميزوا بين مسيحي وغير مسيحي، بل أخذوا أسلابهم من أقصى البقاع، حتى من الذين هم أنفسهم، قد عاشوا على افتراس الشعب المسيحي، فبعدما نهب ودمّر هؤلاء التتار المذكورين جميع بلاد فارس، وشنوا حرباً بروح فاسدة، واصطادوا أولئك الخوارزمية

المتوحشين، وسحبوهم من جحورهم، طردوهم من مقاطعاتهم، ولم يمتلك هؤلاء الخوارزمية مكاناً يسكنون به، ولم يتمكنوا من الحصول على ملاذ آمن بين أي من المسلمين، بسبب شرورهم، وقد تلقوا العون فقط من سلطان مصر، ذلك المتعقب للإيمان المسيحي، وهو وإن رفض منحهم مكاناً يلتجئون إليه في أراضيه، عرض عليهم، وقدم إليهم، ما هو ملك للآخرين، واستدعاهم ووجه الدعوة إليهم ذلك المسلم، للسكنى في أرض الميعاد، التي وعد بها الذي هو في عليين، وأعطاهما إلى الذين آمنوا به، وبناء عليه، قدموا، وهم معتمدين على عون السلطان المذكور، مع زوجاتهم وأسرهم، وعدة آلاف من الفرسان المسلحين، ودخلوا إلى ميراث الرب، الذي قالوا بأن سلطان مصر قد منحهم إياه، وكان وصولهم مفاجئاً، ولم يكن متوقعاً لا من قبلنا، أو من قبل الناس المجاورين لنا، لذلك لم يتمكنوا من انذارنا للاحتراز ضدهم، وقد دخلوا إلى منطقة القدس من خلال مقاطعتي صفد وطبرية، ومع أننا استخدمنا كل حيلة، وبقطة لابتداع وسائل من أجل ارجاع الأرض المقدسة، إلى سالف عهدنا من السلام والهدوء، الذي اضطرب بقدوم هؤلاء الأعداء الجدد، مع ذلك لم تكن إمكانات الصليبيين كافية للقيام بواجب طردهم، وإثر هذا استحوز الخوارزمية الذين تقدم ذكرهم، على المنطقة كلها الممتدة من طور الفرسان على مقربة من القدس، حتى غزة، وقمنا بناء عليه، واعتماداً على نصيحة الجميع ورغبتهم، بالتعاون مع مقدمي بيتي الرهبان، أي فرسان الداوية، وفرسان اسبتارية القديس يوحنا، ومدير فرسان التيوتون للقديسة مريم، ومدير المملكة، فتوجهنا بالدعاء إلى مساعدة جميع الصليبيين، وسلطاني دمشق، وحمص، اللذان كانا آنذاك يربطهما معنا معاهدة سلام، واللذان كانا معادين ومبغضين للخوارزمية، واللذان كانا ملتزمين، وفقاً لشروط المعاهدة، بالدفاع عن الأراضي التي هي بين أيدي الصليبيين، ضد المسلمين الآخرين، لأننا اعتقدنا أنهم أُنذروا بوصول أولئك الخوارزمية المذكورين، وهم وإن

وعدونا باخلاص وأقسموا على أن يقدموا العون إلينا، تأخروا كثيراً بتقديم أية نجدة إلينا، وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون مترددون حول القتال ضد هؤلاء الخوارزمية، لأن أعدادهم كانت قليلة، جداً، مقارنة بأعدائهم، غالباً ما هاجم هؤلاء الخوارزمية مدينة القدس، التي لم تكن محمية بحواجز دفاعية على الإطلاق، وبناء عليه فإن الصليبيين الذين كانوا في المدينة، وكانوا يخافون من وحشية هؤلاء «الكفار»، احتشدوا حتى بلغ عددهم أكثر من ستة آلاف رجل، ووثقاً منهم بالهدنة التي كانت معمولة بينهم وبين سلطان الكرك، ومسلمي المناطق الجبلية، تركوا عدداً قليلاً في المدينة وانطلقوا خلال هذه المناطق الجبلية مع أسرهم، وجميع مقتنياتهم، للدخول إلى أراضي الصليبيين، لكن المسلمين في تلك المناطق انقضوا عليهم، وهاجموهم، ووضعوا بعضهم طعمة للسيف من دون رحمة، واعتقلوا آخرين، وعهدوا بهم إلى أسر لا أمل فيه، وعرضوا الصليبيين من الجنسين حتى الراهبات للبيع إلى المسلمين الآخرين، وتمكن بعضهم — على كل حال — من النجاة بالنزول إلى سهل الرملة، ووقتها انقض الخوارزمية عليهم، واقترفوا مذبحة هائلة بينهم، إلى حد أن الذين نجوا من ذلك الحشد الكبير، لم يتجاوز عددهم الثلاثمائة، وكان هؤلاء بلا حياة تقريباً، ثم دخل أولئك المتوحشون التعساء المتقدم ذكرهم إلى مدينة القدس، وكانت الآن شبه خالية من الناس، وقتلوا جميع الصليبيين الذين بقيوا هناك، حتى أمام ضريح ربنا نفسه، وفي الكنيسة التي هربوا إليها للالتجاء، لابل حتى أنهم قطعوا رؤوس الكهنة الذين كانوا يؤدون القداسات عند المذبح، وكانوا يرددون بين أنفسهم: «دعونا هنا نصب دماء هؤلاء الناس الصليبيين، وذلك حيث شربوا الخمرة تشريفاً لربهم، الذي يقولون بأنه علق هنا على الصليب»، وبالإضافة إلى هذا نحن نخبركم بما هو أكثر إيلاًماً وحزناً، حيث أنهم وضعوا أيديهم الملوثة، على ضريح قيامة ربنا، ولوثوه بطرق كثيرة، ولقد انتزعوا تقريباً ألواح الرخام التي كانت

موضوعة من حوله، ولطخوا بكل وسيلة من الإهانات كانت بإمكانهم، جبل [أكرا] الجمجمة، حيث جرى صلب المسيح، والذي فعلوه بالمدينة، هو ما لستُ بقادر على التعبير عنه، وانتزعوا أعمدة الضريح المقدس، التي وضعت أمام ضريح ربنا بمثابة زينة، وتحدياً للمسيحيين أرسلوهم إلى ضريح محمد (صلى الله عليه وسلم) بمثابة علامة على النصر، ولكي يزيدوا من إهانة الصليبيين خرقوا حرمة قبور الملوك السعداء [للصليبيين] التي كانت موضوعة في الكنيسة نفسها، وفرقوا عظامهم وبعثروها في كل اتجاه، وبالنسبة لجبل صهيون المبجل، فقد خرقوا حرمة، ولطخوا بأشياء غير معقولة، وغير مناسبة لذكرها، هيكل الرب، وكنيسة وادي شعفاط، حيث يوجد ضريح العذراء المباركة، وفعلوا مثل ذلك بكنيسة بيت لحم، وموضع ولادة ربنا، وبذلك فاقوا بشروهم جميع المسلمين الآخرين، الذين مع أنهم غالباً ما هاجموا الأراضي الصليبية، دوماً أبدوا بعض الاحترام إلى هذه الأماكن المقدسة، هذا ولم يكن هؤلاء الخوارزمية المذكورين قانعين بكل هذا، وكانوا يستهدفون الاستيلاء على جميع المنطقة التابعة للصليبيين وتدميرها كلياً، وقد استثير الصليبيون بسبب هذه التجاوزات والأضرار، وباتوا غير قادرين على تحمل مثل هذه الشرور مدة أطول، التي هي شرور كافية، لإثارة كل حزن وأسى في قلب كل تابع غيور للإيمان الكاثوليكي، لذلك قرروا بموافقة عامة، العمل على توحيد قوى السلطانين المتقدمي الذكر مع قوات الصليبيين، وبناء عليه، بدأ الجيش الصليبي في اليوم الرابع من تشرين أول بالزحف ضدهم من ميناء عكا، وسار خلال قيسارية والمناطق الساحلية الأخرى.

وعلم الخوارزمية وقتها باقترابنا، ولذلك تراجعوا خلال مناطق متعددة، ونصبوا معسكرهم أخيراً أمام عكا، وانتظروا هناك النجدة، التي كان سلطان مصر —الذي هو رأس ومقدم الدنس— على وشك

إرسالها إليهم، وعندما التحق بهم حشد كبير أرسله السلطان المذكور، وصل إليهم الجيش الصليبي مع السلطانين المتقدمي الذكر، وكان ذلك عشية عيد القديس لوقا، فيومها وجدناهم أمام غزة مع حشد لا يحصى، وكانت فرقهم معبأة للقتال، وبناء عليه جرى ترتيب جيشنا من قبل المقدمين وفق النظام الموائم لمهاجمة الأعداء وقتالهم، ثم قام البطارقة والأساقفة الآخرين بتحليلهم من ذنوبهم بموجب سلطان الرب القدير، والكرسي الرسولي، وأعطى الجميع شارات، وأظهروا علامات على ندم مخلص بوساطة تدفق الدموع، فهم عدّوا موت الجسد أمراً لا قيمة له، وكانوا يأملون بنيل الجزاء الأبدي، واعتقدوا جميعاً أن تموت من أجل المسيح هو أن تعيش، لأنه لا بد من حدوث مصيبة جسدية لنا بسبب ذنوبنا، يتوجب أن نعتقد أن الذي هو في عليين، الذي يبحث في القلوب، ويعرف جميع الأسرار، سوف يكون مسروراً بالحصول على الأرواح بدلاً من نيل الأجساد.

ثم إننا اشتبكنا بعد ذلك مع العدو، ووقتها لحقت الغلبة بالمسلمين الذين كانوا معنا من قبل العدو، وهربوا جميعاً، وكانت أعداد منهم قد قتلت أو وقعت بالأسر، وهكذا ترك الصليبيون لوحدهم في ميدان المعركة، ومع أن الخوارزمية والمصريين انقضوا عليهم مع بعضهم، صمد الصليبيون بحكم كونهم أبطال الرب، والمدافعين عن الإيمان الكاثوليكي، والذين جعل منهم الإيمان نفسه والآلام، إخواناً، وأظهروا مقاومة شجاعة لهم، ولكن أخيراً، بما أنهم كانوا قليلاً جداً، بالمقارنة مع أعدائهم، تحول تيار المعركة ضدهم، وانصاعوا —وأنا أكتب ذلك بأسف— أمام النصر الذي ناله أعداؤهم، والذين نجوا من بين جميع فرسان الداوية، ومن فرسان اسبتارية القديس يوحنا، ومن فرسان التيوتون للقديسة مريم: فقط ثلاثة وثلاثين من الداوية، وستة وعشرين من الاسبتارية، وثلاثة فقط من رهبان فرسان التيوتون، هؤلاء فقط

الذين نجوا، أما البقية فهم إما قد قتلوا، أو جعلوا أسرى، وذلك بالإضافة إلى مذبحه هائلة ألت برماة القسي العقارة، وكذلك بالنسبة للجنود الرجالة.

وفيا يتعلق برئيس أساقفة صور، وأسقف اللد، وراعي دير القديسة مريم في شعفاط، ومقدم الداوية، ومدير التيوتون للقديسة مريم، وعدد آخر من الرهبان والكهنة، بما أنهم لم يظهروا بيننا، نحن في شكوك عظيمة حولهم، لاندرى أسقطوا في المعركة، أم أنهم مازالوا قيد الأسر، فنحن غير قادرين على تأكيد الحقيقة حولهم، أما مقدم الاستبارية، والكونت وولتر دي بريين، فقد حملا مع عدد كبير آخر أسرى إلى القاهرة، وأما بالنسبة لي أنا البطريك، الذي بسبب ذنوبي، وقعت جميع هذه المصائب، فقد عُددت من قبل الرب، أنني غير جدير بالشهادة، ولذلك نجوتُ، وأنا نصف ميت، وتمكنتُ من اللجوء إلى عسقلان، مع النبلاء، وقسطلان عكا فيليب دي مونتفورت، والفرسان، والعساكر الرجالة، الذين نجوا من المعركة، ومع أنه ليس هناك راحة بين مثل هذا العدد الكبير من المصائب، والخسائر التي ألت بنا، ذلك أننا خسرنا كل شيء في المعركة المتقدمة الذكر، مع ذلك إن الذي كان بإمكاننا فعله في حالة الطوارئ الحالية فعلناه، فقد قمنا بارسال رسائل ورسلاً إلى الملك المشهور لقبرص، وإلى أمير أنطاكية، ورجوناها بحرارة وحثناهما في حالة الضرورة الملحة هذه، أن يرسلنا فرساناً وعساكر من أجل حماية الأرض المقدسة، لكننا لانعرف بعد ماالذي عازمان على فعله في هذه القضية.

ثم إننا عدنا إلى عكا، واتخذنا مقامنا في تلك المدينة، التي وجدناها، وكذلك وجدنا جميع المنطقة على طول الساحل، مليئة بالحزن، والنحيب، وبمختلف أنواع التعاسات التي لانهاية لها، ولم يكن هناك بيت أو روح حية لم تكن تبكي واحداً من الموتى قريب لها، ومع أن

الحزن من أجل الماضي كان كبيراً وقاسياً، إن الخوف من المستقبل قد استولى على الجميع، لأن جميع المنطقة التي تم نيلها بسيوف الصليبيين، هي الآن خالية من جميع بني البشر، ومن جميع المساعدات الأرضية، والحماية، وقوة المدافعين قد نزلت إلى لا شيء، ودمرت، لأن هناك فقط عدد قليل من الأحياء، ومع أن هؤلاء قد انحدروا إلى حافة الموت، ما من شيء كما يبدو قد بقي، بل يتوجب أن يسقط كل المتبقي في أيدي أعداء الصليب، وفق رغباتهم، ذلك أنهم تقدموا إلى درجة عالية من الصلف والوقاحة، حتى أنهم زحفوا فنصبوا مخيمهم، الذي امتد فوق مساحة ميلين في السهل القريب من مدينة عكا، ثم إنهم الآن يركضون بشكل وحشي، وهم أحرار، حيث ليس هناك من يعترضهم أو يتصدى لهم، في جميع المنطقة بالطول والعرض، وذلك حتى منطقتي الناصرة وصفد، وهم قد استحوذوا على المنطقة، وشرعوا يتقاسمون فيها بينهم، وكأنها كانت منطقتهم، وقد عيّنوا رسلاً ووكلاء في جميع قرى وبلدات الصليبيين، ويتسلمون الموارد والجزية من رجال المقاطعات ومن بقية السكان، وهو ما كانوا من قبل يدفعونه إلى الصليبيين، وقد أصبح رجال المقاطعات هؤلاء الآن أعداء للصليبيين وعصاة ضدهم، ومرتبطين متحالفين مع الخوارزمية.

وهكذا فإن جميع كنائس القدس، وكذلك جميع الأراضي الصليبية، ليس لديها الآن أراضي تتجاوز بعض الأماكن الحصينة القليلة، التي يجدون مصاعب جمة ومتاعب كبيرة في الدفاع عنها، ولقد قيل أيضاً بأن المصريين الذين هم الآن عند غزة سوف يقدمون قريباً بأعداد كبيرة جداً إلى عكا، للاتحاد مع الخوارزمية في حصار المدينة، وتلقينا أيضاً في الثاني والعشرين من تشرين الثاني رسائل مع رسل من القسطلان مع الاستتارية الذين يشكلون الحامية في قلعة عسقلان، يعلنون لنا بأن الجيش الاسلامي القادم من مصر قد ألقى الحصار على تلك القلعة،

وأن المسلمين قد طوقوها، ولقد التمسوا منا أن نرسل إليهم مساعدات سريعة ومؤناً، وأن يكون ذلك منا ومن الجماعة الصليبية.

وفي سبيل أن تترك تقواك للاشفاق على دمار الأرض المقدسة، لأن هذا العبء يقع على أكتاف الجميع بشكل عام، رأينا من الصواب إخباركم عن أوضاع قضية المسيح، وبتواضع نرجوكم وبالصلوات والتقوى الخالصة نلتمس منكم، أن تطلبوا الرحمة من العلي الأعلى لصالح تلك الأرض، في سبيل أن الذي كرّس تلك الأرض بدمه، في سبيل خلاص جميع الناس، أن يتطلع إلى تلك الأرض برحمته، وأن يمدّ يده لمساعدتها وحمايتها، وقدم أيضاً أيها الأب الأعظم محبة، ما تمتلك من نصيحة ومساعدة في هذه القضية، حتى تحصل من ذلك لنفسك على المكافأة في السماء، وبالنسبة إليكم يمكنكم أن تكونوا متأكدين تماماً، أنه ما لم تقدم مساعدة إلى الأرض المقدسة في العبور المقبل لشهر آذار، من يد العلي الأعلى، وبوساطة نجدات من القوات الصليبية، إن الدمار والتخريب المحيق بها الآن، لا يمكن النجاة منه، وبما أننا نحتاج إلى وقت طويل حتى نبين الضروريات الأخرى التي نحتاجها، وأوضاع الأرض المقدسة بشكل عام في رسالة، أرسلنا إليكم الأب المبجل أسقف بيروت، وآرنولف Arnulph، وهو راهب من طائفة رهبان الدومينيكان، وهما سوف يحكما إلى جماعتكم الحقيقة كلها كاملة وبصدق، ونحن بتواضع نرجوكم جميعاً الإصغاء إلى الرسولين المتقدم ذكرهما، وأن تعاملهما بكرم، لأنهما عرضا نفسيهما لمخاطر عظيمة، لصالح كنيسة الرب، بقيامهما برحلتها في الشتاء. صدر في عكا في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني، من عام ألف ومائتين وأربع وأربعين لتجسيد ربنا».

ووضع على النسخة الأصلية من هذه الرسالة البليغة اثني عشر ختماً.

تأثير الرسالة المتقدمة

وعُهد بحمل هذه الرسالة الحزينة والمبكية، التي بعث بها آنذاك أساقفة الأرض المقدسة ونبلائها، الذين لم يكن بإمكانهم تحمل توقعات الشتاء المقبل، وتهديدات البحر المضطرب والهائج، عهد بها إلى وولران Waleran، أسقف بيروت، والراهب آرنولف الذي هو من طائفة الدومينيكان، ليحملها بكل سرعة ممكنة إلى الذين هم على طرفنا من الماء، وليرياها بشكل خاص إلى ملكي فرنسا وانكلترا، وقام الأسقف المتقدم الذكر مع الراهب، نظراً لتوفر الحاجة القصوى، فتحملاً، في سبيل غفران ذنوبهما، القيام بنقل هذه الرسالة، لصالح المسيح، وذلك بناء على طلب الأساقفة، ولم يهتما بجميع المخاطر الشخصية، فقاما في اليوم الأول من ميلاد ربنا بجرأة بالاقلاع، لكن مع التواضع المطلوب، وكانا يستهدفان استنهاض قلوب المسيحيين، وإعداد طرق الولد الوحيد للرب، الذين تحت وقايته سوف يستحقون الخلاص من المخاطرة المحيقة بهم، ونتيجة لذنوبهم، لقد مكثوا في البحر لمدة ستة أشهر، تعرضوا خلالها لخطر الموت من كل نوع وفي كل سبيل، وكما سمعنا من الأسقف المحترم نفسه، لقد عانى من عدد كبير جداً من المخاطر، حتى أنه أمر مبكي الإصغاء إلى رواية حولهم، كما أنه متعب روايتهم، وأخيراً — على كل حال — وصلاً بتوجيه من الرب، وبمساعدة صلوات جميع الأساقفة الذين تقدم ذكرهم، الذين كانوا قد أوكلوا أنفسهم إليهما، وصلاً إلى ميناء البندقية، وكان ذلك في حوالي عيد صعود ربنا.

بعض الإنذارات المسبقة حول الحساب المستقبلي

إنه لمن المعلوم بشكل جيد أن تهديد الرب، لم يكن نافذاً من قبل مثله الآن حول مدينة القدس المقدسة، وذلك حين قال: «ما من حجرة من أحجارك سوف تبقى فوق أخرى» إلخ، إلخ، ومن المتوجب أن نعرف أنه قبل عدة سنوات مضت سقط تمثال محمد (صلى الله عليه وسلم) في مكة (كذا)، وفي سبيل إنزال أعظم انتقام لهذا الحدث، ومن أجل إيذاء

المسيح، والمسيحيين الذين فرحوا لسقوط هذا التمثال، إزداد الآن غضب هؤلاء الخوارزمية المذكورين، وتعاضم ضد المسيحيين وضد أماكنهم المقدسة، وقالوا بأنهم حصلوا على هذا النصر من خلال رضا الله، وبوساطة شفاعة محمد (صلى الله عليه وسلم).

ومضى صوتهم بعيداً (ومن الممكن القول «سوف يمضي بعد هذا أبعد» واضعاً الماضي من أجل المستقبل) «في جميع أنحاء العالم»، وبناء عليه انتشر تبشير الدومينيكان والفرنسييسكان، وعمّ ليصل إلى جميع أنحاء العالم، وذلك وفقاً لكلمات المخلص: «أنتم سوف تكونون شهودي في اليهودية كلها والسامرة حتى إلى «إلخ، إلخ، وكأنه كان يريد أن يقول: «عندما ترون هذه الأشياء، حكم عام محيق»، ولم تجاوب لا الأرض ولا البحر، وفقاً لعادتيهما عموماً، على توقعات الناس، بل إن الماء وكذلك الأرض أصيبتا بضرب من ضروب الصمت والتعطيل، وكسفت الشمس مرتان في السنوات الثلاث المنصرمة، وهو حدث لم يتذكر مثيله بأنه وقع قط من قبل، وشوهدت النجوم تتساقط مؤخراً، ونبتت الطوائف نظراً لتقلبات العقيدة، ونشبت خلافات لم يعرف مثل لها من قبل بين الكنيسة وبين الامبراطور، وسيطرت المجاعة وانتشر الطاعون في جيش الملك الفرنسي، وقبل عدة سنوات مضت لحق الدمار الكلي بمدينة بافوس Paphos وبعده مدن أخرى تابعة للامبراطورية، وبجزر البحر المتوسط، بوساطة زلازل.

مواظبة البابا العمل على مصالحة أسقف وينكستر مع الملك

وأثناء تقلب العالم هكتذا مع أمواج الهموم، وبينما كانت سورية مهزورة بعواصف الحوادث الأخيرة، كانت انكلترا مستشارة من دون توقف بالهموم والقلق، لأن الملك كان قد تلقى دونها مبالاة طلبات متوالية وملحة، ومذكرات من البابا لصالح أسقف وينكستر، الذي مازال منفياً في فرنسا، معتمداً على نصائح كهنة بلاطه، الذين كان همهم

الوحيد الحصول على المرباح، ولذلك أثاروا اتهامات جادة ضد الأسقف المذكور، وقام البابا — على كل حال — الذي قيل بأن الأسقف قد دفع له ثمانية آلاف مارك، صدوراً عن عاطفته تجاه الأسقف المذكور، وكذلك بسبب مبلغ المال الذي دفع له، بالاستمرار بالاهتمام بالموضوع بنفسه، وكتب إلى ملك إنكلترا لصالحه كما يلي:

رسالة البابا إلى ملك إنكلترا لصالح أسقف وينكستر

«من انوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى ولده المحبوب في المسيح، ملك إنكلترا، صحة ومباركات رسولية:

بعدما رفع فضل الرب، شخصنا المتواضع إلى المنصب الرفيع للكرسي الرسولي، شعرنا بكثير من الثقة بسموكم، حتى تصورنا أنكم سوف تظهرون أنفسكم مندفعين ويقظين نحو القضايا التي هي مرتبطة بكرامة الكنيسة ورفعته، وبما أننا كنا قد وافقنا، بناء على نصيحة إخواننا، على انتخاب أخينا المحترم، الذي كان من قبل أسقف نورويك، ليكون أسقفاً لكنيسة وينكستر، أرسلنا التماساً خاصاً إليكم، أن تظهروا أنفسكم بمشاعر طيبة، ولطف في تصرفاتكم نحوه، وذلك صدوراً عن احترامكم للذات اللاهوتية، والاحترام لنا شخصياً، وأن تقوموا بسرعة وبلطف فتعينوا له القلاع والعزب العائدة إلى تلك الكنيسة، ولقد سمعنا، ما أدهشنا وأحزننا، هو أنكم ليس فقط لم تسمحوا بتنفيذ طلبنا، لابل ما هو إثم أعظم، أنكم انفجرتكم وتفوهتم بكلام فارغ من كل لطف، ومن الاحترام الأبوي، معلناً أنه لا يمكن السماح لأي انتخاب في مملكة إنكلترا، أو يمكن أن يكون من قبل الكرسي الرسولي، ضد رغبتكم، أي مثلما نحن نمتلك سلطة في القضايا الروحية، تمتلكون أنتم سلطة في المسائل المدنية، وأنه لا يمكن لأي واحد جرى انتخابه الاستحواذ على الممتلكات الدنيوية من دون موافقتكم، وعلاوة على ذلك أضفت بأنك تعال. نقل الأسقف المذكور غير فعال،

لأنه تمّ الحصول عليه منا بالزيف، وبوسائل خفية غير مستقيمة، وهذه الإجراءات ياولدنا المحبوب لاتعزز كرامة الرب، ولا كرامة الكنيسة، أو كرامتكم أنفسكم، وليس لهم طعم العدل، ومذاقهم ليس مذاق الانصاف، لاسيما وأن الاعتقاد التقوي لجميع المسيحيين، أنه بموجب الحكمة الربانية، يتمتع الكرسي الرسولي بسلطة كاملة، وسلطاته نافذة في جميع قضايا الكنيسة، وأن هذه السلطات ليست ملزمة بالخضوع إلى قرار الأمراء، أو طلب الحصول على موافقتهم في مسائل الانتخابات والاعتراضات، ففي هذه المسائل يقوم الكرسي الرسولي بإجراءاته بشكل مدروس وحكيم، حتى لاتتعرض الكرامة إلى المعاناة من أي انحراف، وما من شيء يمكن أن يحدث وفيه إيذاء للعدل، وهكذا أيضاً كانت إجراءات الكرسي الرسولي في نقل الأسقف المذكور، وبالتقدم به، رفعت رجلاً متميزاً تماماً في علمه، وفي أخلاقه، وفي استقامته، وفي حكمته، في الشؤون الروحية والدنيوية سواء، وهو رجل كان من قبل محبوباً من قبلكم، ومحوباً جداً لديكم، وهو رجل قد سعى بكل قواه لتلبية رغباتكم، وذلك بقدر مايسمح له واجبه نحو الرب، وهو رجل حاول أن يجعلكم تكسبون المزيد من الكرامة والمنافع.

وبناء عليه لاتسمحوا لأنفسكم أن تفرض عليها النصائح الماكرة للمستشارين الخادعين، الذين يسعون لإلحاق الأذى بالناس ذوي الفضائل، في سبيل أشخاص لامبالين، همهم فقط الحصول على منافع خاصة لأنفسهم، ولتلبية رغباتهم الذاتية، وبناء عليه نحث جلالتكم بكل العواطف الممكنة، ونلتمس منكم باسم مولانا يسوع المسيح، ابعاد أذانكم عن الاصغاء إلى الاقتراحات غير التقية لمثل هؤلاء الناس، وأن تتابعوا باستمرار استهداف رفعة كرامة كنيسة الرب، وامتيازات الحرية الممنوحة لها من عليين، مع السعي للحفاظ على هذه الامتيازات غير مخروقة.

والآن اسمح للأساقفة في مملكتك، ودعهم من الآن فصاعداً، يأخذون بحرية وبسلام الممتلكات مهما كان نوعها، التي هي عائدة إلى كنائسهم، في كل من المسائل الروحية والدينية، وبالإضافة إلى هذا تمنع بعمق وتفكر حول حقائق أننا بممارستنا لواجبات منصبنا الرسولي، نحن خاضعين لشرف الاسم اللاهوتي، ولذلك ينبغي أن لا يرد بخاطرك، ولا تنزعج من تطبيق أي من الإجراءات التي قمنا باتخاذها، بعد بحث وتداول خاص، بشأن قضية الأسقف المتقدم الذكر، وبما أننا قررنا في قرارة أنفسنا، أن ننظر إليك بنظرة خاصة، فوق جميع أمراء الأرض الآخرين، إنك بالضرورة سوف تتصرف نحوه بشكل مشرف، وعليك أن تضع جانباً جميع المصاعب، وأن تتخلى له بإرادة طيبة وتمنحه جميع القلاع والعزب والانتاج الذي جاء منهم منذ تاريخ نقله، في سبيل أن يتمكن، تحت حظوتك الخاصة، من القيام بواجب العناية بالمنصب الذي أسند إليه، وأن تكون المحصلة من ذلك نتائج طيبة، وغير هذا، بما أننا لانختار انقاص امتيازات الكنيسة في أيامنا، بل نرغب بوجوب زيادتها، إننا لن نستطيع هكذا ظلماً تحمل أية أذية تمارس بحق الأسقف المذكور. صدر في اللاتيران، في هذا اليوم السابع والعشرين من شباط، في السنة الأولى من بابويتنا».

كيف كتب البابا أيضاً إلى ملكة انكلترا وإلى بعض الأساقفة لصالح أسقف وينكستر

وكتب البابا رسالة بليغة، وفق اللهجة نفسها لصالح أسقف وينكستر، إلى ملكة انكلترا، وقد أعلن في بدايتها، بأنها —أي الملكة— كانت من أقربائه، أما كيف كان ذلك، فنحن لاندري على أي أساس، ما لم يكن قد أراد أن يجعلها متماشية أكثر مع أعماله، وأكثر تعاطفاً مع طلباته، ثم إنه طلب منها، وحثها (عالماً بأن المرأة حملت هذا الاسم لأنها تخفف غضب الرجل وتقلل من شروره) على السعي في سبيل تلطيف

حدة غضب الملك زوجها، الذي يشعر به ضد أسقف وينكستر.

كما أنه كتب إلى رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، وإلى أسقفي ووركستر، وهيرفورد، وحثهم على الاهتمام شخصياً بكل نقطة بهذه القضية المذكورة، أمراً إياهم في نهاية رسالته أن يرسلوا إليه في رسائلهم الجوابية أسماء المستشارين السيئين الذين تولوا حرف عقل الملك.

رسالة أسقف وينكستر إلى الملك

«إلى الأعظم سمواً، إلخ، إلخ: بما أن رغبتنا — بقدر ماهي متوافقة مع احترامنا للرب — بذل جهودنا القصوى لثمير رغباتكم الصالحة، استقبلنا بكل احترام لائق الراهب هوغ التابع لدير القديس تودور Tudor، الذي أرسل إلينا من قبل جلالته، وبعدما عرض علينا بعض الأسئلة باسمكم، أجبنا عليهم واحداً واحداً، متبعين — كما نعتقد — طريق العدل والانصاف، وذلك حسبما سيخبر الراهب هوغ المتقدم الذكر (كما سمعنا منه) جلالته بشكل كامل في رسائله، وبما أننا نود من صميم قلبنا أن ننفذ — بقدر مانستطيع مع الاحترام اللائق للرب — رغباتكم بشأن القضايا المذكورة، نرجوكم بكل تواضع، في تقديركم واحترامكم للكرسي الرسولي، أن ترحموا آلام كنيسة وينكستر، وأن تتقبلوني بحظوتكم ونعمتكم، وباحترام للاسم اللاهوتي، أن تستخدموا الرحمة لإلغاء الغضب الذي ربما شعرت به ضدنا، بناء على إثارة بعض النمامين،

اعتراضات الملك على أسقف وينكستر

وطالما تمت الإشارة إلى النقاط التي من أجلها أراد الملك مقاضاة أسقف وينكستر، ينبغي أن يكون معلوماً كيف وبأية حجج أجاب عليهم، ففي المقام الأول: بما أنه تم الحصول قديماً على مرسوم من أجل مايتعلق بامتيازات الملك، وكذلك مايتعلق بحق المملكة وعاداتها، أي أن

الذين جرت تسميتهم وانتخابهم، عليهم بعد تسميتهم وانتخابهم من قبل الذين سموهم وانتخبوهم، أن يجري تقديمهم إلى الملك، وعليهم بعد تثبيتهم، وقبل قبولهم للإدارة في الشؤون الروحية أو الدنيوية، تأدية قسم بالولاء إليه، وهذه قضايا قد حذفت من قبل شخصية الأسقف المذكور، وقد حاول الملك وسعى للحصول على مرسوم من البابا، الذي لم يعبأ بأن ماتقدم، أي من أجل المستقبل وفي حالة قضايا مشابهة، يتوجب بقاء هذه الامتيازات، والحقوق، والعادات، نافذة، ويتوجب أيضاً تأكيدها من قبله، أي من قبل البابا.

ثانياً: يتوجب على الأسقف المذكور تحليل مدينة و ينكستر من قرار الحرمان من شراكة المؤمنين الذي أعلن ضدها.

ثالثاً: إنه لدى تسلمه ضمانه، أن يقوم بتحليل رجال الدين والعلمانيين، والآخرين، وبشكل خاص شعب و ينكستر، من قرار الحرمان الكنسي، الذي أعلنه ضدهم، بسبب الخلاف الذي نشب بين الملك وبينه شخصياً.

رابعاً: إن عليه عدم خلع رئيس رهبان و ينكستر، الذي وضعه الملك هناك، بل عليه إبقاءه في حظوته.

خامساً: عليه التصديق على جميع المنافع اللاهوتية في التماس عرضه، التي هي موجودة في أسقفية و ينكستر، أو في أي مكان آخر، التي جرى منحها من قبل الملك منذ بداية الخلاف، وأن يسمح للمستحوذين عليهم التمتع بتملكهم بسلام.

سادساً: عليه عدم القيام بأية إجراءات قضائية ضد المعلم هنري دي سوسا، أو أي رجل دين آخر أو راهب جرت تسميته، بسبب هذا الخلاف، بل عليه العفو عن جميع الذنوب والأضرار، وأن يتخلى عن جميع مشاعر الغضب والحقد.

سابعاً: إذا توفر أي إدعاء أو سبب للعمل لديه، فيما يتعلق بنتاج وينكستر، في الزمن المنصرم، عليه التخلي عنهم له، أي للملك، صدوراً عن احترامه له، وأخذاً بمشاعر الكرم.

ثامناً: على الأسقف المذكور التخلي عن جميع مشاعر الغضب ضد الذين جرى نقلهم من قبل الملك، أو بناء على أوامره، أو نقلوا إليه من قبل أسقفي ووركستر وهيرفورد، ورئيس شماسية كانتربري، وأن يتقبلهم برضاه الكامل، وبذلك ييقون محفوظين دون التعرض إلى أي أذى، وذلك فيما يتعلق بصلاح أسمائهم، ومنافعهم، وأحوالهم.

جواب أسقف وينكستر

ورد أسقف وينكستر على بند المطلب الأول الذي عمله الملك، بأن الذين تولوا تسميته، بعدما طلبوا الإذن من الملك، قدموه إلى الملك، وفقاً لعادة المملكة، وأنه عندما تمّ السماح بالتسمية، وجرى تثبيتها من قبل البابا، تدبر الأسقف المذكور، أمر رسائل البابا الموجهة إلى الملك حول هذه المسألة، بأن يجري تسليمها إليه، بوساطة كل من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، وكذلك بوساطة بعض رجال الدين، والفرسان، الذين قاموا بناء على أوامره، بالتقدم بالرجاء الحار إلى الملك، حتى يسمح له — أي الأسقف المذكور — بأن يقدم نفسه إليه، ليقوم بعمل الذي تتطلبه عادات المملكة وتأمّر به، ولكن بما أنهم لم يتمكنوا من الحصول على هذا باستخدام جميع وسائل التوسل الملحة، ما من شيء يمكن أن يعدّ قد أهمل من قبله، أي من جانب الأسقف، وليس عائداً إليه عدم تنفيذ كل شيء، ورد وتمّ طلبه في بند طلب الملك.

وعلى البندين الثاني والثالث، أجاب الأسقف، بأنه إذا ما حصل على حظوة الملك (وهو ما يرغب به من كل قلبه)، وأمكنه بسلام الحصول على ممتلكات أسقفية، هو سيقوم صدوراً عن اللطف بسحب قرارات

الحرمان الكنسي، والحرمان من شراكة المؤمنين بشكل قانوني، غير أنه لا يمكنه، بحكم تبجيله للرب كما هو لائق، واحتراماً منه للعدالة، أن يربط نفسه بهذا بأي رباط اتفاقية، ولكن بتجاوب لطيف مع طلب الملك، لقد نوى أن يمنح جميع التحليلات من الحرمان الكنسي، التي يمكنه منحها من دون تعارض مع واجبه نحو الرب.

وبالنسبة للبنود الأربعة التالية، أجب، بما أنهم قد أشاروا فقط إلى القضايا الروحية، أو إلى الأشياء المتعلقة بهم، والتي بالتالي لا تسمح له بعمل عهد واتفاق، هو لا يمكنه تنفيذ هذه البنود، وفق الطريقة المطلوبة من الملك، ومع ذلك فإنه عندما سيجري استقباله بالخطوة من قبل الملك، ويحصل على تملك سلمي لممتلكات أسقفيته، هو سوف يعمل، مع مساعدة نصيحة الملك، ومستشاريه المخلصين، ويتصرف بتسامح كبير، وسوف يكون نفسه راغباً بتنفيذ طلب الملك بقدر ما يستطيع، وذلك بما يتوافق مع واجبه نحو الرب.

وبالنسبة للانتاج المتقدم للأسقفية، أجب بأنه عندما سيحصل على حظوة الملك، وعلى تملك سلمي لأسقفيته، وعندما سيكون راضياً تجاه هذه الإجراءات، سوف يطيع رغبة الملك، حتى ينال فضيلة التوصية به من قبله.

خديعة المعلم هنري دي سوسا

وعمل الملك منذ ذلك الحين بلطف أكبر نحو أسقف وينكستر، بسبب كل من التوسلات الملحة للبابا، ونظراً للتدخل، وللجواب اللطيف للأسقف، ولكن عندما ظهر السلام أنه على وشك الدخول إلى عتبة الباب، بدأ المعلم هنري دي سوسا، الذي كان السبب والمثير للخلاف نفسه، والذي إليه منح الملك منفعة غنية، هي المسؤولية عن مشفى الصليب المقدس، خارج مدينة وينكستر، بدأ وقد انزعج بضمير

مذنب، يتفكر، ويقدر في قرارة نفسه، أنه إذا ما أعيد تأسيس السلام بشكل كامل ومعلن، بين الأطراف المعنية، سوف يعدّ الأسقف صديقاً خاصاً للملك، هو الأول، وليس الثاني لأحد، وسوف يجري إطراره في مجالس الملك، على أنه رجل مستقيم، وحذر، وسوف يسبب لسبب ما الإزعاج، ويضعه — أي هنري المذكور — في أحوال مضطربة، وأن الملك سوف يرفض نصائحه، بالسهولة نفسها، كما كان قد اتبعها، ولدى تقديرة لجميع هذه المسائل، اتخذ بوساطة المال الذي حصل عليه من الملك، ولم يكن مبلغاً صغيراً، بعض الأصدقاء الجشعين غير المستقيمين، واشترى لنفسه (وليته لم يفعل ذلك) أسقفية في منطقته الذاتية، وأصبح كرسول لذاته، مثل الغراب الذي خدع صاحبه نوح، وبانحطاط ترك نائباً غير بارع، ليحمل العبء، الذي كان قد تعهد بحمله على كتفيه، واختفى من المملكة، وهو مليء بالأشياء الجيدة منها، ولم يظهر نفسه ثانية فيها.

كيف هرب البابا بشكل سري

بينما كان مدار السنة يسير هكذا متقلباً وسط التغيرات العالمية، بدأ الامبراطور فردريك وقد أثاره محرض الكرامة، يندم لقيامه — كما تقدم الذكر أعلاه — بإذلال نفسه وربطها بالخضوع إلى الكنيسة، ونصب الآن شركاً لقدمي البابا، وخطط لخيانة سرية، غدت فيما بعد مكشوفة واضحة بما فيه الكفاية، وتم من جهة أخرى انذار البابا بشكل مسبق، فحاول أن يتجنب بقدر الإمكان التعرجات الثعلبية للامبراطور، وبقي متيقظاً ضدهم، كما أنه لم يضع أية ثقة به، أو بأصدقائه، لأنه كان يعرفهم بشكل جيد، وفكر بالمستقبل مقارنة بالماضي.

ورغب البابا، في يوم الثالث المقدس، أن يقوي حزبه، لأنه كان لديه في جهوده عدد قليل من الأصحاب، والمشاركين له في قلقه، فعين عشرة كرادلة هم: المعلم جون الطليطي، وكان رجلاً انكليزياً من حيث

المولد، وبعض الآخرين من أسر متميزة وأصحاب أخلاق معروفة، وذهب في اليوم الثامن قبل عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، مع جميع الكرادلة إلى مدينة كاستيلانا Castellana، ومنها إلى مكان يبعد ثمانية عشر ميلاً عنها، من أجل أن يكون قريباً من الامبراطور، لتسوية قضية السلام، التي غدت الآن قضية مشكوكاً بها، لابل في الحقيقة قضية لأمل فيها، ووصل عشية يوم الرسولين بطرس وبولص إلى مدينة سوتري Sutri، وتحرك الامبراطور ضده، وأرسل رسالة إليه، بأنه لن يفعل شيئاً بشأن القضايا المتفق عليها، مالم يتسلم أولاً رسائل تحليل، وبما أن البابا قد رفض فعل هذا، وردّ بأن هذا مناقض للمنطق، نشب خلاف بينهما، وبناء عليه، تصور البابا مسبقاً ورأى نتائج غضبه، ولذلك قرر القيام بقرار مفاجيء وخفي، ومن دون أن يعرف أحد بخططه السرية، خشية أن يكتشفهم الامبراطور، ويلقي معيقات في طريق تراجعه، وهناك — على كل حال — بعض من يؤكد بأنه فعل هذا، صدوراً عن حبه للهدايا، التي كان الناس، من هذا الجانب من الألب، على وشك إحضارها له، لكنهم كانوا لا يتجرأون على العبور خلال أراضي الامبراطور، وأنه هرب لاختوفاً، وإنما بقصد مقابلتهم واستقبالهم في صدره المفتوح دائماً، وليس خشية من أي واحد يقوم بمطاردته، وهو لهذا عمل حجة أو أخرى، ووجه خطاه بيقظة نحو جنوى، التي كانت منطقة متحالفة معه، وذلك كما سوف تبين الرواية التالية:

وبناء عليه، في ذلك اليوم، أي عشية يوم عيد الرسولين، وصل خبر سري إلى البابا (وهذا ما أكدته فيما بعد) بأن هناك ثلاثمائة فارس توسكاني قادمين في تلك الليلة لاعتقاله، ولدى وصول هذه الأخبار إليه دهش، وظهرت عليه آثار الخوف العظيم، ومع الهزيع الأول من الليل، تخلّى عن مظاهر الزينة البابوية، وعاد ثانية ليكون سينبولد

Senebald, ولبس درعاً خفيفاً، وامتطى فرساً سريعاً، وحمل حافظه نقود مليئة، وقام تقريباً دون معرفة خدمه، بشكل مفاجيء، بعملية مغادرته، ولم يوفر جوانب حصانه، قبل الساعة الأولى من النهار، وقد سافر لمسافة أربعة وثلاثين ميلاً، دون أن يرافقه أحد، لأنه ما من أحد كان قادراً على اللحاق به، وارتفع في منتصف الليل صوت نادى لقد غادر البابا، ذلك أنه ما من أحد كان على معرفة بمغادرته، إلا بعضهم، وكان عدد هؤلاء قليلاً، من الكرادلة، وقد تبعه في سفره هذا فقط بطرس أوف كابوا Capua, وكان معه خادم واحد، وقد لحقه بمغامرة كبيرة، ووجده في اليوم نفسه في قلعة عند الساحل اسمها سيفيتا فكشيا Civita Vecchia, وتقابل البابا في ذلك المكان مع ثلاثة وعشرين غليوناً وست عشرة بارجة، وكان في كل واحد من المراكب المذكورة ستين رجلاً مسلحين بشكل جيد، ومائة وأربعة مجذفين، وذلك إلى جانب البحارة، ولهذا ذهب بعض المتشككين من الناس إلى القول بأن البابا كان قبل وقت متوقفاً وصولهم وراغباً به، وكانت جميع المراكب مشحونة برجال مسلحين، وكانوا تحت إمرة حاكم جنوى، الذي يدعونه الأدميرال، ومعه أعيان أهل المدينة، الذين تفاخروا جميعاً بأنهم ارتبطوا بقرابة ما، أو بالدم، مع البابا، وكذلك في سبيل الحصول على مكافأة، وصعد البابا الآن في وقت متأخر من النهار، على ظهر واحد من تلك الغلايين، وكان برفقة سبعة كرادلة، وعدد قليل من الخدم، وأقلعوا نحو وسط البحر، وما كادوا يصبحون في البحر المكشوف، حتى هوجموا من قبل عاصفة ثقيلة من الريح، ومع ذلك لم تكن ضدهم، وقاموا بأشعة مفتوحة — إنما ليس من دون خوف، ومن دون خطر عظيم — بالابحار وقد حملتهم قوى العاصفة مسافة مائة ميل، على المسار نفسه الذي كان الأساقفة قد أبحروا عليه، حيث جرى اعتقالهم من قبل الامبراطور، ووصلوا يوم الجمعة التالي إلى مرسى في جزيرة عائدة إلى البيازنة، حيث أمضوا الليل، وفي اليوم التالي،

تم تحليلهم من ذنوبهم، واستمعوا إلى قداس مريم العذراء، ذلك أنهم كانوا خائفين خوفاً عظيماً من البيازنة، ثم إنهم أقلعوا فوصلوا إلى جزيرة للجنوبيين، بعدما قطعوا مسافة مائة وأربعة أميال في ذلك اليوم، وقد نجوا من مخاطر البحر، مع كثير من المصاعب، وذلك نتيجة للعاصفة، وأخذوا طريقهم إلى ميناء فينوس Venus، وأقاموا هناك يومي الأحد والاثنين، وفي يوم الأربعاء، وصلوا وهم مسرورين، إلى جنوى، وصار البابا على مسافة سفر خمسة عشر يوماً عن المدينة، وفي هذه المدينة التي كان قد ولد فيها، استقبل من قبل أبناء بلده، وآله وأقربائه، والأجراس تفرع، مع الأغاني وعزف الآلات الموسيقية، وهي جميعاً تصرخ بصوت مرتفع «مبارك الذي جاء باسم الرب»، وعليه ردوا ثانية: «روحنا مثل عصفور نجا من المتاعب» إلخ، إلخ.

غضب الإمبراطور من فرار البابا

وعندما أصبحت حقيقة فرار البابا معروفة لدى الإمبراطور، غضب على أسنانه مثل ساطير (إله أسطوري) وقال: «لقد كتب: يهرب الشرير عندما لا يطارده أحداً»، واستولت عليه الدهشة والحزن، واتهم حراس الموالي والسكان بالإهمال والكسل، لأنهم سمحوا لعدوه بالنجاة هكذا بسهولة من بينهم، ثم إنه أمر بإقامة حراسة دقيقة ومشددة على جميع الطرق من حول جنوى، خاصة نحو فرنسا، في سبيل عدم حمل أية أموال إلى البابا، وأعلن الإمبراطور الآن عن نفسه عدواً مكشوفاً للبابا، وقام البابا أيضاً بدوره الآن بعدم عدّ جنوى ملجأً أميناً لنفسه، لأنه كان عارفاً تماماً بقوة الإمبراطور، ومتذكراً كلمات الشاعر:

ألا تعلم بأن أيدي الملوك

قادرة على الوصول إلى كل شيء؟

الإمبراطور يريح صداقة عدد من الأمراء والنبلاء

وفي حوالي الوقت نفسه، بينما كان البابا مقيماً في جنوى، تأمر الميلازيون والليغوريون وكذلك بعض الإيطاليين والرومان، وكثير من تبلاء ألمانيا، مع بعضهم، بناء على تحريض من البابا، وواحد من أعظم المقدمين قوة في بلاد ألمانيا، الذين يطلقون عليه اسم «اللاندرغريف»، الذي تشجع ليدعي لنفسه المقام الامبراطوري، حتى يجري انتخابه بشكل نظامي، وقد اعتمدوا على المساعدات الكثيرة من الأساقفة والنبلاء، لشن الحرب ضد الطاغية فردريك، بحكم أنه المضطهد العام والمعلن للكنيسة، وقد أظلم اسمه إلى درجة عالية وتم التأكيد بأنه لايسير بخطا ثابتة في شريعة الرب، ولأنه كان متحالفاً مع المسلمين، فهو يحتفظ بعاهرات وخيليات مسلمات، ويفعل أشياء أخرى غير لائقة، وكثيرة جداً حتى يمكن ذكرها.

غير أنه عندما كان اللاندرغريف المذكور على وشك القيام بمحاولته، وكان يتداول مع أتباعه من النبلاء وأصحابه، الذين اجتمعوا لهذه الغاية، ويتذكرون حول الذي ينبغي أن يعملوه، أخبره أصدقائه أنه من الطيش محاولة فعل ذلك، وأن يعهد بنفسه إلى تقلبات الحظ، في الوقت الذي ينعم فيه بالهدوء والسلام، مع عدم الاعتماد على أي شيء وعده به حزب البابا، وبينما كانت آراؤهم معلقة هكذا في ميزان الشكوك، قام الامبراطور برحلة سريعة، وظهر فجأة فيما بينهم، مع عدد قليل من الأتباع، الذين عرفوا بهذه الوقائع، وتمكن بمناقشاته من تحويل عقل اللاندرغريف المخنث المذكور، عن نواياه، وقبل أن يفترقا، أصبح هو واللاندرغريف أصدقاء حميمين ومتحالفين، وقاما بتبادل الهدايا، وبعد الفراغ من هذه القضية غادر الامبراطور سراً وبشكل مفاجئ مثلما جاء.

وأثناء وقوع هذه الأشياء، قام الامبراطور في سبيل تقوية حزبه، الذي اعتقد أعداؤه أنه قد ضعف كثيراً في هذه الآونة، فأعطى ابنته بالزواج إلى واحد من أعظم مقدمي الاغريق قوة، وكان اسمه بتاكوس

Battacius, وكان انساناً مكروهاً من الكنيسة وغير مطيع لها، ومنشقاً عنها، ولدى سماع أعداء الامبراطور بهذا حاروا واضطربوا ولم يعودوا يعرفون مايقولون.

عصيان الويلزيين وخيانتهم الدنيئة

وفي حوالي هذا الوقت من السنة، قام الويلزيون الأجلاف، وهم لا يعرفون كيف، لأنهم كانوا غير راغبين باخضاع رقابهم للشرائع غير المعروفة لمملكة انكلترا، قاموا فعينوا داود بن اللويلين وبعض الأمراء الآخرين لويلز، قادة لهم، وشنوا حرباً هي الأكثر دموية ضد ملك انكلترا وأعوانه، ناسين صكوك تعهداتهم، وأيمانهم، وجرت مقاومتهم — على كل حال — بشجاعة، بناء على أوامر الملك، من قبل ايرل كلير، وايرل هيرفورد، وتوماس أوف مونماوث Monmouth، وروج — ردي ميكوت Michaut — مع بعض القادة الأقوياء الآخرين والمشهورين، وذلك في سبيل الحفاظ على أراضيهم، مع أنهم نالوا أثناء بداية الصراع الحظ الأسوأ من القتال، لكن أخيراً، كما هي الحالة المعتادة للحرب، حصلوا على نصر على أعدائهم، وسقط في هذه المعركة مائة رجل أو أكثر، من على الجانبين.

وصول شائعات متنوعة إلى الملك وهو في سينت ألبان

كان الملك أيام عيد القديس برنابا في سينت ألبان، حيث مكث مدة ثلاثة أيام، وأثناء وجوده هناك، وصلت شائعات عن صلف الويلزيين، وصارت متوالية إلى بعض المعايير، وقد وصل إليه بعض الرسل مع بعض الأخبار التي أزعجته كثيراً وأحزنته، وقالت هذه الأخبار بأن انتخاب كاهنه روبرت باسلو Passlow، الذي جرى انتخابه إلى أسقفية شيبستر، قد ألغي، وأن شخصاً آخر، اسمه رتشارد دي ويك Wiche، قد جرى بشكل مفاجيء تعيينه في محله، لأن المعلم مارتن، الذي كان كاهناً

بارزاً لدى البابا، قد كان هناك ليلقي بأصابعه الناشئة على الموارد من أجل استخدامات البابا ومنافعه، وبالإضافة إلى التقارير المتقدمة، سمع تقارير أخرى، ذكرت بأن ملك سكوتلندا قد أرسل إليه بوقاحة رسالة بأنه ليس متملكاً لأي شيء من مملكة سكوتلندا منه، أي من ملك انكلترا، وأنه ينبغي ألا يفعل ذلك، ولن يفعله، وقد تناقشت صداقة هذين الملكين كثيراً جداً، منذ أن أقام ملك سكوتلندا تحالفاً زواجياً مع ابنة انغلام دي كوسي *Engelram De Coucy*، الذي كان مثل جميع الفرنسيين، مشهوراً بأنه واحداً من مقدمي — إن لم يكن مقدم — أعداء ملك انكلترا، ولذلك قرر ملك انكلترا وعزم على الانتقام للأضرار التي ألحقت به، فقام بتشجيع الذين كانوا يتولون الحرب ضد الويلزيين، ومساعدتهم، ووعدهم بمزيد من المساعدة الفعالة، بالعساكر والمال، وبعدما رتب الأعمال المتعلقة بشؤون الأحوال في سكوتلندا، استولى على أسقفية شيستر ووضعها بين يديه، ولم يسمح للأسقف المنتخب حديثاً بممارسة أية سلطة، كما أنه شعر بغضب شديد ضد الذين تسببوا بحدوث هذه القضية، ووافقوا عليها، وكان غضبه هو الأشد ضد رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، الذي اتهمه بكل مرارة بالعقوق، وأنه كان متآمراً بشكل خياني منذ بداية ترقيته، ولكي لا يبدو متراخياً في جوابه على رسالة ملك سكوتلندا، وعلى وقاحته، بعث برسالة مكتومة إلى كونت فلاندرز (بحكم كونه حليفاً مخلصاً له، ومرتبطاً به بكثير من الواجبات) ليقدم إليه مع قوة من الجند، لمساعدته ضد ملك سكوتلندا، وهو طلب استجاب له الكونت على الفور.

استدعاء أسقف وينكستر وتصالحه مع ملك إنكلترا

وعقد الملك في الوقت نفسه مجلساً استشارياً حكيماً، فاستدعى أسقف وينكستر بطريقة تصالحية، وجاء الاستدعاء له من القارة، بناء على مبادرة من البابا ومن بعض نبلائه الخاصين، الذين التمسوا باخلاص رضاه عن الأسقف، وقد وعده برضاه، وأن يعيد إليه الممتلكات التي أخذت منه،

وعندها قام الأسقف وفق تصرف لائق متوقع منه، فحصل على إذن الملك الفرنسي، وقدم الشكر إليه على المنافع التي أضفيت عليه من قبل الملك، لإستقباله له، وتقديم الحماية له عندما كان منفياً في مملكته، وعاد من ثم إلى انكلترا، حيث نزل في دوفر بعد رحلة مريحة، وكان ذلك في الخامس من نيسان، ولدى وصوله، قدم له جميع الانكليز — باستثناء أولئك الكهنة ورجال بلاط الملك الذين بذروا بذور الخلاف، والذين جرحوا بضمايرهم — تهنيتهم، قائلين: «مبارك الذي قدم باسم الرب»، لأن الآمال كانت راسخة بأنه سوف يقوي بحكمته الوافرة، وبمشاعره الطيبة، الملك، ويمتن المملكة، ويجلب أسقفيته إلى أفضل الأحوال، ومثل بنفسه، وهو مسرور تمام السرور، أمام الملك، وقد استقبله وهو يبتسم، وب نظرة راضية، وكأنه قد كان دوماً متحرراً من جميع الذنوب ضد الملك، وقد ازدادت عواطفهما وسرورهما بطريقة غير اعتيادية، وذلك من يوم إلى يوم، وفقاً لكلمات الشاعر:

عندما تختفي غيوم الخلاف

تصبح شمس العواطف أكثر وضوحاً

وبداً في هذه الآونة ب. B, الأسقف المنتخب لكانتربري، على عكس توقعات جميع الذين أوجدوه، بالعسف برهبان كانتربري، بحدة كبيرة، وبطريقة كانت غير متوقعة منه، متصرفاً بكل شيء بالدرجة الأولى لبهجته، دون أن يقيم أي تقدير لأي منطق.

الموت التعيس لإنغلام دي كوسي

وفي الوقت نفسه، ومع اقتراب شهر آب، واجه إنغلام دي كوسي، والد ملكة سكوتلندا منيته بطريقة مدهشة، وبناء عليه أرسل ولده جون قوة من الجند بوساطة البحر، لمساعدة ملك سكوتلندا، غير أن ملك انكلترا طرد بالقوة، وأبعد جميع الذين أرسلهم، ولقد قلت بأنه إنغلام المذكور الذي هو

مضطهد قديم للكنيسة، وخاصة كنيسة كليرفو، التي أوجدها أجداده بشكل فخم، وبنوها فوق اقطاعيته، قد مات بطريقة مدهشة، ذلك أنه مات — كما حدث فعلاً — بطريقة مزدوجة، وعندما كان حياً كان معمارياً متحمساً بالمواد المادية، لكنه كان بالمواد الروحية مبدداً سيئاً، وفي أحد الأيام، عندما كان مسافراً، توجب عليه عبور إحدى المخاضات، وعندما وضع حصانه حافريه ليعبر، انزلق بسبب إحدى المعيقات، وسقط على ظهره في الماء العميق، حيث جرى — لسوء الحظ — جره بواسطة ركاباته، ولدى سقوطه على رأسه، خرج سيفه من غمده، وخرق جسده، وهكذا غرق وطعن بسيفه، ففارق هذه الحياة، ليجني ثمار طرقة.

وكما ذكرنا من قبل، أعطى ابنه جون، ووريثه لكل ممتلكاته، صدوراً عن عواطفه لأخته، ملكة سكوتلندا، نصيحته ومساعدته، إلى زوجها الملك، وقام هذا الملك بتحصين القلاع على حدود انكلترا، وتوسل طالباً المساعدة من النبلاء من أقربائه، ومن جيرانه، ضد ملك انكلترا، الذي كان يتآمر ضده، ومنحت المساعدة، التي طلبها هكذا في وقت الحاجة، برغبة قلبية من قبل بعض النبلاء، أما القوات الموعودة فقد أرسلت إليه بأعداد كبيرة.

الملك يطلب مساعدة مالية

وجرى في العام نفسه عقد اجتماع، بناء على استدعاء من الملك، ضم نبلاء المملكة كلها، وحوى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، والاييرلات، والبارونات، فقد اجتمع هؤلاء كلهم في لندن، في حجرة الطعام في ويستمنستر، وطلب الملك، بحضور النبلاء، بفمه مساعدات مالية، وقد عبر بصمت ولم يذكر خطته بشن الحرب على ملك سكوتلندا، وكان السبب المكشوف الذي أعطاه إليهم من أجل مطلبه، هو أنه قد ذهب في السنة الماضية إلى غسكوني، بناء على نصيحتهم — كما قال — حيث صار مديوناً بمبلغ كبير من المال، وأنه لن يتمكن من تحرير نفسه من ذلك الدين، ما لم يتم بشكل فعال جداً مساعدته من قبلهم،

وعلى هذا أجابه النبلاء، بأنهم سوف يتشاورون حول هذه القضية، وعندما غادر النبلاء حجرة الطعام، اجتمع رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان مع بعضهم في مكان خاص منفردين بأنفسهم، للتداول حول القضية، وبعد طويل وقت سألوا الايرلات والبارونات، عما إذا كانوا سيوافقون على نصيحتهم، في تقديم الجواب، وفي إعطاء حل لهذه القضية، وعلى هذا أجاب هؤلاء النبلاء بأنهم لن يفعلوا شيئاً، من دون موافقة عامة للجماعة كلها، وبناء عليه جرى باتفاق من الجميع اختيار ممثلين لفئة رجال الدين هم: رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، وأساقفة: وينكستر، ولنكولن، وووركستر، وجرى اختيار ممثلين لفئة العلمانيين هم: الايرل رتشارد —أخو الملك— وايرل بيغود، سيمون دي مونتفورت، وايرل ليستر، وايرل و W مارشال، وعن فئة البارونات: رتشارد دي مونتفكيت Montficet، وجون بالاول Balial مع رايعي ديري القديس ادموند، ورامسي Ramsey، وتقرر أن جميع الذي سيقرره هؤلاء الاثنا عشر، سوف يجري نشره إلى الجميع بشكل عام، وبناء عليه ما من بند سوف يجري تقديمه إلى الملك إلا بموافقة الجميع، وبما أن صك وثيقة الامتيازات التي كان الملك قد منحها من قبل، والتي من أجل تنفيذها، قدم ادموند، رئيس أساقفة كانتربري يمينه، فغدت مضمونة، ووعد صادقاً بأن الملك سوف ينفذها ويرعاها، هي لم توضع بعد قيد التنفيذ، وبما أن المساعدات التي غالباً ما أعطوها إلى الملك، لم تكن منتجة أية منافع له أو إلى المملكة، وبسبب أنه من خلال الحاجة إلى مستشار، فإن المذكرات غالباً ما أعطيت مضادة للعدالة، وعندما سألوا بأن يأتي تعيين المسؤول عن العدالة والمستشار، بناء على انتخابهم، حيث به يمكن للمملكة أن تتدعم، حسبما كانت هي العادة، قام الملك، حتى لا يظهر أنه مقبل على تبني أية خطة جديدة للإجراءات القضائية بالقوة، فرفض الموافقة على التماسهم، غير أنه وعد بأنه سوف يصلح الأشياء التي جرت الشكاية منها من جهتهم، ولذلك أمروا بالاجتماع ثانية عند نهاية ثلاثة

أسابيع بعد عيد طهارة العذراء المباركة، وقد أعلنوا — النبلاء — الآن، أنه إذا ما سيقوم الملك بإرادته وحريته، بانتخاب مثل هؤلاء المستشارين، وسوف هكذا يدير قوانين المملكة، سوف يكونوا راضين، وسوف يعطونه بالوقت المذكور جواباً، وسوف يزودونه بالمساعدة، على شرط هو أنه، مهما كانت الأموال التي سوف تمنح له، فإنها سوف تنفق من قبل الاثني عشر نبيلاً المذكورين أعلاه لصالح الملك، وبعدما وضعهم الملك جانباً لبضعة أيام، سعى إلى إِنْهاكهم حتى يعطوه مساعدتهم من دون تأجيل ذلك حتى وقت مستقبلي، واستدعاهم للاجتماع به مراراً، غير أنه لم يستطع غلبتهم وإقناعهم، لأن النبلاء وزنوا المسألة بعقولهم بشكل حكيم، فبقوا ثابتين على قرارهم لا يمكن تحريكهم، وبات الملك أخيراً ميالاً لاستمالة رجال الدين على الأقل للموافقة على رغبته، لذلك وجّه الدعوة إلى الأساقفة، وعرض عليهم جهازاً رسائل من البابا، استهدفت مايلي:

رسالة البابا إلى أساقفة إنكلترا

«من انوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، وإلى أبنائه المحبوبين رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورؤساء الشمامسة، والأساقفة الآخرين للكنائس، والكهنة في انكلترا، صحة، ومباركات رسولية:

على أمتنا الكنيسة أن تسمح بإعطاء امتيازات إلى الذين رفعوا فوق أتباعهم بالمراتب الملكية، وعليها التوجه لربط الأهمية بهم، بقدر ما سلطتهم متحمسة دوماً في إخلاصها لها، أي الكنيسة، وبقدر ما هي ساهرة على خدمتها، وبناء عليه، وقياساً على ذلك، إنه بالنسبة لجميع أمراء الأرض، نضم بين ذراعينا، ولدنا المحبوب جداً في المسيح، الملك المشهور لانكلترا، ونمنحه عاطفة خاصة، لأنه واحداً — بحكم كونه أمير كاثوليكي مخلص — قد أظهر دوماً احتراماً إلى الكنيسة الرومانية، التي هي أمه، وذلك بوساطة خضوعه الابنوي، وأدائه لواجبه، بطريقة أنه لم

ينحرف قط جانباً عن عمل مايرضيها، لابل، أكثر من هذا، قام دوماً بعناية فائقة، ففعل الأشياء التي عرف بأنها ترضينا، وموافقة لنا، وبناء عليه إنها ليست قضية عجيبة، لابل إنها أصبحت مسألة عادية بالنسبة لنا، لذلك سوف نستجيب بسهولة أكبر لإلتماساته، وسوف ننشد مجده، وزيادة كرامته وأحواله، وذلك عندما ستوافقون بكرمكم مع الذين يرغب به شخصياً، وبما أن الملك المذكور قد شرح لنا من جانبه، بأنه تحمل عبء بعض النفقات الثقيلة، بسبب بعض مصاعب القضايا الكبيرة والصعبة، التي ضغطت عليه، وهو مايزال تحت حاجة تحمل المزيد من النفقات، ولذلك هو بحاجة إلى مساعدتكم، ولذلك نحن نرجوكم، ونحذركم، ونلتمس باخلاص من جماعتكم، ونأمركم بوساطة هذه الكتابات الرسولية، وذلك بقدر ماتستطيعون وبقدر ما هو موافق لكم، أن تدعموا الملك المذكور في جهوده، وأن تخففوا حملة، وأن تمنحوه مساعدة مشرفة وكريمة، من مواردكم، وذلك حتى يتمكن من دون أي ضرر لكرامتكم، وأوضاعكم، ومن دون أية خسارة، أو إرباك إلى أي منكم، من تجنب العسف به بحمل عبء ثقيل جداً، وأنه بتقديم المساعدة له بأيديكم اليمنى، يمكنه بسهولة أكبر تحمل عبء نفقاته، وأنكم بفعلكم ذلك، يمكنكم أن تكونوا قادرين في مستقبل الأيام المطالبة بحظوة وشكر الملك المذكور (وهو الذي، أنتم بلاشك بحاجة إليه) في أموره الصالحة، التي أنتم شركاء بها، وفي كرامته ومجده أيضاً، سوف تكونون كذلك، لستم من دون حصة ونصيب، ولكي نمتلك نحن الذين نرغب من هذا الوقت في أن نظهر أنفسنا مبالغين أكثر لزيادة منافعكم ومنافع كنائسكم، سبباً صالحاً للاعتماد على ثبات اخلاصكم. صدر في جنوى في التاسع والعشرين من تموز، في السنة الثانية من بابويتنا».

وكتب أيضاً بالأسلوب نفسه إلى كل واحد من الأساقفة على انفراد، وكان ذلك — على كل حال — ليس من دون انفاق مبلغ كبير من المال،

كان قد أرسل إليه من أجل متاعب الكتابة.

وتقرر — على كل حال — بشكل جماعي، قراراً لن ينزاح عنه النبلاء، بأن الإجابة على رسالة التماس البابا، لصالح الملك، تؤجل حتى قبيل المدة المحددة من قبل، وبناء عليه عندما كانوا مغادرين في اليوم الأخير من المؤتمر، الذي استمر ستة أيام، وكل يوم حتى الليل منه، توجه الملك بالرجاء إلى جميع الأساقفة، بالاجتماع ثانية في اليوم التالي، واجتمعوا بناء على طلبه في حجرة مصبح بيعة القديس يوحنا الإنجيلي، ووقتها أرسل الملك سيمون، إيرل ليستر، وب. P. إيرل أوف سافوي، ورافل فتز — نيقولا، ووليم كانتيلوب Cantelupe، وجون فتز — غ. G.، وقام هؤلاء نيابة عن الملك، فشرحوا رغباته إليهم، ورجوهم بإلحاح بإطاعة إرادته، على أساس طلب قداسة البابا، حتى وإن لم يأخذوا طلب الملك بالتقدير، كما أنهم شرحوا لهم مدى الحاجة الكبرى للملك، والمخاطر المحيطة به وبالمملكة، وهي أن الحرب تفجرت في غسكوني، وأنه لابد من قمع وقاحة الويلزيين، وعند ذلك طلب الأساقفة نسخة عن رسالة البابا، حتى يتمكنوا من التداول حولها، وأثناء قيام هذه المناقشات، وصل الملك مسرعاً، وظهر بينهم، واحتج بيمينه المعتاد، بأن كرامتهم سوف تكون عزيزة عليه مثل كرامته، وبالمقابل ينبغي أن يكون هو عزيزاً عليهم بالدرجة نفسها، وكدس الالتماس فوق الالتماس في مجال القضية المذكورة أعلاه، ولكن بما أنهم أصروا على جوابهم، من أنهم سوف يقدرّون القضية، غادر وهو في حالة اضطراب.

وبعد مداولات طويلة، رغبت بعض الفئات بأن يعطي الأساقفة والعلمانيين جواباً لطيفاً إلى الملك، وردّ عليهم أسقف وينكستر بهذه الكلمات القائمة على أساس لاهوتي بقوله: «دعونا أن لا نبعد أنفسنا عن الرغبة العامة، لأنه قد كتب: إننا إذا ما انقسمنا، فسوف نموت على الفور»، وبناء عليه جرى تأجيل كافة الترتيبات، حتى الموعد الذي تقدمت تسميته،

وذلك فيما يتعلق بطلب البابا لصالح الملك، وكذلك بالنسبة للملك نفسه، وبناء عليه عندما وجد أنه لن يستطيع اضعاف تصميمهم عندما يكونوا متحدين مع بعضهم، لجأ إلى خطة دهاء الرومان، وقرر — مثلما فعل في حالة أخرى — أن يحاول معهم واحداً واحداً بشكل إفرادي، وأن يفرض عليهم حججاً زائفة، من أجل إخضاعهم لإرادته، ولذلك عاد وسألهم الانتظار يوماً آخر، غير أن بعض الأساقفة رأوا خديعة هذا الانتظار، فرغبوا أن لا يقعوا بالشرار، فغادروا في الصباح الباكر، وهكذا نجوا بشكل حكيم من المصائد التي وقعوا بها من قبل، وعلى هذا ارفض المؤتمر، مع كثير من عدم الرضا للملك.

الشروط التي عملها النبلاء مع موافقة الملك

«إنه فيما يتعلق بالامتيازات التي تمّ الحصول عليها، والتي منحت، وتثبتت بصك من الملك في وقت متقدم، إنهم من الآن فصاعداً، سوف تجري مراعاتهم، ومن أجل ضمانه لهم، سوف يجري عمل صك جديد، فيه سيكون هناك ذكر خاص لهذه المسائل، وسوف يجري حرمان جميع الأشخاص كنسياً من قبل جميع الأساقفة، الذين يعرفون، ومع ذلك يقدمون عن عمد على خرق الامتيازات التي جرى منحها من قبل جلالة الملك، أو يعملون على منع مراعاتهم، وسوف يجري اصلاح وضع الذين، عانوا منذ الإعطاء الأخير، من أي أذى لحق امتيازاتهم، وبما أن الوعد الذي قطع في ذلك الحين، ولم يتم تنفيذه من قبل الملك، الذي بذلك لم يعط أي اهتمام أو تقدير إلى فضيلة اليمين الذي أقسمه، ولم يظهر أي خوف من القرار الذي تفوه به الرجل المقدس ادموند، ولكي لا يقع خطر من هذا النوع في المستقبل، وبذلك تقوم مخاطر جديدة أسوأ من المخاطر القديمة، تمّ الاتفاق، على وجوب اختيار أربعة أشخاص من أعلى الناس استقامة، ومرتبة، ومقدرة، بموافقة عامة، ليكونوا مستشاري الملك، وسوف يقسمون مخلصين بالعمل على تقرير جميع القضايا المتعلقة بالملك وبالمملكة،

وأن يظهروا العدالة إلى الجميع، دون تقدير للأشخاص، وسوف يبقى هؤلاء مع الملك، وإذا لم يكونوا جميعاً، على الأقل سوف يبقى اثنان دائماً حاضرين لسماع شكاوى كل واحد من الناس لابل جميع الناس، وأن يقدموا، بأقصى سرعة ممكنة التفريغ إلى الذين يعانون من الأذى، وبأعمال تفتيشهم وبناء على بيناتهم، سوف تتم إدارة خزانة الملك، والأموال التي منحت إليه من قبل المجتمع بشكل عام، وسوف يجري صرفها لصالح الملك والمملكة، وفقاً لما سيرونه أكثر مواءمة ونفعاً، وهم سوف يكونوا الحافظين للامتيازات المذكورة، وبحكم أنه جرى انتخابهم بموافقة عامة من الجميع، لذلك ما من واحد منهم سوف يجري نقله أو حرمانه من وظيفته من دون موافقة عامة، وإذا ما انتزع واحد من بينهم بوساطة الموت، وقتها سوف يحل رجل آخر محله بوساطة انتخاب وموافقة الثلاثة الآخرين، خلال مدة شهرين، وسوف لن تجتمع الجماعة كلها ثانية من دون هؤلاء الأربعة المذكورين، ما لم تستدعي الضرورة، أو بناء على طلبهم، والمذكرات التي جرى الحصول عليها معارضة للملك، وضد عادة المملكة، سوف تزال وتلغى، ويتوجب أيضاً عمل إشارة إلى الحكم الذي سوف يصدر ضد المخالفين، وكذلك وجوب أداء يمين بين الفئات، وكذلك فيما يتعلق بحلقة العدالة، سوف يجري انتخاب مسؤول عن العدالة ومستشار من قبل الجميع، وبما أنهم سوف يكونون دوماً مع الملك، سوف يكونون أيضاً بين عدد المحافظين على الامتيازات، وإذا ما حدث في أية مناسبة، سوف ينتزع الملك فيها ختمه من المستشار، إن كل ماسوف يجري ختمه خلال المدة الفاصلة، سوف يعدّ لاغياً وفارغاً، وبعد ذلك سوف يعاد الختم إلى المستشار، وما من مستشار أو مسؤول عدالة سوف يجري تعيينه في مكان آخر، ما لم يكن من خلال مؤتمر خاص وعام، وبالموافقة الحرة للجميع، ولسوف يجري انتخاب اثنين من مسؤولي العدالة لمنصة الحكم، وسوف يجري تعيين بارونين في الخزينة، وسوف يجري تعيين واحد على الأقل ليكون مسؤولاً عن العدالة لليهود، وفي هذه المناسبة

سوف يجري إعداد جميع الموظفين الرسميين المقدم ذكرهم وتعيينهم بموجب انتخاب الجميع الحر والعام، وبناء عليه بما أنهم سوف يتولون تسوية قضايا الجميع، لذلك موافقة كل واحد سوف تكون مطلوبة في انتخابهم، وفيما بعد، وعندما يكون ضرورياً لأي واحد آخر استبداله، أو تعيينه في محل أي واحد من الموظفين الرسميين المتقدم ذكرهم، إن التبديل أو التعيين سوف يجري من قبل، أو بموجب سلطة هؤلاء المستشارين الأربعة الذين تقدم ذكرهم، والذين توفرت حولهم شكوك، أو الذين ليست إليهم حاجة، سوف يجري عزلهم من جانب الملك.

البابا يرسل المعلم مارتن إلى إنكلترا مزوداً بسلطات جديدة غير اعتيادية

وفي الوقت الذي كان فيه النبلاء مشغولين بشكل متواصل لمدة ثلاثة أسابيع في ترتيب هذه المسائل في سبيل تقدم الصالح العام، أعاق العدو القديم، ذاك العدو المسبب الاضطراب للسلام، والمؤصل للانشقاقات، أي الشيطان، أعاق جميع القضايا التي تقدم ذكرها، بوساطة نهم البابا وشره، لأن الخبر الأعظم اعتقد بأن الانكليز المرتين، سوف — وفقاً لعاداتهم الجارية — يخضعون رقابهم، ويستجيبون للاسهام بناء على إلحاح الملك، وكذلك على أساس طلبه المستعجل، فأرسل رجل دين من المقربين إليه، اسمه المعلم مارتن، الذي جرى تزويده بسلطات جديدة وغير اعتيادية، أعظم مما منح إلى أي نائب بابوي نذكره قد وجد من قبل، لأنه مدّ يديه لفرض المكوس، وفرض الأتاوات لأسباب غير معروفة، فقط تبعاً لما يهواه عقله، من دون أي تقدير للمنطق، ولأنه كان مسلحاً بسلطة متوحشة من قبل البابا، الذي منه أظهر كل يوم صكوكاً جديدة، وفقاً لرغباته، أو لتبني أية قضية مفاجئة، من القضايا الاضطرابية، استخرج بالقوة الموارد، حتى يجري منحها إلى أقرباء البابا، ولهذا قال كثيرون بأنه كان لديه كثيراً من أوراق الرق غير المكتوبة، والمختومة بالختم البابوي،

بحيث كان بإمكانه أن يكتب في هذه الأوراق الذي رغب به، لاسمح
الرب بذلك.

وجرى ارسال هذا النائب البابوي المخادع، في المقام الأول إلى الملك،
فقد ابتدأ به ليرد المعروف إلى البابا، وليستخدم جهوده القوية بمثابة في
سبيل اقناع أساقفة إنكلترا، ليقدموا موافقة عامة بأن يمنحوا هذا الإسهام
إلى البابا، أو الوعد على الأقل بدفعة سريعة مقدارها عشرة آلاف مارك،
وعلى هذا الطلب رد الملك بأن نبلاءه، والأساقفة، ورجال الدين، وكذلك
الاييرلات، والبارونات والفرسان، غالباً ما انتزعت منهم مقتنياتهم،
بمختلف الطرق المخترعة، حتى أنهم باتوا الآن ولم يترك لهم شيئاً
لأنفسهم، وقال أيضاً:

«إنهم الآن سوف لن يدفعوا شيئاً، ولا يمكنهم دفع أي شيء لي أنا
ملكهم، ولا كذلك إلى البابا، وقد قمت على كل حال بالتذلل إليهم بنفسي،
وتماشيت مع رغباتهم، فأجابوني بلطف أكبر، ووعدوني بمساعدة، وفقاً
لإمكاناتهم»، وعندما سمع المعلم مارتن هذا، غادر وذهب مع نظرة
سلبية، ليس في ذهنه توقع أية مساعدة من الملك، ومع ذلك قام بجمع
الأساقفة، وأراهم الرسائل الرسولية، وفق الشكل الوارد في الفصل المقبل،
وهي موجهة أولاً إلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، وبعد ذلك إلى رعاة
الديرة، سواء المعفيين منهم وغير المعفيين.

رسالة البابا إلى أساقفة إنكلترا مطالباً بالإسهام

«من أنوسنت، الأسقف، وعبد عبد الرب، إلخ، إلخ، إلى رعاة الديرة
المعفيين منهم وغير المعفيين وإلى إخوانهم الرهبان في أسقفية كانتربري،
صحة ومباركات رسولية:

لنا آمال كبيرة في عواطفكم الصادقة، ونشعر بثقة كبيرة، أنه عندما تحيق
أحوال الحاجة بالكرسي الرسولي، أي بأممكم الكنيسة، يمكننا بكل ثقة أن

نلجأ إليكم، بحكم أنكم أولادها المحبوبين والمخلصين، الذين هم دوماً متلهفين ومستعدين لتخليصها من أحمالها، وبما أن الكرسي الرسولي المتقدم ذكره غير قادر حتى الآن على تخلص نفسه من وطأة تلك الديون التي تعاقد عليها من أجل الدفاع عن الإيمان الكاثوليكي، وعن حرية الكنيسة، وعن ميراثها الذاتي، باستخدامه للمبالغ التي جمعت ومنحت لمساعدتها في انكلترا وفي الممالك المسيحية الأخرى، بموجب سلطات سلفنا البابا غريغوري صاحب الذكرى الطيبة، لذلك نحن الآن مضطرين بسبب الحاجة إلى اللجوء بثقة إلى عواطفكم الخالصة، ونقوم بموجب نصيحة إخواننا بسؤالكم وإنذاركم، وبموجب هذه الرسائل الرسولية نأمر جماعتكم، أن تقوموا بموجب مشاعركم البنوية بالتقدير، كما هو مؤمل منكم، والنظر إلى الحاجة الملحة، وإلى ثقل العبء الذي عسف بشدة بالكنيسة الرومانية، التي هي أمكم الروحية، فهي مقهورة، وتقريباً مغلوبة، لذلك قدموا إليها الرحمة المستحقة في هذه القضية، وفي سبيل دفع الديون التي تقدم ذكرها، ولتقديم العون لنا وللكرسي المذكور بمبلغ من المال فيه كفاية، ووفقاً للطريقة التي يراها صحيحة ابننا المحبوب المعلم مارتن، كاهن حجرتنا، الحامل لهذه المطالب، وكل الذي يعبر عنه ويعلنه هو باسمنا ولصالحنا.

ونحن نأمركم أيضاً بإعطاء المال الذي أسهمتم به إلى المعلم مارتن المذكور، أو إلى رسله، خلال المدة التي سوف يحددها لكم لفعل ذلك، وعليكم هكذا تنفيذ أوامرنا، حتى لانمتلك سبباً صالحاً لنأمر تقواكم، ولكي لانكون مرغمين على اللجوء إلى وسائل أخرى في هذه القضية. صدر في اللاتيران، في اليوم السابع من كانون الثاني، في السنة الأولى من حبريتنا».

وعندما جرى نشر هذا في لندن، وبات مفهوماً بشكل جيد من قبل جميع الأساقفة ورعاة الديرة بشكل خاص، رفض رعاة الديرة إعطاء جواب من

قبل أنفسهم وحدهم، وآثروا أن يفعلوا ذلك مع آخرين، لأن رسالة قد كتبت إليهم وفق الأسلوب نفسه، ولذلك عقدوا مداولات دقيقة حول القضية، وأعطوا منفذاً لشكاياتهم بين أنفسهم وقالوا:

«لقد وضعنا في موقف صعب، فملكنا وحامينا الذي أسس وجدّد كثيراً من كنائسنا، غير قادر على فعل شيء، وقد طلب المساعدة منا من أجل الدفاع عن مملكته وفي سبيل حمايتها، أي في سبيل الصالح العام، وقد طلب البابا الشيء نفسه لصالح الملك، فهذه شكاية مزدوجة، وهي قائمة بشكل متوازن وفعال من على الجهتين، وجاءنا الآن طلب آخر غير متوقع من جانب البابا، والطلب الأول، بما أنه مؤيد بشكل مضاعف، فهو مرجح أكثر، وهو جدير أكثر بالموافقة عليه، فمن كرم الملك يمكن أن نتوقع بعض المكافأة، أما من البابا فلا شيء، فلقد هوجمنا وتضررنا من على الجانبين، فمن الجانب الأول عسف بنا، ومن الجانب الثاني غلطنا وتأذينا، وكأننا بين المطرقة والسندان، ولقد سحقنا بين حجري الرحا».

رسل من الإمبراطور يمنعون الإنكليز إعطاء أية مساهمات إلى البابا

عندما كانت مثل هذه الأحداث قيد الوقوع، ليس من دون تسبب قلق حاد في قلوب كثيرين الملطخة بالدم، وصلت أخبار إلى علم جميع النبلاء، وقد انتشرت بين الناس، ووقتها لم يعرفوا الذي سيفعلونه، ولذلك لجأوا إلى الأساقفة، في سبيل أن يتبنوا الخطة نفسها في جميع الأشياء، وذلك بالنسبة لهذه المسألة المتعلقة بالصالح العام للمملكة، وحدث — على كل حال — فجأة أن وصل إلى لندن المعلم وولتر دي أوكرا Ockra، وبعض الآخرين، كرسل خاصين من الإمبراطور، وذهبوا فور وصولهم إلى المستشارين، وقدموا رسالة من مولاهم، جرت قراءتها بشكل علني بحضرة الملك وجميع المستشارين، على الرغم من اعتراض المعلم مارتن وانزعاجه، وفي هذه الرسالة برأ الإمبراطور نفسه من تهمة العصيان، التي

شوه بها البابا سمعته وأخلاقه، وأعلن بأنه سوف يطيع العدالة بكل تواضع، وسوف يلتزم بأوامر الكنيسة، ويقدم الترضيات إليها، ولتأكيد مصداقية هذا، قدم كل من امبراطور القسطنطينية، وكونت طولوز شهادتيهما بوساطة رسالتين مهمورتين بختميهما، وقد نشرتا هناك على الناس، وفي تسويغ لنفسه أيضاً، أعلن الامبراطور فردريك، في كل من هاتين الرسالتين، وبفهم رسله الذين رددوا الشيء نفسه، من أن البابا قد طلب بشكل مهيب أن يكون ممتلكاً لبعض المذن، والقلاع والأراضي، وفيما يتعلق بهم ليس واضحاً بعد، فيما إذا كانوا عائدين بملكيتهم إلى الامبراطورية، أو إلى الكنيسة، كما طالب أيضاً بإطلاق سراح بعض الأشخاص، الموضوعين في سجن الامبراطور، بحكم أنهم خونة له شخصياً، وطالب بهذا أيضاً حتى قبل أن يكون هو شخصياً، قد جرى تحليله من الحرمان الكنسي، وبناء عليه، إنه خشية منه — كما قال — من أن يقع في أحاييل البابا، أخضع نفسه إلى رأي وقرار، ملكي فرنسا وانكلترا، وبارونات المملكتين، لأنه أفاد بأن تواضعه الأصيل لم تتم رعايته كما ينبغي، أو تقديره بشكل لائق من قبل البابا، ومن أجل هذا اشتكى بمرارة إلى الجميع، وأضاف الامبراطور في نهاية المكتوب رسالة مع شيء مما يشبه التهديد، من أن جميع المال المرسل إلى البابا لمساعدته، سوف يضاف إلى الخزينة الامبراطورية، ولذلك ترجى بكل وسيلة توفرت لديه بأن لا يسهم الانكليز بأي شيء إلى خصمه البابا، للإضرار به، وأضاف أيضاً، بأنه إذا مارغب ملك انكلترا الالتزام بنصائحه، يتوجب بالقوة والعدالة تحرير انكلترا من الضرائب التي فرضها البابا انوسنت الثالث، وكذلك عليه أن ينقذها من الأعباء الأخرى، التي كانت تعسف بها يومياً من قبل البابا، وبهذا استرد الامبراطور عواطف الكثيرين، لأنه أقحم في الرسالة المذكورة، بأن الملك إذا لم يقوم بإطاعة أوامره — أي الامبراطور — هو سوف ينزل انتقاماً ثقيلاً، بأي واحد من رعاياه سوف يتم العثور عليه في ممتلكاته الامبراطورية.

كيف وافق نبلاء إنكلترا على إعطاء مساعدة مالية

عقد نبلاء إنكلترا وأساقفتها مؤتمراً في لندن، في اليوم المحدد، أي بعد ثلاثة أسابيع من يوم عيد طهارة القديسة مريم، وعقدوا مداوالات دقيقة، حول القضايا التي تقدم ذكرها أعلاه، وكان موجوداً هناك نواب الأساقفة الغياب، وهم عن رئيسي أساقفة كانتربري وبورك وثلاثة أسقفيات شاغرة، وممثلين عن هيئة كهنة كوفنتري، وشيستر، ونورويك، وجرى آنذاك تجديد طلب الملك لمساعدة مالية، وفيما يتعلق بهذه المسألة، استدعاهم الملك من يوم إلى آخر، وذلك بوساطة دعوات منه شخصياً، وكذلك بوساطة رسل خاصين، تقدم من خلاصهم بالوعد بأنه سوف يحافظ، تحت سلطانهم الكامل، على الامتيازات، التي كان قد أقسم على منحها عند تنصيبه، ومن أجلها منح صكاً، وفي سبيل الحفاظ على هذه الامتيازات، طالب بأن يقوم كل واحد من الأساقفة في أسقفيته، بإصدار قرار بالحرمان الكنسي ضده، وضد جميع الأشخاص الذين سوف يقفون ضد أية نقطة من نقاط الامتيازات المذكورة، وأخيراً لما أنه لم يعد ممكناً انحناءهم إلى أي شرط آخر، وافقوا على منح الملك، من أجل تزويج كبيرة بناته، منحة مقدارها عشرين شلناً من إقطاعية كل واحد من الفرسان، الذي بحوزته ممتلكات من الملك بشكل رئيسي، وكانت الحصاة الأولى سوف يجري دفعها في عيد الفصح، والأخرى في عيد القديس ميكائيل.

وعندما طلب من الملك أن يتذكر هذه الأشياء، وكذلك الوقائع الماضية، تذكر كم هي كثيرة التي عمل بها بقسوة استخراجات مماثلة من رعاياه المخلصين، الذين كان واجبه نحوهم هو أن يرعاهم، وليس افقارهم، وجاء ذلك من دون الوفاء بأي وعد من الوعود قطعه لهم، فبعد الاستيلاء على بدفورد، جرى منحه على الفور ضريبة عن أرض كل محراث من إنكلترا كلها، وكان ذلك شلنين لكل محراث، وفي السنة التالية جرى منحه جزءاً من خمسة عشر جزءاً من الممتلكات المتحركة، ومجدداً عندما كان على

وشك الذهاب إلى بريتاني تلقى مبلغاً كبيراً من الأساقفة، ومن الرهبان، ومن البورجوازية واليهود، ولدى عودته من بريتاني، أخذ منحة مقدارها ثلاثة ماركات عن كل فدان، وأعطى بعد هذا جزءاً من أربعين جزءاً من جميع الممتلكات المتحركة، ثم من جديد بعد ذلك جزءاً من ثلاثين جزءاً، وثانية عندما أعطى أخته لتكون زوجة للامبراطور، تسلم بمثابة حصّة زواج لها، منحة مقدارها ماركين عن كل محراث، وعند ولادة ابنه، قام، مع عار كبير لحق به، ومن دون خجل، فاستخرج بالقوة كثيراً من الهدايا، التي عملت مع بعضها مبلغاً كبيراً من المال، ومجدداً عندما كان ذاهباً إلى غسكوني، استلم مبلغاً كبيراً من المال، لا بالحقيقة مبالغ لانهاية لها تقريباً، من الأساقفة، ومن رجال الدين، والبورجوازية، واليهود، ومن كل واحد كان بإمكانه أن يكشط منه، وعندما عاد من غسكوني بشكل باهت، وكان رجلاً مخدوعاً، أمر الأساقفة والنبلاء باستقباله عند شاطئ البحر، وبعد انتظاره هناك عبثاً لوقت طويل، استقبلوه عندما وصل، بهدايا كبيرة لا تقدر بثمن، وعمل الشيء نفسه من قبل سكان لندن، وآخرين، وكل من تم العثور عليه وعرف بأنه لم يقدم هدية لها قيمتها، اتهم بحجة أو بأخرى، وعوقب، فكيف يمكن للملك أن يقوم بالوفاء بجميع وعوده وباتفاقاته، مقابل الإسهامات الحالية، ومن أجل الإسهامات الأخرى، وحده يعرف الذي هو ليس بجاهل بأي شيء.

جواب الأساقفة على مطالب المعلم مارتن

عندما علم المعلم مارتن، الذي كان رسول البابا، بأن نبلاء انكلترا قد أعطوا موافقة عامة بمنح الملك، أصبح متلهفاً أكثر لإنجاز المهمة التي من أجلها قد أرسل، والتي كانت مازال في حالة من عدم التأكد، أي الحصول على المساعدة للبابا، وبناء عليه دعا إلى الاجتماع جميعهم مع بعضهم وعندما تحقق له ذلك قال لهم:

«أيها الناس، أيها الرهبان، وياأيها السادة، المحبوبين تماماً من الكنيسة

الرومانية، التي في صدرها ترقد جميع الآمال البابوية، ما هو الجواب الذي أعطيتموه إلى أبيكم الروحي بالنسبة لقضايا الكنيسة الرومانية، التي هي أمكم، والمعسوف بها حسبما جاءكم العلم بوساطة الرسالة البابوية؟ لقد أقدمتم طائعين على الاستجابة لأبيكم الديني، أي مولاكم الملك، فلا سمح الرب أن لا تقدموا على مد يد المساعدة إلى أبيكم الروحي، أي البابا، الذي يضع ثقته بكم، ذلك أنه يقاتل لصالح الكنيسة المسكونية ضد أولاده العصاة»، وقدّر الأساقفة بحكمة بأن كلامه، وإن كان حلواً وناعماً فهو بسبب المناسبة، ولذلك هو أحلى من قرص العسل وأنعم من الزيت، ولكنه كان في النهاية أمرّ من الصبر، وأحدّ من السهم الخارق، ولهذا لم يتزحزحوا عن مواقفهم، وبعد مداولات كافية، عيّنوا عميد كنيسة القديس بولص في لندن، وكان رجلاً مستقيماً وفصيحاً، لإعطاء الجواب الذي وافقوا عليه بالإجماع، ومن خلاله أعادوا الجواب التالي إلى المعلم مارتن المتقدم ذكره قائلين:

«يا صاحب النعمة، إن جماعة الأساقفة الانكليز يرجون التقدم إليكم بالجواب حول كل من قضية تقديم المساعدة المالية إلى البابا، وأيضاً حول الموارد التي يطلبها صاحب القداسة من خلالكم، من كل كنيسة من الكنائس، وإن القضايا التي عرضتها علينا، فيما يتعلق بمولانا ملك انكلترا بشكل خاص، والمتعلقة بجميع أولياء نعمة الكنائس بشكل عام، وهم أيضاً يتعلقون برؤساء الأساقفة ونوابهم من الأساقفة، وكذلك جميع أساقفة انكلترا، وبناء عليه، بما أن الملك قد اضطر إلى الغياب بسبب المرض، وكذلك بما أن رؤساء الأساقفة والأساقفة، والأساقفة الآخرين للكنائس، هم أيضاً غياب، يتوجب علينا عدم إعطاء جواب، حيث لا يمكننا فعل ذلك، لأننا إذا ما أقدسنا على فعل ذلك، فيكون هذا مضراً بالنسبة للأساقفة الذين هم غياب»، وبعدما قالوا هذا، ذهب جون مارشال وبقية رسل الملك، إلى الأساقفة الذين بأيديهم بارونيات من الملك

بشكل رئيسي، ومنعوهم بكل دقة من رهن إقطاعياتهم المدنية عند الكنيسة الرومانية، لأنه — أي الملك — سوف يكون محروماً بذلك من الخدمات المتوجبة إليه، وعندما سمع المعلم مارتن هذا، عيّن يوماً في وسط الصوم الكبير للذين كانوا آنذاك حضوراً، للاجتماع به، وهو في الوقت نفسه سوف يحصل على حضور الملك وعلى حضور الأساقفة الغياب، وذلك في سبيل إنهاء هذه القضية والوصول بها إلى نهاية، غير أنهم رفضوا الموافقة على الموعد المقرر، وذلك دون الحصول على موافقة الملك، والأساقفة الآخرين الذين كانوا غياباً، وعادوا جميعاً إلى مواطنهم» ومجدداً قام المعلم مارتن، اعتماداً على سلطات رسائل جديدة، التي كان لديه كميات وافرة منها يستخدمها حسب رغباته، فدعا إلى الاجتماع بعض الأساقفة، لكنهم رفضوا الموافقة على الإسهام وزادوا بأنهم عارضوا بشدة أكثر من ذي قبل، وقدموا الجواب نفسه، كما تقدم من قبل قائلين:

«إنه في المقام الأول، بسبب فقر ملك انكلترا، المحدقة به مخاطر الحرب، لا يسمح ذلك لنا بالموافقة على هذا الاستخراج لأن المخاطر تهدد المملكة كلها، وبسبب هذا الفقر، أثقلت عدة كنائس، وبشكل خاص الديرة، بديون كبيرة مرهقة، ومجدداً عندما تم الإسهام مؤخراً بناء على طلب الكاردينال الذي كان النائب البابوي، بسبب أعباء الكنيسة الرومانية كما قيل آنذاك، لقد فرض وقتها علينا عبئاً ثقيلاً، ومع ذلك فإن تلك الإسهامات لم تكن لمنفعة الكنيسة، والآن عندما عمل رسول بسيط المطلب، هناك سبب أكثر قوة للخوف من أن نتيجة مماثلة، إن لم تكن أسوأ، سوف تحصل بهذه المناسبة أيضاً، إذا ماتم الإسهام الآن من جديد، كما أن هناك أسساً قوية للخوف من أن يصبح ذلك عادة، وذلك بناء على أساس أن الشيء إذا ما تكرر، يغدو قاعدة، ومجدداً، إنه حسبنا نعتقد، أو في جميع الأحوال حسبنا روي، بأن البابا مقبل خلال وقت قصير، على عقد مجمع، فيه سوف — بدون شكل — يجري إثقال الأساقفة، جميعاً وبدون استثناء،

بأعباء النفقات، ومثل ذلك بالرحلة الطويلة وكذلك بنفقاتها ومتاعبها، وأيضاً بالقيام بزيارات فيها تقدمات إلى البابا، سواء أكانت موافقة أم غير موافقة، أو بزيارات إلى بعض الآخرين، الذين لم نجدهم قط يرفضون أية هدايا، ويمكن أن يحدث، أنه نتيجة للاضطرابات التي تكدست فوق الاضطرابات، سوف يكون هناك قلة فقط، يمكن لهم تحمل ثقل هذه الأعباء التي لا يمكن تحملها، ومجدداً، بما أن أمنا الكنيسة المقدسة لروما مثقلة بالديون، سيكون عدلاً ومشرفاً، بما أنها غير قادرة على تحمل هذا العبء، أن تقدم المساعدة إليها من قبل أولادها المخلصين بشكل عام، الذين سوف — كما نعتقد — يلتقون في مجمع خلال وقت قصير، والذي يهم الجميع بشكل رئيسي، ينبغي أن تتم الموافقة عليه من قبل الجميع، في سبيل أنه بذلك يمكن تحرير الكنيسة بشكل أحسن، وبذلك كل واحد منا يكون أقل إثقالاً»، وعندما سمع المعلم مارتن هذه الحجج المؤثرة، ضد استخراج أية معونات مالية من الكنائس ومن رجال الدين بمثل هذا الإصرار المعلن، يقال بأنه انفجر بتهديدات عنيفة ضدهم، وتحمل الأساقفة — على كل حال — هذا بصبر، ورفض الاجتماع، فتفرقوا مبتعدين، وقد أضافوا في عروضهم، أنهم إذا ما أسهموا، فإنهم سوف يخشون تهديدات الامبراطور أكثر.

وعند ذلك ألقى مارتن الخائن بيديه الجشعتين بشكل سري على موارد الكنائس الفارغة، وقام بين أشياء كثيرة فتدبر إعطاء خزينة كنيسة سالسبري إلى حفيد البابا، واستولى أيضاً على عدد من الكنائس الأخرى، غير أن أعمال الأخذ والرد هذه، من الأفضل أن نظل صامتين حولها، وعدم حكايتها، وذلك صدوراً عن الاحترام للكنيسة الرومانية، وبقصد عدم إثارة فضيحة.

العشور على جثة ولد ميت في لندن

في الأول من شهر آب من هذا العام، تمّ العشور في مقبرة القديس

بندكت، في مدينة لندن، على جسد طفل غير مدفون، قد كتب على ساقيه، وعلى ذراعيه، وتحت صدره بخط عبري منظم واجتمع كثيرون، وهم يتساءلون حول هذا المشهد، غير قادرين على قراءة الكتابة، لكنهم عرفوا بأن الكتابة والأحرف عبرية، فبعثوا خلف بعض المتحولين اليهود، الذين كانوا يسكنون في البيت الذي أقامه الملك في لندن، وأمروهم، صدوراً عن تقديرهم لحياتهم ولأطرافهم، وتقديرًا لشرفهم، وعواطفهم، وخوفهم من الملك، أن يبيحوا معنى الكتابات، من دون أي تحوير، لأنه كان موجوداً هناك بعض وكلاء الملك، الذين كانوا يتولون الحفاظ على السلام، وقد اعتقدوا — لسبب صحيح — أن اليهود الذين تولوا تعذيب يسوع المسيح وأهانوه، إما قد قاموا بصلب هذا الطفل (وهذه واقعة تكرر ذكر وقوعها)، أو أنهم عذبوه بطرق مختلفة قبل قيامهم بصلبه، ولأنه مات تحت التعذيب، اعتقدوا أنه غير جدير بالصلب، ومن ثم ألقوا بجسده حيث تمّ العثور عليه، وبالإضافة إلى هذا ظهرت هناك علامات باقية على جسد الطفل، وأن التعذيب تمّ بوساطة العصي، وقد ظهرت هنا وهناك علامات وآثار بعض أنواع أعمال التعذيب الأخرى، وبعدما جرى جلب المتحولين، من أجل قراءة الكتابات، قاموا بفحصها، وسعوا إلى قراءتها وبذلوا جهودهم لبعض الوقت من دون محصلة، لأنه بسبب تمدد الجلد، وتغير الجسد، انتشرت الأحرف فوق الجسد هنا وهناك، وتغير شكلها كثيراً وتشوهت، وبات بعضها غير مفهوم، وتمكنوا أخيراً، بعد طول معاناة من اكتشاف اسم والد الطفل وأمه مكتوبين، لكن من دون الكنية، وكانت هناك كلمة قد أفادت بأنه قد بيع إلى اليهود، لكن من قبل من، ولأي غاية؟ هذا ما لم يستطيعوا كشفه، وجرى اكتشاف أن بعض اليهود من لندن، الذين كانوا موضع ريبة، ومشكوك بهم في هذه القضية، قد هربوا آنذاك بشكل سري ولم يعودوا، وأكد بعضهم أيضاً، بأن الرب قد عمل معجزات لصالح الصبي، وجرى اكتشاف بأن اليهود قد اقترفوا في بعض الأحيان مثل هذه الجرائم، وأن الأجساد المقدسة، عند^١ صلبت قد استقبلت في كنائسها،

وأصبحت أيضاً مشهورة بالمعجزات، وبناء عليه، وعلى الرغم من أن العلامات كانت خمسة جروح، على الطرف، واليدين، والقدمين، وهي لم تكن مرئية على جسد الطفل المذكور، قام كهنة القديس بولص مسرعين بأخذ الجسد والفرار به، ودفنه، وسط طقوس مناسبة، وكان دفنه قرب المذبح الكبير في كنيستهم.

ظهور قديسين جدد في انكلترا

في تلك الآونة نفسها، قيل بأن معجزات أظهرت أنفسها، وأن منفعة الصحة قد أعيدت إلى المرضى، في سبيل مدح المسيح، وكان ذلك عند ضريح روجر، أسقف لندن، صاحب الذكرى التقية، وضريح المعلم جون فوكستون Foxtone، الوصي على كنيسة تلك المدينة، وكذلك عند قبري: المعلم روبرت، الذي كان أخاً لإدموند رئيس أساقفة كانتربري، والقديس روبرت أوف كاريبراغ Karrebrag (ربما: Carisbrake).

وصول كونت فلاندرز لمساعدة ملك إنكلترا

ونزل في حوالي الوقت نفسه، كونت فلاندرز في دوفر، حيث قدم لمساعدة ملك انكلترا في نيته شن الحرب على سكوتلندا، وقد أثار وصوله غضباً عظيماً وأنفة في قلوب النبلاء الانكليز، لأنهم قالوا بأن انكلترا قادرة على اجتثاث سكوتلندا، اجتثاثاً كاملاً من دونه، وجلب الكونت المذكور معه ستيناً من الفرسان، ومائة من الأتباع، جميعهم مسلحين بشكل جيد، وكل واحد منهم متشوق إلى السعي وراء نيل أموال الملك.

وسار الكونت مع أخيه رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري إلى القديس ألبان حيث التقوا بالمعلم وولتر دي سفييلد Suffield، الأسقف المنتخب لنورويك، وقد جرى تثبيته على الفور في ذلك الكرسي، من قبل رئيس الأساقفة المنتخب المذكور.

وفي هذا العام نفسه تدبرت السيدة بلانثي، تكريس الكنيسة التي

أسستها في بونتوي Pontoise.

وفي تلك الآونة نفسها، جرى انتخاب المعلم وليم دي بيرغ Burg، أسقفاً لـ: للانداف Llandaff، وكان رجلاً محباً للخير، وغير عدواني، وسمعته غير ملطخة.

حول الاستخراجات غير العادية للمعلم مارتن

مورست في هذه الآونة استخراجات غير عادية للمال والموارد من قبل المعلم مارتن، الذي كان مقيماً في الهيكل الجديد في لندن، عاداً نفسه بمثابة نائب بابوي (مع أنه لم تخلع عليه ألبسة النائب البابوي، وكانت هذه بدعة مأكرة للحفاظ على امتيازات الملك)، وقد أرسل رسالة في جميع الاتجاهات إلى كذا وكذا راعي دير، وإلى كذا وكذا رئيس رهبان، يأمرهم بأن يرسلوا إليه هدايا ثمينة، من بعض الخيول الرشيقة، واللحوم، والأشربة، والثياب المطرزة، وعندما فعلوا ذلك، أعاد المعلم مارتن إليهم الذي بعثوه إليه، معلناً بأنهم كانوا غير كافين، وأمرهم بإرسال هدايا أعظم قيمة، تحت طائلة عقوبة التعليق والتكفير، كما أنه علق الجميع وأوقفهم عن منح منافع تساوي ثلاثين ماركاً، فما فوق، حتى يشبعون نعمه، وبناء عليه عانى الانكليز التعساء أسوأ مما عاناه بنو اسرائيل القدماء، وحزنوا لأنهم أرغموا على تحمل العبودية المصرية في بريطانيا.

الخلاف بين ملكي إنكلترا وسكوتلندا

وأثناء العام نفسه، أصدر الملك إعلاناً عاماً، وبوساطة استدعاء عام تدبر أن يعرف الجميع في جميع أرجاء إنكلترا، بأن على كل بارون اقطاعي مقطع بشكل رئيسي من الملك، أن يجعل قواته العسكرية جاهزة لإرسالها للخدمة تحت لواء الملك، وأن هذا متوجب على الأساقفة، ورعاة الديرة، وعلى البارونات العلمانيين أيضاً، ثم إنه انطلق على رأس جيش كبير تعدادة نحو نيوكاسل على التين، معلناً بأن محرضه الرئيسي ماقترفه وولته كمنع

Cumming, وكان باروناً مشهوراً وقوياً جداً في سكوتلندا، وبعض الآخرين من تلك المملكة، الذين تولوا تحصين قلعتين مريبتين في غالوي Galway, ولوثيان Lothian, في سبيل إيذاء ملك انكلترا، وعلى عكس تصرفات أجدادهم، بالإضافة إلى ذلك، دخل النبلاء المذكورين أعلاه في تحالف مع الفرنسيين، واستقبلوا بعض الرجال المنفيين واللاجئين من أعدائه — ملك انكلترا — من ذلك على سبيل المثال غيوفري مارش في هذه الأيام، وبعض الآخرين من قبل، وكانوا بذلك — كما هو معروف — يسعون لسحب ولائهم من هذا الملك، مع أن ذلك حق له وحده، وبعدما حشد الملك جميع جماعة النبلاء في انكلترا قرب القلعة المتقدمة الذكر، جرى عقد اجتماع في حوالي أيام عيد صعود مريم المباركة، وكانت هناك مداوالات متقنة قد دخلوا فيها حول القضية، وفي هذا المؤتمر، تم التوصل إلى بنود مصالحة بين الملكين، وكان ذلك بتدبير من الايرل رتشارد وبوساطة حكيمة قام بها بعض النبلاء الآخرين من الجانبيين، لأن ملك سكوتلندا، كان رجلاً مستقيماً، وتقياً، وصاحب عقل متحرر، ولذلك حظي بحب جميع الانكليز، وبحب شعبه أيضاً، وكان لديه أيضاً جيشاً كبيراً جداً، وقوياً، مؤلفاً من ألف فارس مسلحين مع أن مطاياهم لم تكن اسبانية، أو ايطالية، أو من خيول أخرى ثمينة وثمانها مرتفع، وكانت محمية بشكل جيد بدروع من الفولاذ أو من الكتان، ومع هؤلاء حوالي المائة ألف من الجنود الرجالة، كلهم كانوا على رأي واحد، وكانوا جميعاً قد عملوا الاعتراف وجرى تشجيعهم، وتثبيتهم بكلمات من وعاظهم، من أنهم كانوا سيقاتلون في سبيل قضية عادلة لصالح بلادهم، ولذلك كان لديهم القليل من الخوف، وفي سبيل منع سفك دماء مثل هذا العدد الكبير من المسيحيين، والدعاء إلى الرب بالانتقام، ومن ثم الاساءة إليه، الذي بين يديه من المرعب وقوع الانتقام، أعيد تأسيس السلام بسعادة، وجرى تدوين ذلك في الصك التالي الشاهد على ذلك.

وفي هذه الآونة، أي في اليوم الذي جاء عقب عيد القديس لورانس،
مات البارون المشهور رتشارد دي ستوتفيل Stuteville.

صك ملك سكوتلندا

«من الاسكندر، الذي هو بنعمة الرب، ملك سكوتلندا، إلى جميع الأتباع
المخلصين للمسيح الذين سوف يرون أو يسمعون محتويات هذه الأداة،
تحيات:

بودنا أن تعلموا، أننا من جانبنا، وباسمنا، وباسم ورثتنا، قد وافقنا،
وأعطينا وعدنا، إلى مولانا الاقطاعي المحبوب منا كثيراً، هنري الثالث،
الذي هو بنعمة الرب، الملك المشهور لانكلترا، وسيد ايرلندا، ودوق
نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو، وإلى ورثته، بأننا سوف نحافظ بشكل
أبدي على الاخلاص الصالح معه، وسوف نتملك مشاعر طيبة نحوه،
وإننا أيضاً سوف لن ندخل مطلقاً، بأنفسنا، أو بوساطة أشخاص آخرين
من طرفنا، في أي تحالف مع أعداء مولانا المذكور، ملك انكلترا، أو ورثته،
سواء بتسبب نشوب حرب، أو شتّها، بحيث يمكن أن تحدث مضار
بوساطة ذلك، أو يمكن أن تحدث لهم أو لمملكتهم، مملكة انكلترا وايرلندا،
أو أية مناطق تابعة لهم، وذلك ما لم يقوموا بإيذائنا، ولسوف تظل
الاتفاقيات السالفة قائمة تماماً بيننا وبين مولانا المذكور، ملك انكلترا،
وهي الاتفاقيات التي دخلنا بها مؤخراً في يورك، بحضور أوتو، الكاردينال
الشماس للقديس نيقولا، في سجن توليان، والذي كان آنذاك نائب الكرسي
الرسولي، مع الحفاظ أيضاً على ميثاق الزواج الذي عقد بين ابنا وبين ابنة
مولانا المذكور، ملك انكلترا، وفي سبيل تمتين موافقتنا هذه، وعودنا
باسمنا وباسم ورثتنا، وتثبيتها، أمرنا حاجبنا ألان Alan، وهنري
بيلاويل Baliol، وديفيد ليندسي Lindsay، ووليم غيفارد Giffard،
أن يقسموا بروحنا، بأننا سوف نلتزم باخلاص بالشروط المتقدم ذكرها،
ونطبّقها تماماً، وتدبرنا أيضاً اداء يمين مشابه، من قبل الآباء المـايين:

ديفد، ووليم، وغيوفري، وكليمنت، الذين هم أساقفة سينت أندروز، وغلاسكو، ودنكالد Dunkald، ودمبلين Dumblane، كما تدبرنا أداء يمين من قبل النبلاء التاليين، وهم من رعايانا المخلصين: باتريك إيرل أوف دنبر Dunbar، ومالكولم إيرل أوف فيف Fife، وماليس Mal-ise إيرل أوف ستراثيرن Strathearn، وولتر كومين Comyn أوف مونتايث Monteith، ووليم إيرل مار Mar، والاسكندر إيرل أوف بوشان Buchan، وديفد هيستنغ Hastings إيرل أوف أثول Athol، وروبرت بروس Bruce، والان حاجبنا، وهنري بيلأويل، وروجر دي ماوبري Mowbray، ولورانس دي أبرنثيا Abrinthia، ورتشارد كومين Comyn، وديفد لندسي Lindsay، ورتشارد سيوورد Seward، ووليم لندسي، وولتر أوف موراي Moray، ووليم غيفارد Giffard، ونيقولا دي سلي، ووليم أولسد بردج Oldbridge، ووليم بيفير Bevire، وأليوم Aleome دي ميسوك Mesuc، وديفد غراهام Graham، ورتشارد سمنغهام Smingham، فهؤلاء جميعاً أدوا اليمين للغاية التالية وهي: إذا ما قمنا نحن أو ورثتنا بالعمل بشكل مضاد للاتفاقية المتقدم ذكرها وللوعدهـ لا سمح الرب بذلكـ سوف لن يقدموا لا هم ولا ورثتهم لا النصيحة أو المساعدة إلينا ولا إلى ورثتنا بشكل مضاد للموافقة المتقدم ذكرها وللوعدهـ، وبقدر ما يمكنهم منعها، وعدم السماح بتقديمها لنا من قبل الآخرين، بل الذي سوف يفعلونه هم وورثتهمـ بالنسبة لنا ولورثتناـ ويجعلونه شغلهم الشاغل، هو رؤية أن الشروط التي تقدم ذكرها قد جرى تطبيقها بكل دقة وإخلاص، ومراعاتها من قبلنا ومن قبل ورثتنا، وأيضاً من قبلهم ومن قبل ورثتهم، وشهادة على ما تقدم قمنا نحن وكذلك الايرلات، والأساقفة، والبارونات، بتثبيت هذه المدونة بوضع أختامنا عليها. وشهد: الأساقفة، والاييرلات، والبارونات الذين تقدم ذكرهم أعلاه، في سنة حكمنا، إلخ، إلخ.

وعلى هذه الوثيقة جرى على الفور وضع أختام: الاسكندر ملك اسكوتلندا، ووليم دي بيفيري Bevire، ووليم أولدبردج Oldbridge، ووليم لندسي، وستيفن سمنغهام، وبعد ذلك ختمت بأختام الآخرين، وقد جرى إرسال هذه الوثيقة إلى ملك انكلترا في عيد الميلاد التالي، وحملها إليه بيديه رئيس رهبان التينهاوث Tynemouth، الذي حرص على بذل أفضل مساعيه، للوصول إلى هذه الاتفاقية لصالح كرامة الفتيتين.

وأرسلت هذه المدونة، مع الآخرين المذكورين أدناه إلى البابا، في سبيل أن تكون ثابتة بشكل دائم بشكل أفضل إلى الأبد، في الرسالة التالية:

التثبيت البابوي لما تقدم أعلاه

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح، انوسنت، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم، إننا الاسكندر الذي هو بالنعمة نفسها، ملك سكوتلندا، وإيرل باتريك، وإيرل أوف سترائرن Strathearn وإيرل ليفنات Levenath، وإيرل أوف أنيغريا Anegria، وإيرل أوف ميرا Mera، وإيرل أثول Athol، وإيرل أوف روس Ross وإيرل أوف كيثنس Cathness، وإيرل أوف بوت Bute، وروجردي ماوبري Mowbray ولورانسس أوف ألبرينث Alberinth، وبطرس دي ماوفير Mouvere، ورتشارد كومين Comyn، ووليم أولدبردج، وروبرت بروس Bruce، وروجر أفنل Avenel، ونيقولا سللنغ Sulling، ووليم مورري Murray، و.... أوف دنفلد Dunfeld، ووليم موريف Muref، و.... أوف بيتين Petene، وجون بيست Bissett الأصغر، ووليم لندسي، وجون دي فوكس Vaux، وديفد لندسي، ووليم غيفارد Giffard، ودنكان دي إيرغاتيل Ergatila، وجون دي ماتريفيل Matervalle، وإيلنر Aylne وابنه روجر إيرل أوف وينكستر، وهـ H. إيرل أوف أكسفورد، و

W. دي فيسي Vescy, ورتشارد سيوورد Seward, ووليم دي روس Roos, وروجرد دي كلير Clare, وهنري ابن كـونت دي بريتر Britter, ويوستاس دي ستوتفيل Stuteville, ومالكولم ايرل أوف فيف Fife, وإيرل أوف مينيششاير Menethshire, وولتر فتز— ألان, وولتر أوليفارد Oliphard, وبرنارد فريسر Fraser, وهنري بالأويل, وديفد كومين Comyn, وديفد مارشال, وديفد فتز— رالف, ووليم دي فورثير Forthere, وجون بالأويل, وروبرت دي روس Roos, الصحة, ونقدم جميع الاحترام المستحق والتشريف:

إننا نرجو أن نخبر قداستكم، بأننا أديننا يميناً، أقسمناه بأرواحنا وأجسادنا، أمام الأب المحترم أوتو، الذي هو الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجن توليان، والنائب في الوقت الحاضر، للكرسي الرسولي في انكلترا، وسكوتلندا، وايرلندا، وعملنا أيضاً صكاً، بدايته كانت كما يلي:

ليعلم كل من يصل إليه، أنه جرى الاتفاق بحضور صاحب النعمة أوتو، إلخ، إلخ، وقد شهدنا على هذا الصك ووثقناه بأيدينا، وتركناه في حوزة صاحب الجلالة ملك انكلترا، وهناك صك آخر، بدايته:

نحن بودنا أن تعلموا جميعاً، إلخ، إلخ، وبناء على الشروط المتوجبة علينا المتقدمة الذكر، والتي نحن مرتبطون بها، قد أخضعنا أنفسنا لسلطان إدارتكم، بسبب أنكم تملكون السلطة على ضبطنا وضبط ورثتنا بوساطة الروادع الكنسية، إذا ما حاولنا في أي وقت من الأوقات العمل ضد شروط السلام المتقدم ذكرها، وإذا ما حدث في أي وقت من الأوقات أن حاول بعض رعايانا، أو أي واحد منهم، ونوى باستخفاف العمل ضدهم، أو أية محاولة من هذا النوع، أو فكر أن يفعل مثل ذلك، الأمر الذي سينجم عنه قيام مخاطر ضد أنفسنا وأنفس ورثتنا، وسوف يكون من جراء ذلك حصولنا على أضرار جسيمة لنا شخصياً وللمتلكاتنا، ولذلك نرجوكم، أيها الأب المقدس، اصدار أوامر إلى واحد من الأساقفة المساعدين لرئيس

أساقفة كانتربري، أن يتولى ارغامنا على مراعاة شروط السلام المتقدم ذكرها، بشكل كامل حسبما جاء في أدوات التنفيذ المتعلقة بهذه القضية، وأيضاً القيام بضبط المتقولين والمتدمرين ضد شروط السلام المذكورة، وفقاً للأحكام الشرعية، إلخ، وفي سبيل الوفاء بالتماسنا وضعنا أختامنا على المدونة الحالية».

وبعد الفراغ من هذه الترتيبات، أصبح ملك انكلترا صديقاً لملك سكوتلندا، وكان الأمل أن تكون هذه الصداقة صداقة لا يمكن فصمها، وذلك من دون أي تظاهر، أو خطابات مراوغة ومشاكسة، وعند ذلك ترك الملك هنري ملك سكوتلندا، وذهب إلى المناطق الجنوبية من انكلترا، وهناك على الفور جرى التفكير بأن يزحف هذا الجيش ضد الويلزيين، وكان ملك سكوتلندا قد حمل نفسه إلى المناطق الداخلية من بلاده، ولدى مغادرة ملك انكلترا لنيو—كاسل على التين، جرى تقدير تعداد جيشه، بأنه تألف من حوالي خمسة آلاف فارس مسلحين بشكل جيد، وذلك بالإضافة إلى كتلة كبيرة العدد كثيراً والقوة، من الجنود الرجالة.

غارات الويلزيين

وخلال هذا الوقت كله، كان الويلزيون يخرجون من مخابئهم، ويتشرون مثل النحل، وكانوا ينشرون النار والقتل، ولم يتوقفوا عن نهب المناطق المجاورة لبلدانهم، وكان الملك مسرعاً على طريق عودته إلى لندن، ولم يرغب بمتابعة سيره نحوهم، مع أنه سمع بتجاوزاتهم، وكان عليه أن يقود جيشه نحوهم، حيث كان جاهزاً ومستعداً تماماً، وأثر أن يتبع الخطة النسائية، فبادر مسرعاً إلى ويستمنستر، أي إلى ملاذ متعته المعتادة، وأرسل ثلاثمائة فارس، تحت قيادة هيوبرت فترز—متى، مع الأموال المحتاجة، والمؤن من أجل الطريق، ليتولى ضبط الاعتداءات الويلزية، وحدث على كل حال، أنه قبل أن يصل إلى لندن، تجرأ الويلزيون، لأن الملك سرح جيشه، ولأنه انخرط في الاستراحة، ولن يقدم—حسبما كانوا خائفين—

على الاتحاد مع الجيش السكوتلندي، ولن يقوم الجيشان بالهجوم عليهم، وقاموا بجراحة بالهجوم على جيش النبلاء الانكليز، على الحدود، أي على حدود الأراضي التي كانت عائدة إلى إيرل هيرفورد، الذي كان سبب الكراهية ومصدر الخلاف، لأنه رفض أن يعطي إلى أخته الثالثة، التي تزوجت من داود، حصتها الثالثة، وهاجموا أيضاً الجيش العائد إلى رالف ومورتيمر Mortimer. وبعدما مزقوا فارسين اثنين شجاعين، وفارس نبيل إلى قطع، قطعوا رأس الثالث، وقتلوا حوالي المائة من الجنود الرجالة، ووضعوا الجيش الانكليزي كله في حالة من الاضطراب العظيمة، تراجعوا ثانية إلى مواضع اختبائهم، وهم مسرورين بانتصارهم، ولدى سماع روبرت المذكور بهذا زحف في اليوم التالي ضدهم، وكان برفقته ثلاثمائة فارس، كان يدفع لهم، وكان متخيلاً أنه سوف يطوق الويلزيين، ويحاربهم وهم في هذا الوضع، لكنه فوجيء من قبل العدو، ولذلك هزم، وتراجع نحو بلداته، لكن ليس من دون المعاناة من خسارة كبيرة بالرجالة والخيول، وحتى في بلداته لم يكن سالماً تماماً من أعدائه.

كيف لحقت الهزيمة ببطرس رئيس أساقفة روسيا من قبل التتار

وفي الوقت الذي كان الموت فيه يحيط بمشاكل الدنيا، حدث لواحد اسمه بطرس، كان رئيس أساقفة روسيا، وكان رجلاً مستقيماً، وتقياً، وموثوقاً، وذلك بقدر ما يمكن الحكم عليه، أن هزم من أراضي، ومن رئاسة أسقفيته، من قبل التتار، وقدم إلى مقاطعات شيسالبين Ci-salpine للحصول على النصيحة والمساعدة، والمواساة في وضعه المضطرب، وذلك إذا أمكن بعون الرب الحصول على ذلك من الكنيسة الرومانية، وأن ينال معروف أمراء تلك المناطق الذين يمكنهم مساعدته.

ولدى سؤاله عن سلوك التتار وتصرفاتهم حسبما خبرها، أعطى الرد التالي:

«إنني أعتقد أنهم بقايا المدينيين، الذين هربوا من أمام جدعون، إلى أقصى مناطق الشرق والشمال، والتجأوا إلى ذلك المكان المرعب وتلك الفيافي الشاسعة، التي اسمها ايترين Etren، ولديهم اثني عشر قائداً، يدعى رئيسهم باسم خان التتار، ومنه صدر اسم التتار، مع أن بعضهم يقول بأنهم عرفوا هكذا من تاراكونتا Tarrachonta، الذي منه انحدر كيارثان Chiarthan، الذي كان لديه ثلاثة أولاد، كان اسم الأسن منهم جنكيز Thesir خان، والثاني غوري Churi خان، والثالث باثاتار Bathatar خان، ولدوا، ونشأوا بين أعلى الجبال، التي لا يمكن خرقها، فكانوا متوحشين، وبلا قانون، وغير انسانيين، وقد تربوا في الكهوف والمغائر، وذلك بعد أن طردوا الأسود والثعابين منها، هؤلاء على الرغم من هذا كله ارتقوا إلى أكثر أماكن العالم إغراء، وبناء عليه قدم الأب والأبناء، وانطلقوا من أماكنهم المنعزلة، وهم مسلحين وفق طرائقهم، وكان برفقتهم حشود لا تحصى عدداً من المقاتلين، وألقوا الحصار على مدينة اسمها إرناك Ernac، واستولوا عليها، واعتقلوا حاكم المدينة، الذي قتلوه على الفور، وطاردوا حفيده قطز Cutzeusa الذي هرب، خلال عدة مناطق، وقد نهبوا جميع الأراضي التي آوته، وكان من بين البلدان التي عاثوا فيها ونهبوها قبل ستة وعشرين عاماً شطراً كبيراً من روسيا، حيث صاروا لوقت طويل رعاة للقطعان التي سلبوها، وبعدما قهروا الرعاة المجاورين لهم، تولوا قتلهم، أو جعلوهم رعاة خاضعين لهم أنفسهم، وبذلك زاد عددهم، وأصبحوا أكثر قوة، وعينوا قادة فيما بينهم، وتطلعوا نحو الأشياء الأكثر علواً واستولوا على مدن وأخضعوها لأنفسهم، وذلك بعدما تغلبوا على السكان، وزحف جنكيز خان ضد البابليين، وغوري خان ضد الأتراك، وبقي باثاتار خان في إرناك، وأرسل قاداته ضد روسيا، وبولندا، وهنغاريا، وضد عدة ممالك أخرى، ويقوم الآن ثلاثة مع جيوشهم الكبيرة بتهديد البلدان المجاورة لسورية، وقد مضت الآن خمسة وعشرين عاماً على انطلاقهم أولاً من صحراء ايترين».

ولدى سؤال رئيس الأساقفة عن شكل عقيدتهم، أجاب بأنهم يعتقدون بأن هناك حاكم واحد للعالم، وعندما بعثوا رسولاً إلى سكان موسكو، بدأوا رسالتهم بهذه الكلمات: «الرب وابنه في السماء وجنكيز خان في الأرض»، وبالنسبة لطرائق حياتهم قال:

«إنهم يأكلون لحوم الخيول، والكلاب، وأية لحوم دنسة أخرى، ويأكلون في أوقات الحاجة لحوم البشر، ليست من دون طبخ، بل مطبوخة، ويشربون الدم، والماء، والحليب، ويعاقبون الجرائم بقسوة ويعاقبون كذلك الزنا، والسرقة، والكذب، والقتل، بالإعدام، وهم لا يمتقنون تعدد الزوجات، وكل واحد منهم لديه زوجة، أو أكثر من واحدة من الزوجات، وهم لا يقبلون أناساً من شعوب أخرى للزواج من بينهم، أو لإقامة علاقات وطيدة معهم، أو للبحث في قضايا الأعمال، أو الاطلاع على اجتماعاتهم السرية، وهم ينصبون معسكرهم منعزلين بأنفسهم، وإذا ما تجرأ أجنبي على القدوم، هم يقتلونه على الفور».

وفينا يتعلق بطقوسهم، وغيبياتهم قال:

«إنهم يرفعون في كل صباح أيديهم نحو السماء يتعبدون خالقهم، وعندما يتناولون أطعمتهم يلقون بأول لقمة في الهواء، وعندما يكونون على وشك الشرب، يصبون بعضاً من السائل على الأرض، في تعبد للخالق، وهم يقولون أيضاً بأنهم يتخذون من يوحنا المعمدان قائداً لهم، وهم يفرحون، ويقومون بطقوس مهيبية في أيام القمر الجديد، وهم أقوى وأكثر رشاقة مما نحن عليه، وهم أفضل قدرة في تحمل المصاعب، ومثل ذلك خيولهم، وقطعانهم ومواشيهم، والنساء مقاتلات، وفوق كل شيء بارعات جداً في استخدام القوس والنشاب، وهم يرتدون دروعاً مصنوعة من الجلد، من أجل حمايتهم، وهي دروع من النادر خرقها، وهم يستخدمون أسلحة مسممة في هجماتهم، ولديهم أنواع كثيرة جداً من الآلات الحربية، التي تقذف الرمايات بقوة شديدة، وبشكل

مباشرة نحو الهدف، وهم يأخذون راحتهم في الهواء الطلق، ولا يعبأون مطلقاً بالأنواء العاصفة، وقد أغروا عدداً من الشعوب والفرق للالتحاق بهم، وهم عازمون على إخضاع العالم كله، ولقد قالوا بأنهم أوحى إليهم من السماء بأنهم سوف يذهبون العالم كله لمدة تسعة وثلاثين عاماً، مؤكدين بأن الانتقام الرباني قد طهر العالم بوساطة الطوفان، وسوف يتطهر الآن بوساطة اخلاء عام له من السكان، وبدمار كلي، هم أنفسهم سوف يتولون تنفيذه، وهم يعتقدون، لابل إنهم يقولون، بأنهم سيكون لهم صراع حاد مع الرومان، وهم يدعون جميع اللاتين باسم رومان، وهم يخافون من صنع معجزات من قبل الكنيسة، وأن من الممكن أن يصدر ضدهم قرار بالإدانة في المستقبل، وهم يعلنون، أنهم إذا ما تمكنوا من غلبتهم، فسوف يصبحون على الفور سادة العالم كله، وهم يقدمون احتراماً صحيحاً للمعاهدات، في حالة الذين قدموا أنفسهم عن طواعية لهم، وتولوا خدمتهم، باختيارهم أفضل الجنود من بينهم، الذين عندما يقاتلون، يضعوهم دوماً أمامهم، وبالطريقة نفسها يبقون فيما بينهم مختلف أنواع الحرفيين، وهم لا يظهرون رحمة نحو الذين يثورون ضدهم، ويرفضون نير حكمهم، أو يقفون ضدهم في أرض المعركة، وهم يستقبلون الرسل بلطف، ويسهلون أعمالهم، ويرسلونهم عائدين».

وأخيراً سئل رئيس الأساقفة المذكور عن طرائقهم في عبور البحار والأنهار، وعلى ذلك أجاب بأنهم يغبرون الأنهار على ظهور الخيول، أو على جلود صنعت لهذه الغاية، وأنهم بنوا سفناً في ثلاثة أماكن على شاطئ البحر، وقال أيضاً بأن واحداً من أولئك التتار المذكورين، وكان اسمه جلال الدين Kalaladin، وكان صهراً لجنكيز خان، قد اكتشف بأنه تحدث كذبا، وقد نفوه إلى روسيا، ووفرت حياته من قبل مقدمي التتار، مراعاة ولطفاً نحو زوجته.

رسالة مرعبة من التتار

وفي العام نفسه، ومع نهاية الصيف، أرسل الملك الرئيسي للتتار، مرتين رسائل إلى أمير أنطاكية، بوساطة رسل متنوعين، حيث أمره بإطاعة رغباته، في ثلاثة أشياء، وإلا فإن سيفاً دمويّاً سوف ينزل به انتقامه منه، وكان الأمر الأول، هو وجوب قيامه بتدمير أسوار جميع مدنه وقلاعته، وكان الثاني أن يرسل إليه جميع الموارد الناتجة من إمارته بالذهب والفضة، وكان الثالث هو أن يرسل إليه ثلاثة آلاف عذراء، وعندما سمع الأمير بهذه الرسالة استولى عليه الأسى وقال:

«مادام الرب موجوداً، ومادام قديسيه موجودين، أنا لن أستجيب لأي من هذه المطالب الثلاثة، وأفضل بالحري أن نتحارب من أجل حياتنا، وأن يتقرر هذا الخصام فيما بيننا أمام الرب»، وبعد هذا، عندما وجد الرسل منفذاً للتهديد عادوا إلى ملكهم، وجرى حمل رسالة مشابهة، من قبل الرسل التتار المتقدم ذكرهم، إلى ملك أرمنيا، وإلى بعض السلاطين المسلمين الأقوياء، غير أننا لانعرف أية رسائل أرسلت جواباً على مطالبهم.

المصالحة بين كنيسة وينكستر وبين أسقفها

وفي هذه الآونة، استأذن أسقف وينكستر الملك الفرنسي، والذين فتحوا له صدر الرحمة أثناء عيشه في المنفى، وبعد تقديمه الشكر لهم، ولكونه كان متأكداً من حظوة ملك انكلترا، بادر مسرعاً إلى وينكستر، ليكرس نفسه إلى الأعمال الأسقفية العائدة لكنيسته البائسة، وليصلح أوضاعها الفوضوية، ولدى سماع رئيس الرهبان في ذلك المكان باقترابه، عمل الضروريات اللائقة المحتاجة، مع أن ذلك جاء متأخراً، وتواضع بنفسه أمامه لدى وصوله، وبالطريقة نفسها تصرف الآخرون، سواء من العلمانيين والرهبان، والذين كانوا واثقين كثيراً جداً بحماية الملك، أي الذين كانوا

المثيرين للفتن، والمتسببين بالخلاف، عملوا الآن تكفيرات، وحولوا عواطفهم نحو أسقفهم، ومالبت بعد ذلك، في يوم عيد قطع رأس القديس يوحنا المعمدان، أن جرى سحب القرار الذي تفوه به الأسقف، والذي قضى بحرمان مدينة وينكستر وكنيستها، والذي كانوا واقعين تحته منذ وقت طويل، وجرى بذلك تحليل السكان بشكل حر بوساطة صيغة الشريعة.

ومع أن رئيس الرهبان المتقدم الذكر جون دي كوز Cauz، قد جرى تحليله مع رفاقه بالطريقة نفسها، قد جرى خلعه مع آخرين معه، كان رئيس الرهبان المذكور قد تجرأ على تعيينهم موظفين لديه، ووكلاء علمانيين، وخضع عمدة المدينة، الذي اقترف الذنب الأعظم، إلى تكفير أثقل، وعقوبات أشد.

وفي السابع من تشرين الثاني، مات آدم أسقف كونور Connor، وحدث وفاته في ويردون Waredon، حيث كان لبعض الوقت راعياً للدير، وفي ثمانية عيد القديس مارتن أبحر أسقف لنكولن من أجل عقد محادثات سرية دقيقة مع البابا، من أجل تقرير مسألة العلاقة الضرورية بينه وبين رهبانه، ومالبت بعد ذلك أن قام عميد تلك الكنيسة، وبرفقته بعض الرهبان، بالابحار، في سبيل الدفاع عن قضيته ضد الأسقف.

تكريس روجر إلى كرسي باث

في الحادي عشر من أيلول، في هذا العام، جرى تكريس المعلم روجر، رئيس جوقة المغنين في كنيسة سالسبري، والذي كان رجلاً صاحب أخلاق أدبية، ومتمتعاً بمعرفة كبيرة في مواضيع اللاهوت، جرى تكريسه في ردنغ لكرسي باث، وعندما كان هذا الكرسي شاغراً، اعتمد على موارد المعلم مارتن، فباعتماده على سلطات قداسة البابا، ألقى هذا باسم البابا يديه الجشعتين، من أجل منحهم لواحد من أقرباء البابا المذكور.

وصول ملك فرنسا إلى الهيئة الكهنوتية للسسترشيان

ومع اقتراب عيد القديس ميكائيل، اجتمع رعاة طائفة ديرة السسترشيان، من مختلف البلدان والمناطق، لعقد اجتماع الهيئة الكهنوتية العامة لديهم، حسب عادتهم، وذهب الملك الفرنسي بشكل تقوي إلى هناك، ليسأل مساعدة صلوات جميع الرهبان، الذين اجتمعوا هناك، وكان برفقته النيلة السيدة بلانشي أمه، التي كانت قد حصلت من البابا على امتياز السماح لها بالدخول إلى البيوت الدينية لطائفة الرهبان السسترشيان، وكان برفقتها اثنتي عشرة امرأة، لتقدم صلواتها، وكان هناك أيضاً مع الملك المذكور، وأمه، ومن أجل الغاية نفسها، أخوي الملك، كونتي أرتو وبواتو، ودوق بيرغندي، وذلك بالاضافة إلى ستة كونتات فرنسيين آخرين، ولدى وصولهم إلى شيلستر، ترحلوا عن خيولهم، احتراماً للكنيسة، وساروا بشكل منتظم، وكانوا يصلون بتقى، وذلك من تلك البقعة إلى الكنيسة، وهي مسافة تعادل رمية قوس زيار، ولدى وصولهم إلى الكنيسة، خرج جميع رعاة الديرة، مع أعضاء ديرتهم، الذين بلغ تعدادهم حوالي الخمسمائة، وجاءوا بمسيرة لاستقبالهم، صدوراً عن الاحترام للملك الفرنسي، لأنها كانت المرة الأولى والوحيدة التي قدم فيها إلى ديرهم، وكان البابا على معرفة مسبقة بقدومه، فأرسل رسالة إلى الهيئة الرهبانية، التمس فيها بكل حرارة من الرعاة ومن الرهبان، أنه عندما سيكون الملك بينهم، لطلب صلواتهم، أن يتقدموا بالرجاء له، وهم جاثين على ركبهم مع أيد متشابكة، حتى يقدم مساعدته القوية وحمايته، حسب القاعدة الفرنسية القديمة، إلى أبيه، أي الراعي الأعظم، والحاكم الرئيسي للكنيسة، يعني الحبر الأعظم، ضد الإهانات التي كان يسعى لتجنبها، والمقدمة له من الامبراطور فردريك، الذي سماه برسالته بابن الشيطان، وإذا ما تطلبت الحاجة، أن يفتح صدر رعايته، وأن يستقبله بلطف في مملكته، مثلما كان قد فعل من قبل إلى البابا الاسكندر، صاحب الذكرى الطيبة، عندما كان في المنفى، هارباً من اضطهاد الامبراطور فردريك المذكور، ومثلما فعل، كما هو

معروف، أيضاً إلى توماس المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، الذي هو الآن شهيد مجيد، حين قدم له المواساة، ومكانا للالتجاء، عندما نجا من غضب هنري، ملك انكلترا.

وعندما، بناء عليه، وصل الملك المذكور، تتقدمه أمه، وأخذ مقعده في قاعة هيئة الرهبان، في وسط النبلاء والرعاة، قام الرعاة مع رهبان الدير، وهم جاثن على ركبهم مع أيد متشابكة، ودموع متدفقة، فتقدموا بتواضع بالطلب المذكور أعلاه إليه، ثم إن الملك، لدى رؤيته لهم على هذه الحالة، ولدى سماعه بطلبهم، جثا هو على ركبته نحوهم، ومنحهم المعروف المطلوب، وأعلن أنه بقدر ما يسمح الشرف، سوف يصد عن الكنيسة الإيذاء المقدم إليها من الامبراطور فردريك، وإذا ما كان رأي نبلائه موافقاً، الأمر الذي لا يمكن للملك فرنسا أن يرفضه، هو على استعداد لاستقبال البابا شخصياً، إذا ما أرغم على نفي نفسه.

وعند ذلك رد الرعاة بالشكر على معروفه هذا، ومنحوا الملك حصّة خاصة في جهود أعمالهم الصالحة، هذا وكان للامبراطور أيضاً رسلاً خاصين هناك للحيلولة دون حصول مطالب البابا على أية نتيجة جيدة.

تكريس فولك باسيت أسقفًا للندن

وفي يوم عيد القديس داوونيسيوس Dionysius جرى تكريس فولك باسيت Bassett, عمدة يورك، أسقفًا للندن، وكان مشهور الأصل، ومشهوراً أيضاً بنقاوة أخلاقه، وتم التكريس في كنيسة الثالوث المقدس، في تلك المدينة.

ذهاب أوتو وبعض الكرادلة الآخرين بشكل سري

إلى البابا في جنوى

وفي حوالي الوقت نفسه، تلقى أوتو أسقف بورتو، وبعض الكرادلة

الآخرين، على الرغم الشديد من حراس الامبراطور فردريك، ومع التسبب لهم باضطراب عظيم، وهم الحراس الذين مركزهم الامبراطور لحراسة الطرقات، تلقوا أماناً من الميلانيين، ومن دول أخرى كانت مساندة للبابا، ومن مركيز مونتسرات Montserrat وشخصيات تساند الكنيسة، وذهبوا دون أن يصابوا بالأذى، أو التعرض للخسائر إلى البابا في جنوى، وذلك على الرغم من الحرس الذين وضعهم الامبراطور لمراقبة الطرقات، ولدى وصولهم فرح البابا كثيراً وابتهج، وشعر بآمال بالتحسن في أوضاعه التي كانت مضطربة آنذاك، ومنذ ذلك الحين تدفق عليه، من جميع منطقة جنوى، أعداد كبيرة من أقربائه، وآله، وأصدقائه، وكل الذين كانت لهم أية علاقة به، ومع أنه كان بالمنفى، فقد تطلب الأمر، إما بسبب القرابة أو الصداقة منحهم موارد، لاستخدامات أولادهم وأحفادهم، وبشكل خاص أن تكون هذه الموارد، من مملكة انكلترا.

وصول حملة الصليب إلى إنكلترا

في يوم الاثنين، قبل عيد جميع القديسين، وصل إلى مجمع الأساقفة لروكستر، بعض الأشخاص، مظهرين نوعاً جديداً من الرهبانية، وقد عرفوا باسم رهبان حملة الصليب، من حملهم صلباناً على عصي، وطلب هؤلاء الرجال من النبلاء مكاناً للإقامة، مظهرين امتيازاً لم يسمع به من قبل، منح إليهم من البابا، من أنه لا يجوز أن يسمح لأحد بنقد طائفتهم، أو إهانتها، أو توجيه الأوامر إليهم، وقد منحوا سلطة التفوه بأحكام الحرمان الكنسي ضد الأشخاص الذين يفعلون مثل هذا الشيء، وعجب الرجال الحكماء والمستقيمون كثيراً، وأصيبوا بالدهشة من ظهور مثل هذه الطوائف الجديدة يومياً، وتكاثرها ونموها من دون نهاية، وبناء عليه حدث أن كثيراً من الرجال المتعلمين، قد تخلوا عن نظام بندكت الأعظم مباركة، والذي تمثلت فيه روح جميع القديسين، وعن نظام أوغسطين النبيل، وعملوا ضد مبادئ ومقررات المجمع العام الذي عقد في أيام البابا إنوسنت الثالث،

صاحب الذكرى المجيدة، وهربوا فجأة إلى هذه الطوائف التي لم يسمع بها من قبل، والمخترعة حديثاً، ففي ذلك المجمع كان قد تأكد بشكل ثابت، وتقرر أنه بعد القبول، ومنح الشرعية لكل من الدومينيكان والفرنسيسكان، وجوب عدم قبول أية طوائف جديدة من ذلك الوقت فصاعداً، أو إذا جرى قبولها، عدم منحها الشرعية، حتى لا تتضرر الطوائف المقبولة والشرعية، وتصبح أقل تقديراً، ويتم التخلي عنها، وعلى هذا المرسوم أعطى جميع الكرادلة، وكل جماعة المؤتمر موافقتهم.

كيف حمل البابا نفسه إلى مدينة أستى

وفي حوالي الوقت نفسه، ذهب البابا إلى مدينة أستى Asti، بناء على مبادرة أقربائه في جنوى، الذين كانوا عطاشى يسعون متشوقين وراء المال، والذين أقنعوه بالذهاب على الفور، واستقبال الانكليز والفرنسيين، وجيرانهم، الذين كانوا جالبين الهدايا إليه، وأن لا يغلق يده ويرفض الهدية المقدمة إليه من قبل أي انسان، وأن يدعو أيضاً في الوقت نفسه إلى مجمع عام، لإعلان قرار ضد الامبراطور فردريك، الذي كرهوه، ولكي يشبعوا رغباتهم بالانتقام، وكذلك في سبيل نيل الثروة، وبناء عليه انطلق البابا، يحيط به حشد من الجنويين المسلحين، وركب الطريق بشكل مفاجيء وسري إلى المناطق الأكثر قرباً من الأراضي الفرنسية، وحيث قامت الآن مدينتا أستى، وأليساندريا Alessandria، وعدة مدن أخرى. فانسحبوا من كل ولاء وطاعة إلى الامبراطور فردريك، وتحولوا إلى البابا، وبذلك نفذوا قول الشاعر:

يتقلب العامة دوماً مع أميرهم

البابا يسير إلى ليون

وبعد إقامة قصيرة في أستى، قام البابا الذي شعر بالاستراحة وجدّد نشاط نفسه، فقرر بحرس الامبراطور الذين كانوا متمركزين باتجاهات

مختلفة، لإعاقة رحلته، ومع بداية نهاية الصيف، حمل نفسه إلى ليون، ليمضي هناك الشتاء، حيث ارتحل مسرعاً، مع محطات مفاجئة في كل من الليل والنهار، لكن ليس من دون مخاطرة كبيرة.

رفض منح ملك إنكلترا مساعدات مالية

في اليوم التالي لعيد جميع الأرواح، اجتمع نبلاء إنكلترا، ووقتها طالب الملك بإلحاح شديد، إن لم نقل من دون حياء، مجدداً بالمساعدة المالية منهم، ولكن بما أن الضرر قد لحق بهم مراراً وخذعوا قاموا بالاجماع، وأعلنوا بفهم واحد، رفض طلبه في وجهه، وكان الملك مصمماً آنذاك على إرسال جيش كبير العدد ضد الويلزيين، وبالإضافة إلى ذلك كان مداناً ديناً كبيراً إلى تجار القارة، وإلى تجار الخمر وسواهم، من أجل الجعة وحاجيات أخرى للحياة، حتى أنه كان نادراً مايري نفسه بين الناس، بسبب الطلبات الصاخبة للأشخاص الذين كانوا يطالبون بما هو حق لهم، ومن ذلك الحين بات واضحاً أنه هوجم بشكل مهين ووقع في المصائد المخادعة للأجانب: الذين كانوا ينشدون فقط مرابحهم.

كيف جرى استخراج المال من سكان لندن

وبناء عليه بات الملك يسعى لاهتأ وراء المال، ولذلك قام من دون استشارة جماعة المملكة بشكل عام، أو على الأقل من دون مشورة نبلائه، من دون حياء، فاستخرج بالقوة ألفاً وخمسمائة ماركاً من سكان لندن، مقدماً تعليلاً منطقياً، أو جعلهم يفهمون ذلك من قبله ومن قبل وكلائه، ذلك أن فريق الملك قد أكد، بأن اللندنيين قد استقبلوا منذ عشرين سنة خلت واحداً من أبناء مدينتهم واسمه وولتر دي بوكيريل Buckerell، الذي نفى بشكل عادل من المدينة، ومكث وقتاً طويلاً في المنفى، لكن سكان لندن نقضوا هذا، وأعلنوا بأنه قد عمل من الرعية بشكل شرعي، بوساطة الالتماسات، والهدايا التي قدمت من قبل أخيه أندرو إلى الملك،

وبناء عليه عفي عنه بموافقة الملك وأمره، وصار بذلك واحداً من أهل المدينة، ويشهد على ذلك ملفات الملك، وعلى هذا رد المعارضون على الفور بتفاهة باسم الملك، بأن الملك كان في ذلك الوقت صغيراً، وضعيفاً، ومن السهل قيادته والتغريب به، ولذلك فإن الذي وافق عليه بات فارغاً ولا قيمة قانونية له، ولا شك أن هذا جاء لصالح إهانة الأوصياء عليه، لأن القرار لم يكن مؤيداً بالمنطق، بل بالإرادة فقط، والذي حدث أخيراً أن السكان أرغموا على دفع المبلغ المالي المذكور، ليرمى به للأجانب.

حول النصر الذي ناله نيقولا دي مولي قهرمان غسكوني

وحوالي هذا الوقت من العام، حدث أن نيقولادي مولي Molis، قهرمان غسكوني، الذي كان الملك قد تركه في تلك البلاد، وعيّن حاكماً على تلك المقاطعة، والذي كان مشغولاً بحرب ضارية ضد ملك نافار، حدث أن واثاه الحظ في إحدى المعارك، ونال نصراً عليه.

موت مرغريت أخت ملك سكوتلندا

وفي يوم عيد القديس هوغ، ماتت مرغريت أخت ملك سكوتلندا، وأرملة غيلبرت إيرل مارشال في لندن، ودفنت بطقوس موائمة واحترام بين رهبان الدومينيكان.

موت وليم أسقف وينكستر

وبعد ذلك بوقت قصير، دفع دين الطبيعة وليم دي برويير Bruyere، أسقف وينكستر، وكان رجلاً مايزال في أول حياته، ومن أسرة جيدة، ومتميزاً بأخلاقه وعلومه.

كيف استرد ملك فرنسا صحته

بطريقة رائعة وحمل شارة الصليب

في هذا العام، ومع ميلاد مولانا، وقع الملك لويس، ملك فرنسا، الذي

كان مايزال يعاني من بقايا المرض الذي أصيب به، عندما كان منشغلاً في بواتو، وقع في حالة سبات تشبه الموت، وتمدد لعدة أيام وكأنه كان ميتاً، ووفقاً لما ذكره عدد من الذين جلسوا من حوله، كان قد حرم تماماً من التنفس، وأعتقدت أمه مع أخيه وبعض الآخرين من أصدقائه المقربين، الذين وقفوا هناك، بأن الملك صار متيبساً بسبب الموت، وتفوهت أمه التي كانت متأثرة بالحزن أكثر من الآخرين، تفوهت والآهات تقطع كلامها، بالكلمات التالية:

«ليس لنا يارب، يارب ليس لنا، بل أعط لإسمك المجد، واحفظ في هذا اليوم مملكة فرنسا، كما فعلت دوماً حتى الآن بشكل مشرف»، ثم إنها وضعت على جسد ولدها الصليب المقدس، وتاج المسيح، والرمح، وهي الأشياء التي جرى تملكها في أيامه، وعملت تعهداً باسمه، أنه إذا ما تلطّف المسيح بزيارته، وقام بحفظه، وردّه إلى الصحة سوف يحمل — أي الملك — الصليب، وسوف يزور ضريحه المقدس، الذي كان قد كرّسه بدمه، وبعدما قامت أمه، وجميع الآخرين الذين كانوا حضوراً، بمتابعة الصلاة لبعض الوقت من أجله، بكل إخلاص للقلب، قام الملك، الذي اعتقدوا أنه كان ميتاً بالتنهد فجأة، ومدّ ذراعيه وساقيه، مع صوت عميق، كأنه صوت واحد قد قام من القبر، وقال:

«لقد قام الذي نبع من عليين — بنعمة الرب — بزيارتي، واستعادني من الموت»، وما لبث بعد ذلك أن استرد صحته، وحمل بشكل مهيب بشارة الصليب على كتفيه، مقدماً نفسه، بشكل تطوعي قربان محرقة للرب، وعمل نذراً، أنه إذا ما سمح له مجلس المملكة، الذي كان قد تولى شؤون الحكومة، وسمح له، سوف يزور بشخصه الأرض المقدسة.

مساعي داود أمير شمالي ويلز لتحرير نفسه من النير الإنكليزي

وفي هذه الآونة، أرسل داود أمير شمالي ويلز، وابن أخت ملك انكلترا،

وكان خائفاً كثيراً من غضب الملك المذكور، الذي أثير ضده بشكل عادل، أرسل رسالاً خاصين إلى البابا، مخبراً إياه بوساطتهم، بأنه قد عهد بنفسه وبجميع أراضيه إلى كنيسة روما، لكي يحمى من قبلها ضد إدعاء ملك انكلترا، وليعد نفسه، أي داود وورثته، اقطاعياً مستأجراً منها مقابل خمسمائة مارك سنوياً، وبعدما ترفع بطلب العدالة، حصل على رسائل حول هذه القضية، لكن ليس من دون انفاق كبير للمال، وكانت صيغة ما حصل عليه كما يلي:

الكتابات التي حصل عليها الأمير المذكور ضد ملك إنكلترا

«إلى هنري اللامع، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وإلى راعيي ديري أبركونوي Aberconway وكمير Kemere من طائفة السسترشيان، المفتشان المعينان من قبل قداسة البابا، صحة في الرب: لقد تسلمنا وصاية من البابا، فيما يلي نصها»:

«من أنوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى ولديه المحبوبين كثيراً، راعيي ديري أيركونوي وكمير من طائفة السسترشيان، المقيمين في أسقفية بانغور Bangor، صحة ومباركات رسولية:

لقد عرض علينا، باسم النيبيل داود، أمير شمالي ويلز ولصالحه، أنه بما أن الحروب، قد دامت قائمة بينه — أي داود المذكور — الذي كان والداه قد قدماه ولد رعاية إلى كنيسة روما، وبين ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك المشهور لانكلترا، وأن ذلك قد استمر حتى بعد الوصول إلى تسوية، بوساطة رجال صالحين، حيث عملت من قبل أختينا المبجل أسقف القديس أساف مع رفاقه، من أن كلا الفريقين سوف يلتزم بقرارهم في جميع قضايا الشكايات، لابل إن يميناً جرت تأديته من قبل الفريقين لهذا الغرض، لكن الملك المذكور لم يقيم تقديراً لذلك، وقد خرق قرارهم، حيث لم يكن قانونياً بالنسبة له فعل أي شيء في القضية، وقام بشكل غير متوقع

فعمل حرباً ضد الأمير المتقدم الذكر، وبوساطة القوة وبوساطة الرعب، الذي يستولي في بعض الأحيان، على أشجع الرجال، ثم إرغامه على التخلي عما كان قد أقسم عليه، ومثل فعل الملك مع آخرين من رعيته بشأن القضايا المذكورة أعلاه، التي من أجلها عملت التسوية، وبناء عليه، بما أن الأشياء التي عملت من خلال الخوف، أو بوساطة القوة، ينبغي أن تعد فارغة من التأثير، إننا بوساطة هذه الوثائق الرسولية، نأمركم، بناء على إخلاصكم، أن تقوموا بالتقصي في هذه القضية بكل يقظة، بحثاً عن الحق في هذه المشكلة، وإذا ما وجدتم القضية، حسبما تقدم الذكر أعلاه، حرراً بموجب سلطاتنا الأمير المتقدم ذكره، من أية مراعاة أو تقييد باليمين، الذي استخرج هكذا منه، وكذلك قوماً من دون أية صعوبات بتحليله، لأن ذلك عدل، بموجب صيغ الكنيسة، أي تحليله من أي حكم صدف وصدر ضده، من قبل أي واحد، فيما يتعلق بهذه المسألة، سواء ضد شخصه أو ضد أراضيه. شهد، إلخ، صدر في جنوى في اليوم السادس والعشرين من تموز، في السنة الثانية من بابويتنا». «وإننا بناء على قوة هذه السلطة، نأمركم بالظهور أمامنا في كيروس Keyrus في كنيسة غستفند Gustefend، في عشية عيد القديسة العذراء أغنس Agnes، للإجابة هناك عن الأمير المذكور، حول القضايا الواردة في الوثيقة المذكورة، حسبما تراه مناسباً».

وعندما وصلت هذه الوثيقة إلى علم الملك وعلم نبلائه، وبعدما طارت بعد ذلك على أجنحة الشهرة إلى بقية المقدمين، غضبوا غضباً شديداً، وأقنعوا الملك بعدم الإنصياح إلى أية أوامر من هذا النوع، وحثوه على الحرب، ومهاجمة داود المذكور من دون أي تأخير، وعندما سمع البابا بهذا، تغاضى عما حدث، وأخفاه كلياً، لكنه على كل حال لم يُعد إلى داود الهدايا التي كان قد تسلمها منه.

حول رعد سمع في الشتاء

في شهر تشرين الثاني من هذا العام، والحوادث الحزينة تقوم بالعبور،

جرى سماع رعود بشكل واضح، ورؤية بروق، استمرت لمدة خمسة عشر يوماً متوالية، وتبع ذلك حالة من الأنواء مزعجة.

حول التفتيش الذي جرى بشأن احتلال الغابة الملكية

وفي هذه الآونة، نصح روبرت باسلو Passlow، وكان كاهناً لدى الملك، بأن يتبنى سلوكاً قاسياً، يكون في الوقت نفسه مفيداً له، وكان هذا بأن يقوم بتفتيش دقيق حول احتلال الغابات الملكية، أو الأراضي التي ليست بغابات، التي هي بين الناس القاطنين على مقربة منها، في سبيل تحميل الذين أقدموا على مثل هذه الاحتلالات، عقوبات قاسية، وقام هو، بناء على أمر الملك، بجمع كل رفاقه من أجل هذه الغاية، وهم: لورانس، الكاهن في كنيسة القديس ألبان، وغيوفري دي لانجلي Langley، وكان فارساً، وذهب روبرت المذكور إلى دوائر مختلف الكونتيات، وفرض على كثيرين، بوساطة حجج مضاعفة، وقام في سبيل إغناء الملك، بإفقار الجميع بشكل لا يمكن الخلاص منه، وكان الذين أفقرهم: رهبان، ورجال علمانيين، ونبلاء، وعاديين، وجاء أفقارهم إلى درجة أن كثيرين منهم باتوا من دون بيوت، ومتجولين، وقد أرغموا على التسول، وألقى بآخرين في السجن، أو جردهم من ممتلكاتهم كلها، فعاشوا حالة مزرية طويلة من الحاجة والشقاء، وكان من بين هؤلاء: جون دي نيفيل Nevill، الذي كان مسؤولاً أعلى عن الغابات، وكان أبوه هوغ قد شغل الوظيفة نفسها قبله، والذي لم يكن الأقل بين نبلاء انكلترا، وقد جرم وأهين بشكل عميق إلى حد أنه أُلقي به في السجن، وكان من المتوقع حرمانه من ميراثه، أو إرغامه على دفع فدية مذلة، أو المعاناة من عقوبة أخرى قاسية، ما لم تقم الرحمة الملكية بالتخفيف من قسوة العقوبة، بناء على وساطة قوية، أو وساطة بعض النبلاء الآخرين، وهو على كل حال لم يستحق الرحمة من أناس رحماء، لأنه عندما كان مزدهراً، لم يعرف كيف يرحم الذين كانوا خاضعين له، في مثل هذه المصيبة.

انتخاب روبرت باسلو إلى كرسي شيستر وهو الانتخاب الذي ألغي بعد ذلك على الفور

وبإضافة هذا المذكور روبرت باسلو، بضعة آلاف من الماركات إلى الخزينة الملكية، حصل على حظوة الملك إلى درجة مدهشة، ولدى رؤية كهنة شيستر هذا، اعتقدوا أنه شخص مناسب، ومفيد كثيراً، ليتولى حكم كنيستهم، بحكم كونه عاقلاً، ورجلاً بارعاً، وقد أملوا بذلك إرضاء الرب وإرضاء الملك والحصول بالوقت نفسه على حظوة الملك وحمايته، وتقدم كنيستهم بذلك، ولذلك انتخبوا روبرت باسلو المذكور أسقفاً لهم، لكن غضب من ذلك غضباً شديداً الرئيس المنتخب لأساقفة كانتربري مع عدد كبير من الأساقفة، وجاء ذلك عندما عرفوا به، واكتشفوا ذلك، وألقى جانباً كل خوف من الملك ومن تعاطفه، وتولى فحص روبرت المذكور، ببعض الأسئلة الصعبة جداً، وجاء ذلك من خلال أسقف لنكولن، ورفض أخيراً انتخاب الأسقف، وألغى انتخابه على الفور، ومن دون أن يطلب موافقة الملك، وعيّن المعلم رتشارد دي ويتز Witz، واشتعل غضب الملك لهذا، وكان ذلك ضد الأسقف المنتخب، وضد الأساقفة الآخرين، وأعطيت موارد المعلم رتشارد المذكور، حتى بعد انتخابه، إلى أشخاص موثمين ويستحقون، لأن المعلم مارتن، كاهن البابا، والذي كان حاضراً وجاهزاً، وكان قد عيّن من قبل البابا لهذه الغاية، غاية السعي بلهفة وراء الموارد الشاغرة، وعندما سمع الملك بهذه الإجراءات، غضب غضباً شديداً، ومنع الأسقف المنتخب حديثاً، والذي جرى اختياره من دون أخذ رأيه، مما سبب إساءة كبيرة له شخصياً وللمملكة، منعه ولم يسمح له بالقبول في أية بارونية تابعة لكنيستته، أو إلى أية ملكية علمانية، وهذا قد جرى ذكره من قبل.

منح الملك لبعض الهدايا الثمينة في كنيسة القديس ألبان

في يوم عيد القديس توما الرسول، ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان، ليقوم هناك، وعندما ذهب صاعداً—حسبما جرت العادة—إلى المذبح الكبير، ليقدّم هناك صلواته، قدم رداءً ثميناً، وثلاثة أطواق ذهبية، ليجري تعليقها في المعبد، بمثابة ذكرى له، وتكريفاً للشهيد، مع أنه كان قد قدم سبعة من قبل.

وأقام الملك لمدة ثلاثة أيام في ذلك المكان، وعندما كان هناك، وصله تقرير بأن كونتيسة فلاندرز، قد دفعت دين الطبيعة، وبناء على هذه الأخبار، أمر—حسبما جرت العادة مع الملوك المسيحيين—بتقديم صدقات كبيرة إلى الفقراء، لصالح روحها، وبإقامة جناز مهيب، يعمل بشكل تقني في سدة جوقة القديس ألبان.

عرض مختصر لأحداث هذا العام

وهكذا انتهى هذا العام، الذي كان خلاله كله وافراً بانتاج الفواكه والقمح، وكان ذلك بالفعل كثيراً جداً، إلى حد أن سعر مقياس القمح نزل إلى شلّين، وكانت حوادثه ضارية جداً بالنسبة إلى الأرض المقدسة، وقد تميز بالاضطراب في انكلترا، وكان مشحوناً بالرعب بالنسبة للمملكة الفرنسية، وقد أثار الشكوك في الكنيسة، والشغب بين الإيطاليين.

احتفال الملك بعيد الميلاد في لندن

ومنحه شرف الفروسية لجون دي غيتدن

سنة ١٢٤٥، التي هي السنة التاسعة والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، فيها أمضى عيد الميلاد في لندن، واحتفل بمهابة بذلك العيد، برفقة كثير من نبلائه، وفي ذلك المكان، منح في يوم الميلاد شرف الفروسية لجون دي غيتدن Gatesden، الذي كان كاهناً قد تمتع بكثير من المنافع

الغنية، لكنه قام الآن، كما ينبغي، بالتخلي عنها كلها، وكان جون هذا رجلاً حكيماً، ومواظباً، قد قام بوساطة صناعته بإغناء نفسه بكثير من الممتلكات العلمانية، ولدى زواجه من ابنة سيدة نبيلة، اسمها روشيا Roisia دي بروس، تخلى عن المعالجة الخطيرة للأرواح، وتقدم ليصل إلى مكانة أعلى النبالة، ونتيجة لذلك، فإن كثيراً من الذين كانوا نبلاء من حيث المولد، مع أنهم كانوا وضعاء من حيث العقل، أصبحوا حاسدين له، وأقاموا المصائد لإيذائه، لكن جون المذكور، الذي كان حكيماً نجاً من محاولاتهم، لكن ذلك لم يكن من دون مصاعب.

كيف قام رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري مع أسقفي ووركستر وهيرفورد بالعبور إلى القارة

بينما كانت هذه الحوادث في سنياق الوقوع، قام بونيفيس رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري مع أسقفي هيرفورد ووركستر، الذين كانوا من بين جميع أساقفة انكلترا الأصدقاء المقربين جداً من البابا، وكانوا المشكوكين بهم الأكثر من قبل الانكليز، قاموا فجأة بالإبحار للذهاب إلى البابا، في سبيل القيام ببعض الأعمال السرية (التي لم تكن معروفة لدى الجماعة بشكل عام)، وكانت جميع القضايا قد جرى توزيعها في دير كانتربري، أو كل ماتعلق بالتجمع الديرى، وحسبها هو معتاد في بلاطه، كانت الوظائف مع الموظفين تحت تصرفه، أكثر من أي واحد من سلفه قد سمح له أن يفعل، وكان بونيفيس، بعدما قام أيضاً بفحص دقيق، قد أعلن بأن كنيسة كانتربري، كانت مكبلية بديون لا يمكن جبرها، وذلك لصالح رئاسة الأسقفية، وقد بلغت الديون إلى مبلغ خمسة عشر ألف مارك، وبناء عليه عندما كان على وشك المغادرة والاقلاع من دوفر، أمر بجميع الأشجار الحراجية العائدة إلى رئاسة الأساقفة، بأن تقطع وتباع، وأن تجري جباية ثقيلة وفرض ضرائب أيضاً بين رجال الدين، وكذلك بين الناس، وقال بعض الناس، بأن هذه الجبايات قد عملت بقصد القيام بحرب ضد واحد

من فرسان بروفانس، الذي كان عندما سمع بمحتويات وصية ريموند، كونت بروفانس، أبدع خطة للتآمر، يخطط بموجبها الابنة الصغرى للكونت، لأن الكونت عندما وجد نفسه على حافة الموت، وعلى وشك توزيع ممتلكاته، وعمل وصيته، دعا إليه ابنته الصغرى، وخاطبها بهذه الكلمات:

«ابنتي العزيزة، المحبوبة لدي أكثر من جميع أخواتك، أنا مدرك أنه بقدر من الرب، تمتعت بناتي كلهن، باستثنائك وحدك، بزواج مغبوط إلى أعلى الدرجات، وكان ذلك موضع اعجاب جميع المسيحيين، وإليك بناء عليه سوف أعطيك وأهبك عند زواجك — بإرادتي ووصيتي — جميع أراضي، مع أموال، وقلاع، وجميع ممتلكاتي الأخرى، لأن أخواتك لسن بحاجة إلى تقسيم الميراث، في سبيل إعطاء حصة لكل واحدة منهن»، ونتيجة لذلك، وكما ذكرنا من قبل، فإن أحد الفرسان الذي كان صاحب ملكية صغيرة، لكن كان جريئاً وشجاعاً في الحرب، انجذب بجمال السيدة، وكذلك بالميراث الغني العائد إليها، فقام باختطافها بشكل سري، ووضعها في مكان آمن، في قلعة قريبة، كانت عائدة إليه، عاداً ما عمله ذنباً مغفوراً تماماً، تبعاً لقول الشاعر:

المرأة جائرة مفرحة

وغضب جميع أقرباء الكونت وأصدقائه من هذا العمل المتهور لهذا الفارس، وشنوا الحرب ضده، وكان الفارس — على كل حال — واثقاً من كونه كان متمكناً للجائزة، ومعتمداً على حقه، زاد يوماً من تعداد أصدقائه، ودافع عن نفسه بشجاعة، وعن هذا، صدر لذلك، في تلك المناطق صراع كبير، وكانت هناك اضطرابات مؤذية بين الفئتين، بسبب هذه السيدة، ثم إن الملك الفرنسي، بحكم وجود الابنة الكبرى، التي كان متزوجاً منها، ادعى بجرأة وطالب بالحق العائد إليه بشكل خاص، وبهذا ازداد الصراع عنفاً يوماً، لأن البروفانسيين كانوا يشعرون بكراهية عظيمة

ضد الفرنسيين، وأعار بونيفيس، الرئيس المنتخب لأساقفة كانتربري مع أخيه فيليب بال Bal اهتمامها لهذه الحرب، لأنها كانا خالا الفتاة، مما سبب نفقات كبيرة وأذى عظيماً للكنيسة الانكليزية، ففي سبيل تقوية الحرب، اخترعا كثيراً من الأعذار من أجل جمع المال، وكدسا معاً الكنز فوق الكنز، ووزعا هذه الأموال بين الفرسان المدفوع إليهم مع رجال آخرين من أقربائهما، وأكدوا — في سبيل إعطاء لون ما لشرورهما — أنها بحاجة كبيرة لهذا المال في سبيل تحرير كنيسة كانتربري، التي قالوا: (كثيراً في سبيل إيذاء أسلافهما، الذين كانوا على رأس تلك الكنيسة، وحكموها دوماً من دون ملامة) بأن رؤساء الأساقفة المتقدمين، قد أثقلا الكنيسة بأعباء من الديون قد يكون من غير الممكن الوفاء بها وسدادها، وحصل بونيفيس من البابا على امتياز غير اعتيادي، لم نسمع قط، ولا نذكر بأنه قد منح مثله من قبل إلى أي إنسان، وحصل أخوه فيليب أيضاً — الذي كرس نفسه إلى السلاح في هذه القضية — على امتياز من البلاط الروماني، مقابل نفقات عالية، حيث أعطي إذنًا بالاحتفاظ بالموارد، التي قد حصل عليها في انكلترا، وكذلك انتاج أسقفية بلنسية، وكذلك بعض الموارد الأخرى الكبيرة، التي كانت مستفيدة آنذاك، وحول هذا سوف تحكي الرواية التالية التفاصيل وتوضحها.

ولادة ملكة إنكلترا لصبي

في يوم عيد القديس مرسيلوس Marcellus، ولدت الملكة إليانور صبيًا، منح — بناء على أمر الملك — اسم إدموند.

موت كونتيسة أكسفورد

في يوم عيد طهارة القديسة مريم، غادرت كونتيسة أكسفورد، التي عرفت رسمياً باسم ايزابيلا دي بيلبك Belbek، هذه الحياة، وقد دفنت في كنيسة الرهبان الدومينيكان، في أكسفورد، التي كانت هي المؤسسة لها.

موت بلدوين إيرل أوف ديفون

في اليوم التالي لعيد القديس فالنتاين، مات بلدوين إيرل أوف ديفون Devon، وكان في مطلع شبابه، وكان يعرف بشكل عام بـ «دي لي آيل» L'Isle وكان موته مناسبة للبكاء، حتى من قبل أعدائه، إن كان له أيًا منهم.

حرمان الإمبراطور كنسياً ثانية في فرنسا

ومع بداية الصوم الكبير، أمر البابا بأن يحرم الإمبراطور كنسياً في جميع أرجاء فرنسا، وذلك بسبب بعض الأذى الجديد الذي اقترف من قبله، ضد أقربائه — أي البابا — وضد بعض اللاهوتيين، ولدى إرسال هذا الأمر من قبل واحد من موظفيه إلى واحد من الكهنة كان يعيش في باريس، شعر هذا الكاهن بحزن عظيم، لأنه غدا من نصيبه القيام بحرمان الإمبراطور كنسياً، ونحن لانعرف لماذا كان لديه تقديرًا له، ولقد لعن البلاط الروماني، الذي كانت له تجربته معه، وبناء عليه قال في يوم العيد، بشكل علني إلى أعيان الباريسيين الذين كانوا حضوراً بأعداد كبيرة:

«أصغوا إليّ أنتم جميعاً، لقد تسلمت أوامر، بأن أقوم والشموع مشتعلة والأجراس تقرع، بإصدار قرار مهيب بالحرمان الكنسي ضد الإمبراطور فردريك، وأنا جاهل بسبب هذا، لكنني لست جاهلاً بالصراع الجاد، والكراهية التي لا يمكن إخمادها، والتي نشأت بينه وبين البابا، وأنا على دراية بأن أحدهما اقترف أذى ضد الآخر، لكن من الذي هو المذنب ضد الآخر، أنا لا أعرفه، وإنه بالنسبة لسلطاتي، على كل حال، التي تشمل الحرمان الكنسي، فلنني أعلن أنه محروم كنسياً الذي اقترف أذى بحق الآخر، وليكن أي واحد من الاثنين، وإنني أحلل الذي عانى من الأذى، الأمر الذي هو مضر بالنسبة لقضية المسيحية».

وقد تفوه بهذه الكلمات الخفيفة، على شكل مزاح، وفق طرائق

الفرنسيين، وقد صارت على الفور في أفواه الكثيرين، وقد انتشرت بالطول وبالعرض، حتى وصلوا مؤخراً إلى علم الامبراطور، الذي قام بعدما قدر معانيهم ومراميهم، فأبدى سروره من الكاهن المذكور، وأرسل إليه بعض الهدايا اللطيفة، لكن البابا اتهمه بالاستخفاف، وبالكلام الطائش، وعاقبه.

الاستيلاء على ثلاثمائة ويلزي

وأثناء الصوم الكبير نفسه، جرى مقتل ثلاثمائة ويلزي، وأكثر في مونتغومري Montgomery، وجاء مقتلهم على أيدي الانكليز تحت قيادة قسطلان قلعة ذلك المكان، الذي وضع براعة كميناً خلفهم، ثم إنه أظهر ما يشبه الذعر، فتراجع أمام الويلزيين، وعندها هاجمهم الانكليز الذين كانوا متخفين من الخلف، وجعلوهم جميعاً طعمة للسيف.

اعتقال مونثونت من قبل الويلزيين

ورغب في الأسبوع نفسه داود بأن يعوض خسائره، فناوش الانكليز وضايقهم بوساطة غارات ليلية مستمرة، وشغل نفسه من دون توقف بالقتل والنهب والاعتصاب، لكن عندما قدم بعض الفرسان الانكليز الشجعان من الحدود للتصدي للويلزيين مع الحدوديين الخاضعين لهم، وقام الويلزيون، حسب عادتهم بالفرار إلى الأماكن الوعرة، والتي لا يمكن الوصول إليها في الجبال لنصب الكمائن لأعدائهم العابرين، قذفوا من رؤوس الجبال بالحجارة والأسلحة، حيث جرحوا عدداً كبيراً من الانكليز، كان من بينهم نبيل انكليزي اسمه هيربرت فتز — متى، الذي قهر بوساطة كتلة من الصخر، حطمت رقبتة، وسحقته حتى الموت، وإلى هيربرت هذا نفسه، حدث له حادث مدهش، يستحق الرواية، وتدوينه كتابه، فبعدما كان قد تمّ الاتفاق، وتقرر من قبل الانكليز في اليوم المتقدم، بأنهم ينبغي الزحف في اليوم التالي على تعبئة ضد داود وعساكره الويلزية، انزعج هيربرت المذكور في منامه بوساطة حلم، أو بالحري بوساطة رؤيا،

حتى أنه أفاق وهو في حالة خوف عظيم وهو يرتجف، وبقي غير قادر على الاستراحة وعلى النوم طوال بقية الليلة، وأرسل في الصباح الباكر خلف كاهن، وعمل له اعتراثاً كاملاً، وحصن نفسه بأخذه أيضاً قرباناً صحيحاً، وعندما سئل عن السبب لفعله هذا، خاطب رفاقه وهو يتنهد، وكأنه يتحدث بوساطة روح منذرة سلفاً، وحدثهم عن غرائب حلمه المرعب، وقال بالوقت نفسه:

«مراراً كثيرة انشغلتُ أنا كثيراً في استخدام السلاح، وعرضتُ نفسي لمخاطر الحرب، لكن اليوم أنا أعتقد باخلاص أن براعتي المتوالية باستخدام السلاح، سوف تصل إلى خاتمة نهائية»، ولدى سماع رفاقه بالسلاح لهذه الكلمات، والذين كانوا يقدمون تأويلاً صالحاً لكل شيء، أعلنوا أنه يتوجب وضع ثقة قليلة بالأحلام، وأخذوه بعيداً معهم، في سبيل أنه، وهو الذي غالباً ما هزم أعداءه، ينبغي عدم اتهامه بالخوف، ولكن في اليوم نفسه، عندما كانوا يعبرون خلال مكان ضيق، يدعى بشكل عام باسم الممر، حدثت المأساة التي تقدم ذكرها، وسقط مقهوراً بكتلة من الصخر، وحزن الانكليز كثيراً لوقوع هذا الحادث، وتوقف جميع الجنود، ودفنوا جسده، بمراسيم مهيبية، وحدثت وفاته في اليوم التالي لعيد طهارة القديسة مريم.

الموت المأساوي لهيربرت فتز — متى

وذكر أشخاص آخرون بأن هيربرت فتز — متى، سقط من على حصانه، وعندما كان ما يزال حياً، جاء ويلزي، وتصارع الرجلان مع بعضهما بعضاً، حول من سيكون الأسر للآخر، من أجل الحصول على الفدية، وأراد أحدهما أن يضع نهاية للصراع، فطعن هيربرت بطعنة مرت من الخلف خلال جسده قائلاً: «الآن يمكن أن يختار أن يأخذه»، وجرى العثور عليه في اليوم التالي، ويده موضوعة على جرحه، وكان عارياً، وأمكن فقط التعرف عليه بين الموتى من خلال خاتم زمرد، وتشجع

الويلزيون كثيراً بهذه الحادثة، وانشغلوا بجراحة أعظم مما هو معتاد في تدمير أعدائهم، وكثيراً ما حققوا النصر في غاراتهم، وحدث على كل حال، بوساطة حادثة غير متوقعة، أن جرى مقتل ثلاثمائة من الويلزيين في مونتغمري، نتيجة لكمين وضع في ساقاتهم، لكن داود، وبعض مرافقيه نجوا، وألقى الحصار على قلعة مونتغمري، التي استولى عليها في وقت قصير، وكان ذلك بعدما قتل جميع الذين وجدهم هناك، أو جلبهم إلى جانبه، وقد تمتع بنصره حسبما رغب، لكن صاحب القلعة، وهو روجر دي مونتغمري، لم يعثروا عليه هناك، لأنه كان قد حمل نفسه إلى مكان آمن، وغدت الحرب منذ ذلك الحين حرباً هي الأكثر دموية، ولم تظهر أية فئة أي احترام للجنس، أو العمر، أو المرتبة، بل تورطوا مثل بعضهم في دمار عام.

عقد مؤتمر خياني من قبل بعض الكرادلة

وفي تلك الآونة، وبمبادرة من البابا، إنما بشكل سري، قام بعض الكرادلة، الذين أحبوا المال فقط، مع ما يشبه صداقة كبيرة، فأرسلوا رسالة إلى الملك، كان محتواها ومقصدها هو مايلي:

«نحن نرجوك، بطريقة صديقة، بأن نوصي لك بخطة، سوف تكون مفيدة ومشرفة لك شخصياً، ومجيدة وذات منافع كبيرة للمملكة، وذلك بأن تقوم بوساطة رسل خاصين، أنت تتولى ارسالهم بطلب إلى البابا بأن يتطلف، ويشرف بحضوره مملكة انكلترا، التي كما هو معروف له فيها حق خاص، ونحن من جانبنا سوف نبذل كل ما لدينا من قدرة لدعم التماساتك. بجعله متعاطفاً مع طلبك، لأننا راغبين في زيادة فوائد مملكتك، لأنه سوف يكون تشريف عظيم جداً وتمييز لك، ولمجدك الأزلي، أن يظهر البابا، الذي هو أبو الآباء، شخصياً، في أيامك، في الأراضي الانكليزية وهي واقعة، ليس من المتذكر أنها وقعت في أي وقت مضى، ونحن نتذكر بأننا سمعناه يقول بأنه سوف يكون مسروراً، بأن يرى بهجة ويستمنستر، وثرء لندن»، وعندما علم الملك بهذا، بات مسروراً جداً، وكان على

استعداد للاستجابة لهذه الخطة الخيانية، لو لم يكن تلقى التشجيع لمعارضتها ولعدم الموافقة عليها، بوساطة نصيحة مستشارين عقلاء، الذين قالوا بأن دلهاة انكلترا كانت كافية، وأنها تلوثت كثيراً بربا القرصان، وبالسراقات وبالسيمونية الممارسة من قبل الرومان والاطاليين، مع أنه شخصياً لم يبدد ممتلكات الكنيسة، ولم يسع لالتهام الأشياء الجيدة العائدة للمملكة، وهو في الوقت نفسه لم يسمح له بالدخول إلى مملكتي فرنسا وأرغون، وهو ما بعث يطلبه بوساطة رسل خاصين، لأن الاسم الشرير للبلاط البابوي، والرائحة النتنة له التي وصلت بدخانها الملوث القذر حتى السحب، تستحق الوصول إلى مثل هذه المحصلة.

البابا يدعو إلى عقد مجمع عام في ليون

وفي حوالي منتصف الصوم الكبير من العام نفسه، وصل رسل البابا إلى انكلترا، بقصد الدعوة إلى عقد مجمع عام، وكانوا يحملون الرسالة التالية من البابا:

«من انوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أولاده المحبوبين كثيراً رعاة الديرة ورؤساء الرهبان في جميع أرجاء انكلترا، صحة ومباركات رسولية:

إن فضيلة الرب وحكمته التي هي خاضعة لجلالتهـ التي لا يمكن وصفهاـ جميع الأشياء، وهي من بداية الدنيا قد ميزت كنيسته بالعظيم من أعماله الصالحة، وهذا الامتياز المنفرد من السلطة، قد جعلها هكذا متميزة، حيث من خلالها يمكن تحقيق العدالة، ومن الممكن إطفاء هيب الحرب، وتحقيق الهدوء في جميع أرجاء العالم، وفي الوقت الذي جرى فيه تعيينناـ مع أننا لانستحقـ بوساطة الحكمة الربانية لتتولى الرئاسة على حكومة الكنيسة بشكل عام، ولذلك سوف ندفع كل الاحترام المستحق إلى عظمة ومجد ذلك المنصب، ومع ذلك صرنا قلقين في قلوبنا من أن شدة العاصفة التي اضطربت منها الكنيسة، واهتزت الديانة المسيحية إلى

أسسها، ولكي يمكن برضا السماء وعطفها تجنب ذلك بمساعدة ترتيباتنا، وبناء عليه قررنا دعوة ملوك الأرض، وأساقفة الكنيسة، والأعيان الآخرين للعالم بشكل عام، في سبيل أن تتلقى الكنيسة نفسها المشورة الصحيحة، والعون المفيد لجميع المسيحيين الحقيقيين، ولكي تتلقى جميع التشريف الذي تستحقه، ومن أجل توفير المساعدة المستعجلة للأرض المقدسة، في وضعها المأساوي المفرع، ولمعالجة بلوى الامبراطورية الرومانية، ولكي نحصل على وسيلة للتخلص من التار وضدهم، ومن خصوم الإيوان الآخرين والمضطهدين للشعب المسيحي، وكذلك كي يجري تقدير قضايا الخلاف بين الكنيسة وبين الامبراطور، ونحن أيضاً نرجوكم، ونحثكم في تقواكم، وبوساطة هذه الرسائل الرسولية نأمركم، بأن تضعوا جانباً كل الحجج والمعاذير، حتى تظهروا شخصياً في حضرتنا في العيد المقبل للقديس يوحنا المعمدان، في سبيل أن تشعر الكنيسة ببهجة روحية، بتشریفها بزيارتكم، وبمشوركم النافعة في أعمالنا، وعلينا أن نخبركم أيضاً، أننا في موعظتنا قد دعونا الامبراطور المتقدم الذكر، للظهور شخصياً، أو بوساطة رسالة، في المجمع الذي سوف يجري عقده، وليكون هناك حتى يبيننا ويحيب الآخرين، الذين من الممكن أن يتقدموا بأية شكوى ضده، وليقدم ترضية مناسبة حول المسائل المعروضة، وبالنسبة للعدد المتواضع من المرافقين، ومن أجل التسهيل عليك عندما تأتي إلى هاهنا، مارس ما ينبغي من حكمة، في سبيل الحيلولة دون تحمل كنائسكم الكثير من الأعباء مع النفقات. صدر في ليون، في هذا اليوم الثالث عشر من كانون الثاني، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف أرسل ملك إنكلترا وكيلاً إلى البلاط الروماني

وعاني الملك في هذه الآونة مما بدا له ولأصدقائه، أذى عظيماً، بما أن عدداً كبيراً من الأساقفة جرى تعيينهم من دون موافقته، وقام بناء عليه، في سبيل الشكاية من هذا، ولكي ينجح دعواه ومطلبه الذي حصل عليه،

والذي تقرر في الأيام الخالية، أرسل المعلم لورانس من كنيسة القديس مارتن، وكان كاهنه، ورجلاً قديراً، وبارعاً في القانون، أرسله ليكون وكيلاً له في بلاط روما، من أجل تلك الغاية، وفي الوقت نفسه لمعالجة بعض القضايا الأخرى الصعبة، المتعلقة بالملك وبالمملكة، وكان عمله الرئيسي مرتبطاً على كل حال بأعمال روبرت باسلو، الأسقف المنتخب لشيستر، الذي كان انتخابه من دون استشارة الملك حول المسألة، والذي ألغى فجأة في بيت كهنة شيستر، في وسط المملكة بالذات، وخلع روبرت المذكور من قبل بونيفيس، رئيس الأساقفة المنتخب لكاتربري، الذي كان الملك قد استدعاه مؤخراً إلى مملكته، ورقاه إلى تلك المرتبة العالية، ليس من دون شكايات وعدم رضا توفر بين عدد كبير من الناس.

وكان الملك جديراً بأن لا ينال، ولا أدنى حظوة حول هذا الجانب من القضية، ولكن لأنه غالباً ما استخدم محاججات بارعة، ومعاذير متنوعة متقلبة، قد تمكن من رفض عدد من الرجال الموائمين، خاصة من الرهبان، الذين كان مرتبطاً نحوهم بترقيتهم وبحمايتهم، مثلما فعل الملوك المقدسين للعصور الخالية، وتم الحصول على علاج للخلاص من مثل هذا الشر العظيم، تسبب من دون أن يعرف هو الذي صممه بشور عظيمة، أو أنه حتى لو عارضه، كان يتوجب تقديم ما تحتاجه الكنائس المترملة، التي كانت بحاجة لأن يعين فيها بالسرعة الممكنة أشخاصاً مناسبين وموائمين، وذلك في سبيل أن لا تستمر رعية الرب عرضة للأذى، وهو أمر يبدو أنه منسجم مع المنطق، وحزن النبلاء تجاه هذه الاضطرابات، وتجاه دمار المملكة، أكثر من انزعاجهم تجاه اضطرابات الملك.

أعذار عملت من قبل الملك من أجل بعض الأساقفة الذين كانوا غير ذاهبين إلى المجمع

وعندما وصلت الدعوة العامة للحضور والمشاركة في المجمع إلى مسامع الأساقفة، عمل عدد منهم الاستعدادات للسفر، وآخرون كانوا

مرتبطين بأعمال الملك، أو كانوا مرضى أو مسنين، تقدموا باعتذاراتهم عن المشاركة والحضور، إما من خلال الملك، أو بإرسال نواب أساقفة أكفاء، وبالنسبة للملك، الذي التمس بكل تواضع الحصول على إذن لغياب بعضهم من البابا، ردّ عليه قداسته بالاجاب كما يلي:

رسالة البابا

من انوسنت، الأسقف، إلخ، إلخ، إلى ابنه المحبوب في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، صحة، ومباركات رسولية:

نحن نشعر تجاه شخصكم، بحكم كونكم ولداً مخلصاً للكرسي الرسولي، بتقدير أبوي خاص، وبالنسبة إلى التماساتكم، نحن نمناها أذنًا صاغية، بقدر ما يتماشى ذلك مع احترامنا للرب، ولذلك نحن نمنحكم موافقة راضية، وبما أنكم رجوتونا بتواضع بوساطة رسولكم المعين، المعلم لورانس، المحبوب لدينا كثيرًا، وكذلك بوساطة رسائلكم، بأن نيتكم في الصيف المقبل الزحف مع جيش لمعاوية وقاحة بعض المتمردين من رعيتكم، فإننا سوف نعدّ ذلك اعتذاراً عن حضور المجمع، الذي سوف نعقدّه — بإذن الرب — في العيد المقبل لميلاد القديس يوحنا المعمدان، وفيما يتعلق بأخينا المبجل أسقف أوف كارآيل، وابننا المحبوب راعي دير ويستمنستر، اللذين بحكمة عينتهما، ليتوليا المسؤولية عن مملكتك أثناء غيابك في تلك الحملة، وكذلك بالنسبة لأخينا المبجل أسقف لانداف، الذي حرم من جميع ثروة أسقفيته بوساطة أعداء جلالتك، وكذلك بالنسبة لولدنا المحبوبين: راعي دير القديس ادموند، الذي يعاني من النقرس، وراعي دير والتهام الذي عجز وأقعد بسبب السن، إننا في رغبتنا المخلصة في زيادة تقدم مملكتكم، وفي سبيل ترسيخ السلام فيها، على استعداد لإظهار جميع الحظوة والنعمة لكم ولصالحكم، لرفاقكم، وذلك بقدر ما نستطيع فعل ذلك تماشيًا مع واجبنا إلى الرب، وبناء عليه إننا بوساطة هذه العروض، نمنح طلبك، ونلتمس بحرارة، في الوقت نفسه، من بالالتكم

عدم الغضب تجاه رؤيتنا أنه من غير المناسب، الاستجابة لكم بقبول العذر لصالح أختينا المبجل، رئيس أساقفة يورك، وذلك حسبما أشير إليه في رسائلكم المتقدم ذكرها، وكذلك حسبما حثنا على ذلك المعلم المتقدم ذكره باسمكم، لأنه، بحكم كونه عضو شريف في كنيسة الرب، نحن نعدّ حضوره ضرورياً بالنسبة للمجمع المتقدم ذكره. صدر في ليون، في هذا اليوم العشرين من أيار، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف بقي بعض الأساقفة الإنكليز معذورين وكيف جرى اتهام
راعي دير بيتربورا الذي أرغم على الذهاب
إلى البلاط الروماني وأسيتت معاملته

وفي الطريقة نفسها جرى أيضاً منع بعض رجال الكنيسة الإنكليز، والأساقفة وكذلك رعاة الدير (وكان من بين هؤلاء أسقف إيلاي وراعي دير القديس ألبان) من حضور المجمع بوساطة أسباب كثيرة جرى التعبير عنها، وأرسلوا اعتذارات معقولة، إما أنهم كانوا غير أصحاء، أو مسنين، أو ضعفاء، وكان ذلك من خلال وكلائهم، الذين أرسلوا بوساطتهم تحياتهم إلى البابا والكرادلة، وكذلك بعض الهدايا الجميلة، وبحصولهم منهم على قبول الشكاوى بهذه الوسائط، سمح لهم بالبقاء في الوطن، وكان راعي دير بيتربورا — على كل حال — رجلاً غير مؤذ، وكان قد تلقى من البابا أمراً خاصاً، أكثر من سواء حول هذه القضية، فذهب إلى البلاط الروماني، ولدى وصوله إلى هناك تلقى اتهاماً ثقيلاً، وقد وجّه هذا الاتهام ضده من قبل المعلم مارتن، كاهن البابا، الذي كان مقيماً في انكلترا، بأنه قد رفض أن يتخلى عنه (وهذا بالفعل ماتوجب عليه أن يفعل) — أي إلى المعلم مارتن — من أجل استخدامات واحد من أقرباء البابا، عن إحدى الكنائس، التي كان راعي الدير قد أعطها إلى شخص صاحب كفاءة وكان موثماً، وعلى هذا عندما ظهر راعي الدير في البلاط الروماني، قام البابا، أو أصدقاء البابا، من خلاله، بإهانتته وتوبيخه، وأمروه في سبيل الخط من شأنه

وعدم احترامه، بالتخلي عن قصره، ونتيجة لذلك هو لم يعرف بعد ذلك الهناء، بل وقع، من خلال الحزن، بمرض لا يمكن الشفاء منه، وغادر في العام نفسه طريق الجسد، مما شكل خسارة عظيمة لكنيسة، التي ساسها بحكمة عظيمة وبعقلانية.

موت غيلبرت دي هنفرنفيل

وفي الوقت نفسه، أي في أسبوع آلام ربنا، مات غيلبرت دي هنفرنفيل Hunfrunville وكان باروناً مشهوراً، وحاكماً وزهرة للمقاطعات الشمالية من انكلترا، تاركاً ولداً طفلاً بمثابة وريث لممتلكاته، ومنحت حكومته على الفور إلى سيمون، إيرل أوف ليستر، مما أغضب كثيراً إيرل رتشارد، الذي كان متطعاً إلى الوظيفة نفسها.

موت كاردينال دي تيرن

ومات في العام نفسه أيضاً الكاردينال غيوفري دي تيرن Turne، وكان خصيصاً بالبابا وصديقاً نافعاً له، ولم يكن هناك من هو أكثر شهرة منه لعلمه وأخلاقه.

كيف أرسل الإيرل رتشارد والملك الفرنسي وبعض آخر نجدات إلى الأرض المقدسة

وفي الوقت نفسه وردت تقارير متوالية من الأرض المقدسة، كانت غير موثوقة كثيراً، إلى حد أنه خيف من أن البلاد كلها باتت عرضة للخطر، وبناء عليه أرسل الإيرل رتشارد مع بعض الأصدقاء المقربين إليه، ألف باوند إلى هناك، على سبيل المساعدة للبلاد، من خلال الاسبتارية، وكذلك في سبيل تخفيف الدموع من على وجنتي أمنا الكنيسة، التي كانت تبكي على أولادها الذين قتلوا مؤخراً، أرسل الملك الفرنسي، والداوية والاسبتارية، إلى هناك بكل سرعة، عشرين فارساً جديداً، وكتلة من الجنود مع مبلغ كبير من المال من أجل عون ومساعدة الذين كانوا يسكنون هناك، والذين كانوا

يتحملون هجمات يومية من الخوارجية ومن المسلمين الآخرين، وحصل الملك الفرنسي أيضاً، واستفاد من حضور نائب بابوي لسن، وواعظ مستقيم، في فرنسا، ليتولى التبشير بحملة صليبية هناك.

مثابة المعلم مارتن على جمع الموارد

وكان في الوقت نفسه المعلم مارتن، الذي وردت الإشارة إليه مراراً، والذي هو كاهن البابا، مثابراً جداً، وشاغلاً من دون توقف، نفسه، في جمع الموارد، بأية طريقة رغب بها، من أجل استخدام البابا، وفي منحهم إلى أقرباء البابا، وبشأن جرأته، وشره المؤذي، أنا أعتقد أنه أشرف وأمن — صدوراً عن الاحترام لكنيسة روما المقدسة — أن أكون صامتاً، فذلك أفضل من أن أؤذي مسامح جمهوري، ومن ازعاج عقول المسيحيين بالقيام بحكاية مثل هذه الأشياء، فلقد جرى الاستيلاء على خزانة سالسبري مع خزائن كثيرة أخرى، وحسبنا ذكرنا من قبل أعلاه، جرى الاستيلاء عليهم بالقوة، وأخذوا بشكل خاص من الرهبان، وجرى طلب إرسال الأموال والهدايا إليه على الفور، والذين رفضوا الاستجابة جرت معاقبتهم بشدة، وآثر الملك قضيته أيضاً، وحماها ضد جميع الفئات ربما صدوراً عن أمل التعويض، وهكذا صارت أحوال المملكة الأكثر تعاسة.

كيف جرى وضع الحرس على المرافق لمنع رسل البابا

من دخول المملكة

في هذه الحالة الحرجة جداً التي عاشتها مملكة انكلترا، صدرت أوامر من بعض النبلاء، الذين بكوا، وتأثروا كثيراً من المظالم الكثيرة والتي لم تتوقف، ومن نهب المملكة، بوجوب مراقبة جميع الموانئ البحرية للمملكة بيقظة وعن قرب، في سبيل أن رسائل البابا، التي كانت تجلب يومياً إلى انكلترا، لاستخراج المال، يتم القبض عليها، وحدث في هذا الوقت، وصول واحد من رسل البابا، وقد نزل في دوفر، وهو يحمل

بالرسائل من أجل هذه الغاية، وكلها مختومة بالخاتم البابوي، وقام حاكم ذلك الميناء ووالي البلدة، باعتقاله على الفور، حسبما كانوا قد أمروا، وبعدما أخذوا منه جميع الرسائل المختومة، والرسائل الأخرى، التي كانت تحتوي على كثير من الأمور البغيضة، على شكل حجج متنوعة من أجل استخراج المال، سجنوا الرسول نفسه، في قلعة دوفر، وعندما سمع المعلم مارتن بهذا، ذهب إلى عند الملك، ليتقدم بشكوى إليه حول هذا الإجراء، وأنكر الملك على الفور بأنه كان المحرض على ذلك، وقام في سبيل إيذاء المملكة، والخط من كرامته، فأمر باطلاق سراح الرسول، وبانتزاع الرسائل بالقوة من عمدة دوفر، وبتقديمها إلى المعلم مارتن، الذي فرح كثيراً من خلال تأثير تقديم بعضهم.

حريق حجرة البابا

في أسبوع الابتهالات (الأيام الثلاثة قبل عيد الصعود) حدث حادث مخزن، فقد تعرضت حجرة البابا في بيته في ليون للحريق، وكانت حجراته الخاصة، أي خزانة ملابسه، فقد احترق كل شيء كان فيها، وأعلن بعض من المسؤولين الأشرار للأشياء، بأنها أحرقت عن عمد، في سبيل أن يمتلك البابا الحجة من أجل طلب المال واستخراجه من الأساقفة، الذين كانوا قادمين إلى المجمع، وقد استعرت النار — على كل حال — بشدة أكبر مما هو متوقع، وأحرقت بعض الأشياء التي نظر إليها نظرة تقدير خاصة، وانتشرت أخبار بين كثير من الناس، بأن الصك الممقوت، فيما يتعلق بالضريبة الانكليزية، وهو الذي عمل في أيام الملك جون — صاحب الذكرى الحزينة — قد تحول إلى رماد، بوساطة النار نفسها.

كيف جرت معارضة البابا من قبل كهنة ليون في مسعاه لغزو بعض الأوقاف الشاغرة

وفي حوالي الوقت نفسه، رغب البابا، من دون التشاور مع الهيئة

الكهنوتية، في تعيين بعض الأجانب، أو الأقرباء، أو بعض أصدقائه في بعض الأوقاف الكنسية الشاغرة في ليون، وقد عارضه كهنة تلك الكنيسة مجابهة، وهددوا معلنين ومقسمين، أنه إذا مآظهر أي من مثل هؤلاء الأشخاص في ليون، فإنه لارئيس الأساقفة، ولا الكهنة سوف يكونوا قادرين على حمايتهم، من إلقائهم في نهر الرون، ولذلك فإن الذين كانوا على وشك قبول المنافع، لم يظهروا هناك مطلقاً.

وفي حوالي الوقت نفسه، تصرف واحد من بوابي البابا بشكل أشد خشونة ووقاحة مما ينبغي، فرفض السماح بالدخول لواحد من سكان ليون، الذي طلب السماح له بتواضع وأدب، ونتيجة لذلك صار الليوني غاضباً، وحانقاً، فبتر يد البواب بشكل كامل، وتقدم الرجل الجريح بشكوى جادة أمام البابا، وأراه في الوقت نفسه ذراعه المبتور، وبناء عليه طالب صاحب القداسة بالانتقام، وفقاً لقانون المدينة، الأمر الذي تدبره بطرس الوصي على سلام الكنيسة، بطريقة أو أخرى، أمكن بوساطتها الحفاظ على شرفه، وعلى الأقل ظاهرياً رمت كرامته.

وفي حوالي هذا الوقت، أيضاً، مات المعلم إيليا أوف درم، وكان كاهن سالسبري، وقام المعلم مارتن بوضع يديه الجشعتين على الفور على موارد الشاغرة، من أجل استخدام البابا.

كيف منح الملك مرتبة الفروسية إلى رتشارد دي كلير في لندن

في أحد الشعانين، أقام الملك احتفال هذا العيد بأبهة كبيرة في لندن، حيث منح مرتبة الفروسية إلى رتشارد دي كلير Clare، الذي كان الآن يحمل مرتبة إيرل، وحدث ذلك بحضور حوالي الأربعين نبيلاً شاباً، وبناء عليه احتفل الفارس الجديد، وأكمل تنصيبه بسرور عظيم وسط أتباعه الفرسان، وأقام الملك في الوقت نفسه بحثاً دقيقاً في جميع الكونتيات، لمعرفة كمية الموارد التي تسلمها الرومان، وكذلك لمعرفة

عدد الايطاليين الذين أغناهم البلاط الروماني بالخداع وبالقوة في انكلترا، وقد تبين أن هذه الموارد تصل سنوياً إلى مبلغ ستين ألف مارك، وهو مبلغ أكبر من المورد السنوي لانكلترا كلها، ولذلك ثارت دهشة الملك — وإن جاء ذلك متأخراً — وأثير — ليس من دون سبب جيد — غضبه.

وفي حوالي الوقت نفسه، منح راعي دير كلوني البابا، ثلاثين مهراً جيدين ورشيقين، حسبوا بشكل مناسب مع العدد نفسه من حيوانات التحميل الذين ندعوهم باسم «خيول التحميل»، وجرى تجهيز هؤلاء ليكونوا منهم.

كيف جرى إرسال رسل من قبل جماعة إنكلترا إلى المجمع

ثم إن الملك شرع — وإن كان ذلك قد جاء متأخراً — يتأمل وهو يشعر بالتقزز تجاه الجشع اللامحدود للبلاط الروماني، وحول الاستيلاء المؤذي، والسرققات اللاقانونية، التي عانت منها الكنيسة، لابل في الحقيقة المملكة كلها، وبناء عليه جرى إعداد رسالة مؤثرة من قبل جماعة المملكة بشكل عام، في محتوياتها جرى تقديم عرض — حسبما سوف تظهر الرواية التالية — حول الاستخراجات اللامحدودة للبابا وحول المكوس المتنوعة والمضاعفة التي فرضها نوابه، وبعض الكهنة الذين جرى تزويدهم بسلطات لم يسمع بمثلهما، ومع هذه الرسالة، جرى آنذاك إرسال بعض النبلاء والرجال الأكفاء، إلى المجمع، ليتقدموا بشكوى ثقيلة حول هذه القضايا، وخاصة حول فرض المكوس، التي لم توافق الجماعة الانكليزية عليها مطلقاً، وليتمسوا انقذاً للمملكة انكلترا من مثل هذه الأعباء التي لا يمكن تحملها، ومن أجل هذه الغاية جرى الاختيار باسم الجماعة في مملكة انكلترا كلها، وإرسال التالين إلى مجمع ليون: الايرل روجر بيغود، وجون فترز — غيوفري، ووليم دي كينتلوب Cantelupe، وفيليب باسييت، ورالف فترز — نيقولا، والمعلم وليم دي باوريك Poweric، وكان كاهناً.

مغادرة المعلم مارتن لانكلترا خائفاً

وفي هذه الآونة كان الملك قد منع عقد بعض المبارزات من قبل بعض الأشخاص كانوا قد اجتمعوا في ليوتون Luton، وفي دنستيبيل Dunstable، لأنه نية هؤلاء كانت شريرة، بسبب — كما قال — خطرهم، وقد جرى ارسال فولك فتز — وارن، باسم جماعة المملكة بشكل عام، في اليوم التالي لعيد الرسولين بطرس وبولص، إلى المعلم مارتن، كاهن البابا، الذي تردد ذكره مراراً، ولدى مثوله في حضرته، نظر فولك المذكور إلى الكاهن بحاجيين مقطبين، وخاطبه كما يلي: «غادر، واترك انكلترا على الفور»، فسأله المعلم مارتن: «من الذي أمرك لتفعل هذا؟ هل تفعل هذا بناء على سلطتك الخاصة؟» وعلى هذا رد فولك: «لقد أمرت أن تفعل ذلك، بوساطتي، باسم جماعة الفرسان المسلحة، التي اجتمعت مؤخراً في ليوتون و دنستيبيل، وإذا ما أصغيت إلى مشورة حكيمة، عليك عدم البقاء هنا حتى اليوم الثالث من هذا الموعد، خشية أن يجري تمزيقك وجميع رفاقك الذين معك إلى قطع»، ولدى مغادرة فولك المذكور مغضباً، وبعدما كدس التهديد فوق التهديد، مع أيهان مرعبة، ذهب المعلم مارتن على الفور إلى الملك، وهو منقطع الأنفاس رعباً، وقال للملك: «مولاي لقد سمعت كذا وكذا من أشياء، هل تم فعل ذلك بناء على تفويضك، أو أن ذلك بناء على وقاحة رعيتك؟»، وعلى هذا أجاب الملك: «إنني أعلن أنني لستُ الفاعل لهذا الإجراء، لكن من الصعوبة بمكان، أن يتمكن باروناتي من ضبط أنفسهم ومنعها من الثورة ضدي، لأنني قمت حتى الآن بالتساهل تجاه الانتهاكات والأذى، الذي اقترف من قبلك في هذه المملكة، ومارسته ضدهم، والذي تجاوز جميع حدود العدالة، وبصعوبة تمكنتُ حتى الآن من منعهم وهم في حالة غضبهم، من مهاجمتك، وتمزيق أطرافك طرفاً عن طرف»، وعند ذلك قال المعلم مارتن، وهو يرتجف وبصوت منخفض: «إنني بناء على هذا، أسأل جلالتك، صدوراً عن

حبك للرب، واحترامك للبابا، أن تمنحني خروجاً حراً، وأن تأذن لي بالمغادرة سالماً تحت ضمانتك»، وعلى هذا أجابه الملك، وهو شديد الانفعال، ومستشار إلى حد الغضب قائلاً: «ليأخذك الشيطان، وليحملك إلى جهنم، وخلالها»، وعندما قام النبلاء الذين كانوا جالسين هناك، بتهدة غضب الملك، أمر روبرت نورس Norris، قهرمان القصر الملكي بأن يرافق المعلم مارتن بأمان إلى شاطئ البحر، وبناء عليه، انطلق المعلم مارتن برحلته، وأدام الالتصاق بجانب دليله روبرت، وكان كلما رأى أية أشخاص راكبين، أو مارين بهما، كان يستولي عليه خوف شديد، ويرتجف، حتى أنه كان يتمنى لو أن الأرض انفتحت لأخفى نفسه، تحت غطاءها، ولدى متابعتها سفرهما على طريقهما، وصلاً إلى حدود أحراش، كان رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، قد عرضها للبيع، وحيث كان بعض رجال الريف قد تجمعوا لاختيار الأشجار، التي رغبوا بشرائها، ولدى رؤيتهم، قال المعلم مارتن وهو مرعوب لروبرت دليله: «وأسفاه، وأسفاه، إن الذي قد خفت منه، هو على وشك الوقوع، إنظر إليهم، إنهم مقبلون على مهاجمتنا، يامولاي وصديقي روبرت، هل لديك أي ولد، أو حفيد، أو قريب، أو صديق، أنت ترغب بأن ينتفع بمورد لاهوتي؟ أنا على استعداد لمنحك أي طلب، يمكن أن تعمله، إنظر إليهم جالسين ينتظرون أخذ حياتي، احميني في ظل جناحيك»، فأجابه روبرت: «الرب يمنع أي واحد من أقربائي، أن يتم قبوله هكذا من خلال وسائطي، لنيل أية منفعة لاهوتية: أنا لا أعرف من هؤلاء، أنت تريث هنا وانتظري، وأنا سوف أذهب سريعاً إليهم، حتى إذا عرفت أنهم أشخاص يريدون اقتراف الشر، أنا سوف أضبط تهورهم، وأوقفهم، بجعلهم يرون التفويض الملكي»، وعندما —بناء عليه— وصل إلى عندهم، وعلم الحقيقة، عاد على الفور إلى المعلم مارتن، لكن حتى يضبط عليه ويؤثر به قال:

«لقد تمكنت بصعوبة من ضبط غضبهم، ومنعتهم من تمزيقك إلى قطع،

ودعنا الآن نسير خلصة وبحذر، خشية أن يحدث أي شيء مكروه لك، وعندما تقلع مسافراً، عليك — إذا ما كنت عاقلاً — ألا تعود قط، خشية أن تقع في أيدي الذين يطلبون حياتك»، ومن ذلك الوقت لم يوفر المعلم مارتن جنبي فرسه، بل عمل كل سرعة ممكنة حتى يصل إلى ساحل البحر، موجهاً النقد لدليله لتأخره، ولدى وصوله إلى دوفر، أفلح على الفور، وبمغادرته أبهج قلوب الكثيرين، غير أن تأثير قوة ذلك الوباء المعدي، لم يتوقف تماماً، ذلك أنه أعطى السلطة إلى واحد، اسمه المعلم فيليب، ليبقى كي يمارس جميع السلطات التي منحت إليه شخصياً في أعمال استخراج الموارد، وبذلك ترك آثاره الملوثة خلفه، وهكذا قلت كثيراً، حتى يعرف كل واحد كم هؤلاء الساعين وراء المال هم جبناء، عندما تتعرض ضمايرهم للأذى.

ومالبثت هذه الأشياء أن وصلت إلى مسامع عدد من الإيطاليين، الذين كانوا يسمنون على ثروات الموارد في انكلترا، وبناء على ذلك اختفوا على الفور، وبحشوا عن مخابىء بعيداً عن الأماكن المطروقة، وقام كثير من القراصنة أيضاً، الذين كانوا حتى الآن ينشرون سمومهم القاتلة، بوساطة الربا الذي كانوا يمارسونه بين المقاطعات الغربية، والذين كانوا جاهلين بهذه الإجراءات، قاموا الآن بالمغادرة بشكل سري.

كيف مات غيوفري مارش في المنفى والفقر كرجل منفي

وحدث في هذه الآونة، أن غيوفري مارش، الذي كان من قبل نبيلًا، هو ليس الأدنى بين أعيان إيرلندا، والذي نال وصمة لا يمكن زوالها بالقتل الخياني للايرل رتشارد مارشال، والذي كان الآن منفيًا، ورجلاً تعيساً، ومحروماً، حيث قد جرى نفيه من سكوتلندا، وطرده من انكلترا، وقد حرم من ميراثه في إيرلندا، بعد الموت الشائن لابنه، وبعد فقدانه لجميع أصدقائه، حدث أنه هو نفسه أخذ من بيننا، وبذلك أنهى أخيراً كثيراً من الميقات، بموته هو.

شكوى المعلم مارتن إلى البابا

وقدم في الوقت نفسه المعلم مارتن إلى البابا، وقدم إليه رواية كاملة عن الأحداث التي جرى وصفها أعلاه، ولدى سماع البابا ذلك صرّ بأسنانه، وانفجر بغضب شديد، وأعاد إلى الذاكرة بأن ملكي فرنسا وأراغون، قد رفضا منحه مدخلاً إلى أراضيها، وأن ملك إنكلترا، سوف لن يسمح له بالذهاب إلى إنكلترا، وما هو أسوأ إنه لعن رسوله، وطرده بشكل مهين من إنكلترا، ثم قال بصوت متهدج فيه علامات الغضب، وكان مقطباً، وشاخاً بأنفه:

«إنه من الموائم بالنسبة لنا أن نعقد شروط صلح مع أميرك، في سبيل سحق هؤلاء الأمراء الصغار الذين يتحركون ضدنا، لأنه عندما يتم سحق التنين أو تهدئته، من السهل وضع الأفاعي الصغيرة تحت الأقدام»، وما لبث هذا القول أن انتشر في الخارج، وسبب غضباً في قلوب كثيرين.

استعدادات ملك إنكلترا لحملة إلى ويلز

قبل بداية شهر تموز، استدعى الملك في رسائله الملكية، وحشد جميع الايرلات، والبارونات، والفرسان، والنبلاء الآخرين لانكلترا، الذين يدينون له بالخدمة العسكرية، للحاق به إلى ويلز، إلى حيث كان ناوياً الانطلاق، حيث أنه لم يعد قادراً، ولم يعد راغباً أن يصبر أية مدة أطول في تحمل الهجمات المفاجئة والغارات التي كان يقوم بها الويلزيون، وعمل في الوقت نفسه استعداداته الشخصية للالتحاق بالحملة، ولغزو أراضيهم، تحيط به كتلة كبيرة من الفرسان، وبناء عليه قدم إلى كنيسة القديس بولص في لندن، ليقوم بوداع أهل لندن، الذين كان من الممكن أن يجتمعوا كلهم هناك.

كيف تخلى وليم الأسقف المنتخب لكوفنتري عن إدعائه

في هذه الأيام، عندما كانت ثورة الوقت تجر معها ثورة الأحداث، قام

وليم دي مونتبلر Montpellier، وكان راهباً ورئيساً لجوقة المنشدين في كوفن تري، وكان رجلاً بلا خطيئة أو مطمح، الذي انتخب إلى كرسي كوفن تري، وكان المعلم وليم أوف دروهيدالي Drouhedale الذي كان محاميه الغيور في انكلترا، الآن يموت، وكان الملك على غير استعداد لقبول تعيينه، والمعلم لورانس الذي كنا قد تحدثنا عنه من قبل، معارضاً له باستمرار، ومدادوماً على اتهامه، وكان كهنة ليشفيلد Lichfield قد اتخذوا أيضاً موقفاً مضاداً له، وقد شعر هو شخصياً بأن دير كوفن تري كان يعاني بسبب انتخابه، وكان يشعر بانزعاج شديد بسبب انتخابه، وقد ذهب وهو في هذه الضائقة، إلى البابا، ومزج كلماته بالآهات وقال:

«إنني أيها الأب المقدس، قد هوجمت من جميع الجهات، وأنا مزعوج تماماً، فقد قام ملك انكلترا مع مستشاريه بتلطيف براءتي إلى درجة عالية، والرب يعرف أنني لم أستحق مطلقاً هذا الاضطهاد، وإنني إذا كنت سأحتفظ بالمنصب الرفيع الذي انتخبْتُ إليه بشكل صحيح، فإنني لن أمتنع بالسلام قط في انكلترا، ولذلك إنني أتخلى عن كل شيء وأضعه بين يديك، وليمنع الرب أن أبقى أية مدة أطول مصدراً للخسارة، أو للاضطراب لكنيستي، ولا بد لعنايتك الأبوية أن ترعى شؤون تلك الكنيسة، في الوقت الذي هي فيه محرومة من أسقفها»، ووافق البابا على هذا، وقام الأسقف المنتخب بالمغادرة، وكأنه قد تحرر من حمل ثقيل، وحزن الذين رغبوا باخلاص في انقاذ روح ملك انكلترا، لرؤية هذا، وخافوا كثيراً، من أن رعباً عظيماً سوف يحيق بهم قريباً، بهم أنفسهم، وكذلك بالملكة، بسبب هذه القضية، وقضايا أخرى مماثلة، ولأنه اتخذ موقفاً متحزباً شديداً في هذه القضية.

انتخاب روبرت دي ويزهام عميد لنكولن لكرسي شيستر

وعندما أصبح هذا معروفاً جرى انتخاب المعلم روبرت دي ويزهام، عمدة لنكولن، والذي كان رجلاً متميزاً لأخلاقه ولعلمه،

وذلك بشكل رئيسي بناء على مبادرة أسقف أوف لنكولن، انتخابه وتعيينه أسقفاً لشيستر أو كوفنتري، عوضاً عن وليم مونتيلر المذكور، (الذي — كما تقدم الذكر — تخلى متطوعاً عن إدعائه)، وتمّ فعل هذا من دون طلب موافقة الملك، من أجل أن لا يقوم بوساطة حجج سخيفة أو تعليقات — حسبما كانت عاداته — بالطعن بهذا الانتخاب أو بإعاقته، في سبيل إيذاء روحه والإساءة إلى اسمه الصالح.

ثم إن أسقف لنكولن رغب في الحصول على انجاز لرغباته فيما يلي، وهو الفصل الكلي والإبعاد التام لكنيسة آيلسبري Aylesbury — الأمر الذي رغب أن يفعله منذ زمن طويل — عن عمادة لنكولن (لأنه اعتقد بأن العميد سوف يقوم، بسبب الحالة الغنية لتلك الكنيسة، بتملك الجراة، ويعمل ضده، أي ضد الأسقف)، وأعطاهما على الفور إلى المعلم روبرت مارش — ليس من دون ضرر عظيم وأذى لكنيسته — حسبما هو واضح لكثيرين، لأن من المعروف اتحادها بعمادة لنكولن منذ زمن أزلي.

التكريس في ليون لبونيفيس البروفانسي لرئاسة أساقفة كانتربري
ور. R دي ويتز إلى أسقفية شيكستر ور. R دي ويزهام إلى
أسقفية شيستر

وأثناء هذا العام جرى تكريس بونيفيس الذي كان من أصل بروفانسي، رئيساً لأساقفة كانتربري، وكان ذلك من قبل البابا، في ليون، وكان بونيفيس هذا رجلاً متميزاً بأسرته أكثر من تميزه بعمله، وكان انساناً يخشى منه في الأمور الدنيوية أكثر من الأمور الروحية، وقد جرت ترقيته إلى هذه المرتبة (لو أنها كانت ترقية سعيدة) بوساطة نفوذ ملك انكلترا، وبنفوذ ابنة أخيه الملكة، وفي الوقت نفسه جرت ترقية أخيه فيليب بال، الأسقف المنتخب لبلنسية، لأن يتملك رئاسة أساقفة ليون، وقد أذعن رئيس الرهبان إلى هذا لأسباب سوف نذكرها، ولقد حصل على هذه الحصة من

البابا حسب الشروط التالية: التي هي:

إنه سوف يحتفظ بسلطات رئاسة الأساقفة هذه مع كل فوائدها، وسوف يتسلم البابا موارد أسقفية بلنسية، وكذلك أيضاً بعض الأسقفيات الأخرى الغنية، التي كانت بحوزته في انكلترا، وفلاندرز (وكان هذا واضحاً، بأنه قد عمل في سبيل أسباب دنيوية أكثر منها أسباباً روحية) وأنه يتوجب أن يحولهم بحرية إلى استخداماته الخاصة، وأنه ينبغي أيضاً أن يستحوذ على الأسقفية في بروغس Bruges. وكان هذا الرجل، ذي المظهر الرشيق، كان بارعاً جداً في استخدام السلاح، وقد سمن على موارد وافرة، وقد كان موجوداً في المجمع الذي عقد في ليون، وقد عمل منه بالفعل، مقدماً للفرسان البابويين، وحارساً قوياً للسلام، وكان السبب الرئيسي لهذا، أنه كان متميزاً بأصله النبيل.

وكان هناك أسقفين آخرين جرى تكريسهما من قبل البابا في ليون، وهما: المعلم رتشارد دي ويتز لكرسي شيكستر، والمعلم روبرت دي ويزهام، عميد لنكولن إلى كرسي شيبستر، وكانا كلاهما رجلاً متعلماً، وأصحاب أخلاق جيدة، وما من شيء حذف من طريق الترافع بوساطة وكيل الملك، الذي أبدى دهشته واعتراضه ضد هذا الإجراء، لأن موافقة الملك لم تطلب في قضية ترقيةاتهم، ولقد أخبر — على كل حال في وجهه — أنه بما أن الملك أساء استخدام المنصب الرفيع الذي منح له وكذلك الامتياز، جعل نفسه غير جدير بالتمتع بهذا الشرف، وهكذا فإنه بسبب ذنوب الملك، فإن كرامته وكذلك كرامة المملكة كانت تتداعى، لكن عندما وصلت هذه الأشياء إلى علمه، أمر بمصادرة الممتلكات العائدة إلى كل من أسقفيتي شيكستر وشيبستر.

حول الإضافات إلى خزانة الملك بوساطة التفتيش في الغابات

وفي الوقت نفسه، كان كاهن الملك روبرت باسלו مع رفاقه شاغلاً نفسه من دون توقف من أجل تعويض الملك، منتزعاً الأرزاق القليلة للفقير، وزائداً أموال الملك، ساحباً الموارد القليلة لدى المحتاجين بوساطة آلة سحبه الشرهة، من أجل أنه بوساطة نقاط الذين هم محتاجين، يمكن أن يزيد بحار الذين يعيشون بوفرة، ومن دون توقف ذهب إلى دوائر مختلف مقاطعات انكلترا، منفذاً واجباته بإقامة العدالة، خاصة حيث الغابات كثيرة جداً، وحيث سكن الناس على حدودهم، ويتيقظ ودقة قام بفحص أعمال الإسكان الجديدة التي عملت في الغابات، وأي واحد وجدته مقترفاً لذلك، أثقله بغرامة مالية كبيرة، وبذلك طرد كثيرين من بيوتهم، وحولهم إلى قوم بلا سكن ومتسولين، وكان من بين هؤلاء — كما ذكرنا من قبل — جون دي نيفيل، الذي كان خاضعاً لكثير من المخالفات، وقد أدين بشكل مهين، فتحول من الغنى إلى الفقر، وهو على كل حال لم يتلق لا العطف ولا الرحمة من أي واحد، لأنه عندما عاد من الأرض المقدسة قبل عدة سنوات مضت، قام بوساطة طرائق بارعة وحجج واهية، فحرم جميع الذين كانوا خاضعين له من أرزاقهم وممتلكاتهم، وهكذا وقع الآن مستحقاً في المصائد نفسها، وبنود المصادرات سوف تكون مكتوبة على شكل ملحق يضاف إلى هذا الكتاب.

كيف أمر الملك بتوسعة كنيسة ويستمنستر على حسابه

وفي العام نفسه، قام الملك، وقد شعر بالتقوى نحو القديس ادوارد، فأمر بتوسعة كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر، وبناء على ذلك تدبر هدم الأسوار القديمة مع البرج على الجهة الشرقية، وجرت إشادة أسوار وبرج أكثر رشاقة، وتمت أعمال البناء الجديدة من قبل مهندسين بارعين على حسابه، وأمر بتغيير باقي البناء على الجانب الغربي بما يتناسب مع البناء الآخر.

البابا يتلقى هدايا ثمينة من عدد من الأساقفة

وتابع البابا الآن التشكي بمرارة إلى أصدقائه، بأن الكنيسة الرومانية معسوف بها إلى حد يكاد يصعب فيه نجاتها، ومرهقة بالدين، وعلى الفور انتشرت هذه الشكاوى بالخارج بوسائلهم، وجعل في هذه المناسبة من المفهوم، أنه في أقصى حالات الحاجة إلى مساعدة مالية، وكانت هناك أعداد من الأساقفة الذين لديهم وفرة من الأشياء الجيدة لهذا العالم، وكانوا متلهفين ساعين وراء المزيد من المقتنيات، وهؤلاء قد جاءوا إليه طالبين حظوته، بمثابة أب، وقد أبدوا أسفهم لما عاناه ولمخاوفه، وبما أنه الآن قد نجا من متاعب الامبراطور، قد وصل إلى بين أولاده المخلصين، فإنهم قد قدموا مسرعين لتهنئته، وقدموا إليه أكثر الهدايا قيمة على شكل: خيول، وآنية، وملابس، وذهب وفضة، وجميع أنواع الأثاث المفيد، وكان من بين هؤلاء، راعي دير كلوني، الذي لم يرغب بأن يعد متخلفاً، حتى لا ينظر إليه أنه كان خاملاً، فقام بافقار كنيسته، وتجريد رؤساء الرهبان لديه، فقدم إلى البابا مبلغاً كبيراً من المال، مما أثار بحجمه الدهشة، والاستغراب المستحق، بين جميع الذين سمعوا به، ولهذا كوفئ بترقيته إلى مرتبة أسقف لـ: لانغري Langres، وفي الحقيقة علمت من رواية رئيس رهبان ويستأكري Westacre، الذي كان من قبل واحداً من رهبان كلوني، بأن راعي الدير المذكور، قد أعطى إلى البابا ثمانين مهراً رقيقاً، كانوا الأجل والأبدع تجهيزاً، وأعطى إلى كل واحد من الكرادلة، الذين كان موجوداً منهم هناك حوالي الاثني عشر كاردينالاً، مهراً، وفرس حمولة من النخبة، وآثر البابا أن يكون راعي الدير هذا المتولي لاسطبله، بدلاً من أي انسان آخر، فأمره أن يتولى العناية —من أجل استخدامه— بالخيول التي كان قد أعطاها له، وأعطى راعي الدير المذكور إلى البابا كميات كبيرة من الثروات، على شكل أموال جاهزة وآنية ثمينة، ولقد قيل أيضاً بأن راعي دير سيتو Citeaux، قلد مثاله واتبعه، وكان محرضاً باخلاص الابن، وبالرغبة أن لا يعد ثانياً إلى

أي واحد، فقدم هذه الهدايا حتى تكون ليست أقل قيمة إلى أبيه المتضرر والمحتاج، أي البابا، ورغب رئيس أساقفة روان أيضاً في إرضاء قداسته، ولكي لا يتهم بأنه الأكثر تخلفاً، ورط نفسه وكذلك كنيسة في بعض من الديون الثقيلة، لهذه الغاية، وزاد الخزانة البابوية بمبلغ من المال لم يكن صغيراً، ولدى سماع راعي دير القديس دينس بهذه الإجراءات، وهو الذي كان متشوقاً، بالعمل بشكل مفيد، ليصل إلى منصب رئيس أساقفة، وذلك من خلال الاستخراجات، وبوساطة خداع كنيسة، جمع آلاف كثيرة من الباوندات منحها على شكل صدقات إلى البابا، فكان أن نال مكافأته برتقيته إلى كرسي رئاسة الأساقفة في روان، وكان ذلك من خلال الفائدة المؤثرة لسلفه، الذي هو الآن كاردينالاً، ولدى سماع الملك الفرنسي —الذي كان المدير الخاص والحامي لكنيسة القديس دنس— بالإجراءات التي قام بها راعي الدير المذكور، أرغمه على أن يستجدي هذا المال في منطقة أخرى، وهكذا فإن هذين الشخصين: راعي الدير، ورئيس الأساقفة، قد تركا أثراً قذراً خلفهما، ليطير إلى محطات أعلى، وذلك بإفقار الكنائس التي توليا الحكم فيها، مما أصل فضائح في أرجاء كثير من الممالك، وبعد وقت قصير من هذا، قام رئيس أساقفة ليون، وكان رجلاً بلا عيوب، لكنه الآن بات متقدماً بالسن، وضعيفاً، فتخلى عن جميع مناصبه، ووضعها بين يدي البابا.

وتدقق الآن يوماً إثر يوم، أساقفة آخرون على البلاط الروماني، حيث تنافس أحدهم مع الآخر في تقديم الهدايا الأكثر قيمة إلى البابا، وهي هدايا أثارت بحق دهشة جميع الذين رأوهم، وهكذا بات واضحاً لكثيرين، وأمرأ مؤكداً لديهم، بأن البابا جاء إلى ليون عن رغبة، وليس بقصد الفرار من أي واحد، وإلى جميع هذه الهدايا فتح البابا صدره المتسلم، حتى أنه لم يُظهر أية علامة على الرفض، أو الإباء لديه، وقد أعلن بأنه بحاجة إلى كمية كبيرة أخرى من المال، واستمر في تقديم أسباباً جيدة لحاجته، لأنه

وفقاً لتأكيداته (التي لاندري فيما إذا كانت صحيحة) كانت الكنيسة الرومانية المقدسة مدانة بمبلغ يزيد على مائة وخمسين ألفاً من الباوندات الاستيرلينية، وذلك إلى جانب الفائدة التي تصل إلى قرابة مبلغ الدين الأساسي.

وفي سنة النعمة ألف ومائتين وخمس عشرة، في أيام البابا انوسنت الثالث، جرى عقد مجمع عام، فيه رسم، وأودع كتابة، بأن المجمع العام، يتوجب حقاً أن يعقد مرة كل خمسين سنة، التي هي حقبة يوبيل، ففي سنة اليوبيل، أو خلال إطارها، يتوجب عقد مجمع عام، فيه يتم إصلاح جميع المخالفات، وأن يجري إعادة كل شيء وتثبيته في نظام جيد.

بداية إجراءات المؤتمر في ليون

عندما سارت الشمس في مدارها، ووصلت إلى أقصى ارتفاعها، أي في حوالي منتصف الصيف اجتمع في ليون — من أجل عقد هذا المجمع — جميع الأساقفة المحترمين تقريباً من جميع أرجاء العالم المسيحي، أو جميع أبهم الكفاة، وكذلك نواب الامبراطور، وعدد كبير آخر من الأمراء، الآخرين، وقد اجتمعوا بناء على ولاية خاصة من البابا، وأعطى كثير من لأساقفة الذين لم يحضروا، أسباباً شرعية لتسويغ أنفسهم، من خلال وكلائهم الذين أرسلوهم محلهم، وكان بعضهم — على سبيل المثال — من مملكة انكلترا، كما ذكرنا بشكل مفصل أعلاه، وكان من بينهم راعي دير القديس ألبان، الذي كان رجلاً بديناً، وقد تقدمت به السن، ولذلك أرسل عذراً معقولاً عن غيابه بوساطة راهب من دير اسمه جون دي بولوم Bulum، والمعلم روجر هولدن Holden، وكان كاهناً، وفي الحقيقة بالنسبة لهذه القضية، أعطى المعلم مارتن، الذي كان لبعض الوقت ساكناً في انكلترا، هذه الشهادة، وبناء عليه بقي غير عرضة للنقد وبسلام، مراسلاً رسالة لطيفة إلى البابا، بوساطة رسولييه المذكورين، أما من مملكة هنغاريا، التي تعرضت لدمار كبير من قبل التتار، لم يقدم أحداً، ومن ألمانيا التي

كانت مضطربة بالحرب مع الامبراطور، جاء عدد قليل من الأساقفة إلى الاجتماع، ومن الأرض المقدسة، التي كانت عرضة لخطر عظيم، لم يستطع أحداً القدوم إلى المجمع، كما أنه لم توجه إليهم الدعوة.

وبالصدفة، قدم إلى هاهنا، من الأرض المقدسة، واحد فقط، هو أسقف بيروت، وكان الرسول العام لكل سورية، وللتجمع المسيحي في الأرض المقدسة، وقد جلب معه تقريراً مبكياً، حول الدمار الذي أحاق بتلك البلاد، بإذن من الرب.

كيف أعطى البابا في اليوم الأول تعليمات إلى المجمع

عندما رأى البابا أن عدداً كبيراً من الأساقفة — مع أنهم ليسوا جميعاً — قد اجتمعوا، قام في يوم الاثنين، بعد عيد ميلاد يوحنا المعمدان، بالدخول إلى غرفة طعام رهبان القديس جست Just في ليون، يحيط به إخوانه الكرادلة، والبطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، والقساوسة الآخرين الذين وجهت إليهم الدعوة إلى المؤتمر، وكذلك نواب الأساقفة الغياب والأمراء، وكان هناك حاضراً إلى جانب الكرادلة، اثنان من البطارقة، هما: بطريك القسطنطينية، الذي هو بالوقت نفسه بطريك أنطاكية، وبطريك أقويليا Aquileia، الذي كان أيضاً بطريك البندقيّة، وامبراطور القسطنطينية وكونت طولوز، والنواب من انكلترا، وايرل بيغود مع بعض من أتباعه النبلاء، ومائة وأربعين رئيس أساقفة، وأسقف.

ثم عرض بطريك القسطنطينية الشروط والحاجيات الضرورية لكنيستته، وأعلن بأنه كان لديه من قبل أكثر من ثلاثين أسقفاً تحت إمرته، وقد بقي منهم الآن ثلاثة فقط، وعلاوة على ذلك أضاف بأن الإغريق مع أعداء آخرين للكنيسة الرومانية، قد استولوا بالقوة على جميع الامبراطورية البيزنطية (رومانيا) حتى أبواب القسطنطينية تقريباً، وأنهم لا يطيعون الكنيسة الرومانية في شيء، لكن بتخليهم عنها، يعارضونها بكل الوسائل

العدوانية التي بقدرتهم، وأنه بسبب الأسى والفوضى المحيطة بجميع المسيحية، فإن كنيسة المذكورة كانت الكنيسة ذات الامتياز الأول، وتستحق التكريم أكثر من الكنائس الأخرى، لأنه في المقام الأول، حسبها هو معروف حقيقة، بأن القديس بطرس، قد قام في الأيام الخالية، بالسكنى في أنطاكية (وهي المدينة التي كانت خاضعة للإغريق) وسبب الاضطراب، والفرار من هناك لسمعان ماغوس ولآخرين من الهرطقة، وعند سماع هذا حافظ البابا على الصمت.

وفيما بعد تمّ الوعظ بقداس، جدير بالقبول كله، فيما يتعلق بتطويب القديس ادموند، الذي كان من قبل رئيس أساقفة كانتربري، الذي جعله الرب مشهوراً بإظهار أعظم المعجزات، وفي الحقيقة المؤكدة أن ثمانية رؤساء أساقفة، وحوالي العشرين أسقفاً، قدموا براهين، وتوسلوا باخلاص بوجوب أن يجري تطويبه بوقار عظيم في هذا المجمع، وعلى هذا كان البابا معارضاً، ليس بميوله الشخصية، بل جرى تحريضه هناك بوساطة روح الحسد لدى الآخرين، وأجاب:

«هناك بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالكنيسة تضغط علينا الآن، وهي لا تسمح بالتأخير، لذلك ينبغي أن تبقى هذه المسألة معلقة لبعض الوقت، وعلى كل حال، إننا ما دمنا أحياء لن ندع قضيته تعاني من الإهمال، ونحن مسؤولين بالرب، ونقدم شكراً وافراً له، من أن الرب، والعالم أجمع يقدمون الشهادة على قداسه وفضائله».

وكان هناك أيضاً موجوداً في المؤتمر، نائباً عن الامبراطور فردريك، هو ثاديوس دي سيسا Thaddeus de Sessa، وكان رجلاً صاحب حكمة، ووحيداً بفصاحته، وفارساً، ودكتوراً في القانون، وقاضياً للقصر الامبراطوري، وقد قدم ليحجب بجرأة وكذلك بحذر، ودقة، عن مولاه، وليقيم سلاماً مع البابا، وليعيد تأسيس صداقتها الماضية، وبثقة عرض استرداد جميع رومانيا — أي امبراطورية الإغريق — وإرجاعها للاتحاد

مع الكنيسة الرومانية، وأن يتصدى بشخصه، كجندي مخلص للمسيح إلى التتار، والخواارزمية، والمسلمين والأعداء الآخرين وخصوم الكنيسة، وسوف يقوم كذلك بقدر ما باستطاعته، بإعادة تأسيس الأوضاع في الأرض المقدسة، التي هي الآن عرضة لمخاطر عظيمة جداً وقريبة، وأن يعيد بالوقت نفسه إلى الكنيسة الرومانية الممتلكات التي كان قد أخذها منها، وأن يعطيها ترضية كاملة، وفي جواب على جميع هذه العروض قال البابا متسائلاً: «آه، كم هي وعود عظيمة وكثيرة، ما من أي واحد منها جرى تنفيذه بأي شكل من الأشكال، أو سوف يجري الوفاء به، ومن الواضح الآن أن هذه الوعود قد قطعت بغاية أنه بالخداع وبالخرق يمكن إلغاء المؤتمر وتشتيته، ذلك أن الفأس قد وضع الآن على الجذر، ومن الممكن وضعه جانباً بوساطة التأخير، المتوجب عليه هو مراعاة بنود السلام، التي أقسم عليها مؤخراً بروحه، وذلك وفقاً للمقصد الذي أدى من أجله اليمين، ووقتها أنا سوف أوافق على عرضه، لكن إذا ما أقدمت أنا الآن على الموافقة على طلبه، ومن ثم اختار هو التراجع عن اتفاقه، من الذي سيكون ضامناً له لإرغامه، إذا ما نأى عن تنفيذ عقده؟»، ولدى وعد ثاديوس بأن يكون كل من ملكي فرنسا وانكلترا، الكفيلين في هذه القضية، أجاب البابا: «نحن لانتختار قبولهما، لأنه إذا ما أراد في أي وقت في المستقبل أن يعدل الصفقة، أو أراد أن يلغيها كلية، (ونحن لانتوقع أية نتيجة أخرى، مما فعله مراراً)، إننا سوف نرغم على الدخول في مواجهة معهما، ووقتها سوف يكون للكنيسة ثلاثة أعداء، ما من أحد أقوى منهم، لابل في الحقيقة، ليس هناك من يوازيهم في القوة العلمانية»، وبما أن حجج ثاديوس لم تكن كافية للإجابة على هذا، وبما أنه لم يكن هناك وقت كاف، لزم الصمت وهو كئيب.

حول الأخبار السيئة من الأرض المقدسة التي نشرت في المؤتمر
وقام وولران Walleran، أسقف بيروت، الذي تحمل مصاعب

الرحلة لمدة ستة أشهر وسط مخاطر البحار، وشهراً على البر، في سبيل — كما ذكرنا أعلاه — أن يجلب رسالة حول مصائب الأرض المقدسة، وليطلب المشورة والمساعدة، قام بتوجيه الأمر إلى الراهب الدومينيكاني آرنولف Arnulph، أن يقرأ بشكل علني الرسائل التي كان النبلاء الذين بقيوا في الأرض المقدسة قد أرسلوها إلى جميع مسيحي الغرب، وقد أقحمت هذه الرسائل في جزء متقدم من هذا العمل، وأثارت الآن محتوياتهم المبكية جميع الذين سمعوهم، وجعلتهم يبكون، ولم يكن ذلك من دون سبب حسن.

إجراءات اليوم الرابع من الأسبوع

وفي يوم الأربعاء التالي، دخل البابا، وكان مرتدياً لثيابه الخيرية، إلى كنيسة القديس يوحنا، وهو محاط بجميع الأساقفة الآخرين الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وهم يرتدون أيضاً ثياباً احتفالية، كل حسب ماهو عائد إليه، وبعد التوجه بالدعوة إلى الروح القدس، حيث أعقب ذلك ابتهاج، وصلوات أخرى قرئت بشكل موثم، وعظ البابا بقداس مهّد له بالنص التالي: «آه، أنتم الذين تمرون بالطريق، قفوا وتمعنوا هل ترون حزناً مثل حزني»، ثم إنه تابع بتلاوة قداس فصيح، فيه عقد مقارنة بين أحزانه الخمسة الرئيسية وبين الجروح الخمسة للمصلوب، وكان أول هذه الأحزان وحشية التتار اللانسانية، الذين كانوا يعيشون فساداً في البلدان المسيحية، وكان الآخر هو انشقاق كنيسة رومانيا، أي الكنيسة الإغريقية، التي انفصلت قبل عدة سنين خلت — في أيامنا هذه — عن صدر أمها، التي غدت وكأنها زوجة أبيها، والأمر المحزن الآخر كان تسلل هرطقات جديدة، التي هي هرطقات البيترينيين، والبوغارينيين، والجوفينيين، ومنشقين آخرين، وعدد لا يحصى من الفرق، التي لوّثت إلى درجات عالية كثيراً من مدن المسيحية، ولاسيما مدن لومبارديا، وكان الأمر المحزن الآخر متأصلاً مع الأرض المقدسة، حيث قام الخوارجية الممقوتين بتسوية بيوت

الداوية والاسبتارية بالأرض، بعد تدميرها كلياً، وتدمير مدينة القدس، ومدناً مسيحية أخرى، وسببت سفكاً عظيماً للدماء المسيحية، لابل اقترفت مذبحه عامة، وأمر محزن آخر تسبب به أمير، يعني الامبراطور، الذي كان من المفترض ارتباطه في أن يكون المدير الرئيسي للشؤون الدنيوية، والحامي للكنيسة، قد أصبح الآن العدو الفعّال والقوي لكنيسة المسيح، لابل في الحقيقة العدو الرئيسي، والظالم المعلن لرجال الدين فيها.

ثم إن البابا تابع التعامل مع هذه المواضع، بقدر ما بدا موافقاً، وتمكن تماماً من ملازمة جميع سامعيه والتأثير عليهم بالحزن، لأن عيونهم سالت بدموع وافرة، وتقاطعت تنهاتهم مع خطابه، وفي نهاية قداسه، عرض عدوانيات الامبراطور فردريك، بالهرطقة، والدنس، وذكر من بين ذنوبه، أنه عمّر مدينة واسعة وقوية، في الديار المسيحية، وأسكنها بالمسلمين، مستخدماً، أو بالحري مسيئاً استخدام عاداتهم، وأوهامهم، مع الرفض لجميع الآراء المسيحية والديانة المسيحية، وأنه قد عقد — كما أكد قداسته — صداقة حميمة مع سلطان مصر، ومع بعض الأمراء المسلمين الآخرين، وأنه انحرف بعيداً، وضل بصلات زنا وفحش، وبلا حياء لطخ بالعلاقة مع نساء مسلمات، أو بالحري مع عاهرات، من دون تمييز، وعزا إليه كثيراً من أعمال الحنث باليمين، وكان ذلك من دون أي اهتمام بالصدق، مع أنه لم يحافظ قط على اتفاقاته، كما أنه لم ينفذ وعوده ولم يحافظ بأي شكل من الأشكال على عهوده، وفيما يتعلق بهذه التهم، ولكي يكون أكثر اقناعاً لسامعيه، أراهم كثيراً من الرسائل كلها تحت ختمه الذهبي الامبراطوري، وبرهن بذلك بوضوح أنه مجرم بالحنث باليمين، ثم ان ثاديوس نهض غير هياب أمام المجمع كله، واعترض على كلام البابا هذا، وعرض رسائل كثيرة جوابية مختومة بختم البابا، ظهر فيها ما يناقض بوضوح ما عرضه البابا قبل قليل، وعلى كل حال إنه لدى الفحص الدقيق لمحتويات هذه الرسائل من على الجانبين، الذي سوف يكون متعباً القيام

بشرحهم وعرضهم كاملين في هذا الفصل، سوف لا يظهر بشكل ايجابي وجود تعارض أو تناقض بين أحدهم والآخر، فقد كانت رسائل البابا رسائل شرطية، وكانت رسائل الامبراطور رسائل ايجابية، وظهر أن خرق الصديق هو من جانب الامبراطور، الذي مع أنه قد وعد ايجابياً بكل شيء، هو مع ذلك لم يف بأي شيء وفقاً لوعوده، وعلى هذا سعى ثاديوس بكل قوة إلى الرد بحجج متنوعة، بدت على الأقل قائمة على أسس قوية، في سبيل أن يبريء مولاه الامبراطور من التهم، وعرض رسائل أخرى من البابا، كانت جوابية، معلناً أنه ورد في محتوياتهن، ما لم تجر رعايته، وبناء عليه لم يكن الامبراطور ملزماً بالارتباط بوعوده، أما بالنسبة لتهمة الهرطقة، الصادرة ضد الامبراطور، أجاب كما يلي، بعدما نظر من حوله إلى جميع الحضور، وكأنه كان سيخاطبهم جميعاً:

«سادتي، إنه بالنسبة لقضية التهمة هذه، التي هي التهمة الأكثر جدية، ما من أحد يمكن أن يكون مقنعاً تماماً، ما لم يكن الامبراطور حاضراً، حتى يمكن للذي هو مغلق عليه في قرارة نفسه بشكل سري، يمكن استخراجه وسماعه من فمه، ولكن كونه غير هرطقي، من الممكن البرهنة عليه وضرب أمثلة عليه، فهو لم يسمح لأي مرابي بالسكنى في امبراطوريته أو بمالكه»، وبذلك ألقى بالتهمة بين أسنان البلاط الروماني، الذي كان من الواضح معسوفاً به بهذا الشر، وجواباً على التهمة التي عملت ضد الامبراطور، من أنه كانت له علاقة مريبة وحميمة مع سلطان مصر، ومع بعض المسلمين الآخرين، الذين سمح لهم بالسكنى في أراضيهم، فقد أوضح بأن «هذا قد عمل بشكل تطوعي، وبدوافع من الحكمة، لضبط بعض أعمال العصيان والتمرد لبعض الخاضعين بموجب الحق إليه، ولقمع أعمال الشقاق، وفي استخدامه لهم في حملاته، هو يعتقد أن أية مصيبة سوف تقع لهم، لن يكون محزوناً عليها من قبل أي مسيحي، وبعمله هكذا وفرّ سفك الدم المسيحي من دون فائدة، وهو لم يتورط بعلاقة مع عاهرات،

ومن يمكنه أن يبرهن ذلك، لكنه كان يسلي نفسه ببعض الحركات، وبيعض الأداءات لبعض النساء، اللاتي قد صرفهن الآن، وهن لن يرجعن، لأنهن غدون مصدراً للشكوك»، وعندما أنهى ثاديوس كلامه، ترجى بأن يمنح مهلة قصيرة من الوقت، حتى يكون قادراً على بعث رسالة إلى الامبراطور، وأن يستخدم وسائل مؤثرة لإقناعه بالقدوم شخصياً إلى المجمع، الأمر المتوقع منه، أو أن يمنحه المزيد من الصلاحيات، وعلى هذا أجاب البابا:

«لاسمح الرب بهذا، إنني أخشى من المصائد التي وجدت بعض الصعوبات حتى نجوت منها، وإنه إذا ما جاء، أنا سأغادر، لأنني لاأرغب بالدم، ولاأشعر أنني شخصياً موثماً للشهادة، أو مستعداً لها، أو للسجن».

وحدث في اليوم التالي، أنه بناء على مبادرة نواب الملكين الفرنسي والانكليزي، الذين تضايقوا كثيراً من خطر توجيه الاهانة إلى مثل ذلك الأمير العظيم، وتضايق بشكل خاص نواب الملك الانكليزي بسبب العلاقة والتحالف المعقود بين مولاها وبين الامبراطور، جرى منح مهلة أربعة عشر يوماً إلى ثاديوس، وكان ذلك مؤذ لكثيرين ممن كانوا مقيمين في ليون، وعندما جرى إخبار هذه الأشياء إلى الامبراطور، قيل بأنه قد قال وهو مضطرب نفسياً كثيراً:

«إنني أرى بوضوح مثل الضوء، بأن البابا قاصداً بجميع جهوده للحط من شأني، وهو مثار برغبة وبشعور بالانتقام لنفسه، لأنني تدبرت اعتقال أقربائه في البحر، وهم القرصان الجنوبيين، الأعداء القدماء المعلنين للامبراطورية، وسجنهم مع الأساقفة، الذين كانوا قاداتهم وحماهم، لأنه من المستحيل أن يدعوا إلى عقد هذا المجمع، لغاية واحدة لاغير، ومن غير الممكن للامبراطورية المقدسة أن تلتزم بقرار مجمع، هو مجمع معاد لها بشكل خاص»، وعندما وصل إلى علم البابا، والجماعة المجتمعة بأن الامبراطور قد قال هكذا، وأنه رفض الحضور، أو الالتزام بقرارهم،

سحب كثيرون تعاطفهم معه، وهم الذين كانوا حتى الآن متفقين فيما بينهم على تأييده، ووجه اللوم بشكل كبير إلى الانكليز، لانحيازهم له، وبناء عليه جرى اتهام الامبراطور فردريك بقسوة متناهية وبحدة شديدة، في مجمع عام، وصدرت ملامته عن سكان أربعة أطراف الدنيا، على أنه متمرد وعاص ضد الكنيسة كلها، وقام واحد من رؤساء الأساقفة، ووجه اللوم إليه بحرارة أكثر من البقية، واتهمه بجريمة الخيانة العظمى، في قضية اعتقال الأساقفة الذين تقدم ذكرهم، وبتهم أخرى ثقيلة.

وعلى هذا كله، وقف ثاديوس تقريباً لوحده، ورد لصالح الامبراطور، ونظر إلى متهمه وقال:

«ما من ثقة يمكن أن توضع بك، ومع ذلك لا يجوز لكلامك أن يمر وأن يقابل بالصمت، لأنك ابن خائن، قد جرت ادانته بشكل قانوني في محكمة مولاي الامبراطور، وقد جرى شنقه، وأنت تتبع خطواته، وتسعى لأن تسير خلف أبيك في كل شيء»، وعند هذا كان المتهم صامتاً، ولم يتجرأ على التفوه بأية كلمة أخرى، كما أنه لم يسمح له بذلك، وبالطريقة نفسها أيضاً، قام المعلم ثاديوس بعقلانية، لكن بجرأة، بالرد على اتهامات بعض الآخرين ونقضها، وتجددت المناقشات مع روح جديدة بوساطة عدد كبير من أقرباء وأصدقاء الذين ألقوا بالسجن أو غرقوا، وقد وجهوا الملامة إلى الامبراطور، من أجل عملية الاعتقال التي تقدم ذكرها، وجاء ذلك بحدة أكثر، وبجرأة أعظم، حيث أنهم رأوا نقصان التعاطف معه، وعليهم رد ثاديوس قائلاً:

«إن مولاي بالحقيقة آسف لتلك الواقعة التي حدثت صدفة، وعلى عكس رغباته، ولم يكن باستطاعته، كما هو معروف بشكل جيد، أثناء معركة مفاجئة وقتال عنيف في البحر، أن يفرق بين هؤلاء الأساقفة وبين أعدائه، حتى يحول دون عدم تمييزهم واشراكهم مع أعدائه، لكن لو كان مولاي الامبراطور هناك، لبذل أقصى جهوده في سبيل الحفاظ عليهم»،

وعلى هذا رد البابا قائلًا: «بعد إلقاء القبض عليهم، لماذا لم يسمح للأبرياء — مع أنهم عسف بهم وتعرضوا لجراحات مضاعفة — بالمغادرة وهم أحرار، واحتفظ بالآخرين فقط؟»، وعلى هذا رد ثاديوس: «لا بد من التذكر أن صيغة الدعوة إلى الاجتماع قد تغيرت، وكذلك اجتماع الأساقفة الذين دعوا إلى المؤتمر الذي عقد في أيام البابا غريغوري، وجاء هذا التغيير من أجل الأسوأ، وعدم تغيير الامبراطور لمشاعره، كان أمراً مسوغاً، لأن البابا مع أنه توجب عليه أن يجمع فقط الذين وجهت إليهم الدعوة، دعا معهم الذين هم أعداء معلنين للامبراطورية، من علمانيين، ومشعوذين، مؤيدين بعصابات مسلحة، وكان بينهم كونت بروفانس وآخرين، حسبما جاء واضحاً في الرسائل إلى ملك انكلترا، التي قدمت أعلاه، ومن الواضح أنهم دعوا ليس بسبب حكمتهم، أو من أجل الترتيب لسلام، بل بالخزي لزيادة الشقاق، ولهذا السبب أرسل مولاي الامبراطور رسائل إلى انكلترا، وكذلك إلى مناطق أخرى، راجياً الأساقفة بطريقة صديقه، بأن لا يقدموا إلى مثل هذا المجمع الخياني، وأنذرهم مسبقاً، أنهم إذا ما قدموا مع أعدائه شخصياً، وأعداء الامبراطورية، فإنهم سوف يهاجمون، كما أنه رفض منحهم جواز مرور آمن خلال ممالكه، وبشكل مهذب أنذرهم من المخاطر التي تحيق بهم، ولذلك فإن الرب أرسل بهم بشكل عادل إلى بين يديه، بين يديه هو الذين استخفوا به، ومع ذلك فإنه وإن كان مغضباً، تذكر الرحمة، ولأن بوساطة نصائح مستشاريه المخلصين، وقد رغب في إطلاق سراح هؤلاء الأساقفة، والآناس غير المحاربين بشكل سلمي، عندما حدث فجأة أن أسقف برنستي وآخرين من الأساقفة الوقحين، قاموا بتكديس التهديد فوق التهديد، ومع أنهم كانوا مسجونين لم يترددوا بحرمان الامبراطور كنسياً في وجهه، دون رعاية لذلك الرأي الصحيح الذي قال: «تواضع بنفسك أمام يد القوة، وهكذا بعدما كانوا عصاة، أصبحوا بلا أذى، لابل معتوهين، ومن كونهم أصدقاء أصبحوا أعداء، وقد استحقوا الايداع بالسجن»، وقد أجاب البابا قائلًا: «ينبغي أن يكون مولاك الامبراطور

مقتنعاً، مالم يكن غير واثق بقضيته، ذلك أن مثل ذلك الجمع الواسع لمثل أولئك الرجال الصالحين، كان بالحرى سوف يحرره بدلاً من أن يكبله، لو أنه استحق أن يتحرر، لكن من سلوكه كان من الواضح بأن ضميره كان يضايقه، وأن الإثم الذي اقترفه، وصار مجرمًا به، قد جرحه»، وعلى هذا رد ثاديوس قائلاً: «كيف كان لمولاي أن يتوقع، في مؤتمر يرأسه البابا غريغوري، الذي هو عدوه الرئيسي، أن يجد الذين يؤثرونه، وهم الذين تحالفوا مع أعدائه، وذلك عندما راهم يتحركون ضده، ويهددونه وهم سجناء؟»، وعلى هذا أجاب البابا: «صحيح أن واحداً بنقده له، قد فقد حظوته، لماذا جرى توريط الأبرياء الآخرين في المصيبة العامة؟، إنه من مخالقاته المضاعفة، لا بد أن إهائته وطرده الكامل أن يكون قريباً»، وعندما سمع الانكليز هذا صرخوا لصالح أولاده، وأبدوا اعتراضهم على أن يتعرض الابن للمعاناة بسبب مخالفات الأب، وأن يتم ازدراء النهر كله بسبب نبعه.

وفي الجلسة الثالثة للمجمع ظهر ثاديوس أمامه للإجابة، وللتقدم بالتماس لصالح الامبراطور لأنه كان حزيناً وشاعراً بالخطر، خاصة بسبب أن ابنة دوق النمسا إما قد تزوجت، أو على وشك الزواج من الامبراطور، وكان خطر الخلع بالاضافة إلى الحرمان الكنسي محيقاً به، فهي سوف تبتعد عن عناق واحد ممقوت، هذا وعندما بدأ بتقديم الالتماس بوساطة أعذار كثيرة لصالح الامبراطور، ولكن لم يصغ إليه، تقدم بالتماس لعقد المجمع العام التالي، لأنه لاجميع الأساقفة ولا نوابهم، ولانواب الأمراء، قد ظهروا في هذا المؤتمر، وعلى هذا الالتماس، رد البابا قائلاً: «إن المجمع العام لكثير من البطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، والنبلاء الآخرين من مختلف بقاع العالم، كانوا جميعاً ينتظرون مولاك الامبراطور أن يتواضع بنفسه، وبذلك كان سيكون راضياً تماماً، وبالنسبة للذين هم غياب، إن الذي منعهم من الحضور والمشاركة، هو أنهم بالشراك التي نصبها مولاك، لذلك

إنه من غير الموائم لقرار الخلع، الذي سيصدر بحقه، أن يجري تأجيله أية مدة أخرى، خشية أن يستفيد من مكره، لأن المخادع ينبغي أن لا يستفيد من أي واحد».

الشكوى التي عملها وكلاء جماعة إنكلترا في مؤتمر ليون

عندما أخذ وكلاء الجماعة الانكليزية، الذين تقدم ذكرهم، مقاعدهم في المؤتمر، نهض المعلم وليم دي باوريك، المتحدث باسمهم، وعمل باسم الجماعة الانكليزية كلها شكوى جادة، حول الظلم الذي كان يارس في تلك المملكة، عارضاً ذلك بخطبة فصيحة، ويّـن أنه في أيام الحرب استخرجت ضريبة مؤذية من قبل البلاط الروماني، عليها لم يوافق قط أسلاف نبلاء المملكة، كما أنهم لا يوافقون عليها اليوم، كما أنهم لن يوافقوا عليها بالنسبة للمستقبل، ولهذا هم يطلبون العدالة وأن يقدم إليهم الخلاص، وعلى هذا الطلب لم يجب البابا ولا بكلمة واحدة، كما أنه لم يرفع عينيه، وبعد صمت قصير أعطى وليم المذكور تفصيلاً بالاستخراجات المضاعفة للموارد التي مورست في انكلترا من قبل البلاط الروماني، وأراهم بالوقت نفسه الرسالة التالية:

رسالة من جماعة إنكلترا حول استخراجات البلاط الروماني

«إلى الأب المبجل في المسيح، انوسنت، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم، يبعث إليه نبلاء انكلترا والجماعة بشكل عام، بإطرائهم، ويقبلون قدميه المباركتين:

إننا نحب أمننا الكنيسة الرومانية ونقدرها من كل قلوبنا، كما ينبغي أن نفعل، ونهدف بكل عواطفنا الممكنة لزيادة كرامتها وتقدمها، ومعها ينبغي أن نمتلك ملاذاً في الأوقات المناسبة، في سبيل إزالة أسف الابن المظلوم ورفع بمواساة الأم، وهذه المواساة على الأم تقديمها إلى الابن بمزيد من اللطف والسهولة، وفي مقابل تغذيتها له بلطف الأم، إنها تطلب من الابن الامتنان والاخلاص، والأم، بالفعل، لا يمكن أن تكون جاهلة بالامتنان

الذي أظهرته لسنوات كثيرة، مملكة انكلترا نحوها، فقد منحها ثماراً وافرة من التمجيد وفي سبيل أمنها الأعظم، في سبيل أنه بهذه الوسائط، من الممكن تأسيس تحالف من التعاطف يكون أكثر ثباتاً بين الكنيسة والمملكة المذكورة، وهذا المورد قد عرف مع مرور الأيام، باسم «بنس بطرس»، ولم تكن الكنيسة على كل حال مكتفية بمعونة من هذا النوع، وفي الأوقات المتأخرة طالبت بالمساعدات بوساطة النواب البابويين، وبرسل آخرين متكررين، وجاء ذلك بطرق مختلفة، اتبعت في المملكة المتقدم ذكرها، وهذه المساعدات جرى تقديمها من قبل أولادها المخلصين بكرم، وكأنهم كانوا يحتضنون أمهم بأذرة عواطف مختلفة، ونحن نعتقد أيضاً، أن قد استكم غير جاهلين بأن أجدادنا بحكم أنهم كانوا كاثوليكاً حقيقيين، كانوا جميعاً يحبون الرب ويخافونه، ويرغبون بضمأن خلاص أرواحهم وأرواح أجدادهم، وكذلك أرواح أولادهم، وأنهم قد أسسوا ديرة، وأغنوها من ممتلكاتهم بكل من الممتلكات الأرضية والرعاية من قبل الكنائس في سبيل أن يتمكن الرهبان من تأدية واجباتهم الدينية بشكل جدير بالثناء في تلك الديرة، وأن يخدموا العلي الأعلى بيقظة، ولكي يتمكنوا من التمتع بالسلام والأمان، ولمواجهة ما يحتاجونه في خدمة الدين، تسلموا الوسائل الضرورية للعيش، وذلك بما يتواءم مع واجباتهم الدينية، من أصحاب الممتلكات المذكورة، ولكي يتمكن كهنتهم من وضع كنائسهم تحت حمايتهم، ولكي يؤدوا الأعمال في الخارج، ويلتزموا بالفرع الثاني للدين، وليتمكنوا من حمايتهم من غارات الآخرين، وبناء عليه، لن يمر الأمر من دون اغضاب شديد لنا، وأنه سيكون أذى شديداً لنا لا يمكن تحمله، عندما يحدث ويجري تضليل الرهبان المذكورين وابعادهم عن امتيازات حمايتهم، وعن الارتباط بكنائسهم، لكن الآن، حدث من قبلكم، ومن قبل أسلافكم، الذين ليس لديهم تقدير، فبالإضافة إلى الموارد المتقدم ذكرها، استغنى الايطاليون الآن (الذين يوجد منهم أعداد بلا نهاية تقريباً) على حساب الكنائس العائدة إلى حماة هؤلاء الرهبان أنفسهم، وهم الذين

يدعون باسم قساوسة الكنائس، وهكذا تركوا هؤلاء الذين توجب عليهم الدفاع عنهم، وقد اجتثوا تماماً، ولم يعودوا يعطون الاهتمام لأرواح الناس، بل تركوا هؤلاء الذئاب الأكثر جشعاً ليتولوا تمزيق القطيع، ولاختطاف الشياه، وعلى هذا يمكنهم القول صادقين، بأن هؤلاء الأشخاص ليسوا رعاة جيدين، لأنهم لا يعرفون شياههم، كما أن الشياه لا تعرف شيئاً عن الرعاة، فهم لا يمارسون أعمال الضيافة، أو تقديم الصدقات المتوجبة على الكنيسة، بل إنهم يتسلمون الثمار فقط لحملها إلى خارج المملكة، مفقرينها إلى درجة كبيرة، باستحواذهم أنفسهم على مواردنا، وبذلك فإن إخواننا، وأحفادنا وأقربائنا الآخرين، الذين هم أشخاص جديرون بالعناية من قبل المملكة المذكورة، ينبغي أن ينتفعوا، لكنهم لا يستطيعون، ولا يمكنهم برحمة وتقوى أن يكونوا قادرين على ممارسة أعمال الاحسان المذكورة وأعمالاً أخرى، وهم يرغبون شخصياً أن يخدموا الكنائس المذكورة، وذلك وفقاً لكلمات بطرس، بأن الذين يخدمون المذبح، يمكنهم العيش مع المذبح، غير أنهم اضطروا الآن بحكم الضرورات لأن يصبحوا رجالاً علمانيين ومنفيين، وفي سبيل أن تكون الحقيقة معروفة لديكم، فإن هؤلاء الايطاليين يتسلمون ستين ألف مارك، لابل أكثر سنوياً من انكلترا، وذلك بالاضافة إلى جبايات أخرى متنوعة، وهم ينقلون منها ربحاً صافياً على شكل موارد من المملكة أكثر من الملك نفسه، الذي هو حامي الكنيسة، والممسك بمقاليد السلطة في تلك المملكة، علاوة على هذا لقد أملنا بعد تنصيبكم (ومازلنا نأمل بالشيء نفسه، لأننا واضعين ثقتنا بكم) أنه بتدخل من عاطفتكم الأبوية، سوف ننال البهجة، ونعيد في أيامكم تأسيس إعطاء الصدقات المتقدم ذكرها إلى وضعها السالف الصحيح.

ونحن — على كل حال — لا يمكننا أن نمر صامتين بمظالمنا، لأننا نحن لم نتضرر فقط، بل عسف بنا إلى أبعد الحدود، ففي المقام الأول، قام المعلم مارتن، الذي دخل مؤخراً إلى المملكة، من دون إذن الملك، وهو مفوض

بسلطات أكبر من أي سلطات نذكر أنها منحت إلى أي نائب بابوي، وطلبت من الملك من قبل (ومع أنه لم يمتلك شارة النيابة البابوية، مارس الواجبات المتنوعة لمنصبه)، فقد كان يمارس يومياً، ويعرض سلطات جديدة، لم يسمع بها من قبل، وخلال ممارسته للسلطة كان يقوم باستمرار بتجاوزات وخروقات، فقد منح بعض المنافع الشاغرة بمبلغ ثلاثين ماركا أو أكثر سنوياً، إلى بعض الايطاليين، وعندما يموتون سوف يتولى آخرون ويتعينون مكانهم، من دون معرفة الحماة، وهكذا نجد أن هؤلاء الحماة قد تعرضوا للغش في امتياز عطيتهم، لابل أكثر من هذا، لقد حاول المعلم مارتن المذكور أن يعين منافع مشابهة، عندما صدف وكانوا شاغرين، إلى أشخاص متنوعين، واحتفظ للكرسي المقدس بحق منح بعض المنافع، وعلاوة على ذلك استخرج جبايات قاسية جداً من الرهبان، وكان يتفوه بأحكام الحرمان الكنسي، والتعليق مع الحرمان من شراكة المؤمنين، في جميع الاتجاهات ضد المتقولين، المتمللين، وكان المعارضون عرضة لخطر عظيم، وللرعب على أرواحهم، وبناء عليه، إنه بالنسبة للمعلم مارتن المذكور، وبالنسبة للاضطراب العظيم الذي عانت منه المملكة كلها، فقد مارس المذكور أعمالاً قضائية، نحن لا يمكننا أن نصدق أنها صدرت عن علمكم، لأنه مارس واجبات عالية، كانت بالحقيقة أعلى مما نتذكر قط أنه قد مورس من قبل، من قبل أي نائب بابوي، حيث انحرف كثيراً عن الامتياز، الذي جرى منحه من قبل إلى صاحب الجلالة الملك، من قبل الكرسي الرسولي، الذي رسم من قبله، أن ما من واحد سوف يملأ منصب النائب البابوي في انكلترا، ما لم يكن جرى طلبه بشكل خاص من قبل الملك، وبناء عليه، إننا مع كل التذلل الممكن والاخلاص، نرجو قداستكم، وبالنسبة لنفسه نلتبس العاطفة الأبوية لأن تمد يد الرحمة لإنقاذ الأولاد المظلومين، بوساطة مساعدة مؤثرة ومعقولة، من المضار التي تقدم ذكرها أعلاه، ومن المظالم، لأن مع أن ملكنا، الذي هو كاثوليكي مسيحي، وغيور على تأدية واجباته الدينية، دون الاهتمام بتبديد جسده، هو يري أنه

تأديته لواجبه نحو يسوع المسيح، وفي احترامه للكرسي الرسولي، ويود أن يرفع من شأن الكنيسة الرومانية، ويزيد من كرامتها ومنافعها، وذلك كما ينبغي على ولد محب كثيراً أن يفعل، بيد أنه في الوقت نفسه أن يكون ذلك مع الحفاظ على الامتيازات الملكية، وعلى الكرامات، ومع ذلك إننا نحن الذين نتحمل متاعب وحرارة اليوم في خدمته، والذي واجبه يقتضي ذلك، مع الملك المذكور، حتى نرى الحفاظ على المملكة، نحن لا يمكننا أن نتحمل بصبر هذه المظالم المذكورة، والتي هي ممقوتة للرب وللإنسان مع مثل هذه الأعباء التي لا يمكن تحملها، وبحق نعمة الرب لن نتحملهم أية مدة أطول، من خلال تدخل مساعدتكم الفعالة التي نأمل ونثق بأن نتلقاها سريعاً، وأثناء المناسبة، ولعله بناء عليه، يرضي قداستكم إعطاء إذن مصغية متعاطفة إلى التماساتنا، حتى تنال باستحقاق شكرياً خاصاً من نبلاء انكلترا، ومن الجمع العام للجماعة في انكلترا، وذلك بحكم كونهم أكثر الأبناء حباً في المسيح».

البابا يؤجل إعطاء جواب للرسل من إنكلترا

ومع أن الرسالة قرئت، ونشرت بشكل مكشوف، وسط صمت عام، لم يقدم البابا جواباً، لأنه أكد أن مثل هذه القضية الصعبة تتطلب مداولات طويلة، ولهذا أخر إعطاء جوابه لبعض الوقت، ومع أن النبلاء المتقدم ذكرهم، والرسل الخاصين شددوا على حثه على إعطاء الجواب على الفور، هو لم يقبل، بل وعد أنه سيفعل ذلك بعد مدة ليست طويلة، وبالإضافة إلى الشكاوي التي تقدم ذكرها، أضاف الرسل المذكورون أيضاً شكوى أخرى ثقيلة، وكانت حول المظالم الخبيثة، والأذى الذي لا يمكن تحمله، والمكوس اللاأخلاقية التي مورست، بسبب تلك الإضافة المقيتة للفقرة التي غالباً ما أقحمت في الرسائل البابوية، وهي «دون تقدير» إلخ، إلخ.

غير أن البابا كان منصرفاً نحو قضايا أعظم أهمية، ومع أن المعلم ثاديوس، وكيل الامبراطور ترافع ضدها بفصاحة، قام البابا الآن من دون

أي تردد، أو خداع، أو تأخير، فتفوه مزجراً بقرار الحرمان الكنسي ضد الامبراطور فردريك، أمام المجمع كله، مما أدهش جميع الذين سمعوه وأرعبهم.

كيف حرم البابا كنسياً الإمبراطور فردريك في مجمع ليون

«أنوسنت، الأسقف، عبد عبيد الرب، إلخ:

بحضور المجمع المقدس، وفي تذكّر دائم للحادثة، وفي تمجيد للكرسي الرسولي، قمنا نحن الذين — وإن كنا لانستحق — جرت ترقيتنا إلى المنصب البابوي بتقدير من الجلالة اللاهوتية، والذي علينا أن نعطي عنايتنا المتواصلة واليقظة إلى جميع المسيحيين، فمنحنا عين التقدير العميق، لتمييز الأعمال والأقوال لكل واحد من الناس، ولكي نزنهم بميزان التقدير الحكيم، في سبيل أن نتمكن من مكافأة الذين يستحقون المكافأة، الذين بعد فحص دقيق تبرهن أنهم جديرين بذلك، ولنوقع العقوبة المستحقة على الذين نجدهم مجرمين أو ملومين بأي طريق من الطرق، وذلك وفقاً لطبيعة ذنوبهم، ولسوف نزن دوماً فضائلهم وجوائزهم في ميزان متعادل، معاودين الدفع إلى كل واحد كمية الجائزة أو العقوبة، وفقاً لطبيعة أعماله، سواء أكانت جيدة أم سيئة.

وبالنسبة للحروب المستعرة المديدة، التي أزعجت منذ وقت طويل بعض المقاطعات والمناطق التي تؤمن بالمسيحية، رغبتنا من قلبنا كله بإعادة الهدوء والسلام إلى كنيسة الرب المقدسة، وإلى جميع المسيحيين بشكل عام، وقدّرنا أنه مفيد لنا القيام بإرسال رسل خاصين إلى الأمير الرئيسي العلماني، الذي كان هو المقترف لهذه التمزقات والاضطرابات، والذي كان لتجاوزاته محروماً كنسياً من قبل سلفنا، البابا غريغوري، صاحب الذكرى السعيدة، لقد قمنا ببناء عليه، بإرسال رجال رفيعين بالمسؤولية ممثلين لنا ولصالحنا، وهم: أخينا المبجل ب. P راعي دير ألبانو في ذلك الوقت،

ورئيس أساقفة روان الآن، وو. W أسقف سايبنا الآن، ومن قبل أسقف مودينا Modena، وابننا المحبوب كثيراً وليم، الكاهن الكاردينال لكنيسة الاثني عشر رسولاً، والذي كان في ذلك الحين راعي دير القديس فاكندوس Facundus، وكلهم كان مشحوناً بالرغبة لخلاص ذلك الأمير المذكور.

وأوضحنا من خلاصهم بأننا مع إخواننا، نسعى، بقدر ما نمتلك من قوة، لأن نكون في سلام معه في كل جانب، وذلك حسبما كنا جاهزين لأن نكون مع جميع الناس، ونحن نرغب في أن نمنح له السلام والهدوء وإلى جميع العالم، أما ما يتعلق بإعادة الأساقفة، والكهنة وجميع الآخرين الذين في حبسه سجناء، وكذلك بالنسبة لجميع الكهنة، وكذلك العلمانيين، الذين أسرهم في الغلايين، إن ذلك سوف يكون مساعداً على صنع السلام والمصالحة، وسألناه بوساطة الرسل أنفسهم وطلبنا منه، أن يعيدهم إلى الحرية، (وذلك حسبما كان هو وكذلك رسله قد وعدوا سلفنا المذكور، وذلك قبل دعوتنا إلى المنصب الرسولي)، وأعلنا علاوة على ذلك، بأن الرسل المذكورين، كانوا مستعدين، باسمنا لإستماع مقترحاته من أجل، وفي سبيل ترتيب بنود للسلام، وللإصغاء إلى أية تقديرات واقتراحات للترضية، يمكنه — أي الأمير المذكور — أن يختار عرضها في المسألة المتعلقة بكل قضية حرمانه الكنسي، وبالإضافة إلى هذا، إذا كانت الكنيسة قد آذته بطريقة غير صحيحة (التي لا تعتقد بأنها فعلت ذلك) هي على استعداد للقيام بالإصلاحات، ولأن تعيده إلى وضعه الطبيعي، وإنه إذا ما قال بأن الكنيسة أو نحن شخصياً قد ألحقنا به الضرر في أية طريقة من الطرق مضادة للعدالة، إننا على استعداد لأن ندعو الملوك، والأساقفة، والمقدمين، ورجال اللاهوت، وكذلك العلمانيين، إلى الاجتماع إما شخصياً، أو من قبل رسلهم الخاصين، في مكان ما آمن، وإن الكنيسة مستعدة، وفقاً لقرار المؤتمر، لأن تقدم إليه الترضية، إذا ما كانت قد آذته بأية طريقة من الطرق، وأن تلغي أي قرار بالحرمان الكنسي، كانت قد أصدرته ضده بشكل غير

عادل، وأن تعامله بكل لطف ومرحمة، بقدر ما يمكنها أن تمنح، مع احترامها للرب، ولكرامتها الذاتية، وأن تتسلم ترضية منه عن الأذى والمضار التي اقترفت ضد الكنيسة المذكورة من قبله، أو من قبل أتباعه من خلاله، وإن الكنيسة ترغب أيضاً في السماح إلى جميع أصدقائه والمتربطين به، أن يكونوا في سلام، وأن يتمتعوا بأمن كامل، وبذلك لا يمكن في المستقبل بشكل مطلق، تعرضهم للخطر أو للرعب حول هذا الشأن.

ولكن مع أننا سعيينا بوساطة عتابنا الأبوي، وبوساطة الالتماسات العامة أن نحرّضه على السلام، قلّد الأمير المذكور بعناده فرعون، وأغلق أذنيه مثل ثعبان، في ذروة عناده، وتبنى حالة العجرفة والتشامخ، وازدرى ورفض التماساتنا وتحذيراتنا حول هذه القضية، ومع أنه حدث من خلال مرور الوقت، في السنة التالية، في يوم عيد العشاء لربنا، والذي كان العيد الأخير، بحضور إخواننا الكرادلة، وكذلك ولدنا المحبوب كثير أ في المسيح، امبراطور القسطنطينية المشهور، وحشد كبير من الأساقفة وشيوخ وحكماء شعب روما ومجلس شيوخها، وجمع كبير من الآخرين، الذين كانوا قد اجتمعوا لدى الكرسي الرسولي في ذلك اليوم، بسبب مهابته ومكانته، من جميع أرجاء الدنيا، أن قام الأمير المذكور من خلال النيل كونت طولوز، والمعلم بطرس دي فينيا، وثاديوس دي سيسا، القاضيان في بلاطه، ووكلائه، في ظل أوامر منه حول هذه القضية، فأعطى يمينا مهيبا، بأنه سوف يلتزم بأوامرنا وبأوامر الكنيسة، ومع ذلك هو لم يف بعد ذلك بالذي أقسم عليه، وفي الحقيقة، إنه من المعتقد بشكل صحيح، ومن الممكن استخراج الأمر واستنتاجه من الإجراءات التي عملها فيما بعد، أنه أدى ذلك اليمين لغاية الخداع وليس لغاية طاعة الكنيسة، لأنه على الرغم من مغني سنة حتى الآن، هو لم يقيم بالعودة إلى صدر الكنيسة، كما أنه لم يكلف نفسه ولم يزعمها بتقديم ترضية حول الأذى والخسائر التي عانت منها من قبله، مع أنه طلب منه مراراً أن يفعل ذلك، وبناء عليه، بما أننا لم نعد

راغبين، ولسنا قادرين —دون أن نذنب ذنباً عظيماً بحق يسوع المسيح— أن نتساهل تجاه عدوانيته وذنوبه، ولقد أرغمنا بضميرنا على اتخاذ إجراءات ضده.

وإذا ما التزمنا بالصمت الآن حول جرائمه الأخرى ومظالمه، لقد اقترف أربعة آثام ثقيلة جداً، لا يمكن تسويغها بأية وسيلة لتلطيف، ذلك أنه غالباً ما أقسم يميناً تعهد به بمراعاة السلام الذي أعيد تثيته رسمياً بين الكنيسة والامبراطورية، ثم قام بطيش بخرقه، كما أنه اقترف إثماً كبيراً بتسببه باعتقال كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، وكهنة الكنائس الأخرى، والرهبان، والعلمانيين، الذين كانوا قادمين إلى المجمع الذي رأى سلفنا المذكور أنه من المناسب الدعوة إليه، وهو أيضاً متهم بالهرطقة ليس على أسس مشكوك بها أو أرضية ضعيفة، بل على أساس بيانات مبرهن عليها، وأنه اقترف كثيراً من أعمال الخنث باليمين واضحة بما فيه الكفاية، لأنه عندما كان فيما مضى مقيماً في صقلية، قبل انتخابه للمقام الامبراطوري، قام بحضور غ. G الكادرينال الشماس للقديس ثيودور، وصاحب الذكرى الطيبة نائب الكرسي الرسولي، فقدم يمين الولاء إلى سلفنا البابا انوسنت، صاحب الذكرى الطيبة، وإلى خلفائه من بعده، وكذلك إلى كنيسة روما، مقابل تقدير التنازل عن مملكة صقلية له من قبل الكنيسة المذكورة، وحسبما روي، إنه بعد انتخابه لذلك المقام المذكور، وبعد وصوله إلى المدينة جدد ذلك اليمين أمام انوسنت المذكور، وإخوته الكرادلة، وبحضور عدد كبير آخر، وقدم ولاءً قانونياً إلى البابا المذكور مع يدين مرفوعتين.

وبعد هذا، عندما كان بألمانيا، عمل يميناً بحضور الأمراء والنبلاء العائدين للامبراطورية، قضى بالحفاظ على البابا انوسنت المذكور، ولدى وفاته، على البابا هونوريوس سلفنا، وعلى خلفائه، وأن يحمي بإيمان صالح، وبقدر ما هو متوفر في قدرته، شرف، وحقوق، وممتلكات الكنيسة

الرومانية، وأن كل ماسوف يأتي إلى بين يديه، سوف يعيده إليها من دون أية معارضة، وقد ورد ذكر الممتلكات المذكورة بوصفها في بنود يمينه، الذي أكدته فيما بعد، فوز حصوله على تاج الامبراطورية، لكن بالنسبة إلى هذه الأيمان الثلاثة، لقد برهن عن نفسه، أنه غير ملتزم جريء، وخارق لها، وبهذا نال وصمة الخيانة وتهمة الخيانة، لأنه أرسل إلى الإخوة الكرادلة رسائل تهديد ضد سلفنا غريغوري، وضد إخوانه المذكورين، وكما هو ظاهر من الرسائل التي أرسلت من قبله، أقدم على تشويه سمعة غريغوري المذكور بين إخوانه المذكورين، وحسبها ورد في رسائلها المحتوي نفسه للتشهير بطرائق مضاعفة في جميع أرجاء العالم، كما أنه أمر أيضاً باعتقال شخصي لأخسونا المحترمين: أوتو، أسقف بورتو، في ذلك الحين، وكاردينال شماس للقديس نيقولا، في سجن توليان، وج. ل. أسقف برينستي، صاحب الذكرى الطيبة، والنائب البابوي للكرسي الرسولي، مع أعضاء بارزين من الكنيسة الرومانية، وانتزع من آخرين مقتنياتهم، وحملهم بشكل مهين عدة مرات وطاف بهم حول وخلال أماكن متنوعة، ثم ألقى بهم في السجن، وعلاوة على ذلك، سعى بكل ما أوتيته من قوة لانقاص امتيازات الكنيسة، أوبالحري، لانتزاع هذه الامتيازات كلها، التي منحها مولانا يسوع المسيح إلى القديس بطرس وخلفائه، والتي تمثلت بقوله:

«إن كل الذي سوف تربطه على الأرض، سوف يربط في السماء، وكل شيء سوف تحله على الأرض، سوف يجري أيضاً حله في السماء»، (ففي هذا الامتياز ترسو قوة وسلطة الكنيسة الرومانية)، ولقد كتب رسالة بأنه لا يقيم تقديراً لقرار الحرمان الكنسي الذي صدر ضده من قبل سلفنا البابا غريغوري، وبذلك استخف بمفاتيح الكنيسة، بعدم رعايتها بشخصه، ولم يكتف بهذا بنفسه، بل أيضاً بوساطة وسائل موظفيه، فأرغم آخرين على عدم مراعاة قرار الحكم هذا، أو قرارات الحرمان الكنسي الأخرى، مع قرارات الحرمان من شراكة المؤمنين، فهذا كله لم يعبأ به، أما بالنسبة أيضاً

لممتلكات الكنيسة الرومانية، وهي تخوم ودوقية بينيفنتو، (التي أمر بتدمير أسوارها وأبراجها) وممتلكات أخرى كانت بحوذتها في أجزاء من توسكانيا ولومبارديا، وفي بعض الأماكن الأخرى، مع بعض من الاستثناءات القليلة، فقد تجرأ على الاستحواذ عليهم، وكأن هذا لم يكن فيه كفاية، وذلك حين أقدم على هذا العمل، لقد قام بشكل واضح ومكشوف بخرق الأيمان المتقدم ذكرها، وأقدم شخصياً أو بوساطة موظفيه على إرغام السكان في هذه الممتلكات، على إقسام يمين، حللهم فيه — مع أنه لا يمتلك السلطة بموجب الامتيازات أن يفعل ذلك — من يمين الولاء الذي كانوا مرتبطين به بموجب الأمر الواقع، إلى الكنيسة، وبعدما أرغمهم على الحنث بيمين الولاء المذكور، أرغمهم على أداء أيمان ولاء له شخصياً.

وكونه قد برهن عن نفسه، أنه خارق للسلام، فهذا واضح تماماً، لأنه من قبل، أثناء السلام، الذي أعيد تأسيسه بين الكنيسة وبينه، أدى يميناً أمام جون دي أبيفيل، صاحب الذكرى الطيبة، أسقف سالسبري، والمعلم نوماسيوس، الذي كان آنذاك كاردينال — كاهن للقديس ساينا — وبحضور عدد كبير من الأساقفة، والأمراء، والبارونات، بأنه سوف يلتزم تماماً ومن دون شروط بأوامر الكنيسة، وسوف يكون مطيعاً لها في القضايا التي من أجلها جرى حرمانه كنسياً، ذلك أن أسباب ذلك الحرمان قد جرى شرحها له تماماً، كما أنه قام في الوقت نفسه، من خلال كونت أسيرا Acerra، فأدى يميناً بروحه، بأنه سوف يعفو عن جميع الجرائم ويلغي كل العقوبات، بالنسبة لسكان ألمانيا، ومملكة صقلية، وجميع الآخرين، مهما كانت أحوالهم أو مراتبهم، من الذين كانوا واقفين إلى جانب الكنيسة، وأنه سوف لن يؤذيه في أي وقت من الأوقات، أو أن يتسبب لهم بأي أذى، بسبب وقوفهم إلى جانب الكنيسة، ومع ذلك فإنه فيما بعد لم يشعر بأي حياء بسبب تورطه بحنث كبير، وذلك أنه أخفق في رعاية هذا السلام

وأيمانه هذه، لأن هؤلاء الناس أنفسهم الذين تقدم ذكرهم من نبلاء ومن آخرين، أمر بهم، فيما بعد، فجرى اعتقالهم وسجنهم، وبعدما أفسد جميع مقتنياتهم، قام أيضاً بسجن زوجاتهم وأولادهم، وبالإضافة إلى هذا، وعلى عكس الوعود التي أعطاها إلى ج. ل. أسقف ساينسا، والكاردينال توماسيوس، قام بدون وقار فغزا أراضي الكنيسة، مع أن الأسقفين المتقدم ذكرهما، قد أعلنوا بحضوره عن قرار الحرمان الكنسي ضده، إذا ما أقدم في مستقبل الأيام على نقض الشروط المتقدمة والبنود، وقام الأسقفان نفسهما بموجب السلطات التي كانت ممنوحة لهما من الكرسي الرسولي، فحرما عليه أن يقدم شخصياً، أو بوسائل أي واحد آخر، بمنع التسميات، والانتخابات، والتثبيتات في الكنائس والديرة، وأن يحول دون عملها حرة، في المملكة المتقدمة الذكر بالنسبة للمستقبل، تماشياً مع مرسوم صدر عن مجمع عام، كما أمراً أنه ما من واحد، يحق له من ذلك الحين فرض ضرائب أو اسهامات على اللاهوتيين في تلك المملكة، أو على بضائعهم ومقتنياتهم، وأنه ما من كاهن أو لاهوتي في تلك المملكة يجوز أن يستدعى من الآن فصاعداً، للمثول أمام قاض مدني، في أية قضية مدنية أو سبب جرمي، ما لم تكن قضية الخلاف قضية مدنية تتعلق بالايجارات، وقد فرض عليه أيضاً، أن يقدم ترضية مناسبة إلى الداوية والاسبتارية، وإلى اللاهوتيين الآخرين عن الأضرار، والخسائر التي لحقت بهم، ومع ذلك قد رفض تنفيذ جميع هذه الأوامر.

ومن الواضح أيضاً، أن هناك إحدى عشر رئاسة أساقفة، مع عدد كبير جداً من الكراسي الأسقفية، وكذلك من رعوياي الديرة، وكنائس أخرى، هي في الوقت الحاضر شاغرة في المملكة المتقدمة الذكر، وأنهم من خلال وسائله — كما هو واضح تماماً — قد حرموا، منذ وقت طويل، من إدارة الأساقفة، مما يسبب ضرراً عظيماً للكنائس نفسها، ورعب لكثير من الأرواح، مع أنه، ربما قد جرت في بعض الكنائس، في تلك المملكة

انتخابات بوساطة هيئات الكهنة، إنه بسبب الكهنة الذين جرى انتخاب أصدقائهم، من الممكن أن نستخلص، أنهم لم يمتلكوا وسائل القيام بانتخابات حرة، وهو لم يتسبب فقط بالاستيلاء على أساسيات ومقتنيات كنائس المملكة المذكورة، ومن ثم الاستحواذ عليها لتكون تحت تصرفه، بل إنه نهب الصليبان، وكؤوس القربان، والشمعدانات، وبقية الكنوز المقدسة الأخرى، والأقمشة الحريرية العائدة إليهن، وكأن ذلك جاء ازدراءً للعبادات المقدسة، وإنه على كل حال، قد ذكر بأن بعضهم قد أعيد جزئياً إلى الكنائس المذكورة، لكن هناك كمية قد جرت المطالبة لها من قبل، وعسف بالكهنة بطرق مضاعفة كثيرة، بالجبايات وبالمكوس، وهم لم يجرجروا فقط ليقفوا أمام محكمين مدنيين، لابل — كما روي — قد أرغموا على المعاناة من محنة المبارزة الفردية، وقد سجنوا، وقتلوا، وعذبوا على المشانق، مما شكل ازعاجاً وإهانة إلى النظام الكهنوتي كله، ولم تتوفر هناك أعمال تعويض إلى الداوية والاستتارية، وللأشخاص اللاهوتيين الآخرين مقابل الخسائر والأضرار التي أنزلت بهم.

وأما أن يكون مجرمًا بتدنيس الأمور المقدسة، فهذا أمر مؤكد، لأنه عندما كان أسقفًا بورتوا، وبرنيستي مع آخرين من الأساقفة، وكهنة الكنائس، وكذلك الرهبان والعلمانيين قادمين عبر الماء إلى الكرسي الرسولي، من أجل غاية حضور المجمع، (الذي طلب هو، أي الامبراطور، بأن يعقد) كانت جميع الطرق في أراضيه مغلقة بناء على أوامره، وكان قد أرسل ابنه هنري مع عدد من الغلايين، حيث كمن بانتظارهم قرب شاطئ البحر، مع بعض الآخرين الذين كان قد استأجرهم في توسكانيا، من أجل القيام بانقضاض عليهم بكامل القوات، وبغضب شديد، وقد تجرأ أن يضع يديه المندستين عليهم، وقد جرى إغراق بعض الأساقفة مع أشخاص آخرين، وقت الاستيلاء، وبعضهم جرى قتله، وأرغم آخرون على الفرار، وقد طوردوا من قبل أعدائهم، وجرى تجريد البقية من جميع

مقتنياتهم، وحملوا بشكل مهين من مكان إلى آخر في مملكة صقلية، ثم عهد بهم بعد ذلك إلى السجن هناك، حيث تلاشى بعضهم بالأمراض، وعسف بهم بالحاجة، وآل بهم المآل إلى أوضاع تعيسة.

وعلاوة على ذلك، هناك سبب جيد، لاتهمه بالهرطقة، وهو ناشئ عنه، فبعدما نال حكم الحرمان الكنسي، الذي أصدره ضده ج. ل. المتقدم الذكر، أسقف ساينا، والكاردينال توماسيوس، وقيام البابا غريغوري المتقدم ذكره بإصدار حكم التكفير، ضده، وبعد اعتقال الكرادلة الرومان والأساقفة، وكهنة الكنائس، عندما كانوا مسافرين من مختلف الأرجاء إلى الكرسي الرسولي، ازدري ومازال يزدري مفاتيح الكنيسة، وتسبب، بقدر ما هو قادر على التأثير عليها، بممارسة الطقوس الدينية، أو بالحري بتدنيس الطقوس الدينية أمامه، مؤكداً بجرأة، كما ذكرنا أعلاه، بأنه لا يخاف من قرار الحرمان الكنسي، الذي تفوه به ضده، البابا غريغوري، وبالإضافة إلى ذلك، لقد تحالف بحلف مقيت مع المسلمين، فهو غالباً ما أرسل الرسل والهدايا إليهم، وفي المقابل تلقى بعض الهدايا منهم مع الاحترام والبهجة، وقد تبنى عاداتهم، محتفظاً بهم بشكل معلن في خدماته اليومية، وبدون حياء، عيّن حرساً على زوجاته، اللاتي تسلمهن من المنحدرات من أصول ملكية، بعض الخصيان، بشكل خاص أولئك الذين تدبر مؤخراً خصيهم، والذي هو إثم أعظم، أنه عندما كان من قبل في بلاد ماوراء البحر، عمل نوعاً من الترتيبات، أو بالحري من التحالف مع السلطان، وسمح لاسم محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يجري إعلانه بشكل عام في هيكل الرب، نهراً وليلاً، وقام مؤخراً، بالنسبة لقضية سلطان مصر، الذي صنع يديه ومن خلال وكلائه أضراراً وأذى لا يمكن التخلص منه، إلى الأرض المقدسة، وإلى سكانها المسيحيين، وجعل سفراء ذلك السلطان، في تقدير منه لسيدهم، أن يجري — كما قيل — استقبالهم بشكل مشرف، وأن يعاملوا بشكل كريم، في مملكته في صقلية.

كما أنه في معارضة للمسيحيين أساء باستخدام الطقوس الخبيثة والمرعبة للكفار الآخرين، وذلك في تحالف صداقة مع الذين يدفعون بشكل شرير قليلاً من الاحترام إلى الكرسي الرسولي، لابل هم يزدرونه، وانفصم عن الوحدة مع الكنيسة، وألقى جانباً بكل احترام للديانة المسيحية، وتسبب — كما هو مؤكد تماماً — بمقتل دوق بافاريا، صاحب الذكرى الالامعة، على أيدي الحشيشية، كما أنه أيضاً أعطى ابنته بالزواج إلى بتاكيوس، الذي هو عدو للرب وللكنيسة، وهو الذي قد طرد مع معاونيه ومستشاريه، ومحرضيه، بشكل مطلق من الجماعة المسيحية، بوساطة قرار بالحرمان الكنسي، ولقد رفض إجراءات وعادات الأمراء الكاثوليك، وأهمل مسألة خلاصه الذاتي، وطهارة سمعته، ذلك أنه لا يستخدم نفسه ولا يشغلها في أعمال التقوى، والذي هو أكثر (إذا ما سكتنا عن ممارساته الشريرة والمقيبة) هو أنه وإن كان قد تعلم ممارسة الظلم إلى درجة عالية جداً، هو لم يتعب نفسه، ولم يكلفها بالتفريغ عن المظلومين بالأذى، بمدّ يده — كما ينبغي أن يفعل كأمر مسيحي — لتقديم الصدقات، علماً بأنه قصد بتشوق أن يدمر الكنائس، وقد سحق الرهبان، والأشخاص اللاهوتيين الآخرين، بالأعباء، وباضطهاد نيره، ولم يكتشف بأنه قد بنى قط، أو أسس، لا كنائس، ولا ديرة، ولا مشافي، أو أية أماكن تقوية أخرى، وهؤلاء على هذا ليسوا أراضيات خفيفة، بل مقنعة، للتشكك والاقتناع برمييه بالهرطقة، وبما أن القانون المدني يرى بأن هؤلاء موجودين في لائحة الهرطقات، وينبغي خضوعهم للأحكام الصادرة ضدهم، أي ضد الذين انحرفوا ولو بدرجات خفيفة، عن قضاء وحكم الديانة الكاثوليكية.

وبالاضافة إلى هذا، إن جزيرة صقلية، التي هي النصير الروحي للقديس بطرس، والتي هي بين أيدي الأمير المذكور، بمثابة إيجار من الكرسي الرسولي، هذه الكنيسة، قد تدنت من قبله إلى حالة من الفراغ والعبودية، أما ما يتعلق بكل من الكهنة والعلمانيين، فإنهم قد طردوا من

بيوتهم وأخرجوا من البلاد مع الإهانات، وذلك بعدما جردوا من جميع ممتلكاتهم، والذين قد بقيوا هناك، قد أرغموا على العيش في حالة عبودية، حسبما هو الحال، وأن يهينوا، ويهاجموا الكنيسة الرومانية بكثير من الطرق المضاعفة، وهم الذين بالفعل رعاياها وأتباعها في الجزء الأكبر.

وهو ينبغي أيضاً لسبب جيد أن يلام، لأنه أوقف لمدة تسعة أعوام وأكثر، دفع الجعالة السنوية، التي مقدارها ألف قطعة، التي مرتبط بدفعها إلى الكنيسة الرومانية، مقابل ايجار المملكة المذكورة، ونحن بناء عليه، بعدما تداولنا بنضج وبدقة مع إخواننا الكرادلة، والمجمع المقدس حول الأفاعيل التي تقدمت تسميتها أعلاه، وأفاعيل أخرى شائنة اقترفها، ورأينا —مع أننا لانستحق— أننا على الأرض نمتلك سلطات مولانا يسوع المسيح، الذي قال إلينا بشخص القديس بطرس: (إن كل ما سوف تربطه على الأرض، سوف يكون مربوطاً في السماء، و، إلخ)، ولذلك نحن نعلن، أن الأمير الذي تقدمت تسميته أعلاه، والذي حول نفسه لأن يكون غير جدير، بمراتب السلطة، وأنه بالنظر لجرائمه، قد جرى خلعه من عرشه من قبل الرب، وليكون مربوطاً بذنوبه، وملقى به منبوذاً من قبل الرب، ومجرداً من جميع مراتبه الشرفية، ونحن هنا نحكم عليه ونجرده، ومعه جميع الذين هم مرتبطون به بأية طريقة من الطرق، يمين الولاء، ونحن نحلل هؤلاء بشكل دائم، ونلغي التزامهم بذلك اليمين، ونمنع بكل دقة، بموجب السلطات الرسولية، أي واحد من إطاعته، أو أن يحاول بأية طريقة من الطرق إطاعته كامبراطور أو ملك، ونحن نرسم، بأن أي واحد، سوف يقدم إليه، من الآن فصاعداً، مساعدة أو نصيحة، أو أن يظهر نحوه أي تعاطف، كامبراطور أو ملك، سوف يكون بحكم الأمر الواقع، محروماً كنسياً، ويمكن للذين في الامبراطورية، الذين إليهم آل شأن انتخاب امبراطور، أن ينتخبوا بحرية خلفاً يحل محله، أما فيما يتعلق بمملكة صقلية المتقدمة الذكر، سوف نقوم، مع نصيحة إخواننا الكرادلة، بتقديم حل لها

حسبما يكون مناسباً لنا. صدر في ليون، في السادس عشر من تموز، في السنة الثالثة من حبريتنا».

مغادرة وكلاء الإمبراطور في حالة اضطراب

وعندما جرى نشر هذه الرسالة في المؤتمر المعلن، أصابت بالرعب جميع الذين سمعوها، وكأنها كانت تنشر بريقاً، أما المعلم ثاديوس دي سوسا، وولتر دي أوكرا Odra، ومعه الوكلاء الآخرين للإمبراطور، وخدمهم، فقد تلقوا ذلك بدهشة وأسف، حيث كانوا يضربون أطرافهم وصدورهم، ولم يتمكنوا من حبس أنفسهم عن البكاء وذرف الدموع، وقال المعلم ثاديوس صارخاً وقد علتة الدهشة: «آه، إنه يوم مخيف، إنه يوم غضب، يوم مصيبة، وشقاء»، وفي تلك الأثناء، كان البابا وقد جلس من حوله الأساقفة في المجمع، قد تفوهوا مزجرين، والشموع مشتعلة، بقرارات الحرمان الكنسي ضد الإمبراطور فردريك، ووقتها قام وكلاؤه بالانسحاب وهم في حالة اضطراب.

مراسيم من أجل التفريج عن الأرض المقدسة

وحول شؤون الصليب

وكان البابا مليئاً بالقلق من أجل التفريج عن الأرض المقدسة، وحول مايتعلق بشؤون الصليب، ولذلك عمل الخطابات التالية، حول هاتين القضيتين: «مطعونين في القلب، ذلك أننا نعاني من رعب محزن حول الأرض المقدسة، وبشكل خاص حول ماحدث مؤخراً إلى المسيحيين الذين يعيشون هناك، ونحن نمتلك الرغبة من قلبنا كله، لأن نفرج عنها، ولقد قررنا بالتداول مع المجمع المقدس، أن نقوم بوساطة الدومينيكان ورسلنا الخاصين، بدعوة جميع المسيحيين الحقيقيين، الذين عملوا ترتيبات لعبور البحر، في أن يستعدوا لحمل الصليب، وأن يجتمعوا في وقت موائم من أجل هذه الغاية، وأن يكون ذلك في مكان مناسب، منه يمكنهم السير

إلى مساعدة الأرض المقدسة، محاطين بالمباركة اللاهوتية، وكذلك بمباركة الكرسي المقدس، ويتوجب على الكهنة، وعلى رجال الدين الآخرين، الذين من الممكن أن يكونوا مع الجيش الصليبي، سواء أكانوا من المراتب الدنيا، أم كانوا أساقفة، أن يشغلوا أنفسهم، بإثارة الناس وتحريضهم بشكل متواصل، وبالصلاة والتعليم لهم، بالكلمة وبالفعل، وأن يضعوا دوماً أمام أعينهم الخوف من الرب، وحبه، وأن لا يقولوا أي شيء، أو يفعلوه، يمكن أن يغضب جلالته الملك السرمدي، وإذا ما حدث في أي وقت من الأوقات وسقطوا في الذنب، عليهم أن ينهضوا سريعاً من جديد، مع توبة صحيحة، وأن يقودوا أنفسهم بكل تواضع، في كل من القلب والجسد، وأن يتمسكوا بالاعتدال بطعامهم وكذلك بلباسهم، وأن يتجنبوا تماماً الخلافات والمنازعات، وأن يزيلوا من أنفسهم كل حقد وكل حسد، وبذلك فإنهم عندما سيكونون محميين بالأسلحة الروحية وكذلك الأسلحة الدنيوية، يمكنهم القتال بأمان أكثر ضد أعداء الإيمان، غير معتمدين — على كل حال — على قوتهم أنفسهم، بل يثقون بالفضيلة اللاهوتية، ويتوجب على نبلاء الجيش ومقدميه، وعلى كل الذين يمتلكون وفرة من الأموال والثروات، أن يجري تحريضهم بوساطة التحذيرات ومحرمات الأساقفة، أن يتمنعوا — احتراماً منهم للمسيح، الذي من أجله حملوا شارة الصليب — عن جميع النفقات الفارغة والتي هي بلا فائدة، وبشكل خاص عن الذين يقومون بكثير من الاحتفالات، ويكثرون من الانفاق على الطعام الباهظ الثمن، وأن يحولوا أموالهم لاستخدامات أولئك الأشخاص الذين يمكن لشؤون الرب، أن تتقدم بوساطتهم، وإلى هؤلاء، بناء على هذا، سوف يجري منحهم عفواً عن ذنوبهم، وفقاً لحسن تصرف الأساقفة المذكورين، وإلى الكهنة المتقدم ذكرهم قد منحنا مهلة الاحتفاظ بمنافعهم لمدة ثلاثة أعوام، وذلك بأن تكون كاملة، وكأنهم مقيمون في الكنائس، وإذا كان ضرورياً يمكنهم وضعهم تحت الوصاية خلال تلك الآونة، وفي سبيل — بناء عليه — أن لا يراجع هذا التصميم

المقدس، أو أن يعاق بأي شكل من الأشكال، نحن نأمر بكل دقة جميع الأساقفة، كل جماعة منهم في أماكنهم، أن يقوموا بكل نشاط بانذار واقناع الذين وضعوا الصليب جانباً، بأن يعيدوا حمله، وأن يرسموهم هم مع الآخرين بتلك الإشارة المقدسة، وأن يقوم الذين مازالوا يرتدون تلك الشارة، بالوفاء بنذورهم إلى الرب، وإذا كان من الضروري، بإرغامهم على فعل ذلك، بوساطة قرارات الحرمان الكنسي، والحرمان من شراكة المؤمنين، واضعين جانباً كل الأعذار.

وبالنسبة إلى هذا المقصد، من غير الممكن حذف أي احتمال في شؤون مولانا يسوع المسيح، وإنها ارادتنا وأوامرنا، بأن يقوم البطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، والآخرين الذين يتولون معالجة الأرواح، بالتبشير بحماس بكلمة الصليب، إلى الشعب الذي عهد به إلى عنايتهم، وباسم الأب، والابن، والروح القدس، وهم الرب الحقيقي الواحد، والواحد فقط، وأن يلتمسوا بحرارة من المبلوك، والأمراء، والدوقات، والمركيزات، والايولات، والبارونات، والنبلاء الآخرين، ومن الفئات التي تكونت في المدن، والبلدات، والقرى، ومن الذين لم يذهبوا بأشخاصهم إلى الأرض المقدسة، لتقديم عدد كاف من العساكر، مع النفقات الضرورية، لمدة ثلاثة أعوام، وفقاً لإمكاناتهم، من أجل محي ذنوبهم، حسبما جرى التعبير عنه في الرسائل العامة، التي أرسلناها مؤخراً إلى جميع أنحاء العالم، والتي — من أجل ضمان أعظم — سوف يجري التعبير عنها أدناه».

ملاحظة تتعلق بالرسالة

«وهذه الأشياء كلها قد كتبت في سنة النعمة ألف واحدة ومائتين وثلاث وأربعين، قبل أي قداس بليغ»، انظر بعد موت رتشارد مارشال.
«وفي محي الذنوب هذا، نحن نرغب بأن نكون شركاء ليس فقط مع

الذين يقدمون سفنهم، بل مع الذين يشغلون أنفسهم في بناء سفن من أجل المناسبة، إنما بالنسبة للذين يرفضون إنه إذا ما صدف وكان هناك عدم عرفان إلى مولانا الرب، عليهم أن يحتجوا لصالح الكرسي المقدس، حتى يمكن أن يعرفوا أنه في يوم الحساب الأخير الدقيق، عليهم أن يجيبونا عن هذا أمام قاض مرعب، وقبل ذلك — على كل حال — طلب منهم أن يقدرُوا بأي ضمير، أو بأي أمل بالسلامة سوف يكونوا قادرين على الظهور أمام الابن المنجب الوحيد للرب، الذي أودع الرب بين يديه جميع الأشياء، فإذا ما رفضوا في هذه القضية — بشكل شاذ جداً لذاتهم — أن يخدموه، وهو الذي كان قد صلب من أجل ذنوبهم، والذي بعطيته هم يعيشون، وأنهم بلطفه هم مدعومون، وأنهم بدمه قد جرى انقاذهم.

وبموافقة المجمع كله بشكل عام، نحن نرسم، أنه يتوجب على جميع الكهنة، سواء من المراتب الدنيا، وكذلك من الأساقفة، أن يسهموا بجزء من عشرين من جميع موارد الكنيسة، من أجل مساعدة الأرض المقدسة، لمدة ثلاثة أعوام كاملة، بأيدي أشخاص، سوف يكونوا متسمين بحكمة الكرسي المقدس من أجل هذه الغاية، متوقعين — على كل حال — أن يكون هناك بعض الرهبان، الذي يمكن أن يكونوا معفيين من مثل هذا الاسهام، على أرضية صحيحة، وكذلك أولئك الذين حملوا الصليب، أو أنهم على وشك حمل الصليب، وهم سوف يسرون إلى الأرض المقدسة، شخصياً، أما نحن مع إخواننا كراذلة الكنيسة الرومانية المقدسة، فلسوف نرفع عشرين كاملاً، ونحن نود أن يعلم جميع الناس، أن عليهم فعل هذا، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، وبناء عليه فإن الذين سيعرفون بممارسة الغش في هذه القضية، سوف ينالون عقوبة الحرمان الكنسي.

ولأنه بموجب التقدير العادل، حقيق بالذين يعملون بخدمة الحكم الرباني، أن يتمتعوا بجزاء خاص، فالذين سوف يحملون الصليب سوف يعفون من الاسهام ومن الضرائب، ومن التكاليف الأخرى، وبعد حملهم

للمصلب سوف نتسلم أشخاصهم وممتلكاتهم تحت حماية القديس بطرس، وحمايتنا، وقد رسمنا أيضاً، بأن تظل ممتلكاتهم تحت حماية رؤساء الأساقفة، والأساقفة وقساوسة كنيسة الرب، ومع هذا فلسوف يجري تعيين حماة مواعين لهذا الغرض الخاص من قبل أنفسنا، وبذلك يمكن لممتلكاتنا أن تبقى دون إزعاج وكاملة، حتى يمكن الحصول على خبر مؤكد حول عودتهم، أو موتهم، وإذا ما أقدم إنسان على أن يعمل عكس هذا، سوف يجري ضبطه بوساطة الروادع الكنسية.

وإذا ما كان أي واحد من هؤلاء الذين سوف ينطلقون بهذه الحملة، مرتبطاً بيمين بأن يدفع فائدة، نحن نأمر الذين هم مقرضين لهم، تحت طائلة العقوبة المتقدمة ذكرها، أن يقوموا باعفائهم من اليمين الذي عملوه، وأن يتوقفوا عن مطالبتهم بالفائدة، وإذا ما حاول أي واحد من مقرضهم ارغامهم على دفع الفائدة، نحن نأمر بارغامهم على إعادة المبلغ نفسه، تحت طائلة عقوبة الحكم نفسه، ونحن نأمر، بأن يجري إرغام اليهود بوساطة السلطات العلمانية على إلغاء الفائدة، وإلى أن يقوموا بإلغائها، سوف يكونوا ممنوعين من الاتصال مع المسيحيين، بوساطة استخدام حكم الحرمان الكنسي، أما فيما يتعلق بالذين لا يمكنهم في الوقت الحاضر أن يدفعوا ديونهم إلى اليهود، على رجال السلطات العلمانية، أن يقوموا بوساطة تأخير مفيد، عمل ترتيبات تقضي، أنه من الوقت الذي سوف ينطلقون به بالحملة، حتى يمكن الحصول على خبر، إما عن عودتهم، أو عن موتهم، وإلى ذلك الوقت لن يتعرضوا لمضايقات دفع فائدة، وبالنسبة لليهود المرغمين — إنهم بعد حذفهم جميع النفقات الضرورية — سوف يحسبون عائدات المال المتعهد به، التي تسلموها في الوقت ذاته كجزء من الدين، لأن فائدة من هذا النوع لا يبدو أنها تسبب خسارة كبيرة بالالتزام بها، ثم إنه بتأخير الدفع، لا يعني ذلك إلغاء الدين، وبالإضافة إلى هذا، فإن أساقفة الكنائس الذين سوف يظهرون أنفسهم مهملين في تقديم العدالة

إلى الذين حملوا الصليب، أو إلى أسرهم، عليهم أن يكونوا متأكدين بأنهم سوف ينالون عقوبات قاسية.

ومجدداً إنه بالنسبة للقراصنة ولصوص البحر، الذين يعيقونا كثيراً عن إرسال المؤن والإمدادات إلى الأرض المقدسة، بالاستيلاء على الزاهبين إلى تلك البلاد والآيين منها، ونهبهم، إننا نحرمهم كنسياً، ونحرم معهم مساعديهم الرئيسيين ومحرضيهم، ونمنع كل واحد إذا كان مدركاً لها، تحت طائلة عقوبة التكفير، من القيام بالاتصال بهم، في أية قضية من البيع أو الشراء، ونحن نفرض على حكام المدن والأماكن الأخرى، بأن يوقفوا وأن يجبسوا القراصنة المذكورين، ومنعهم عن ممارسة هذه الآثام، ومن جهة أخرى، بما أن رفض ازعاج الأشرار، ليس أقل من رعايتهم، فكل من يتمتع عن معارضة الجريمة الظاهرة، ليس معفياً من الشك فيه أن له تنسيق سري مع المقتربين للجريمة، وبناء عليه، إن إرادتنا وأمرنا، يقضيان باتخاذ إجراءات لاهوتية قاسية ضدهم، ووضع ذلك قيد الممارسة من قبل أساقفة الكنائس.

ونحن علاوة على ماتقدم نحرم كنسياً ونكفر المسيحيين الزائفين والأشرار، الذين في معاداة منهم للمسيح، ولشعب المسيح، يحملون السلاح إلى المسلمين، والحديد، والخشب من أجل غلايينهم، والذين يبيعونهم غلايين أو سفناً، وكذلك الذين يشغلون مناصب قباطنة في السفن الإسلامية، وكذلك الذين يقدمون إليهم أية نصيحة أو مساعدة في آلائهم الحربية، أو في أية قضية أخرى، تؤدي إلى الاضرار بالأرض المقدسة، ونحن نرسم بأن مثل هؤلاء سوف يغرمون بمصادرة جميع ممتلكاتهم، وسوف يكونون خدماً للذين سوف يلقون القبض عليهم، ونحن نأمر أن يعاد نشر مثل هذا القرار ضدهم، في كل يوم أحد، وكل يوم عيد، خلال جميع المدن على شاطئ البحر، وأن صدر الكنيسة سوف لن يكون مفتوحاً لمثل هؤلاء الأشخاص، ما لم يقوموا بتحويل كل ما تلقوه

من هذه التجارة الملعونة، ومثل ذلك أرباح ممتلكاتهم، إلى مساعدة الأرض المقدسة، وبذلك يمكن أن يعاقبوا بقضاء غير منحاز، وفقاً لأخطائهم، ولكن إذا صدف أنهم لم يستطيعوا دفع هذا، إن كل من هو مجرم باقتراف مثل هذه الأعمال، سوف يعاقب بطريقة أخرى ما، في سبيل منع أي واحد آخر عن الإقدام على اقتراف مثل الإجراءات الآثمة.

وعلاوة على ذلك إننا نمنع جميع المسيحيين، ونوقفهم تحت طائلة التكفير، عن نقل سفنهم إلى أراضي المسلمين الذين يسكنون في الشرق، خلال مدة مقدارها أربع سنوات، لأنه بهذه الوسائط سوف تتوفر كميات عظيمة من السفن، من الممكن الحصول عليها لصالح الذين يرغبون بالذهاب إلى مساعدة الأرض المقدسة، وإنه بذلك يمكن حرمان المسلمين من المساعدة، والتي كانوا بهذه الوسائط يحصلون على فوائد كبيرة.

ومع أنه في كثير من المجامع العامة جرى تحريم المبارزات، تحت طائلة عقوبة محددة، وبما أن الحملة الصليبية الآن معاقبة كثيراً بهذه المبارزات، نحن نحرم بكل دقة عقدها لمدة ثلاثة أعوام، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، وفي سبيل تنفيذ هذه القضايا، من الضرورة بمكان، وفوق كل شيء، أن يكون أمراء المسيحية وشعوبها بسلام فيما بينهم أنفسهم، ونحن على هذا نرسم بناء على نصيحة المجمع العام، أن تجرى مراعاة السلام بشكل عام في جميع أرجاء العالم المسيحي، لمدة لا تقل عن أربع سنوات، وأنه بوساطة تدخل أساقفة الكنائس، من الممكن إقناع الذين هم على خلاف بأن يقوموا من دون تقصير بمراعاة سلام كامل، أو على الأقل أن يرتبطوا بهدنة، وإذا ما رفض أي واحد التماسي مع هذا سوف يرغبون على مجارة ذلك وتطبيقه، بإصدار عقوبة الحرمان الكنسي ضد أشخاصهم، والحرمان من شراكة المؤمنين ضد أراضيهم، ما لم تكن أضرار أذاهم، قد بلغت إلى درجة، تحول دون تمتعهم بمثل هذا السلام وإذا ما دفعوا قليلاً من التقدير، أو لاشيء إلى الروادع الكنسية، سوف يمتلكون سبباً جيداً،

لأن يخافوا، بأن نفوذ الكنيسة، سوف يجلب بالضغط عليهم من قبل السلطات العلمانية، بحكم أنهم مفسدون لشؤون المصلوب.

وإننا بناء عليه، نمنح بوساطة رحمة الرب القدير، واعتماداً على سلطة الرسولين المباركين: بطرس، وبولص، وعلى السلطة التي منحنا الرب إياها — مع أننا غير جديرين — وهي الحل والربط، إلى جميع الذين سوف يدخلون لأداء هذا الواجب بأشخاصهم، وعلى حسابهم ونفقتهم، عفواً كاملاً عن ذنوبهم، التي سوف يتوبون منها، ويعملون اعترافاً حقيقياً، مع قلوب نادمة، وكجائزة إلى المستقيمين، نحن نعد بزيادة هي خلاص سرمدى، إلى الذين لا يذهبون إلى هناك بأشخاصهم، بل إنهم — مع ذلك — سوف يرسلون أشخاصاً موثمين إلى هناك على حسابهم الخاص، وذلك وفقاً لإمكاناتهم ومراتبهم، ونحن أيضاً نمنح إعفاء تاماً من الذنوب، كذلك إلى الذين سوف يذهبون إلى هناك بأشخاصهم، مع أن ذلك على حساب واحد آخر، وبالنسبة إلى هذا الإعفاء نحن نرغب، ونسمح بالمشاركة (وفقاً لمقدار مساعدتهم ولطبيعة اخلاصهم) إلى جميع الذين سوف يقدمون مساعدة كافية إلى الأرض المقدسة، من ممتلكاتهم، أو أنهم سوف يقدمون عوناً مفيداً ونصيحة حول المسائل المتقدم ذكرها، وإلى جميع الذين يقدمون بتقوى العون في هذا العمل، سوف يخصه المجمع المسكوني المقدس بمساعدة أذعته، ورغباته الطيبة، فذلك يمكن أن يكون له وزن مفيد نحو ضمان خلاصهم. آمين».

ما يتعلق بقرار الحرمان الكنسي

«يتسبب القضاة بالأذى، عندما يسيئون استخدام الروادع الكنسية، وقت سعيهم باخلاص لفصل البريء عن صدر أمه الكنيسة، وذلك بسبب خطيئة فئة أخرى، التي نجد بسببها أن الشخص الذي وسم بشكل غير صحيح، هو لم يتضرر، لكنه أصبح جانبياً متهماً، وإنه بناء عليه، وفي سبيل تجنب هذه الرعونة، أو بالحري انعدام البراعة، لمثل هؤلاء

الأشخاص، إننا بهذه العروض نرسي مرسوماً، يقضي أنه لا يجوز لأي قاض، قبل اتصاله مع رجال القانون، الاقدام على الحرمان الكنسي بوساطة أي حرمان كنسي صغير، ضد الذين أصبحوا شركاء مع شخص محروم كنسياً من قبلهم، لعقده محادثات معه، أو أي شيء آخر بوساطته تحولاً إلى شركاء، باستثناء — على كل حال — الأحكام القانونية التي أذيعت ضد الذين تجرأوا على المساهمة في جريمة أخرى، قد أدين بموجبها.

لكن إذا ماسقط شخص بوساطة المحادثة، أو الاستخفاف بالأشياء المقدسة، أو بأية وسائط التي بموجبها، المشاركة مع انسان محروم، تحت حكم صغير، إنه سوف ينال عقوبة الحرمان الكنسي الأعظم، من أجل أن يتمكن بسهولة أكبر أن يعود بوساطة تكفير سالف، للحصول على التحليل، ويمكن للقاضي بعد الاتصال القانوني، أن يزور المتشاركين مع ذلك الشخصي نفسه، مع عقوبة مشابهة، وإلا فإن عقوبة الحرمان لن تكون جيدة ضد المشاركين، والذين يتفوهون بالحكم، سوف يكون لديهم سبباً للخوف من عقوبة شرعية».

العقوبة من أجل تمرد عدواني على شخص غائب

«إذا ما تخاصم أي شخص مع ممتلك آخر، حول مايتعلق بأية منفعة مرتبطة بمرتبة، أو شخص، أو أية منفعة لاهوتية، على أساس اعتداء فئة مخاصمة في سبيل الحفاظ على تلك الشيء نفسه، نحن نرسم بأن لا يوضع بالتملك، خشية أن قبوله بهذه الوسائط يمكن أن يظهر أنه خطأ، ومن الممكن — على كل حال — أن يكون قانونياً في هذه القضية، حسبما يفعل الحضور اللاهوتي من أجل غياب الفئة المتمردة، مع أن القضية لم تجلب للمحاكمة، للقيام بفحص دقيق، ومن أجل القرار الصحيح حول الشيء نفسه».

وجوب عدم وضع أي معيق لمحاكمة أية قضية خلافية

«إن التدخل، قبل عرض القضية على المحاكمة، مثل الاستثناءات الوقفية، أو أي اعتداء رئيسي عائد للاعتراف بالقضية، أو وارد فيها، ما لم يعمل المتقاضى استثناءً في قضية المسألة قيد المحاكمة، أو الصفقة أو اتخاذ قرار، لن يعيق أو يوقف محاكمة القضية، مع أن المعارض قد يقول بأن جواباً قد تم الحصول عليه، في القضية، حيث أسس المعارض للمدعي قد عملت معروفة للدعاء».

لا يعهد بالقضايا إلى وكيل قضاة ما لم يكن ذلك

في أماكن معروفة جيداً

«في الحلول والتسويات النهائية لأعمال القضايا، الغموض مكروه، وينبغي تجنبه، وإذا لم يوجد أي شيء حول الأشخاص والأماكن فهذا موافق كثيراً ويوصى به، وفي هذه القضية، فكرنا لذلك أنه من الموائم أن نرسم، وأن نأمر بكل دقة، بأن ما من قضايا سوف يعهد بها من قبل الكرسي الرسولي أو وكلائه، إلى أي فريق، ما لم يكن ذلك إلى أشخاص موهوبين بمؤهلات موائمة، أو معينين في كنائس كاتدرائية، أو في تجمعات أخرى محترمة، وأن مثل هذه القضايا لن تجري مناقشتها في أية أماكن، بل في المدن، أو في الأماكن الواسعة المتميزة، حيث يمكن توفير عدد من البارعين في القانون، وأية قضاة هم معارضون لهذا المرسوم، وسوف يستدعون واحداً من الفريقين، أو كلاهما، إلى أية أماكن أخرى، يمكن عدم طاعتهم مع افلات من العقاب، ما لم يكن الاستدعاء قد صدر بموافقة الطرفين».

لن يسمح بالاستدعاء إلى مستدعي متمرّد

«إذا ما أهمل أي مستدعي الظهور في التاريخ المحدد الذي استدعى إليه خصمه، سوف يحكم عليه قانونياً، إلى الشخص المتهم — إذا ما ظهر —

بالنفقات التي تحملها في القضية، ولن يسمح له القيام باستدعاءات أخرى،
مالم يقدم ضمانات كافية بأنه سوف يظهر في الموعد الذي تقرر».

لا يجوز إرغام أي واحد على الظهور أمام قضاة مختلفين من أجل أعمال شخصية مختلفة

«نحن نرغب بكل الوسائل الممكنة بأن نزيل، وأن نبقي في حدود
العدالة، نفقات القضايا التي هي موضع خلاف، ونحن نوسع مرسوم
البابا انوسنت الثالث، صاحب الذكرى الطيبة، الذي أعلن حول هذه
القضية، وهو مرسوم قضى وأمر، أنه إذا ما اختار أي واحد أن يحضر عدة
أعمال شخصية ضد آخر، عليه أن يسعى للحصول على تراخيص تتعلق
بجميع القضايا، ليس من عدة قضاة، بل من واحد فقط، وإذا ما سبقه أي
واحد على العمل بشكل معاكس لهذا المرسوم، فلسوف يحرم من جميع
منافع التصاريح وفوائدها، والإجراءات القضائية التي تم الحصول عليها،
بناء على قوتها، سوف تصبح لاغية، وعلاوة على هذا سوف يقضى عليه
بأن يدفع جميع النفقات القانونية إلى المدعى عليه، إذا ما تعرض للأذى
بوسائلهم، وكذلك إنه إذا ما أقدم المدعى عليه أثناء المحاكمة فيبين بأن
المستدعي مرتبط به بتعويض أو ميثاق، فإنه إذا ما رغب بالحصول على
ترخيص ضد المدعى عليه، فإن عليه أن يطالب بحقه أمام بعض القضاة،
مالم يستطع أن يرفضهم على أساس أنهم موضع ريبة، وكل من سوف يقف
ضد هذه الإجراءات سوف يعاقب مثل ذلك».

حول الأشخاص الذين سوف يرغمون على الظهور أمام القضاء

«لا يبدو أنها نقطة في القانون، إذا ما قام قاض مناسب، لم يتسلم أمراً
خاصاً من الكرسي الرسولي من أجل ذلك، أنه لا يستطيع أن يأمر أيّاً من
الفريقين على الظهور شخصياً أمامه للمحاكمة، مالم تكن القضية قضية
إجرامية، أو أنه سوف يأمر الفريقين على الظهور شخصياً أمامه، بقصد ذكر

الحقيقة، أو أداء يمين حول ما يدعيانه».

ما يتعلق باقتراحات سلبية

«نحن نرسم ونأمر بوجوب عدم قبول القضاة بشهادات سلبية، لا يمكن برهنتها، ما لم يكن ذلك من الفئة المضادة، عندما يرون في العدالة الموائم».

حول الانتخاب

«إنه بالنسبة للأيام والظروف الأخرى من أجل الإجراءات القضائية، ليست هناك حاجة إلى إقرار قانوني، وبين الإجراءات القانونية، يعد إقامة الانتخاب من أجل خبر أعظم، هو الأعظم أهمية، وهو يماثل ببعض الروابط زواجاً روحياً، يجري عقده بين المنتخبين والمنتخب، ونحن نشجب ونحرم في الانتخابات، التسميات والتدقيقات، التي منها صدرت حقوق الانتخاب، وكل الأصوات التي هي شرطية، ومتغيرة، وغير مؤكدة، ونحن نرسم بأن جميع الأصوات التي هي من هذا النوع أن تعدّ وكأنها لم تعط مطلقاً، فكل الانتخابات ينبغي أن تصدر عن موافقة حرة للجميع».

استطراد يتعلق بأمرأ ألمانيا

«إن نبلاء ألمانيا، الذين لا ينتخبون الامبراطور هم:

— ملك بوهيميا.

— دوق اللورين.

— دوق برونزويك Brunswick.

— دوق سوابيا.

— اللاندغريف أوف ثورنجا.

— دوق أوف ليمبورغ .Lemburg.

— دوق أوف كارينثيا .Carinthia.

— دوق سكسوني.

— كونت غويلدرس .Gueldres.

والمنتخبون للامبراطور هم كما يلي:

العلمانيون

— دوق النمسا.

— دوق بافاريا.

— دوق سكسوني.

— دوق برابانت (الذي هو دوق لوفين .Louvain).

الأساقفة

— رئيس أساقفة كولون.

— رئيسا أساقفة: مينس Mayence وسالزبورغ Salzburg.

وهم الرئيسيون.

ويجري نقل هؤلاء الذين يحق لهم الانتخاب، إلى جزيرة في نهر الراين، ويتركون هناك لأنفسهم، فجميع القوارب سوف يجري نقلها، وهناك يناقشون انتخاب الامبراطور، وما من أحد سوف يذهب إليهم، حتى يتفقوا في اختيارهم، وتكون الرئاسة في هذه القضية إلى رئيس أساقفة كولون، ورئيس أساقفة مينس هو الثاني بعده، ورئيس أساقفة سالزبورغ هو الثالث».

وإلى هؤلاء المنتخبين جرى إرسال انذارات عاجلة جداً والتماسات من قبل البابا، بأن عليهم انتخاب امبراطور آخر عليهم، وقد وعد بالنصيحة والمساعدة منه شخصياً، ومن الكنيسة كلها، وقد وعدهم بالمقام الأول، مع أمل النجاح بخمسة عشر ألف باوند من الفضة، وقد مُنِع هؤلاء بقوة حجج الامبراطور فردريك، الذي كان متحداً معهم بروابط القرابة، وخاصة مع دوق النمسا، ولذلك أظهر المنتخبون قليلاً من الطاعة إلى انذارات البابا والتماساته.

لا يجوز جلب الناس من مسافة أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة لحضور محاكمة

«في العديد من نقاط القانون، كثيرها وقليلها، ما يستحق الشجب، ولذلك فكرنا أن من الموائم بشكل حكيم أن نرسم: إنه بالنسبة للفقرة العامة التي تبدأ بـ (بعض آخرين، إلخ) التي غالباً ما أقحمت في رسائلنا، الناس سوف لن يجلبون من مسافة سفر ثلاثة أيام أو أربعة للمحاكمة، ورسمنا أيضاً أن الحماية —الذين منحناهم إلى عدة فئات— يمكنهم أن يدافعوا عن الذين عهدنا بهم إلى حمايتهم، ضد العنف والايذاء المكشوف، لكن ليس لديهم السلطة لمدّ حمايتهم إلى أشياء أخرى تتطلب حرماناً كنسياً قضائياً».

لا يجوز لأحد إعاقه الانتخابات أو التسميات

«نحن نرسم إنه إذا ما أقدم أي واحد على إعاقه انتخابات، أو تسميات، أو عمل تجهيزات، بالقيام بأي اعتراض على صيغ أو أفراد، وتمّ عمل التماس إلينا نتيجة لذلك، على الفئتين: الفئة المعارضة والفئة المدافعة عن اللتماس، مع جميع الذين لهم علاقة بشكل عام بالقضية، الانطلاق إلى الكرسي المقدس، خلال شهر من وقت عمل الاعتراض، إما بأنفسهم شخصياً، أو بإرسالهم وكلاء، قد عهد إليهم بالقضية، لكن أية فئة منتظرة لم

تظهر خلال عشرين يوماً بعد وصول الفئة الأخرى، إن مسألة الانتخاب سوف تجري وفقاً للقانون، دون الاهتمام بغياب أي واحد، وإن اردتنا تقضي وكذلك أوامرنا بمراعاة هذه الأحكام، في الأسقفيات، ومن قبل الأشخاص، والكهنة».

العقوبة التي توقع على الذين يخفون في براهينهم

«وعلينا أن نضيف أنه إذا ما أخفقت أية فئة في تقديم برهان كامل على الذي عرضته في الصيغة، هي سوف يحكم عليها بأداء النفقات، التي سوف تبرهن الفئة الثانية بأنها قد دفعتها وتكبدتها في هذه المسألة، ولتأكد كل واحد سوف يخفق في البرهنة على الاعتراض الذي عمله ضد أي شخص مهما كان، بأنه سوف يعلق من الإفادة من المنافع اللاهوتية لمدة ثلاثة أعوام، وإذا ما أقحم نفسه أثناء ذلك وورطها بطيشه سوف يحرم بشكل عادل من منفعه إلى الأبد، من دون أي أمل بالحصول على الرحمة في هذا المجال، مالم يظهر براهين واضحة تماماً ومنطقية، وبما يكفي من تعليل بأنه قد تبرأ من الخطيئة التي اقترفها».

واجبات النائب البابوي

«إن واجب منصبنا هو التجهيز والاسهام للتفريج عن رعيتنا، فلبعض الوقت رفعنا عنهم أعباءهم، وأزلنا أسبابهم للذنوب، وها نحن الآن نتمتع بالراحة في هدوئهم، ونرعى سلامهم، ولذلك إنه بناء على هذه المعطيات، نحن نرسم بأن النواب البابويين للكنيسة الرومانية، عندما يشغلون منصب النيابة البابوية تماماً، سواء أجرى إرسالهم من قبلنا، أو كانوا في أعمال لصالح كنائسهم، سوف يمارسون بأنفسهم الواجبات الكاملة للنيابة البابوية، ولن يكون لهم، بمزية منصب النيابة البابوية هذا، أية سلطة بمنح منافع، مالم نكن قد رأينا أنه من الموائم بشكل خاص منح هذه السلطة إليهم، وهذا — على كل حال — لانعني مراعاته في قضية إخواننا، أثناء

ممارستهم لواجبات النيابة البابوية، لأنهم يتمتعون بإمтиاز شرف، لذلك نحن نخول إليهم بأن يمتلكوا سلطات كاملة».

حول إعادة البضائع المسروقة

«لقد سمعنا بأذاننا شكاوى متوالية ومستعجلة، لأن الالتماسات والمرافعات حول السلب قد جرى تقديمها بشكل زائف، في عملية ملاحقة إدعاء ما، الأمر الذي يعيق كثيراً، ويسبب الاضطراب للقضايا اللاهوتية، وتأتي الالتماسات في بعض الأحيان مستعجلة، ويحدث في بعض الأوقات أن الالتماسات يجري التدخل بشأنها، وبذلك يجري اعتراض سماع القضايا الأساسية، وفي بعض الأحيان يلقي بها جانباً، وعلاوة على ذلك بما أننا نستخدم جهودنا متطوعين للحصول على الهدوء للآخرين، ورغبة منا بوضع حد للتخاصم، وقطع مواد جميع مثل هذه الادعاءات، نحن نرسم أنه بالنسبة للقضايا المدنية، على القاضي أن لا يقوم بتأجيل الإجراءات في القضايا الرئيسية، بسبب التماس دعوى سلب يتقدم بها أي انسان، باستثناء المستدعي، لكن في القضايا المدنية، إنه إذا ما تم تقدم الالتماس من قبل المستدعي في قضايا إجرامية، إنه إذا ما أعلن المتهم بأنه قد تعرض للسلب والضرر من قبل أي واحد، عليه أن يبرهن هذا الأمر خلال خمسة عشر يوماً شروعا من اليوم الذي كان به الادعاء، وإلا فإنه سوف يحكم بدفع النفقات التي تحملها المستدعي، وفي الوقت نفسه، وبسبب ذلك، جرى من قبل فرض ضريبة قضائية، وهو سوف يعاقب أيضاً، بطريقة أخرى ما، إذا بدا ذلك عادلاً بالنسبة للقاضي، وفيما يتعلق بالشخص المتأذي في هذه القضية، إنه عندما يكون الاتهام إتهاماً جرمياً، نحن نرغب إليه أن يتولى تأكيد فيما إذا كان قد تعرض لسلب جميع ما لديه بالقوة، أو لبعض ذلك، ووفقاً لهذا، لا بد من الاعتقاد بأن القانونين قالوا بشكل حكيم، بأنه إذا كان عارياً، علينا عدم منافسته، وإذا كان مجرداً من السلاح، ينبغي عدم عمل معارضة في قضية الخطيئة، لأن الطرف المجرد

ن كل شيء، لديه المزية التالية، وهي بما أن عار: لا يمكن تجريده، وهناك لك عام وعدم اتفاق بين العلماء، حول فيما إذا كان الطرف الذي عانى، انى من سلب من الدرجة الثالثة، وتقدم بالتماس سلب ضد المتهم، إنه في ض الأوقات ينبغي أن يسمح من قبل القاضي، وفي خلال ذلك بإدعاء تعويض، خشية حدوث أنه بذلك يرغب بتملص كل متهم، وهذا ما تقدر بأنه متوافق مع العدل، وإذا لم يتم أثناء الوقت الممنوح بطلب تعويض، ولم يجلب القضية إلى نهاية في الوقت الذي كان يستطيع به فعل لك، من الممكن منذ ذلك الحين فصاعداً أن يتهم بإعماله الاعتراض على لبه، وبالإضافة إلى هذا، نحن نرسم بأن سلب الممتلكات الخاصة، سوف ن يجري الترافع من أجله في القضايا اللاهوتية، أو العكس».

حول الاتهامات

«مع التعاطف التقديرى، رسمت الكنيسة الأم، بأن الترافع من أجل لحرمان الكنسي الأعظم، في أي جزء من المحاكمة قد وضع، سوف يؤخر قضية، ويحجز الفرقاء، وبأنه من هذا من الممكن أن تكون الروادع كنسية أكثر إخافة، وأن مخاطرة الحرمان الكنسي يمكن تجنبها، ومن يمكن ضبط التمرد، والأشخاص المحرومين كنسياً، أثناء حرمانهم من إجراءات العامة، يكونون مقهورين بالعار والاضطراب، ووقتها كونون ميالين بسهولة نحو التواضع والتصالح، ولكن بما أن شرور بني لانسان قد ازدادت، والذي جرى تجهيزه بمثابة علاج قد تحول إلى ررهم، لأنه غالباً عندما التقدم بهذا الالتماس في قضايا لاهوتية من سلال الشرور، يجري تأخير العمل، وتتعرض الأطراف للأذى لاضطراب والنفقات، وبناء عليه، بما أن هذا قد تسلل إلى ما بيننا بمثابة رض عام، رأينا من المناسب استخدام علاج عام، وإنه بناء عليه، إذا ما حل أي واحد اعتراض على أساس الحرمان الكنسي، عليه أن يبين نوع لحرمان الكنسي واسمه، وعليه أن يعلم أن عليه جلب الأرشاع إلى

الملاحظة العامة، وأن عليه أن يبرهن عليها بأكثر الوثائق وضوحاً، خلال مدة مقدارها ثمانية أيام دون حساب اليوم الذي تقدم به بالاعتراض، وإذا لم يتمكن من البرهنة على صحة اعتراضه، على القاضي الاستمرار في القضية من دون تردد، والحكم على المتهم بالنفقات التي سوف يبرهن المستدعي بأنه قد تحملها أثناء تلك الأيام، بسبب ذلك الأمر، بالإضافة إلى الضريبة التي جرى أخذها من قبل، ولكن إذا حدث فيما بعد، أثناء المقاضاة، وحل موعد تقديم البرهان، وتم وضع الاعتراض ثانية حول مايتعلق بالحرمان الكنسي نفسه، أو واحد مختلف، وتمت البرهنة على القضية، فإنه سوف يجري حجز المتهم في الاجراءات المقبلة، حتى يحصل على تحليل، ومن المتوجب ابقاء الاجراءات السالفة قائمة بسلطة كاملة.

شرط: إن الاعتراض لايجوز تقديمه أكثر من مرتين، إلاّ عندما يقوم حرمان كنسي جديد، أو استخلاص برهان واضح وجاهز حول الحرمان الكنسي السالف، لكن بعدما يكون قد قضي بالمسألة، وجرى عرض مثل هذا الاعتراض وتقديمه، إنه سوف يؤخذ بمثابة عذر، ولسوف لن ينال الحكم الذي صدر، قوة أقل، باستثناء حدوث تعرض المستدعي للحرمان الكنسي، وقد علم القاضي بذلك أثناء أي وقت من الأوقات، ومع أن المدافع سوف لن يدخل هذا الاعتراض، على القاضي القيام من دون تأخير، بطرد المستدعي من مكتبه».

حول الحكم والمسألة المتعلقة به

«بما أن قضاء القاضي صاحب الحكم السرمدى لم تجعل مجرماً القاضي الذي أدان بشكل غير عادل، ويشهد على ذلك قول النبي «ليس هو الذي أدانه، عندما صدر الحكم بالإدانة ضده»، ويتوجب على القضاة اللاهوتيين أن يكونوا واعين، وأن يتخذوا احتياطات حكيمة، بعدم السماح بوجود أي تقدير غير صحيح، سواء من كراهية أو حظوة، وعليهم إزالة كل خوف، وعليهم ألا يسمحوا بقلب العدالة لابوساطة جائزة أو الأمل بنيل جائزة،

بل ليحملوا بالميزان بأيديهم، وأن يزنوا بالتساوي بين الفرقاء، وذلك في جميع المسائل التي أمامهم على شكل قضايا، ولا سيما في تقرير الأحكام والتفوه بها، فهنا عليهم أن يضعوا الرب نصب أعينهم، مقلدين الذي عندما دخل إلى خيمة العهد، أحال جميع شكايات الناس إلى الرب، له حتى يقررها بحكمه وقضائه، ولكن إذا ما أقدم أي قاض لاهوتي، أو حتى قاض مناب، لا يعبأ باسمه الطيب، وهو مدمر لشرفه الخاص، فعمل على عكس ما يمليه عليه ضميره، والعدالة، فتوصل إلى أي قرار لإيذاء أي من الفريقين، من خلال حظوة أو في سبيل ربح قدر، فسوف يعلق عن ممارسة واجبات وظيفته لمدة سنة، وإذا لم يرتدع بهذا، سوف يحكم عليه بأن يدفع إلى الفريق المتضرر، وفقاً لحجم الأضرار، ونحن نريد منه أن يعرف أيضاً أنه إذا ما أقحم نفسه في أيام تعليقه، في الخدمات الدينية، هو سوف ينال عقوبة عدم الالتزام بالنظام، وفقاً لأحكام القانون، وهي عقوبة يمكنه أن يتحلل منها فقط بوساطة الكرسي الرسولي، باستثناء — على كل حال — المراسيم التي توجه وتنزل العقوبات على القضاة الذين يعطون أحكاماً غير عادلة، لأنه موائم أن يتلقى أي واحد يقوم باقتراف مثل هذه الآثام، بمثل هذه الطرق الكثيرة، عقوبات مضاعفة».

ما يتعلق بالتماسات التمييز

«إن رغبة قلبنا هي إزالة الخصومات، وأن نحرر رعايانا من اضطراباتهم، وبناء عليه رسمنا، إنه إذا ارتأى أي واحد كان تحت المحاكمة، أو خارج المحكمة، أن من الموائم رفع التماس تمييز إلينا، بشأن إجراءات متشابكة، أو أي أذى ألحق به، وأن يكتب في التماسه اسم القاضي وأن يعبر عن سبب التماسه، وعندما لا يجري قبول الالتماس، أو حدث أي تأخير بالقضية، خروجاً عن الاحترام للرئيس الأعلى، بعد هذا سوف يجري منح وقت إلى الملتمس لتقديم التماس استثنائه، وذلك وفقاً لمسافة المكان، ولطبيعة العمل، إذا ما رغب الملتمس بذلك، وإذا ما طلب الفرقاء

الرئيسيون أوامر موائمة للإجراءات، وجاء الطلب من قبلهم أنفسهم، أو بواسطة الوكلاء، وطالبوا بأسس ووثائق تتعلق بالقضية، على هذا ليذهبوا هكذا مستعدين إلى الكرسي الرسولي، وبذلك إذا بدا موائماً لنا، عندما يجري تقرير مسألة الالتماس، أو يجري إسقاطها بموافقة الفريقين، عليهم السير بالقضية الرئيسية بقدر ما يستطيعون، ويتوجب عليهم بموجب الحق، دون — على كل حال — أن يغيروا المراسيم، التي عملت في القديم حول ما يتعلق بالالتماسات المعمولة من قرارات حكم محددة، لكن إذا لم يراع الملتمس المراسيم المتقدم ذكرها، سوف يُعدّ وكأنه غير ملتزم، وسوف يعود إلى قرار القاضي السالف، وأن يحكم عليه بالوقت نفسه بأداء جميع النفقات القانونية، لكن إذا ما قام الشخص المترافع ضده بإهمال هذا البند، فإن الإجراءات سوف تتخذ ضده وكأنه شخص متمرّد — وذلك بقدر ما هو مسموح بالقانون — ويدان بسداد كل من النفقات، وما يتعلق بالقضية نفسها، لأنه من العدالة بمكان أن تثور القوانين ضد الذي يغش الشريعة والقاضي والخصم».

قرار الحرمان الكنسي

«بما أن المقصود من الحرمان الكنسي هو الشفاء وليس القتل، والتقويم وليس التدمير، شريطة أن لا يقوم الذي صدر القرار ضده بالاستخفاف به، ينبغي على القاضي اللاهوتي أن يأخذ حذراً كبيراً، بالتفوه بهذا القرار، ليظهر أنه يتبع طريق المصحح والمعالج، وبناء عليه عندما يريد واحد حرمان أي واحد كنسياً، عليه أن يدون ذلك كتابة، وينبغي أن يضيف بشكل واضح كتابة السبب الذي من أجله جرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي، وعليه أن يربط نسخة من هذا المكتوب — إذا تطلب الأمر ذلك — ليرسلها إلى الشخص المحروم، خلال شهر، من يوم إصدار القرار، وحول ما يتعلق بقرار الإدانة هذا، تقضي إرادتنا بوجوب تدوين أداة عامة، أو رسائل توثيق تتم كتابتها، وتختم بختم رسمي، وإذا ما أقدم

أي قاضي بطيش على خرق هذا المرسوم، هو سوف يعلق ويمنع من دخول الكنيسة، ومن سماع القداسات، لمدة شهر، وسوف يقوم الرئيس الذي تتم العودة إليه، من دون معارضة، بسحب القرار، وسيقوم بإدانة المذيع له، بأن يدفع جميع النفقات، وأن ينزل به بطرق أخرى عقوبة مناسبة، في سبيل، أننا من عقوبة القضاة، يمكن أن نعلم كم هو أمر جاد الزجاجة بقرار الحرمان الكنسي ضد أي واحد من دون مداولات ناضجة، وإن إرادتنا تقضي أيضاً بأن تتم مراعاة هذه الأحكام نفسها في قرارات التعليق والحرمان من شراكة المؤمنين، لأنهم إذا ما قاموا بأداء القداسات — كما من قبل — عندما يكونوا هكذا معلقين، سوف لن ينجون من عقوبة مخالفة النظام، وفقاً للأحكام القانونية، وفي هذه الحالة، سوف لن يكونوا قادرين على الحصول على التحليل، إلا من خلال الخبر الأعظم».

حول المسألة نفسها

«إنها مسألة مشكوك بها بشكل عام عند بعضهم، حول عندما يطلب أي واحد أن يتحلل بوساطة أي رئيس على أساس تقديم كفالة، وعلى أن يعلن في الوقت نفسه، بأن قرار الحرمان الكنسي ضده هو ساري المفعول، إن منفعة التحليل سوف تمنح له، من دون أي اعتراض، وإذا ما قام أي واحد قبل هذا التحليل، فعرض، على شرط المحاكمة، بأن يبرهن بأنه قد حرم كنسياً بعد استئناف قانوني، وأن خطيئة ملموسة قد اقترفت بشكل واضح في القرار، وينبغي تجنبها في قضايا أخرى، باستثناء ذلك البرهان المذكور، وإنه بالنسبة لمسألة الشك الأولى، نحن نرسم بأن التحليل لا يجوز منع اعطائه إلى أي واحد يسأله، مع أن المصدر للحرمان الكنسي أو الخصم سوف يعارض ذلك، وفي مثل هذه الحالة سوف يجري السماح بثلاث تأخيرات لمدة ثمانية أيام، للذي يعمل هذه الإفادة، ما لم يبرهن على صحة الذي التمس استئنافه في الاعتراض، كما أن القرار لن يجري سحبه، ما لم تكن ترصية كافية قد أعطيت من قبل، أو ضمانة للالتزام بالحق، إذا ما

جرى عرض شك حول الذنب، وبالنسبة للمسألة الثانية، نحن نرسم، بأن أي واحد جرى قبوله للبرهنة، عليه أن يتجنب، أثناء البرهنة المذكورة، في المسائل الأخرى، التي من الممكن أنه جرى قبولها كطرف في القضية، لكن بعد المحاكمة سوف يجري قبوله — على الرغم من ذلك — لأداء واجباته، إلى أعمال التسمية والانتخابات، والاجراءات القانونية الأخرى» (★).

ما يتعلق بالحملة الصليبية

عندما غدت هذه المقررات معروفة لدى الجميع، أعطوا القناعة إلى جميع الجزء العاقل من الجماعة، وفي الحقيقة، استحق البابا ونال عن جدارة شكر وامتنان الجميع بشكل عام، هذا وكانت بعض المقررات قد عملت قبل عقد المجمع، وبعضها أثناء عقد المجمع، وبعضها الآخر بعد عقد المجمع، وكانت بعض المراسيم قد عملت بشكل حكيم وعقلاني أثناء المجمع، تتعلق بمسألة الحملة الصليبية، ولكن عندما تمت الإشارة إلى الاسهام بالمال، ووجه البابا بالرفض علانية، بشكل خاص بسبب الفقرة المكروهة بشكل عام، والتي نصها: «إنهم سوف يقدمون مساعداتهم على أيدي الذين جرى تعيينهم لتلك الغاية، بواسطة بصيرة الرسل»، لأنه في كثير من المرات، وبطرق مضاعفة كثيرة، اشتكى المؤمنون من أتباع الكنيسة، بأنهم قد خدعوا من قبل الكنيسة الرومانية، حول المال الذي كانوا قد أسهموا به من أجل مساعدة الأرض المقدسة، هذا وإنه بالنسبة للمراسيم الأخرى التي صدرت بشكل حكيم، فقد أعطت القبول إلى قول ومسامع المسيحيين، وكانت قد جرت كتابتهم كلمة كلمة، وفقاً للكلمات التي كان قد عملها البابا غريغوري في عام مولانا ألف واحد، ومائتين وثلاث وأربعين، وتحت هذا التاريخ تم العثور أيضاً على نص

- (★) - وردت مقررات هذا المجمع بالأصل مشوهة، ولذلك بذلت غاية الجهد في ترجمتها لتأتي مفهومة ولاأعتقد أن مختصاً بالقانون أو باللاهوت يمكنه أن يفعل أحسن مما فعلته، والله الموفق إلى السداد.

قداس فصيح جداً، كان قد جرى نظمه من قبل البابا غريغوري، وجرى الآن ترديد هذا القداس نفسه، في هذا المجمع، من قبل البابا انوسنت الرابع، وكأنه قداس جديد، وقد أعلن قداسته أيضاً، بأنه سوف ينفذ بلا تردد، جميع هذه المراسيم، خاصة المراسيم المتعلقة بالامبراطور.

ولدى سماع المعلم ثاديوس، هذا قال وهو يتأوه: «لا أرى أن هناك علاجاً مكشوفاً لهذا الرعب»، ثم إنه أضاف مع البكاء والنحيب: «الحق أقول إن هذا اليوم، كان يوم غضب»، ومثل ذلك كان قد قاله من قبل، عندما قلب جميع الأساقفة حاملات شموعهم المشتعلة، وأطفأوهم عندما كانوا يخلعون الامبراطور فردريك المحروم كنسياً، وقال المعلم ثاديوس في نهاية خطابه:

«من هذا اليوم فصاعداً سوف يغني الهراطقة، وسوف يحكم الخوارزمية بشكل مطلق، وسينهض التتار بقواهم، وسوف يسيطرون»، ثم إنه عاد ليروي أخبار هذه الوقائع كلها إلى الامبراطور، ثم إن البابا قال بشكل معلن إلى الجميع: «لقد قمْتُ بواجبي، والآن ليفعل الرب الذي يرضيه، وليقض بالذي يريده في هذه المسائل».

كيف قام فردريك بعد خلعه من قبل البابا بتتويج نفسه

عندما سمع فردريك، وبات عارفاً تماماً بهذه الاجراءات، لم يستطع ضبط نفسه، بل انفجر غاضباً بعنف، وبات يمتلك منظرًا مرعباً، وقد انتفخ، فهكذا رآه الذين كانوا من حوله، ثم زجر قائلاً: «لقد أهانني البابا في مجمعه، وانتزع مني تاجي، فمن أين جاءت كل هذه الوقاحة؟ ومن أين صدرت مثل هذه الإجراءات الطائشة؟ أين هي صناديقي الحاوية على ثرواتي الجاهزة؟ ولدى جلبهم، وفتحهم أمامه، بناء على أوامره قال: «ابحثوا عن تيجاني، هل فقدت الآن؟» ثم إنهم وجدوا واحداً منها، فتناوله ووضعوه على رأسه، وبعدها تتوج هكذا، انتصب قائماً، وبعينين مهددتين،

وبصوت مرعب، وبهياج وانفعال غير منضبط، قال بصوت مرتفع: «أنا لم أفقد تاجي بعد، كما أنني لن أحرم منه بوساطة أي قتال للبابا، أو للمجمع المسكوني، من دون صراع دموي، فهل دفع به تشاخي المبتذل، وأوصله إلى هذه الدرجة، حتى يتمكن من قذفي من المنصب الامبراطوري، فأنا الأمير الأعظم في العالم، ولا يوجد من هو أعظم مني، فهذا أنذا ليس هناك من يساويني، ففي هذه المسألة كان وضعي الإحسان، ففي بعض الأشياء كنت مرتبطاً بالطاعة، على الأقل صدوراً عن الاحترام له، لكنني الآن قد تحررت من جميع روابط العاطفة والاحترام، وكذلك من الالتزام بأي نوع من السلام معه»، وبناء عليه، أمر من ذلك الوقت فصاعداً بإيذاء البابا بشكل أكثر تأثيراً وفعالية، وفعل كل أنواع الضرر لقداسته، في أمواله، وكذلك أصدقائه وأقربائه.

وقام بناء عليه، حتى يزيد من قوة حزبه، فلجأ إلى خطة الزواج من ابنة دوق النمسا، ولكي يحقق هذا، أرسل رسلاً خاصين، بكل سرعة، إلى الدوق المذكور، لكن عندما وصل علم هذا إلى السيدة، رفضت بثبات كل ارتباط أو زواج مع الامبراطور فردريك، حتى يجري تحليله، وقد وافق والدها على ذلك، وقد بعث إلى الامبراطور يخبره بهذا الموقف، فشعر بعار كبير، لأن رفضه جاء منها معاً، وقد أصبح — على كل حال — قاسياً، وسعى إلى تحويل قلوب الملوك والأمراء عن تقديم الاحترام إلى الكنيسة، وكذلك إلى الأساقفة، وبشكل خاص إلى البابا، ولكي يتوصل إلى مقصده، كتب رسالة بليغة جداً، فيها أخرج من جوفه النوايا السامة لقلبه التي أخفاها لمدة طويلة.

رسالة الإمبراطور فردريك

«من فردريك، إلخ، إلى ملك انكلترا، إلخ: هناك قول قديم يصف بالمحظوظين الذين تعلموا الحذر من مصائب الآخرين، لأن أوضاع الخليفة تتمن بأسس السلف، ومثلما يتلقى الشمع الضغط من الختم، مثل

ذلك تشكلت نهاية الحياة البشرية بالشكل نفسه، لقد رغبت بأن تكون جلالتك قد تقدمت علي، أو جئت قبلي لنيل هذا الحظ الطيب. وخبرة الحذر التي ندعها الآن لك، أيها الملك المسيحي، من الأذى الكبير الذي عمل لأنفسنا، أو بالحري ترك لنا من قبل الملوك والأمراء، الذين تعرضوا للأذى مثلنا، وعلاوة على ذلك، إن هؤلاء الذين يعدون الآن كهنة، والذين سمّنوا على صدقات آبائنا، يتولون الآن ظلم أبناء الذين هم أولياء نعمتهم، وأبناء هؤلاء الرعية لنا، الناسين لأحوال آبائهم، لا يتنازلون لإظهار الاحترام المتوجب لا إلى الامبراطور، أو الملك، فور تكريسهم لحمل ألقاب الآباء الرسولين، وحقيقة ما هو موجود هنا، والتي أشير إليها بكلامنا بأسهاب قد تبرهنت الآن تماماً، بإقدام البابا انوسنت الرابع، التي تولى جمع مجمع عام — حسبما سمّاه — وتجراً على إصدار قرار بالخلع ضدنا، نحن الذين لم توجه إلينا الدعوة لحضور المجمع المذكور، كما لم يتبرهن أننا مدانون باقتراف أي خداع، أو شرور، وهو قرار لا يمكن تأسيسه من دون ضرر عظيم لجميع الملوك، لأنه ما الذي سوف يبقى هناك إلى أي واحد منكم أيها الملوك من كل مملكة، إلا أن تخافوا من وجه مثل أمير الكهنة هذا، إذا ما أقدم على خلعنا، نحن الذين جرى تشريفنا حقيقة من السماء بالتاج الامبراطوري، بوساطة انتخاب مهيب من الأمراء مع استحسان الكنيسة كلها، عندما كان رجال الدين مزدهرين بإيمان وتدين، ونحن الذين نتولى حكم كثير من الممالك الفخمة الأخرى، لأنه ليس من شأنه أن يارس أية سلطة ضدنا، وذلك بقدر ما يتعلق الأمر بالضرر الدنيوي، لابل من الممكن استخلاص قضايا قانونية من ذلك، لكن لست أنا الأول، كما أنني لن أكون الأخير، الذي يتعرض لأذى سوء الاستخدام الكهنوتي للسلطة، هذه السلطة التي تسعى لاسقاطنا من الذروة نحو الأسفل، وإن هذا بالحقيقة الذي تفعله، تفعله باظهارك الطاعة إلى الذين يدعون القداسة ويتظاهرون بها، والذين آمالهم وطموحاتهم (أن يصب الأردن كله في أفواههم)، آه، حبذا لو أنك تقوم وفقاً لكلمات مخلصنا بتحويل ثقتك عن

لطف الكتاب والفريسيين، الذي هو رياء، وأن تصغي إلى نفسك، وأن تتذكر كم هي دناءات ذلك البلاط، التي كنت تتمنى أنه كان بمقدرك شجبها، مع الاقتباسات التي هي محرمة بالشرف والحياء، والموارد الوافرة، التي استغنوا بها، في سبيل إفقار عدة ممالك، كما تعرف أنت شخصياً، قد منحتهم الفجور والشموخ، والمسيحيون والحجاج يرجونك بأن يأكل الباترانيين بيننا، فأنت هناك تدمري بيوت شعبك، حتى تتمكن من بناء بلدات إلى أعدائك، وهكذا إنه بوساطة عشورك وصدقاتك، تمكن هؤلاء الفقراء من أتباع المسيح من العيش، لكن دون مقابل أي تعويض، لابل أي امتنان أظهروه أنفسهم، أنه صادر عن الضمير وعن اللطف؟ فكلما مددت يديك عن طواعية، كلما ازدادوا شوقاً للامساك، ليس فقط اليدين، لابل الذراعين، حابسيننا في شباكههم مثل طيور صغيرة، كلما زدنا من محاولة الفرار، كلما زادوا من ربطنا بشدة أكبر.

وللوقت الحاضر، جعلنا شغلنا أن نكتب بعيداً — مع أن ذلك ليس فيه كفاية — نشرح رغباتنا ولسوف نعطيك معلومات أكثر، هي أكثر سرية، حول الاستخدامات التي لجأ إليها هؤلاء الناس المبدعين الشرهين الطامعين بأموال الفقراء، وحول التصاميم التي تصورناها أنفسنا، وأرغمنا على عملها، فيما يتعلق بالسلطة الامبراطورية، وكيف توفرت النية، بجهود الوسطاء، لإعادة تأسيس السلام — على الأقل ظاهرياً — بيننا وبين الكنيسة، وكيف اقترحنا لترتب حول ما يتعلق بشؤون الملوك بشكل عام، وكل واحد منهم بشكل خاص، والترتيبات التي عملت حول ما يتعلق بالجزر في المحيط، وكيف أن ذلك البلاط كان يتأمر ضد جميع الأمراء بشكل عام، بموجب بعض الخطط، ومع أن هذه الترتيبات قد عملت بشكل سري، ما كان لها أن تنجو من ملاحظتنا، أو ملاحظة بعض الأشخاص الخاضعين إلينا، وأصدقائنا، الموجودون هناك، وكيف أننا مع عساكرنا كلهم مستعدون للحرب، وباستخدام جميع مساعينا، نحن مع حلول الربيع القريب، أن نكون قادرين على الضغط على الذين يضغطون

الآن علينا، وسوف نفعل ذلك حتى ولو وقف العالم كله ضدنا، هذا وإن كل ماسوف يبلغك إياه أفراد رعيتنا المخلصين، الحاملين لهذه الرسالة، ويذكروه لك، يمكنك أن تصدقه تماماً، وأن تضع فيه ثقة ثابتة جداً، وفيهم، وكأن القديس بطرس قد أخذ العهد عليهم.

ونحن نرجوك — على كل حال — أن لاتقدر، أن جلالة مقامنا العالي قد انزعجت بالقرار الذي جرى التفوه به ضدنا من قبل البابا، لأن ضميرنا نقي، وبالتالى الرب معنا، الذي إليه ندعو، ليكون شاهداً على صدق كلامنا، ولقد كان اهتمامنا دوماً ورغبتنا إقناع رجال الدين من كل طائفة، وبشكل خاص ذوي المراتب العليا، بأن يسلكوا طريقاً يستهدفوا من ورائه غاية العيش في حالة الكنيسة الأولى، بممارسة حياة رسولية، وبتقليد تواضع مولانا، لأنهم اعتادوا على رؤية الملائكة، وهي تشع بالمعجزات وهي أيضاً تشفي المرضى، وتعيد الموتى إلى الحياة، وأن تنزل الملوك والأمراء إلى الخضوع إليهم، ليس بوساطة السلاح، بل بوساطة القداسة، لكن هؤلاء القوم، كرسوا أنفسهم للدنيا، وأن يسكروا في متعها، واضعين الرب جانباً، وبشروعاتهم الوافرة، ومقتنياتهم الغنية جرى طبخ الديانة كلها، وأن يجري انتزاع الثروة المؤذية من مثل هؤلاء الأشخاص، المثقلين الآن بها حتى حد لعنتهم، هو من أعمال الإحسان، وهذه الغاية، عليك على هذا، وعلى جميع الأمراء الاتحاد معنا، وأن نستخدم كل الجهود المتواصلة لجعلهم يضعون جانباً جميع الثروات الفائضة، وأن يعبدوا الرب، وهم قانعين بممتلكات متواضعة».

كيف تناقشت سمعة فردريك يوماً

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع الملكين المسيحيين لفرنسا وانكلترا، بات واضحاً لهما مثل وضوح الضوء، وكذلك لنبلائهما، بأن فردريك كان يسعى بوساطة جميع الامكانيات المتوفرة لديه، إلى تدمير حرية الكنيسة وكرامتها، وهي الكنيسة التي لم يزد قط لاحتريتها ولاكرامتها، مع أن أسلافه النبلاء، قد بذلوا غاية جهدهم لتأسيسها، وبهذه الحقيقة بالذات حول

نفسه إلى متهم بالهرطقة، قد قام بوقاحته وقلة حيائه، فأطفأ ودمّر كل شعاع حسن رأي بحكمته، واحترام لحكمته، وهو ما كان موجوداً حتى الآن بين الناس، غير أن هذين الملكين، حتى لا يظهرأ وكأنما يتصرفان وفق أخلاق النساء، وبشكل غير مشرف، بالقيام على الفور بمهاجمة واحد، كانا قد حمياه من قبل، لذلك قاما لبعض الوقت بإخفاء غضبهما، وحافظا على الصمت، لكن ليس من دون تدمير، وبناء عليه، امتد تحسنت بهذه الاجراءات أحوال البابا، وبدأ يسترد أنفاسه.

وكان هناك — على كل حال — جرحاً كبيراً، ضغط على الأمراء، وكذلك على الأساقفة، بدرجة أثقل من كل شيء، وكان هذا، هو أنه صحيح أن الامبراطور فردريك قد استحق، بسبب عدد كبير جداً من القضايا، أن يتعرض للإذلال، وأن يجرد من جميع مراتبه، وأنه بعون الرب، يحق للسلطات البابوية خلعه من دون تردد، إنما هنا تكون الكنيسة الرومانية قد أساءت استخدام حظوة الرب، وسوف تنتفخ في المستقبل إلى درجة من العجرفة والتكبر غير المحتمل، مما سيدفعها أمام سبب بسيط من الأسباب، إلى خلع المقدمين الكاثوليك — وبشكل خاص الأساقفة — مع أنهم عادلين وأبرياء، أو أن تقوم بتهديدهم بشكل مشين بالخلع، والرومان، وإن ولدوا من دم جلف، سوف يتحدثون بتشامخ، ويتبجحون قائلين: «نحن قد وطئنا بأقدامنا أعظم السادة وأقواهم، وهو الامبراطور فردريك، فمن أنتم حتى تفكرون بطيش بمقاومتنا؟»، وإذا ما حدث وأثير الأمراء على هذه الصورة، سوف يشورون عليهم، وبانتقام الرب، سوف تكون السلطات الرومانية عرضة للدمار.

كيف أن محاولات وكلاء الجماعة الإنكليزية

قد حرمت من تأثيرها

بالنسبة لوكلاء الجماعة الانكليزية، أي الايرل بيغود، ورفاقه الذين تقدم

ذكرهم وتسميتهم، الذين كانوا ينتظرون جواباً مفيداً من البابا، حسبما كان قد وعد، لقد جعلوا أخيراً يفهمون أنهم لن يحصلوا على مطالبهم، ولذلك غادروا وهم مغضبين كثيراً، وأعطوا مجالاً للتهديد، وأقسموا بيمين رهيب، بأنهم سوف لن يشبعوا النهم المقيت للرومان مطلقاً، بدفع الضرائب، كما أنهم لن يسمحوا بدفعها، ولن يقبلوا بعد الآن بإعطاء موارد الكنائس (وبشكل خاص الموارد التي من المعروف أن نبلاء المملكة هم أولياء نعمتها) واستغلاها منذ الآن فصاعداً، ومع ذلك مرّ البابا بهذه الأشياء كلها متظاهراً بعقل صابر، وبعينين قانعتين، وانتظر بهدوء الوقت لاتخاذ اجراءات هي الأكثر قسوة، عندما يبتسم الحظ له.

ولذلك أرسل إلى جميع أساقفة انكلترا يأمرهم بكل دقة، بأن يقوم كل واحد منهم بوضع ختمه على صك الضريبة المقيت، الذي عمله الملك جون، صاحب الذكرى غير السعيدة، دون أن يعبأ بمعارضة ستيفن، رئيس أساقفة كانتربري، في سبيل أنهم عندما يفعلون ذلك، يمكنه تثبيت هذا الصك وجعله أبدياً، وهذا، يالأسف ماقد فعله الأساقفة من خلال الخوف، بعدما صاروا ضعفاء كثيراً، مما سبب ضرراً هائلاً للملك وللمملكة، ولدى سماع الملك بهذا، ثارت ثائرتة، وغضب غضباً شديداً، وأقسم أنه، مع أن الأساقفة قد خضعوا بشكل مهين، إنه سوف يقف بشجاعة للدفاع عن امتيازات المملكة، وأنه مادام على قيد الحياة، لن يدفع أية ضريبة للبلاط الروماني، تحت اسم جزية، وكان فولك أسقف لندن، آخرواحد أعار نفسه لهذه الخطة الشريرة، فوضع ختمه على هذا الصك، ولذلك استحق ملامة أقل من الآخرين.

وبالطريقة نفسها، ومن أجل تثبيت أفضل لقرار الخلع، الذي صدر ضد الامبراطور فردريك، وفي سبيل إقامة ذكرى دائمة للواقعة، قام جميع الأساقفة بوضع أختامهم على صك كبير متعلقاً بالأمر نفسه، كان قد جرى نسخه كلمة كلمة من الصك المختوم بالختم البابوي.

ثم إن المجمع ارفض، وعاد الذين كانوا قد اجتمعوا هناك مع المباركة إلى أوطانهم، باستثناء الذين احتجزوا بسبب عمل خاص، كان البابا قد أخره حتى مابعد انتهاء المجمع.

الوصاية البابوية على هيئة رهبان السسترشيان

بينما كان جيشان العالم يحدث هذه الوقائع معه ويستدرجها، قام رعاة دير السسترشيان من مختلف البلدان، كما هي عاداتهم، لدى اقتراب عيد تمجيد الصليب، بالقدوم على شكل حشود لحضور اجتماع هيئتهم الرهبانية، وعندما التقوا جميعاً، تلقوا رسالة من البابا، كان محتواها كما يلي:

«نحن نود أن نعلم أخوتكم، بأن الكنيسة هي في وضع مرعب كثيراً وهي بحاجة إلى صلواتكم المستعجلة بشكل أكثر ديمومة، لوجود أزمة حالية تهدد جميع المسيحية بطريقة مخيفة، ولذلك لن نزعج أنفسنا باستخدام السيف الفولاذي ضد الامبراطور الروماني فردريك، ذلك العدو القوي والعنيد لكنيسة المسيح، بل سوف نستخدم السيف الروحي فقط، وأفواه الذين يتكلمون بالشر قد أغلقت، ونحن نرجوكم، أن لاتدعوا الجهلة النقاد، والرجال الذين بلاصدق، يقنعونكم بالظن أن هذا الحكم الذي صدر من قبلنا ضد فردريك المذكور كردة فعل، ومن دون مداولات ومشاورات طويلة مع إخواننا، ومع كثير آخر من الرجال المتعلمين، لأنني لاأذكر وجود أية قضية أخرى مثلها قد نوقشت بمثل هذا الاتساع والمواظبة، أو وزنت بدقة في عقول الناس البارعين والمقدسين، وبلغ الأمر حداً أننا أثناء مؤتمراتنا السرية تولى واحد من اخواننا وظيفة المحامي عنه، وقام آخرون من جهة أخرى بالإدعاء ضده، في سبيل أنه بوساطة الإدعاء والردود الصادرة عن الإدعاء وعن الدفاع — كما هي العادة في المدارس — يمكن لحقيقة القضية أن تظهر من على الجانبين من الأعماق، غير أننا لم نستطع، من دون إيذاء للرب، واغضاب له بشكل جاد، ومن دون الاضرار بالكنيسة، أو من دون جرح ضمائرنا، أن نجد أية وسيلة أخرى،

غير الإجراءات التي اتخذناها، وإن كنا مكرهين، وقد أسفنا كثيراً لشقاء المذنب المذكور، وإننا بناء عليه، قد استعدينا، من أجل هذه القضية، أن نقف ثابتين حتى الموت، وفيها ومن أجلها جميع إخواننا، ونحن كذلك، على استعداد للموت، وأن نقاتل من دون وهن لصالح الرب ولصالح كنيسته».

وقد جرى نشر هذه الرسالة كاملة بين الهيئة الرهبانية كلها، وبين الرهبان بشكل عام، حيث تخلوا عن الوقوف إلى جانب الامبراطور، ومالوا بشكل رائع إلى جانب البابا، وصلّوا إلى الرب أن لا يعرض كنيسته للمعاناة بأية طريقة من الطرق، وهي الكنيسة التي أسسها على صخرة ثابتة، ولكي لا تسقط بشكل أبدي، مع أنها كانت تترنح آنذاك بعض الشيء.

حول الإجراءات التي تمت في غانوك أثناء إقامة الملك هناك

وفي الوقت نفسه، كان قد مضى الآن على إقامة الملك، قرابة الشهرين، على الحدود الدنيا لويلز، قرب نهر يجري بين جبال سنودون Snowdon، حيث انشغل في بناء قلعة، كانت لاترام بأسوارها وموقعها، وفي ٢٤- ايلول، رغب واحد من نبلاء الجيش، أن يخبر رفاقه، الذين كانوا قلقين حول هذه القضية، فكتب إليهم كما يلي:

«صحة: صاحب الجلالة الملك مقيم مع جيشه في غانوك Gannock، من أجل تحصين القلعة التي بناها الآن، في موقع قوي جداً هناك، ونحن مقيمون هناك في الخيام، منشغلون بالحراسة والسهر، والصوم، والصلاة، ووسط برد، وعري، وأثناء الحراسة نفعل ذلك خلال الخوف من أن يقوم الويلزيون بمهاجمتنا فجأة أثناء الليل، وأما الصوم فنقوم به بسبب النقص بالمؤن، لأن ربع الرغيف يكلف الآن خمسة بنسات، وأما الصلوات فنؤديها من أجل أن نعود إلى الوطن فوراً ومن دون أذى، ونحن مضغوط علينا

بالبرد وبالعري، لأن بيوتنا من الخيش، ونحن من دون ملابس للشتاء، وهناك ذراع قصير للبحر، فيه تيار للمد والجزر تحت القلعة المذكورة، حيث نحن مقيمون، ويشكل ذلك نوعاً من الموانئ، إليه تقدم أثناء إقامتنا سفن من إيرلندا، وشيستر جالبة الامدادات، وذراع البحر هذا قائم بيننا وبين سنودون، حيث معسكر الويلزيين أنفسهم، وهو لدى ارتفاع التيار حوالي رمية سهم بالعرض، وفي يوم الاثنين التالي قبل عيد القديس ميكايل، جاءت سفينة من إيرلندا، تحمل مؤناً للبيع لنا، وعندما كانت قادمة نحو مدخل الميناء، جرى توجيهها من دون حذر، أثناء تراجع البحر، فبقيت على القاع تحت قلعتنا المذكورة، لكن على الطرف المقابل، نحو الويلزيين، الذين اندفعوا على الفور، وقاموا بالهجوم عليها بحكم وقوفها على أرض جافة، وبناء عليه، لدى رؤيتنا لهذا الإجراء من الطرف على هذا الجانب، أرسلنا ثلاثمائة ويلزي من رجال حدودنا من شيشاير Che-shire ومن شروپشاير Shropshire، وذلك عبر الماء في قوارب، ومعهم بعض رماة القسي الزيارة، من أجل حماية السفينة المذكورة، ولدى رؤية الويلزيين لذلك، تراجعوا مسرعين إلى مخابئهم المعتادة والمعروفة جيداً في الجبال والغابات، وطاردهم فرساننا ومعهم أتباعهم لمسافة فرسخين، ومع أنهم كانوا على أقدامهم (لأنهم لم يجلبوا خيولهم عبر الماء معهم) فقد جرحوا وقتلوا كثيراً من الويلزيين، ثم عاد شعبنا بعدما هزموا أعداءهم، ومثلهم مثل أناس جشعين ومحتاجين، انشغلوا بالنهب ونشروا النار والسلب، خلال المنطقة، على الجانب الآخر من الماء، وكان من بين الأعمال الدنسة التي اقترفوها، قيامهم من دون احترام بنهب دير لطائفة السسترشيان اسمه أبيركونوي Aberconway، وسلبوه من كل مقتنياته حتى كؤوس القربان والكتب، وأحرقوا الأبنية العائدة له، وفي الوقت نفسه، حشد الويلزيون حشداً كبيراً من أبناء جلدتهم، واندفعوا بشكل مفاجئ، وبأصوات مرتفعة على رجالنا المحملين بالأسلاب، التي حصلوا عليها بأكثر الأساليب شراً، وكانوا محاقين بذنوبهم، وأرغموهم

على الفرار، وجرحوا وقتلوا الكثيرين وهم يتراجعون نحو السفينة، واختار بعض رجالنا الوثوق بالأمواج، ومن ثم الموت غرقاً، وآثروا ذلك على أن يقتلوا وفقاً لإرادة أعدائهم، فألقوا بأنفسهم طوعاً ويارادتهم بين الأمواج، وهناك هلكوا، وأسروا بعض فرساننا وهم أحياء، فسجنوهم، لكن عندما سمعوا بأننا قتلنا بعض نبلائهم، وفوق الجميع نافث Naveth ابن أودو، وكان شاباً وسيماً وشجاعاً، ولذلك شنقوا هناك بعض فرساننا، وقطعوا بعد ذلك رؤوسهم، وشوهوهم بشكل مخيف، ومزقوا أخيراً أجسادهم التعيسة، وقطعوا أطرافهم طرفاً طرفاً، ورموهم في الماء، انتقاماً من جشعهم الشرير، حيث أنهم لم يوفروا الكنيسة، ولا سبياً واحدة كانت عائدة إلى الرهبان.

وسقط هناك في هذا الصراع من جانبنا بعض الفرسان من حاشية رتشارد إيرل أوف كورنول، وهم: ألان بوسسل Buscel، وآدم دي مويا Moia، واللورد غيوفري ستورمي Sturmy ورابع هو ريموند، وكان غسكونياً من رمة القوس الزيار، وكان الملك غالباً ما يستخدمه في المباريات الرياضية، وجرى مقتل حوالي المائة من الأتباع، وذلك إلى جانب الذي غرقوا، والعدد نفسه من الويلزيين أو أكثر، وفي الوقت نفسه تولى وولتر بيسيت Bissett، الذي كان على ظهر السفينة مع أتباعه، الدفاع عنها بشجاعة، وانخرط بقتال مستمر مع الويلزيين حتى منتصف الليل، الذين هاجموا بشدة من جميع الجوانب، ولولا أن رجالنا اتخذوا من أطراف السفينة جداراً، لسقطوا جميعاً في أيدي العدو، وأخيراً عندما بدأت مياه البحر بالارتفاع، شرعت السفينة بالتحرك، وعندما صارت الآن بعيدة المنال، انسحب الويلزيون، وهم آسفون لأن رجالنا قد جرى انتزاعهم من بين أيديهم وكان على ظهر هذه السفينة ستين برميلاً من الخمر، بالإضافة إلى مؤن كثيرة متشوق إليها وكان بعضها موسمياً، كنا منها محرومين منذ وقت، وعندما جاء الصباح، وتراجع التيار، رجع

الويلزيون مع البهجة، ظانين أنهم سوف يعتقلون رجالنا في السفينة، لكن بعون من الرب وتدير، كانوا قد تمكنوا أثناء الليل، عندما كان التيار عالياً، من النجاة إلينا بوساطة قواربنا، وكان ذلك قبل وصول الويلزيين، تاركين السفينة لوحدها، ووصل الويلزيون على كل حال، ونقلوا منها كل الخمر تقريباً، والأشياء الأخرى التي كانت على ظهرها، وتركوها لدى ارتفاع التيار، وقد ألقوا النار بالسفينة، التي أهلكت شطراً منها، وجرى على كل حال انقاذ الشطر الآخر، الذي كان فيه سبعة براميل، وقد تمكنوا من سحبها إلى الشاطئ القريب.

ومع استمرارنا بالبقاء هناك مع الجيش، كنا في حاجة كبيرة لكثير من الأشياء، ولذلك غالباً ما قمنا بغارات مسلحة، وعرضنا أنفسنا لكثير من المخاطر العظيمة، من أجل أن نحصل لأنفسنا على الضروريات، وكنا نواجه كثيراً من الكمائن المتنوعة، ونتصدى لحملات من الويلزيين، وغالباً ما عانينا من تقلبات حظ الحرب، وألحقنا أضراراً بهم، فبعد إحدى المناوشات، أحضرنا معنا، ونحن منتصرون، إلى معسكرنا حوالي مائة رأس مقطوعة من الويلزيين، وفي ذلك الوقت كانت هناك ندرة في المؤن، وحاجة كبيرة إلى جميع الضروريات، ولذلك عانينا من خسائر لاتعوض في كل من الرجال والخيول، وجاء وقت في الحقيقة لم يوجد فيه خمرة في بيت الملك، لابل في الحقيقة في الجيش كله، باستثناء برميل واحد فقط، وصار المقياس الواحد من القمح يكلف عشرين شلناً، وثور مرعى ثلاثة ماركات أو أربعة، ويبيع الدجاجة بثمانية بنسات، ونتيجة لذلك تلاشى الرجال وتلاشت الخيول، وهلك كثيرون من الحاجة».

قدوم البابا للاجتماع مع الملك الفرنسي في كلوني

وفي تلك الآونة نفسها من العام، ذهب البابا إلى كلوني، بناء على دعوة من الملك الفرنسي، الذي رغب بالاجتماع والتحادث معه، ولم يسمح لقداسته بالتوغل أكثر في فرنسا، وفي حوالي عيد القديس أندرو، قدم الملك

الفرنسي إليه ليلتيه هناك، وكان ذلك بعدما انتظره، لمدة خمسة عشر يوماً، وعقداً هناك اجتماعاً سرياً لمدة سبعة أيام، ولم يطلع أحد على أسرار القضايا إلاّ هم: أي البابا، والمملك الفرنسي، وأمه السيدة بلانشي، ومن المعتقد من دون شك أنهم تداولوا حول ترتيب سلام بين الكنيسة والامبراطورية، وحول الطريقة التي يمكن بواسطتها تحقيق مصالحة مشرفة، وكان الملك الفرنسي قد توصل إلى قرار ثابت، بالانطلاق إلى القدس مع كثير من النبلاء الفرنسيين والمقدمين، الذين حملوا الآن الصليب، لصالح كل من الرب والمملك، وكان لا يمكنهم الارتحال بالبحر—مالم تتم تهدئة الامبراطور، ومصالحته تماماً مع الكنيسة—أو خلال أراضيها، دون التعرض لمخاطر عظيمة، تلحق بالمسيحية كلها، لابل حتى إذا استطاعوا فعل ذلك، إنه لن يكون من الموائم القتال في سبيل المسيح في الأرض المقدسة، في حين تركوا خلفهم، في بلد مسيحي مثل ذلك الصراع المؤذي والمضر بين شخصين لهما مثل هاتين المرتبتين العاليتين، ومرة أخرى كان من المعتقد أنهم كانوا يعالجون مسألة إعادة تأسيس السلام بين ملكي فرنسا وانكلترا، أو على الأقل إطالة الهدنة، في سبيل أن يتمكن الملك الفرنسي من المضي في حجه في ظل أمان أعظم، وفي نهاية هذا الاجتماع، وعندما كان الملك الفرنسي على وشك المغادرة، عيّن يوماً هو في اسبوعي الفصح من أجل مؤتمر مع قداسته، ينبغي أن يضمن حضور الامبراطور فردريك فيه.

وذهب الملك الفرنسي من هذا المكان، إلى مدينة ماكون Macon، وهي مدينة سقطت هذا العام مع المقاطعة كلها تحت سلطته وحكمه وفق الطريقة التالية: عندما آل ذلك الميراث لأن تتملكه كونتسه ماكون، قامت على الفور بإرسال رسالة إلى الملك، بأن لديها الرغبة في بيعه جميع الحق الذي لها في المدينة المذكورة والمقاطعة، في سبيل ارتداء الزي الرهباني، ووافق الملك الفرنسي على هذا العرض، واشترى المنطقة مقابل مبلغ كبير من المال، أنفقته الكونتسه كله لصالح الفقراء، وعلى أعمال تقوية أخرى،

ومالبت أن لبست الزي الرهباني، في دير للسيدات كانت السيدة بلانشي قد أسسته في بونتوي Pontoise، وبذلك خلفت وراءها ذكرى كانت مثلاً في التواضع إلى جميع الأجيال، ولكل النبلاء، وبشكل خاص إلى النساء.

موت ريموند كونت بروفانس

وسدّد في قرابة الوقت نفسه، ريموند كونت بروفانس دين الطبيعة، وكان رجلاً مشهوراً ومتميزاً، ذلك أنه تقلب على دولاب الحظ بشكل مدهش، وهو الذي كان مصدراً غير اعتيادي مدهشاً إلى جميع الأجيال في الجمال الفائق لبناته، التي إلى الصغرى منهن، ترك في كلماته الأخيرة، كونتيته، أي كونتية بروفانس بمثابة أعطية، لكن عندما سمع الملك الفرنسي بهذا أرسل خمسمائة من الفرسان النخبة، مزودين بالأسلحة وبال حاجات الضرورية الأخرى، ليتولوا الاستيلاء على كونتية بروفانس المتقدمة الذكر، بسبب أن الابنة الكبرى للكونت المتوفى أخيراً، كانت زوجته، كما تقدم ذكر ذلك، ذلك أنه عدّ الوصية المتقدم ذكرها للكونت ريموند باطلة وفارغة لأنها غير قانونية، ولدى سماع ملك انكلترا بوفاة الكونت، حركته مشاعر عواطفه لعمل مآتم جنائزي بأبهة عظيمة، وسط صدقات وافرة، وصلوات مخلصية، وشموع مضاءة، وأجراس تقرر، وبكل دقة منع في الوقت نفسه كل واحد من إعلان خبر هذا الحادث إلى زوجته الملكة، خشية أن يقهرها الأسى.

استيلاء المصريين على مدينة دمشق

في هذا العام، وفي الآونة التي تلت حلول عيد القديس ميكايل، جرى الاستيلاء على مدينة دمشق، التي — كما قيل — كانت المدينة الرئيسية في سورية في العصور القديمة، وانتزاعها من الصليبيين، مما ألحق بهم أضراراً جسيمة واضطراباً عظيماً، وجاء الاستيلاء عليها من قبل المصريين الكفار.

الخونة، وأعوانهم الخوارزمية، الذين كانوا الأعظم عداوة للاسم المسيحي، لأن هذه المدينة، وإن كانت مصبوغة بعقيدة محمد (صلى الله عليه وسلم)، كانت متحالفة مع الصليبيين، ولم تكن تؤذي أحداً منهم، وكانت نافعة جداً لهم وموائمة، من خلال التجارات المتبادلة والعلاقات القائمة فيما بينهم، لكن الآن، بعدما كانت مدينة صديقة، تحولت إلى مدينة غير صديقة تماماً، والأكثر عدوانية لهم، فقد جرى طرد سلطانها منها، وبصعوبة وجد مكاناً آمناً يتخبأ فيه في الأجزاء الشرقية من البلاد، وفي الوقت نفسه، أصبحت المدينة مع كل ما أحاط بها من جميع الأطراف خاضعة للمصريين وللخوارزمية.

عزم الملك الإنكليزي على العودة إلى إنكلترا بعد نهبه للمنطقة المعروفة بإسم أنغليزيا في ويلز

وفي اليوم التالي لعيد الرسولين: سمعان، وجود، كان الملك غير قادر، وغير راغب بالإقامة مدة أطول في غانوك، بسبب نقص المؤن، واقترب حلول الشتاء، وجاء ذلك بعد إقامته هناك لمدة تقارب العشرة أسابيع، حيث قام بتحسين قلعته غانوك التي تقدم ذكرها، والتي كان قد بناها، وبعدها شحنها، أعدّ العدة للعودة إلى إنكلترا، في سبيل أن يسترد هو صحته وكذلك جيشه، وكان الآن قانعاً تماماً بأن أعداءه الويلزيين قد لحقهم دمار لا يمكن تعويضه، لأنه لدى وصوله قام الايرلنديون باجتياح أنغليزيا Anglezea كلها وهي المنطقة التي كانت المأوى ومكان الالتجاء للويلزيين، وقام قبل مغادرته بوضع السيف فيما بقي هناك بشكل وحشي، وحول إلى رماد كل إنسان وكل شيء، إلى حد أن المنطقة كلها، بدت وكأنها منطقة واسعة مهجورة، وصحراء غير مزروعة، كما أنه أمر بملاً آبار الملح في ويتز Witz وتدميرها، وفي سبيل أن لا يحصل الويلزيون على المؤن من المقاطعات المجاورة، كما اعتادوا أن يفعلوا، حتى في أيام الحرب، إما عن طريق الشراء، أو النهب، أو من خلال الصدقات،

أو القرايات، أو العلاقات، وتسبب بجعل سكان تلك المنطقة مع الذين خاضعين لهم يعانون من الفقر، ومحرومين بشكل خاص من الطعام، إلى حد أن المجاعة سيطرت على شيشاير Cheshire والمناطق المجاورة لها، حتى وصلت إلى درجة أن السكان لم يبق لديهم ما يكفي لإطالة البقاء التعيش، كما أنه منع تحت طائلة عقوبة الموت وفقدان الممتلكات، جلب أي مؤن إليهم، أو السماح بجلبها من أجل البيع، من قبل الانكليز، أو من المناطق الايرلندية، وكانت قلعة غانوك هذه، مشحونة أيضاً بالرجال، وبالمؤن، وبآلات الحرب والأسلحة، وصارت بالفعل بمثابة شوكة في أعين الأثقياء الويلزيين، لابل أكثر الناس شقاء، حيث لم يعد بإمكانهم العبور إلى انكلترا، من دون اعتراض من قبل رجال القلعة، الذي كانوا، بناء على أوامر الملك، مطاعين من قبل جميع المنطقة، ولم يعد بإمكان الويلزيين الإقامة في منطقتهم بسبب الحاجة.

مغادرة الملك غانوك بعد تحصين القلعة هناك

وبعدما تمكن الملك من حلّ جميع القضايا بشكل حكيم، رجع إلى انكلترا بأمان، وهو متوج بحسن الحظ، باستثناء أن سمعة أخيه، الايرل رتشارد، قد أظلمت إلى درجات عظيمة في هذه الحملة، وأخذت التقارير السيئة تنتشر حوله، فلقد ذكر في كل مكان، وفي كل من الجيش، وفي جميع أرجاء المملكة، بأن الايرل المذكور، قام بسبب استجابته العاطفية، وبسبب القرابة، لكن لإهانة الملك، وخسارته وضرره، فأعطى ابن اخته داود النصيحة، وأبدى نحوه كثيراً من الصداقة، أكثر مما ينبغي، ومما هو لائق، وتولى في إحدى المرات بشكل سري رعاية داود المذكور، عندما كان مرهقاً، متأدياً، وفي وضع صحي سيء، في قلعة تينتايلول Tintaiol، حتى يتمكن من استرداد صحته، وعندما شفي، قام بقوة أعظم ضد الملك، كما أنه رفع من شأن قضية المذكور بمشورته ومساعدته، لأن الملك رفض بمبادرة من الملكة، أن يمنحه شيستر مع المراتب الشرفية المرتبطة بها، وكان

ذلك عندما طلبها منه، ولقد قيل أيضاً، أن ذلك كان عندما قوبل بالرفض من الملك، من خلال تدخل الملكة عندما سألت منحه غسكوني، وغادر من عند الملك وهو مغضب، مع تهديدات غير معتادة في بوردو.

وينبغي — على كل حال — عدم تصديق هذه التأكيدات، لأن الملك عندما كان في حاجة إلى المال من أجل بناء القلعة في غانوك، وفي سبيل دعم الجيش، تحرك الايرل المذكور بعاطفته الأخوية، وأقرضه بكل كرم ثلاثة آلاف مارك، بضمانة مجوهراته، وبذلك أغلق فم المتكلمين بالشر، ثم عاد الملك من ويلز مع اقتراب حلول الشتاء، وبدأ زحفه في اليوم التالي لعيد القديسين سمعان وجود، في سبيل أن يتمكن — كما ذكرنا من قبل — هو وكذلك جيشه المنهك كثيراً، من استرداد أنفاسه، لكن مع نية العودة إلى العمل نفسه، بعد عبور حدة الشتاء.

وعلى هذا فإن الويلزيين التعساء، كانوا عندما حلت مصائب الشتاء عليهم، قد عسفت الحاجة بهم في جميع الأشكال، فقد كانوا بلا بيوت، ومحرومين من جميع أنواع المؤن، ولم يكن لديهم أدنى أمل في تحسن أوضاعهم، لأن أراضيهم بقيت غير مزروعة، ومتعفنة بإرادتهم، وهكذا كانوا مقهورين بالجوع وبالبرد، وبيأس عقلي وجسدي، ولذلك أخذوا يتلاشون ويموتون.

خلع موريس من الاشراف على القضاء في إيرلندا

وقام الملك بخلع موريس — الذي كان مشرفاً على القضاء في إيرلندا — من منصبه، لأنه كان غاضباً عليه كثيراً، ومنزعجاً منه، لأنه كان بطيئاً جداً في القدوم إلى مساعدته، لدى توفر رياح طيبة لديه حسبما رغب، وعيّن في مكانه وفوض جون فتر — غيوفري، وتحمل موريس بصبر هذا كله، بسبب أنه منذ أن مات ابنه، ازدري جميع أمجاد ومراتب هذا العالم.

إرسال نائب بابوي إلى فرنسا لرفع شأن القضية الصليبية

وفي العام نفسه، وبناء على طلب ملك فرنسا، الذي أعاده الرب إلى الصحة، وكأنها كانت مع روح جديدة، وبعدما كان قد حمل شارة الصليب، جرى إرسال نائب بابوي إلى فرنسا من قبل البابا، من أجل العمل بشكل مؤثر أكثر، على رفع شأن القضية الصليبية بتبشيره.

وفي حوالي الوقت نفسه، قدم أسقف بيروت، الذي تقدم ذكره مع أ. A، الذي كان واحداً من الرهبان الدومينيكان، من الأرض المقدسة، إلى انكلترا، وبعد إخبار الملك بالأحوال المأساوية في الأرض المقدسة ومعاناتها، رجاء إذا كان من الممكن أن يسمح له، برفع شأن القضية الصليبية في انكلترا عن طريق التبشير، ولدى تقديمها بهذا الطلب إلى الملك، وتثبيتاً لمصداقيتهما، أرياه صكاً كانا قد جلباه معهما من الأرض المقدسة، وغفراناً كانا قد جلباه من بلاط روما، ولدى عرض هذا الغفران، قال الملك:

«مع أنكما قد تكونا صادقين، ورسولين قادرين، مع ذلك، لقد خدعنا مراراً من قبل البلاط الروماني، من خلال نوابه البابويين وقساوسته، الذين أرسلوا مثل هذا العمل نفسه، والذين شغلوا أنفسهم فقط في استخراج المال، لذلك سوف من النادر أن تجدنا من يضع ثقته بكما»، وفي سبيل أن ينالا حظوة الملك، ذهبنا إلى القول، بأن جميع نبلاء فرنسا تقريباً قد حملوا الصليب، فقال الملك:

«لقد حمل ملك فرنسا الصليب، وإذا كانت رعيته قد تبعته، ما هو العجب في ذلك؟ إنني محاط بأعدائي، وملك فرنسا موضع ريبة لدي، وملك سكوتلندا أكثر منه، وأمير ويلز في وضع عدائي مكشوف ضدي، والبابا يحمي الذين يشورون ضدي، ولذلك إنني لا أرغب في إفراغ أراضي من جنودها، ومن أموالها، حتى لا تكون مجردة من

قوتها»، وعند ذلك فقد الأسقف والراهب جميع آمالهما، وغادرا.

راعي دير كلوني يستخرج العشور من رئاسات رهبانه

وفي تلك الآونة، عندما كان البابا ضعيفاً في دير كلوني، وقبل مغادرته من ذلك المكان، ليطلب اللجوء في ليون، حصل منه راعي دير كلوني على إجازة وتصريح، باستخراج العشور لعام واحد، من جميع الرهبان، في ذلك المكان، وجرى منح هذا لسبيين، هما: أن الراعي المذكور كان قد قدم هدايا فخمة إلى البابا عندما كان في المنفى وقادماً إلى مناطق ماوراء الألب (لأنه كان قد أعطاه ثلاثين مهراً مجهزين بشكل جيد، والعدد نفسه من خيول التحميل)، ولأنه استقبله بشكل فخم وكريم، واستضافه ورعاه لقربة العام، وكان هذا العشور سوف يتسلمه من جميع الأعضاء، دون الاهتمام باعتراض أي شخص عادل، ومن هذا المال كان البابا سيتسلم ثلاثة آلاف مارك، وسيعطي البقية لسداد دين كنيسة كلوني، المعروف أنها تحملته في سبيل تقديم قضية الكنيسة الرومانية، وقد عمل البابا هذه المنحة إلى راعي الدير، حتى يتمكن من أن يتخذ نفسه رباطاً عريضاً من جلده.

كيف حمل عدد من النبلاء شارة الصليب

ومباشرة شق الملك الفرنسي الطريق، وضرب المثل، وكأنه حامل الراية، ولذلك حمل عدد من النبلاء الفرنسيين الصليب، وكان من بين هؤلاء روبرت، وكونت أرتوي Artois، ودوق بيرغندي، ودوق برابانت، وكونتيسة فلاندرز مع ولديها، وبطرس كونت بريتاني، وابنه ج. ل. كونت بريتاني، وكونت بار، وكونتات: سواسون، والقديس بولص، ودروكس، وريشيل، وفيليب دي كورتني، وولتر دي جويني Joigny، وجايلز دي ميلي Maily، ومحامي بيثون Bethune، وعدد كبير آخر من النبلاء، الذين تزايد تعدادهم يومياً، بحمل الملك شخصياً أعباء التبشير، ودعوتهم إلى ذلك، ونهض بعض الأساقفة بالحماس نفقه في

سبيل أن يضربوا مثلاً تقوياً للعلمانيين، فحملوا شارة الصليب على أكتافهم، للانتقام لقضية المسيح، وكان من بين هؤلاء رئيس أساقفة الريمز، ورئيس أساقفة السين، ورئيس أساقفة بورجي Bourges، وأسقف لون Laon، وأسقف بوفوا Beauvais، وعدد كبير آخر، دعاهم المسيح يومياً، وأغراهم بالدخول في خدمته.

رواية بأن المسلمين قد سمموا الورق

ولدى سماع المسلمين بهذه الإجراءات قاموا بكثير من الترتيبات من أجل الدفاع، وأبدعوا خططاً شريرة، فقد قاموا بتسميم الورق، الذي عرفوا أنه سوف يرسل إلى البلدان المسيحية، ونتيجة لذلك، فإن عدداً كبيراً من الناس في فرنسا — وكانوا على غير دراية بهذا الفعل الشرير — قد قتلوا، لكن مالبث أن تم اكتشاف ذلك، فجرى الإعلان بوساطة المنادين في المدن الرئيسية في فرنسا وانكلترا، من أجل تجنب هذا الخطر بحذر وعناية، وقال أشخاص آخرون، بأن التجار قد فعلوا ذلك من أجل بيع الورق القديم، والمخزون منذ زمن طويل، بشكل أحسن، وسعر أعلى.

تكريس رتشارد مستشار كنيسة إكستير لكرسي ذلك المكان

في حوالي هذا الوقت، أي في حوالي أول كانون الأول، جرى تكريس المعلم رتشارد، مستشار كنيسة إكستير Exeter، وكان رجلاً بلا ملامة، وصاحب أخلاق حميدة، وكان متعلماً، وجاء تكريسه أسقفاً لكنيسة إكستير، وكان ذلك في ردنغ.

وفاة وولتر إيرل مارشال

في الرابع من كانون الأول، في هذا العام، أو كما يقول آخرون، في الرابع والعشرين من تشرين الثاني، ذهب وولتر إيرل مارشال من طريق الجسد كله في لندن، وكان قد دفن في تينترن Tintern قرب سترينغويل Strigoil، حيث جرى دفن عدد من أجداده النبلاء.

موت أنسلم أخو المذكور أعلاه

وبعد ذلك بوقت قصير، وفي اليوم الثالث، قبل يوم عيد الميلاد، مات أنسلم، الأخ الأصغر التالي، المذكور أعلاه، وبما أنها معاً توفيا من دون أي أولاد، فإن ذلك الميراث الفخم قد توزع بطرق مختلفة، وآل إلى ملكية كثيرين، بسبب أخواتهما، اللتان إليهن آلت بشكل حاد.

شعارات النبالة التي وباللأسف انخفضت في إنكلتر

وهؤلاء هم

— المارشال

— إيرل شيستر

— إيرل آرونديل

— إيرل مانديفيل

— إيرل هنتنغدون

— دوبني Daubney

— هوغ دي لاسي (في إيرلاندا)

— كونت ريموند (في بروفانس)

— وليم أوف لانكستر

— أوسبرت غيفارد

— وولتر بن غيلبرت دي بوهون مع أخيه

— الاسكندر آرسيك Arsic

— روبرت أوف روبسلي Ropesly

- روبرت دي بورغيت Burgate
- روبرت دي تيرنهام Turnham
- وليم
- نيغولا
- يوستاس
- دي ستوتفيل Stuteville
- روجر دي مونتيغنت Montbegunt
- فيليب دي أولكوت Ulecote
- فولكس دي بروت Breute
- رتشارد بيرسي Percy
- هنري دي تربلفيل Trumbleville
- فيليب دوبني Daubeney
- رالف دي تربلفيل Trumbleville
- رتشارد دي رفرز Rivers
- رتشارد بن روبرت تشيلشام وابنه رتشارد أوف دوفر
- ايرل أوف وورويك Warwick

واقعة مدهشة تتعلق بـ و. W مارشال الكبير وأبنائه الخمسة

أصاب سوء حظ محزن ومبكي، لم يسمع بمثله من قبل، الأبناء الخمسة لـ و. W مارشال الكبير، الذين انتزعوا من بيننا — وفقاً لتسلسل تواريخ ميلادهم — من دون أولاد، في حين كان الازدهار مبتسماً لهم في وسط ممتلكاتهم، وفي بداية الحياة، وذلك تماشياً مع نبوءة أمهم، التي قالت

بأن: «كل واحد منهم سوف يكون ايرلاً لايرلية واحدة»، وصحيح أن أنسلم لم يكن ممنوحاً ايرلية، لكنها آلت إليه، وهكذا برهنت أنهم على أنها كاهنة متنبئة، وأنا لأعتقد على كل حال، بأن ذلك قد وقع من دون إلهام لاهوتي، وبما أن هذه الواقعة جديرة بالذكر، رأينا أن من المناسب اقحام رواية عنها في هذا الكتاب، فعندما كان وليم المتقدم ذكره —والذي كان محارباً وشجاعاً، ولقبه الـ Moreschal (أي قهرمان المريح)— مشغولاً بالقتل والنهب في ايرلندا، وكان يحصل على أراض واسعة، استولى بالاغتصاب والقوة، وانتزع من أسقف مقدس عزبتين، كانتا عائدتين إلى كنيسته، واستحوذ عليهما، وكأنهما ملك له بإدعاء عادل، لأنه حصل عليهما في الحرب، وقام الأسقف، بعد اصداره تحذيرات كثيرة له، التي ردّ عليها الايرل بعجرفة، واستمر في استحوازه على العزبتين المذكورتين، كما أنه تمسك بذنبه وأصر عليه بتمرد، قام منفجراً باصدار قرار الحرمان الكنسي ضده، وكان ذلك لسبب صحيح، لكن الايرل استخف بهذا، وادعى أن القرار صدر في أيام الحرب، ولذلك كدّس الأذى فوق الأذى، وبسبب هذه الإجراءات، قام واحد اسمه المعلم غيرفاس Gervase دي ميلكلي Melkeley بنظم شعر حوله، وتحدث وكأنه شخص الايرل قائلاً:

أنا في ايرلندا زحل، وفي انكلترا أشعة الشمس تحيط بي

وفي نورماندي أنا عطار، لكن في فرنسا، المريح إلى الأبد قد وجدني

ثم إن الايرل المذكور، احتفظ بهاتين العزبتين تحت سلطته طوال حياته، وقد مات بعد عدة سنوات، ودفن في المعبد الجديد في لندن، ووصلت أخبار هذه الواقعة إلى علم الأسقف المذكور (الذي كان أسقف فيرنى Fernes، وكان راهباً من طائفة السسترشيان، كما أنه كان ايرلندياً من حيث المولد، وكان رجلاً صاحب قداسة مدهشة) فقام بعد بذل جهد شخصي كبير، فذهب إلى الملك، الذي كان في ذلك الوقت مقيماً في لندن،

وتقدم بشكوى ثقيلة حول الأذى المتقدم ذكره، الذي اقترف بحقه، وأوضح أنه قام بحرمان الايرل المذكور كنسياً لهذا السبب، وهو سبب صحيح، ثم إنه توجه بالرجاء إلى الملك، أن يستخدم سلطاته الملكية، وفي سبيل تحرير روح الايرل وليم المذكور، فيعيد العزبتين إليه، فبذلك يمكن للميت أن يحصل على منفعة التحليل، وأسف الملك وتأثر كثيراً لدى سماعه هذا، وطلب من الأسقف الذهاب إلى قبر الايرل وتحليله، واعداداً بأنه شخصياً سوف ينظر في ترضية تقدم له، وبناء عليه ذهب الأسقف إلى القبر، وقام بحضور الملك مع أشخاص آخرين كثر، وتوجه بالحديث وكأنه يخاطب واحداً حياً في القبر، حيث قال:

«وليم، أنت الذي مدفون هنا، ومغلول بأغلال الحرمان الكنسي، إنه إذا ما جرت إعادة الممتلكات التي انتزعتها ظلماً من كنيسة مع ترضية كافية، بوساطة وكالة الملك، أو بوساطة وريثك، أو أي واحد من ورثتك، فإنني أحلك، وإذا كان الأمر غير ذلك، إنني أقوم بتأكيد القرار المذكور، حتى إذا ما ظلت متورطاً بذنوبك، فإنك سوف تبقى في جهنم، رجلاً مداناً إلى الأبد»، ولدى سماع الملك هذا بات غاضباً، وانتقد قسوة وعدم اعتدال الأسقف، وعلى هذا ردّ عليه الأسقف قائلاً: «لاتندهش يامولاي، إذا ما كنت منفعلاً، لأنه جرد كنيسة من أعظم منافعها»، ثم إن الملك تكلم بشكل سري مع وليم الابن الأكبر للايرل، ووريثه في كل ممتلكاته، وهو الذي تولى الآن الايرلية، وكذلك إلى بعض اخوته، ورجاهم بإعادة العزبتين المتقدم ذكرهما، اللتان انتزعتا منه بشكل غير عادل، وذلك في سبيل تحرير روح والدهم، وعلى هذا رد وليم قائلاً:

«إنني غير مصدق، كما ينبغي عليّ أن لأصدق، بأن والدي قد استولى عليهن خطأ، لأن الذي أخذ في وقت الحرب، أصبح ملكاً شرعياً، وإذا كان ذلك الأسقف العجوز والأحمق قد تفوه بالحكم بشكل غير عادل، من الممكن أن يقذف عائداً على رأسه، وإنني لاأختار انقاص الميراث الذي

عهد به إلى وتوليته، وقد مات والدي، وهو متملك لهاتين العزبتين، وقمت أنا، بموجب حق صحيح، بتملك الذي وجدته»، وعلى هذا القرار وافق جميع الإخوة، ولأن الملك كان في ذلك الوقت رجلاً صغير السن، ولأنه كان تحت الوصاية، ما كان له بأي حال من الأحوال أن يغضب مثل ذلك النبيل القوي، وعندما أصبح هذا معروفاً فيما بعد لدى الأسقف، ازداد حزنه بسبب تمرد الأولاد، وكان ذلك أكثر من الأذى الذي لحقه في المقام الأول من قبل الأب، ثم إنه ذهب إلى أمام الملك وقال له:

«إن الذي قد قلته، قد قلته، والذي قد كتبته كتبته بدون تراجع، وقرار العقوبة قد ثبت، والعقوبة نزلت من الرب على الفاعلين المجرمين، والجريمة التي جرى وصفها في المزمور قد فرضت بدرجة عالية على الأيرل وليم الذي منه اشتكت، ففي جيل واحد سوف يتم تدمير اسمه، وسوف يكون أولاده من دون نصيب في مباركة الرب، وسوف ذلك يزداد ويتضاعف، وسيموت بعضهم بوساطة ميتة مخزنة، وسيجري توزيع ميراثهم، وكل هذا يامولاي الملك سوف تراه أثناء حياتك، لابل في مطلع حياتك»، وبعد فراغه من هذا الخطاب بشكل مؤلم صادر عن القلب، وكأنه ألهم بروح نبوءة، غادر الأسقف وانصرف في اليوم التالي، وهكذا كان ذلك النبيل وليم مارشال الذي وضع ثقته واعتمد على الذراع الجسدي، قد ترك مغلولاً بأغلال التكفير، وكبرهان شاهد على هذه الواقعة، حدث فيما بعد، بعد وفاة أولاده، عندما جرى تكريس كنيسة المعبد الجديد، في سنة ١٢٠٠، تم العثور على جسد الأيرل المذكور على حاله، مخاط عليه بجلد ثور، وكان مهترئاً بشكل بشع أن تراه، ومقزراً للنفس، وتبع آخر الإخوة خطاه، وهو وولتر مارشال الذي بقي وحيداً، لأنه مع أنه قد وعد بشكل مؤكد - بقوة، بتقديم مورد مقداره ستة شلنات إلى دير القديسة مريم العائد إلى رهبان هارتفورد Hertford، وأعطى وعداً مكتوباً حول الموضوع نفسه، بسبب أن أخاه الأيرل غيلبرت

قد توفي هناك، وماتزال أمعاؤه مدفونة هناك، قد نسي عهده ووعدده، الذي عمله من أجل انقاذ أخيه، وبعدما تسبب بكثير من الازعاجات لرئيس رهبان الدير المذكور، برهن على نفسه بأنه مخادع ظاهر ومكشوف وعدواني.

كيف زحف الإمبراطور فردريك ضد الميلانيين

وكان البابا في هذه الآونة قد أقنع نبلاء ألمانيا، الذين إليهم يعود حق الانتخاب، ليقوموا بانتخاب امبراطور جديد عليهم، ووافق المقدم بينهم، وهو كونراد، رئيس أساقفة ثورنجا، في التركيز على اللاندغريف أوف ثورنجا، الذي رفض على كل حال، الاستجابة، أو القبول بمثل هذا العمل من التهور، حيث أنه كان راضياً بدوقيته، وفضل أن يتمتع بالسلام والأمان، على أن يثق بالمخاطر والمغامرات، واحتمالات الحرب، خاصة ضد الامبراطور فردريك، الذي غالباً ما جرب قدراته، والذي وجده مثل ثعلب مليئاً بالمكر، وقام البابا، على كل حال بتشجيعه، وحثه، ووعدده بالحماية، وبحماية الكنيسة العالمية، وأرسل الميلانيون أيضاً، والايطاليون المتحالون معهم، رسلهم الخاصين، وتوجهوا بالدعاء إلى حكمتهم الرزينة، ووعدوه بمساعدتهم الفعالة والمشورة في كل شيء، إذا ما وافق على هذا الانتخاب ليكون في مكان فردريك المذكور، الذي هو رجل مرتد، ومحروم كنسياً، ومخلوع، وواحد ممقوت من الرب ومن الكنيسة.

وعندما سمع الامبراطور فردريك بهذه الاجراءات، صرّ بأسنانه غضباً، وحزن لأنه رأى أعداءه يرفعون رؤوسهم معاداة له، ويكدسون الإهانة فوق الإهانة، والتهديد فوق التهديد ضده، وأملأ منه بأن يقوم بالانتقام كلياً، قام بتعبئة قواته، ولأنه كان عارفاً بتحركات أعدائه من قبل، قام بمكر بوضع كمين خلف عدوه، تحت قيادة ابنه هنري، ملك سردينيا، واستدرج الميلانيين إلى القتال، عندما كانوا على شك الانقضاض بطريقتهم المعتادة، وحمل الميلانيون متقدمين على شكل حشود غير عارفين بوجود الكمين،

واندفعوا غير هيايين، وبجراًة نحو الامبراطور فردريك، وتمركز ملك سردينيا بين الميلانيين وبين مدينتهم، وقاتلهم بحد السيف، حيث اقترب بينهم مذبحه كبيرة ومؤلة، وعندما نظر سكان ميلانو نحو الخلف، وشاهدوا طرق التراجع مقطوعة، والمنافذ إلى مدينتهم مغلقة، أصيبوا باليأس، وسقط عدد منهم قتلى، حيث أنهم تركوا — على كل حال — نصراً دموياً إلى الامبراطور، وسقط من على الطرفين عدد لا يحصى، ولدى سماع الناس بما حدث، بكوا بحزن عميق مثل هذا العدد الكبير من المسيحيين.

مقتل رئيس شماسة يورك في ردهة الكنيسة

وأثار في هذه الآونة واحد من كهنة يورك بالإهانة والملامة، غضب واحد من الفرسان فأقدم على قتله في ردهة الكنيسة، ولم يكن الفارس من أصل متواضع، وقد اعتقل وألقى به في السجن، حيث انتظر انزال العقوبة الجريمة.

سوء معاملة الفرنسيين للبواتيين

وأثناء هذا الوقت كله، أصبح البواتيون التعساء، الذي لا يستحقون الرحمة، لأن الخيانة مغروسة فيهم، ممقوتين في أعين الفرنسيين، إلى حد أنهم لم يتجرأوا، لابل لم يسمح لهم بإعطاء بناتهم بالزواج من دون إذن الفرنسيين، وبما أن السيادة عليهم كانت الآن بأيدي قوم يكرهونهم، سقطوا في أدنى الأوضاع وأسوأها، وعن استحقاق قطعوا ثمار طرائقهم، تحت نير العبودية المضاعف للمصريين، وقد أسفوا الآن لتسلمهم خيانياً تلك المبالغ الضخمة من الملكين، ولأنهم خدعوا وطرّدوا من أراضي سيدهم الطبيعي، الذي لأنه وجد اخلاصاً في أناس غير مخلصين، الذين في عطشهم للربح، سقطوا في المصيدة، أما قلاعهم التي كان من المفترض تدميرها بناء على إرادة أعدائهم، سمح لها مع صعوبات بالبقاء، بعد دفع مبلغ كبير، على شكل مال فدية، وجرى وضع حاميات فرنسية فيهن، لأنه:

سوف يبقى عبداً أبداً

الذي عقله للغنى يظل تواقاً

الإمتياز الذي حصل عليه أسقف لنكولن من البابا

وفي هذه الآونة، مع اقتراب الشتاء، كان روبرت أسقف لنكولن، مثل
اسماعيل لا يعرف الراحة، معارضاً لكثيرين، وهو نفسه معارضاً من قبل
كثيرين جداً، فبعد كثير من النفقات والاضطراب، حصل على طلبه ضد
الكهنة، حسبما ورد ذكر ذلك، في الرسالة التالية من البابا، الذي كافأه
ببعض الهدايا الثمينة:

«من أنوسنت، إلخ، إلى أخيه المحترم أسقف لنكولن، صحة ومباركات
رسولية: بين أشياء كثيرة غالباً ما تهاجم عقلنا —الذي هو غير جدير كما
نحن، الذين بقدر من الرب نرأس على إدارة وتدير الكنيسة العالمية— هذه
الظروف التي تضغط علينا أثناء تأملاتنا المتوالية، وهي أن الكنائس التي
هي مضطربة بالخلافات، ينبغي أن لاتنهار تحت النفقات التي جنتها منهن،
وأن نهاية موائمة ينبغي أن توضع لذلك، وذلك وفقاً لجهود الفرقاء، تكون
دائمة، ومن ذلك مسألة الخلاف الذي نشب بينك أنت شخصياً من جانب
وبين عميد وهيئة الكهنوت في لنكولن من الجانب الآخر، وذلك فيما يتعلق
بمراتبهم والامتياز العام العائد لهم ولأتباعهم ولبقية الكنائس، وكذلك
فيما يتعلق بالزيارات التفتيشية، وتقويم واصلاح الأخلاق، وكذلك
بالنسبة للعمداء، والكهنة ورجال الدين في جوقه المنشدين، وكذلك
بالنسبة للقساوسة، والوكلاء والخوانرة وكهنوت الكنائس المذكورة،
وأيضاً مايتعلق بالاحترام، والطاعة القانونية، التي ينبغي أن تقدم إليك من
قبلهم، وأيضاً مايتعلق ببعض المراتب الأخرى، وقضايا عائدة إلى المكتب
الأسقفي، وقمنا نحن بعد إرسال بعثات مختلفة إلى الجانب الأول ثم إلى
الجانب الآخر، فحصلنا من الكرسي الرسولي أمام القضاة، ونتيجة
لإ- راءات تمت من قبلهم، على الرغبة بوضع نهاية لتلك القضية، ولقد

إرتأينا أن من المناسب وضعها تحت إشرافنا، وبما أنك قد ظهرت أمامنا مع قسيس الفئة الأخرى، وجرى العرض من قبلك، أنه بموجب منقبة منصبك الأسقفي، متوجب عليك القيام —بحكم الامتياز العام— بزيارات تفتيشية للهيئة الكهنوتية لكنيسة لنكون، مع جميع الكنائس المرتبطة بها، مع التقدير لمراتبهم ولا امتيازاتهم العامة، وعليك تأدية هذه الواجبات العائدة إلى مكتب الزيارات التفتيشية، وفقاً لصيغة القانون، وبما أن الهيئة الكهنوتية وكذلك الكنائس هم بموجب الامتياز العام خاضعين لك، فأنت ملزم بتقويم أخطاء العميد، وكذلك الكهنة جميعاً، ورجال الدين في جوقة المنشدين، وأيضاً القساوسة، والنواب والحجاب، وكهنة الكنائس المتقدمة الذكر، وأن تقوم أخلاقهم، حتى لا يجري طلب دمهم على يديك، وأن تقوم أيضاً بفحص جميع قضايا الأشخاص المتقدم ذكرهم وتقريرها، وذلك عندما ينشب خلاف فيما بينهم أنفسهم، أو ضد أي واحد يتولى معارضة عملك الأسقفي، أو آخرين ضدهم، سواء أكانت القضايا مدنية أو جرمية، عائدة إليك بشكل صحيح وعادي، وعائدة بالوقت نفسه إلى القضاء اللاهوتي، ولقد قام العميد والهيئة الكهنوتية —على عكس مانقضييه العدالة— بمعارضتك في هذه القضايا، وهكذا لم يعد بإمكانك القيام بحرية، بتنفيذ الواجبات التي يتطلبها منصبك.

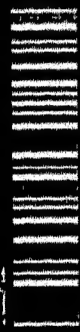
وعلاوة على ذلك، قد أضفت، أنه بحكم كونك رئيس كنيسة لنكون، من المتوجب طلب موافقتك، قبل القيام بانتخاب العميد لكنيسة لنكون، ومع ذلك فقد أكدوا من جانبهم أنهم يمتلكون الحرية، للقيام بإجراءات انتخاب العميد من دون طلب إذنك، وأنت طلبت اظهار العدالة بالنسبة لك حول هذه المسألة، ولقد قلت أيضاً أنه مع أن العميد لدى تربيته، وكذلك الكهنة عندما تضافى الكهنوتية عليهم، عليهم بموجب الحق، تأدية قسم قانوني بالطاعة إليك، هم لم يقوموا بهذا الاحترام المتوجب، ولم يزعموا أنفسهم حتى الآن للقيام بذلك، وعلاوة على ذلك لقد ادعيت، أنه

بموجب قانون الأسقفية، فإن عائلية العمادة، ومراتب الأوقاف الشاغرة، راجعة إليك بموجب الحق، ومع ذلك فإن العميد المتقدم ذكره، والهيئة الكهنوتية، قاموا معارضة منهم للعدالة، بمعارضتك في هذه القضايا، وبناء عليه طالبت بايضاح حقوقك في المسائل المتقدم ذكرها، وأن يجري تقويم ذلك بموجب قرار محدد، وأن يجري قبولك لمنصب الزيارات التفتيشية في الهيئة الكهنوتية في لنكولن، وفي الكنائس المرتبطة بها، مع تقدير للمراتب وللحقوق العامة، وأن يسمح لك باصلاح الأخطاء، وتقويم أخلاق جميع الفئات المتقدم ذكرها، دون الاهتمام بمعارضة العميد والكهنة، وأن يجري التفوه بقرار حول هذه القضايا، وأن يفرض الصمت عليهم إلى الأبد، ما لم يكن بإمكانهم بموجب امتياز من الكرسي الرسولي، أو بموجب حق خاص الدفاع عن أنفسهم ضد الاعتراض المتقدم ذكره.

وقد سألت أيضاً بأن يدفع لك قدر كاف من المال، يجري منحه لك بموجب الزيارة التفتيشية للهيئة الكهنوتية، وكذلك النفقات التي تتحملها في هذه الزيارات ينبغي أن تسدد إليك، وأنه كلما قدمت إلى كنيسة لنكولن، عليهم قرع أجراس الكنائس لك، وأن يظهروا الاحترام لك، بحكم كونك أبيهم، وكذلك لا ينبغي من الآن فصاعداً للعميد أن يرغم أي كاهن على أن يقسم يمين الطاعة الكهنوتية له، ما لم تكن المكانة الأسقفية وسلطاتها متوقعة، وأن لا يرغم أي كاهن أن يقسم على مراعاة أي من العادات التي هي مناقضة للمراسيم الكهنوتية، وأن لا يجوز له من الآن فصاعداً، أن يصدر في تلك الهيئة، أية مراسيم يمكن أن تكون متعارضة مع الأحكام، وضد السلطات الأسقفية ومرتبها.

ولقد طالبت أيضاً أنه بالنسبة للزيارات التفتيشية للأوقاف وللكنائس — مع التقدير لمراتبهم ولحقوقهم العامة — هي عائدة بموجب الحق إليك، وينبغي إرغام العميد بموجب قرار، على الاقلاع عن القيام بزيارات تفتيشية لهم، ولقد فند القسيس مع الآخرين من الفئة — على كل حال —

Библиотека Александрина



0414617